

مجالس النور

في تدبر القرآن الكريم وتفسيره

بمنهج عملي وترقيي جليل

المجلد الثالث

الشيخ الدكتور

محمد عبد الكريم السبيعي

راجعه ومحقق مسأله وخرج امارته

د. وليد الحسيني د. ابراهيم الانصاري د. محمد المصلح



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مَجَالِسُ النُّوَى

فِي تَذِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَفْسِيرِهِ

بِسَبْحِ عَمَلِي وَتَرْبِيَّتِي جَلِيلِ

لِلْجُلَدِ الثَّالِثِ

الشيخ الدكتور

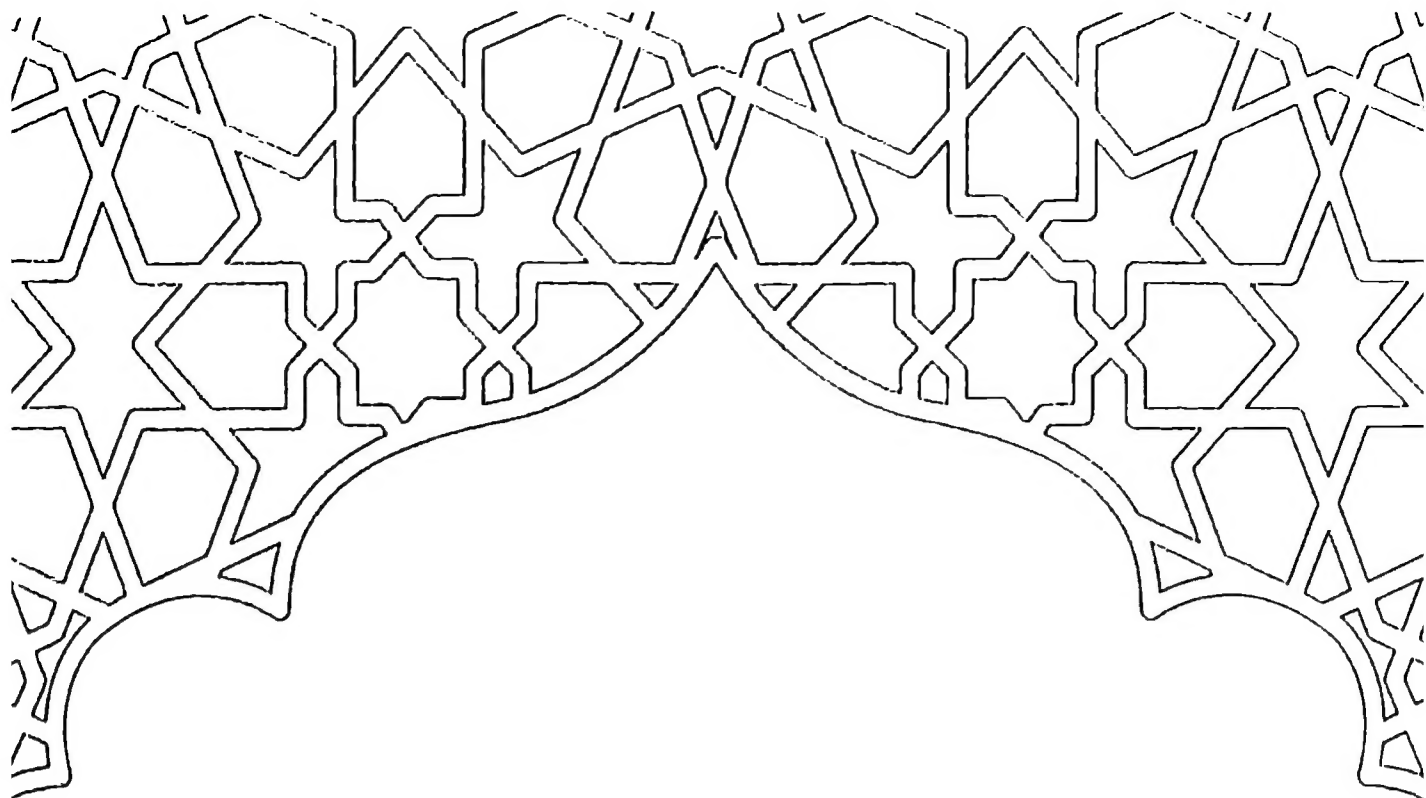
محمد عثيمين الكبيسي

راجعته وفق سائله وفرج أمارته

د. وليد الحسيني د. إبراهيم الأنصاري د. محمد المصليح



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

المجلد الثالث

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

١٠٣٣	ومضات من الدعوتين المحمدية والموسوية	المجلس السادس والستون بعد المائة
١٠٣٧	سليمان عليه السلام وتجربة الملك	المجلس السابع والستون بعد المائة
١٠٤٩	صالح ولوط عليه السلام	المجلس الثامن والستون بعد المائة
١٠٥٤	الإيمان بالله ﷻ	المجلس التاسع والستون بعد المائة
١٠٥٧	الإيمان باليوم الآخر	المجلس السبعون بعد المائة

سُورَةُ الْقَصَصِ

١٠٦٤	موسى عليه السلام الهدف الكبير والعناية الإلهية المبكرة	المجلس الحادي والسبعون بعد المائة
١٠٧٠	موسى عليه السلام بعد أن بلغ أشده	المجلس الثاني والسبعون بعد المائة
١٠٧٦	موسى عليه السلام والمهمة الكبيرة	المجلس الثالث والسبعون بعد المائة
١٠٨٢	الدعوة المحمدية	المجلس الرابع والسبعون بعد المائة
١٠٨٨	وعد المؤمنين ووعيد المكذبين	المجلس الخامس والسبعون بعد المائة
١٠٩٣	دروس من قصة قارون وتوجيهات ختامية	المجلس السادس والسبعون بعد المائة

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

١١٠١	فتنة الاختبار والتمحيص	المجلس السابع والسبعون بعد المائة
١١٠٥	ومضات من قصص النبيين ﷺ	المجلس الثامن والسبعون بعد المائة
١١١٣	حوار مع المخالفين والمكذبين	المجلس التاسع والسبعون بعد المائة
١١١٨	العاقبة والمصير المحتوم	المجلس الثمانون بعد المائة

سُورَةُ الرَّؤْفِ

١١٢٥	صراع الحق والباطل	المجلس الحادي والثمانون بعد المائة
١١٣٠	آيات الله في الكون والإنسان	المجلس الثاني والثمانون بعد المائة
١١٣٧	المنظومة القيمية لبناء الإنسان والمجتمع المسلم	المجلس الثالث والثمانون بعد المائة
١١٤٧	قصة الإنسان في حياته وعاقبة أمره	المجلس الرابع والثمانون بعد المائة

سُورَةُ الْقِيَامَاتِ

١١٥٢	المنظومة القيمية والتربوية	المجلس الخامس والثمانون بعد المائة
١١٦١	أهل الهداية وأهل الضلال	المجلس السادس والثمانون بعد المائة

سُورَةُ الشُّجُرَةِ

١١٦٨	حوار في مسائل العقيدة	المجلس السابع والثمانون بعد المائة
------	-----------------------	------------------------------------

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

١١٧٩	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم	المجلس الثامن والثمانون بعد المائة
١١٨٥	ولما رأى المؤمنون الأحزاب	المجلس التاسع والثمانون بعد المائة
١١٩٤	إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً	المجلس التسعون بعد المائة
١٢٠٦	وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله	المجلس الحادي والتسعون بعد المائة

سُورَةُ نَبَأِ

١٢١٥	عمارة الأرض وخرابها بمنظور إيماني ويُعد تاريخي	المجلس الثاني والتسعون بعد المائة
١٢٢٦	فقه الحوار	المجلس الثالث والتسعون بعد المائة

سُورَةُ قَاتِلِينَ

١٢٣٥	طريق الإيمان	المجلس الرابع والتسعون بعد المائة
١٢٤١	معايير التمايز والتفاضل بين الناس	المجلس الخامس والتسعون بعد المائة

سُورَةُ الْبُرْجِ

١٢٥٠	الدعوة إلى الله	المجلس السادس والتسعون بعد المائة
١٢٦٠	عقيدة البعث والجزاء	المجلس السابع والتسعون بعد المائة

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

١٢٦٨	حوار مع المشركين	المجلس الثامن والتسعون بعد المائة
١٢٧٧	ومضات من قصص النبيين	المجلس التاسع والتسعون بعد المائة
١٢٨٦	تتمة الحوار مع المشركين	المجلس المائتان

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٢٩٢	عناد المشركين	المجلس الأول بعد المائتين
١٢٩٦	ومضات من قصص النبيين	المجلس الثاني بعد المائتين
١٣٠٨	نهاية الحياة والمصير المحتوم	المجلس الثالث بعد المائتين

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٣١٤	الدين الخالص	المجلس الرابع بعد المائتين
١٣٢٤	التمييز بين الحق والباطل	المجلس الخامس بعد المائتين
١٣٣٢	أصحاب الجنة وأصحاب النار	المجلس السادس بعد المائتين

سُورَةُ غَاةٍ

١٣٣٧	الذين آمنوا والذين كفروا	المجلس السابع بعد المائتين
١٣٤٤	مؤمن آل فرعون	المجلس الثامن بعد المائتين
١٣٥٤	الذين يُجادلون في آيات الله	المجلس التاسع بعد المائتين
١٣٥٩	فاصبر إن وعد الله حق	المجلس العاشر بعد المائتين

سُورَةُ فَصَّلَاتِ

١٣٦٣	فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ	المجلس الحادي عشر بعد المائتين
------	--	--------------------------------

١٣٧٢	الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا	المجلس الثاني عشر بعد المائتين
------	-----------------------------------	--------------------------------

سُورَةُ الشُّورَى

١٣٨٢	الوحي الإلهي لمحمد وللأنبياء السابقين ﷺ	المجلس الثالث عشر بعد المائتين
١٣٨٨	الذين يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ وَيُكْفِرُونَ بِأَنْبِيََاءِ اللَّهِ	المجلس الرابع عشر بعد المائتين
١٣٩٤	الذين استجابوا لربهم وأمنوا بهذا الوحي	المجلس الخامس عشر بعد المائتين

سُورَةُ الزُّحُرُفِ

١٤٠٢	إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ	المجلس السادس عشر بعد المائتين
١٤٠٩	وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ	المجلس السابع عشر بعد المائتين
١٤١٤	وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا	المجلس الثامن عشر بعد المائتين
١٤٢١	هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ	المجلس التاسع عشر بعد المائتين

سُورَةُ الدُّخَانِ

١٤٢٨	بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ	المجلس العشرون بعد المائتين
١٤٣٣	وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ	المجلس الحادي والعشرون بعد المائتين
١٤٣٧	إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ	المجلس الثاني والعشرون بعد المائتين

سُورَةُ الْجِنِّ

١٤٤٢	هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ	المجلس الثالث والعشرون بعد المائتين
١٤٤٧	هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ	المجلس الرابع والعشرون بعد المائتين

سُورَةُ الْاٰخِثٰفِ

١٤٥٣	أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ	المجلس الخامس والعشرون بعد المائتين
١٤٥٨	الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا	المجلس السادس والعشرون بعد المائتين
١٤٦٢	وَإِذْ نَذَرَ قَوْمُهُ بِالْأَحْقَافِ	المجلس السابع والعشرون بعد المائتين
١٤٦٥	يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ	المجلس الثامن والعشرون بعد المائتين

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

١٤٧٠	المجلس التاسع والعشرون بعد المائتين	إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ
١٤٦٦	المجلس الثلاثون بعد المائتين	الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
١٤٨٣	المجلس الحادي والثلاثون بعد المائتين	وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ

سُورَةُ الْفَتْحِ

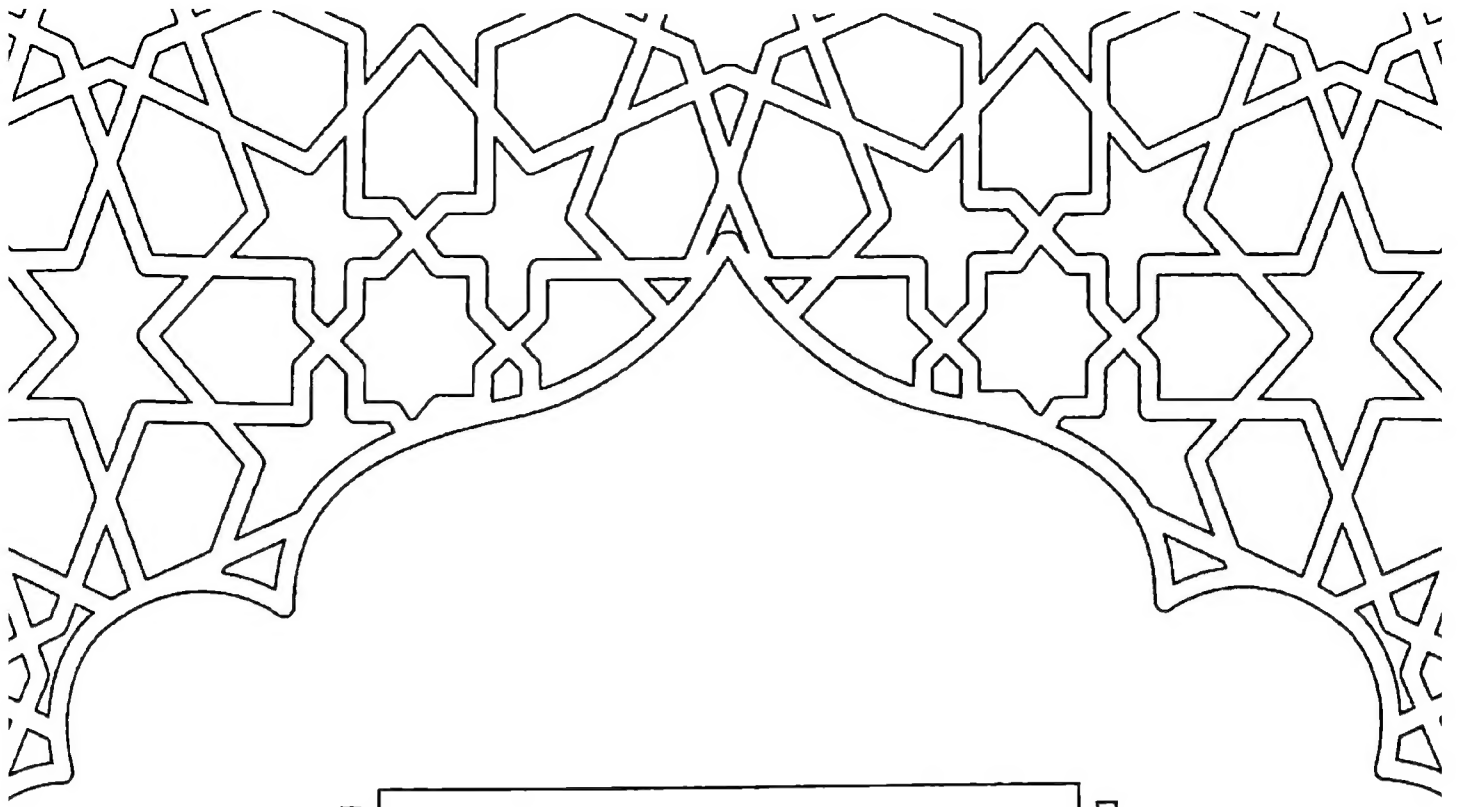
١٤٨٩	المجلس الثاني والثلاثون بعد المائتين	إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا
١٤٩٧	المجلس الثالث والثلاثون بعد المائتين	إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

١٥٠٥	المجلس الرابع والثلاثون بعد المائتين	مَنْظُومَةُ الْقِيَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ
------	--------------------------------------	---

سُورَةُ قَا

١٥١٩	المجلس الخامس والثلاثون بعد المائتين	بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
١٥٢٥	المجلس السادس والثلاثون بعد المائتين	وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ



سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

المجلس السادس والستون بعد المائة: ومضات من الدعوتين الحمديّة والمُوسويّة

المجلس السابع والستون بعد المائة: سليمان عليه السلام وتجربة الملك

المجلس الثامن والستون بعد المائة: صالح ولوط عليه السلام

المجلس التاسع والستون بعد المائة: الإيمان بالله ﷻ

المجلس السبعون بعد المائة: الإيمان باليوم الآخر

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ⑦ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑧ يَمْوَسَّى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑨ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبُ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ⑩ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ⑪ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي نِجَاسٍ آيَاتُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فٰسِقِينَ ⑫ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑬ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ⑭﴾

ومضات من الدعوتين الحمديّة والموسويّة

الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة والخالدة والمهيمنة على كلّ الرسالات السماويّة الأخرى، وقد استوعبت تجارب النبيّن السابقين على نبينا وعليهم الصلاة والتسليم؛ ليكون هذا ذخيرةً للأمة الوريثة، وهي تتحمل رسالة الله الأخيرة إلى هذا الكوكب.

غير أنّ الرسالة الأقرب إلى رسالتنا الإسلاميّة هي - بلا شكّ - الرسالة الموسويّة، فهي الرسالة الشاملة والغنيّة بنماذجها العمليّة في كلّ مجالات الحياة: الدعويّة والتربويّة والسياسيّة والاقتصاديّة؛ فيها مواجهة السلطان الباغي (فرعون) بما معه من جيشٍ ومالٍ وسحرٍ ومكرٍ، وفيها قيادة المجتمع المؤمن، وتخليصه من وطأة الظلم، والسير به في معارج العلم والتزكية والقوّة، وفيها مواجهة الانحراف ودعاة الضلال كالسامريّ، وفيها الكثير مما لا نجده في كلّ القصص النبوي.

من هنا كان الاهتمام بقصة موسى، وتجربته المتنوعة هذه، ومن هنا كان الربط المتكرر بين الدعوتين المباركتين: الدعوة المحمدية، والدعوة الموسوية، فلتندبر الآن ما جاء في فواتح هذه السورة عن هاتين الدعوتين المباركتين:

أولاً: تأكيد أن هذا القرآن الذي هو مصدر هذه الرسالة المحمدية الخالدة قد أنزله الله كتاباً مبيناً، فيه الهدى والبشرى لكل طالبٍ وراغبٍ وباحٍ عن طريق الحق ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ثُمَّ أَكَّدْ مَوْثُوقِيَّةَ هَذَا الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ رِسَالَةُ اللَّهِ الْعَلِيمِ فَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَالْحَكِيمِ فَلَا يَخْتُلُ فِي هَدِيهِ شَيْءٌ﴾ وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ.

ثانياً: أن الناس قد انقسموا في هذه الدعوة بين مؤمنٍ وكافرٍ؛ أما المؤمنون الذين اتبعوا الهدى واستحققوا البشرى، فهذه صفاتهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يقينٌ بالله واليوم الآخر يدفعهم لأداء حق الله، وحق عباد الله، هذه سمتهم وخلاصة ما يميزهم عن غيرهم.

ثالثاً: في مقابل هؤلاء المؤمنين يأتي الحديث عن الفريق الآخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَقَادَهُمْ هَذَا إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْعَمَةِ وَالتَّيِّهِ وَالتَّخْبُطِ فِي الضَّلَالَاتِ، فَكَانَ لَهُمُ الْخُسْرَانُ بِدَلِّ الْبُشْرَى جِزَاءً لاختيارهم الضلال بدل الهدى.

رابعاً: ذكر القرآن هنا بقصة موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وكيف أنه تلقى الوحي عن الله باصطفاءٍ إلهيٍّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِكُمْ مِنْهَا بَخْبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٣) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبَّحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وأن الله تعالى قد آيده بالآيات البيّنات والبراهين القاطعات، وأرسله إلى فرعون وقومه، لكنهم كفروا بها ظلماً وعدواناً، وفي هذا تسليّة

لرسولنا الكريم ﷺ عما يلقاه من قومه من جحودٍ وصدودٍ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوَرٍ فِي نِيسَجٍ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِذْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢) فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

دقائق التفسير

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إشارة إلى أن الإيمان اليقيني يوم الحساب هو الذي يدفع الإنسان لأداء الحقوق التي في ذمته تجاه الخالق تعالى، وتجاه المخلوق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ تأكيد للمعنى السابق بذكر ضده أو نقيضه؛ فالذي لا يؤمن بيوم الحساب لا يخشى من عمله الباطل، ولا من أكله الحرام، بل يرى ذلك فرصة له مهما أمن الحساب، وذلك هو التزيين الذي يكتسبه جرّاء كفره وليس بالجبر الإلهي، وإنما نسبه الله لنفسه؛ لأنه جارٍ على سننه تعالى في ربط النتائج بأسبابها.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتخبّطون تخبّط الأعمى.

﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾ رأيت نارا، ولفظ ﴿أَنَسْتُ﴾ مُشْعِرٌ بالأنس والأمل.

﴿سَنَاتِكُمْ مِنْهَا خَيْرٌ﴾ إذ ظنّ على النار بشرا يمكن أن يرشده إلى الطريق.

﴿أَوْ أُنَبِّئُكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بجذوةٍ من النار.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨) يَمْوَسِّجُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿هذا الحدث الذي لا ينبغي للمتدبّر معه إلا أن يقف موقف الهيبة والخشوع، والشعور بضالة العقل البشري لو حاول أن يتجاوز حدود إمكانياته وقدراته، إنها لحظة اتصال السماء بالأرض بالكيفية التي لا يستطيع العقل تخيلها، ولا ملامسة كنهها، لكنه يُسلم لها؛ لما ظهر منها في عالم الأرض من آيات بيّنات، ومعجزات قاهرات.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ قصد به موسى ﷺ؛ لأنَّ ضوء النار أحاط به، فكأنَّه كان فيها.

﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ ذكر المفسِّرون هنا أنَّ العرب تُطلق الجانَّ على ضَرْبٍ مِنَ الحَيَّاتِ معروفٍ بسرعة الحركة، ولا يبعدُ أنه أرادَ واحدَ الجنِّ؛ لما هو معهودٌ في أذهان الناس من خِفَّتِهِمْ وسرعة حركتهم، ويُعْضَدُ هذا أنَّ العصا قَلِبَتْ حَقِيقَةً إلى حَيَّةٍ، فكان تشبيهها بالجنِّ أقرب من تشبيهها بالحَيَّةِ، والله أعلم.

﴿وَلَيْ مُذِبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ هرب خائفاً مما حصل لعصاه ولم يرجع.

﴿يَمْوَسِي لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ استثناء منقطع؛ لأنَّ الأنبياء مُنْزَهُونَ عَنِ الظُّلْمِ، فلا يكون فيهم ظالمٌ.

﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ من غير عاهة ومرضٍ.

﴿تَسْعَ آيَاتٍ﴾ المعجزات التي أيد الله بها نبيَّه ورسوله موسى ﷺ؛ كالعصا، والطوفان وغيرهما.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحة تُبَصِّرُهَا العيون، ونَسَبَ الإبصارَ للآيات على سبيل المجاز.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ هذا دأب الطغاة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ أنهم لا يستجيبون للحقِّ ولو استبان لهم كالشمس؛ لأنَّ ما في قلوبهم من الكِبَرِ والغرور يحول بينهم وبين ذلك.

سُورَةُ النَّاسِ

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰئَهَا النَّاسُ
عِلْمَنَا مَطِيقُ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ ﴿١٦﴾ وَخُيِّرَ سُلَيْمَانُ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَىٰئَهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾
فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَٰدِئَةَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَا تُعَذِّبُهُ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ
بَنِي بَقِينَ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتُ أَمْ كُنتَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَٰذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّىٰ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَتَىٰئَهَا الْمَلَكُ إِنِّي أَلْقِي إِلَى الْكِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ
مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأُتُوهُ مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَتَىٰئَهَا الْمَلَكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ
أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِسَهُمْ بِجُنُودِهِ لَا يَقِيلُ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً
وَهُمْ صَاعِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَىٰئَهَا الْمَلَكُ أَيُّنِي بَعَرْتُهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ
وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي
لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنَ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَتْ
مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مَُّرَدٌّ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾

سُلَيْمَانُ ﷺ وَتَجْرِبَةُ الْمَلِكِ

لا ينبغي ونحن نتدبر قصّة سيدنا سُلَيْمَان على نبينا وعليه الصلاة والسلام أن نغفل عن حقيقة أن مُلْك سُلَيْمَان إنما هو ثمرةٌ للدعوة الموسويّة التي نَجَحَتْ بإخراج بني إسرائيل من وطأة فرعون، وكوّنت منهم أمةً قادرةً على أن تَشُقَّ طريقها، وأن تصنع تجربتها بنفسها. ومن ثَمَّ فإننا حينما نقرأ عن نبوة سُلَيْمَان ﷺ وتجربته في المُلْك، فإننا نقرأ امتدادًا لنبوة موسى ﷺ وتجربته في التأسيس والتمهيد لهذا المُلْك.

وأما صِلَة هذه التجربة بالدعوة المحمديّة، فلا شك أن هذه الأمة موعودة بالمُلْك والتمكين، وقد كان لها ذلك في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ثم في العصور المتعاقبة أيام الأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم، والأمة الوريثة لا غنى لها عن تجارب أسلافها، إضافةً إلى القاعدة المحوريّة: أن هذه الرسالة المحمديّة ليست على قطيعةٍ مع تلك الرسالات، بل هي امتدادٌ لها ولنور الوحي فيها، ولكن بما يناسب تطوّر الحياة الإنسانيّة وتوسّعها وتشعّبها.

ويمكن أن نُلخّص هذه التجربة المباركة بالآتي:

أولاً: أن الله قد فضّل سُلَيْمَان كما فضّل أباه داود ﷺ بالعلم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد أعطاهما الله المُلْك، ثم ورث سُلَيْمَان أباه ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ في إشارة أن المُلْك لا يكون بغير علم، وإلا كان وبلاً ووباءً عامًّا، وفتنةً عمياء.

ثانيًا: لقد حظيت التجربة السُلَيْمانيّة بمؤيّدات ومعجزات ربّانيّة لا يُمكن القياس عليها، ولا الاعتماد عليها في العمل، أو اتخاذها مثالًا يُحتذى أو يُنتظر، وإنما جاءت للتذكير بقدرة الله التي لا تحدّها حدود، وسعة عطائه من حيث يحسب الناس ومن حيث لا يحسبون،

ويستلزم هذا أدبًا وتواضعًا لمن يُعطيهم الله بعضًا من عطائه، وأملًا ورجاءً مفتوحًا لمن يُعانون ويَتُنُون تحت وطأة الظلم والجحمان.

ومن تلك المؤيِّدات والمعجزات: أَنَّهُ ﷺ كان يفهم لغة الطير والنمل وغيرهما: ﴿وَقَالَ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَطِيقَ الطَّيْرِ﴾ ثم أكَّد هذا بحواره مع الهدهد كما سيأتي، وأما النمل فقد سَمِعَ سُلَيْمَانُ نَمْلَةً تُوجِّهُ صَاحِبَاتِهَا وَتُحَذِّرُهُنَّ: ﴿فَنَبَسَمَ صَاحِبَكَا مِنْ قَوْلِهَا﴾.

ومنها: تسخير الجنِّ والمخلوقات الأخرى له، بل كانوا جُنْدًا مِنْ جُنْدِهِ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٢١) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، والإتيان بعرش بلقيس هو بذاته معجزة أيضًا.

ثالثًا: أَنَّ هذه المؤيِّدات أو المعجزات قد تَضَمَّنَتْ دروسًا عمليَّةً كبيرةً، ومن ذلك:

في قصة النملة تبرزُ قيمة المبادرة، وقيمة الحرص على المجتمع ﴿حَتَّىٰ إِذَا اتُّوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ويلحظ في قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قيمة أخرى، وهي: التماس العذر للمُخْطِئ الذي قد لا يكون قاصدًا أو عامدًا.

وفي قصة الهدهد: تأكيد لقيمة المبادرة مع قيمة الحرص على الدعوة، وقيمة الأمانة في النقل، وقيمة الشجاعة في قول الحق، والدفاع عن النفس ﴿وَتَقَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠) لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

وفي قصة العفريت وصاحب العلم تظهر ميزة العلم وتفوقه على القوة، وفي هذا دلائل ومعانٍ عميقة ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٢١) قَالَ

الَّذِي عِنْدَهُ، عَلِمْتُ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا إِنِّي كَيْدُهُ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ، قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٢٠﴾

رابعًا: برز في هذه التجربة حدث تاريخي كبير، ألا وهو إسلام ملكة سبأ مع قومها، وقد تضمن هذا الحدث عددًا من الدروس الكبيرة أيضًا، ومنها:

الدرس الأول: تجاوز الدعوة لحدود العرق واللون والولاءات الضيقة؛ فملكة سبأ وكل قومها الذين أسلموا مع سليمان لم يكونوا من قوم سليمان، وليس لهم صلة نسب ولا مصاهرة، ولا جوار بني إسرائيل، وقد كان هذا المعنى راسخًا حتى عند الطير المسخر في ذلك الوقت لخدمة الدعوة ﴿وَجَدْتُهُا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

الدرس الثاني: السياسة الحكيمة التي اتبعتها سليمان ﷺ مع الملكة وقومها، فأرسل لها رسالة متضمنة معنى الرحمة: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم أعرب لها عن قوته وشدته بالحق ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيُّبَنَّهُمْ بِمِجُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، ثم بهرها بالعلم الذي معه من خلال العرش والصرح؛ العرش الذي نقله بطرفة عين، فرآته أمامها في الشام بعد أن خلفته وراءها في اليمن ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾، والصرح الذي لم تعهده في دولتها حتى حسيبته بركة ماء ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ فهذه قيم ثلاث: الرحمة، والقوة، والعلم، وهي منظومة الملك والحكم الرشيد.

الدرس الثالث: أن المرأة بإمكانها أن تتحلَّى بأخلاق القيادة الرشيدة، وأن تقود شعبها إلى الخير، وهذا النموذج القرآني الكبير لا يجوز أن نمرَّ عليه سريعًا؛ فبليقيس أدارت معركتها السياسية مع سليمان بحكمة فائقة.

فجمعت أولي الرأي في قومها واستشارتهم مشورة صادقة ﴿قَالَتْ يَتَايَأُ آلُكَوُا أَفَتُونِي فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، ثم شخصت الخطر المحتمل وفق خبرتها وتجاربها السابقة: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

فَرِيكَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾، ثم بادرت بها يسمي اليوم (جس النبض)، فأرسلت بهديتها إلى سليمان، وفي الهدية أكثر من رسالة، ثم أعربت عن مستوى عالٍ من الشعور بالمسؤولية والاعتراف بالخطأ ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

إنَّ هذا النموذج ينبغي أن يكون مُوجَّهًا لنا في فهم بعض الأحاديث التي يُوجي ظاهرها بما يُخالف هذا النموذج الكبير، ولا يصحُّ بحالٍ الأخذ بتلك الروايات، وبيعض الاجتهادات الفقهيَّة المنبثقة منها بمعزلٍ عن هذه الآيات، والله أعلم.

خامسًا: صفة التَّيُّن والتَّثَبُّت التي كان سيِّدنا سليمان يتحلَّى بها حتى مع أضعف رعيته؛ فحينما اعتذر الهدُّد عن غيبته بالخبر الذي ساقه عن مملكة سبأ، قال له سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٧) أَذْهَبَ يَكْتَبِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾.

إنَّ هذا الجَوُّ المليء بالثقة والعدل والصدق هو الذي شجَّع الهدُّد أن يقول لسليمان: ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ هذا درسٌ في استنهاض الطاقات، وكشف المخبوء منها في نفوس الرعية، أما التعالي والاستخفاف فإنه يجعل الدولة تخسر الكثير من الطاقات، وتُضيِّع الكثير من الفرص.

سادسًا: الصفة الثابتة والمكررة في هذه القصة والتي يتحلَّى بها سليمان ﷺ هي الشكر، الشكر بمعناه العملي السلوكي ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

سابعًا: يُلاحظ هنا - إلى جانب ما تقدَّم - أنَّ طبيعة المُلْك كانت طبيعة مترفة، وفيها قدر كبير من إظهار النعمة: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾، وفي موضع آخر يقول القرآن:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ^١ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

وفي هذا تصحيحٌ لمفهوم الحكم الرشيد الذي اقترن لدى كثيرٍ من الوعَّاظ بالزهد والتقشُّف، وحرمان النفس من النعم، وهي الصورة المأخوذة من حياة الخلفاء الراشدين عليهم السلام دون النظر إلى أسبابها الموضوعية، ومنها: الحالة الاجتماعية العامة، ومستوى الحياة الاقتصادية، ومنها: التوجُّه الشخصي نحو الإقلال من الترف، وهذا حقٌّ، لكنه ليس شرعاً مُلزماً لكلِّ الناس، فضلاً عن ملوكهم وأمرائهم، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ أي: ورث عنه العلم والنبوة والحكم، وليس المال؛ لما ورد في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»^(١)، وقوله ﷺ: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ»^(٢)؛ ولأنَّ وراثَةَ المال لا يستحقُّها سليمان دون إخوته وباقي الورثة.

﴿عَلَّمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾ أي: فهم المعنى الذي تُعبِّرُ عنه الطيور فيما بينها بصفورها وتقطيع صوتهَا، فالحيوانات تتفاهم فيما بينها بأصواتها وحركاتها وإن كانت بالنسبة لنا لا دلالة لها،

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عن عائشة وأبي هريرة ومالك بن أوس رضي الله عنهم، وتكرَّر في «الصحيحين» في عدَّة مواضع، وانفرد البخاري ببعضها، ينظر: صحيح البخاري (٣/١١٢٦) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (٥/١٥١) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) رواه أبو داود (٣/٣١٧) دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، والترمذي (٥/٤٩) دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر، وابن ماجه (١/١٥١) دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي) كلهم عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

وقد خصَّ الطيرَ بالذكر مع أنَّه ﷺ كان يفهم لغة النمل أيضًا، ربَّما لما سيأتي من قصة الهدُّه؛ تنبيهًا لأهميتها، وعظيم أثرها.

﴿وَحِشْرَ لِسْلِيمَنْ جُنُودُهُ، مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ دلالة أنَّ هؤلاء جميعًا كانوا في خدمته وتحت سلطانه، وهذا من عطاء الله الذي لا يُقاس عليه، ولا يصحُّ اتخاذه مثالا يُحتذى.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُنظَّمون في وقفتهم وحركتهم، ويعرف كلُّ منهم مكانه ومكانته.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسرنَّكم، إشارة إلى أنَّ جسم النملة مُكوَّن من مادة قابلة للكسر، وهو ما بدأ ينكشف في بعض الدراسات الحديثة أنَّه تغلب عليه مادة الزجاج، والله أعلم.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كأنَّها تعتذر لهم، بمعنى أنَّهم يحطمونكم عن غير قصد.

﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا﴾ صيغة من صيغ التأكيد، كأنَّه قال: فتبسَّم تبسُّمًا، واختيار الضحك بدل التبسُّم فيه تأكيدٌ معنويٌّ، أي: بالغ في التبسُّم، والله أعلم.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني ووفَّقني.

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ تفسير لمعنى

الشكر؛ ولذلك ورد عن الجنيد رحمه الله قوله: (الشكر ألا تستعين بنعم الله على معاصيه).

﴿وَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ تفقَّد المسؤول من هم تحت مسؤوليته، والنظر في أحوالهم وأخبارهم.

﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدُّهَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ بمعنى: هل هو موجود ولكنَّ

عيني أخطأته، أو غابَ عن الحضور دون علمي؟

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إن لم يأتيني بعُذرٍ بيِّن

فقد استحقَّ العقوبة، وهذا الحزم المشفوع بالتبُّت هو شرط الحاكم الرشيد في التعامل مع جنده، أما البحث في عقوبة الحيوانات والبهائم إذا خرجت عن المطلوب منها فلا أراه مناسبًا هنا؛ إذ إنَّ سليمان يتعاملُ مع كلِّ جنوده كأنَّهم عُقلاء ومُكلَّفون، وهذه خصوصية له

لا يصحُّ القياس عليها، ولا اعتمادها دليلاً في أي مسألة فقهية من هذا القبيل، وإنَّما يُستفاد منها: الحزم والتثبت مع الجند الآدميين المكلفين بالأمر والنهي.

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: لم يتأخر الهدُّهد إلا قليلاً.

﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ كلمة شجاعة، وفيها أكثر من درس؛ فعدالة الحاكم هي التي فتحت الباب لهذه الشجاعة وهذه المبادرة، وأنَّ العالمَ مهما بلغ علمه لا يجمع العلم كلَّه، فقد يفوته شيء منه ليطلع عليه مَنْ هو أقلُّ شأنًا وأقلُّ علمًا؛ ولذلك يقترن العلم بالتواضع عند العارفين المخلصين، بخلاف أهل الكبر والرياء.

﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ.

﴿يَبْنَؤُا بَقِينٍ﴾ تنبيه إلى ضرورة التيقُّن في مثل هذه الأخبار، خاصة تلك التي تهمُّ الشأن العام، وينبغي عليها عمل.

﴿رَأَيْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ هي بلقيس.

﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عام مخصوص بالعقل والحس، أي: من كلِّ شيءٍ يُناسبُ الملوك في ذلك الزمن.

﴿وَلَمَّا عَزَّشْ عَظِيمٌ﴾ السرير أو الكرسي الذي تجلس عليه.

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حيث كانت عبادة الشمس شائعة في تلك العصور، ويلاحظ هنا أنَّ النبا الذي رفعه الهدُّهد إلى ملكه وقائده قد جاء شاملاً للجوانب السياسيَّة والدينيَّة التي يحتاجها الملك قبل أن يتخذ قراره.

﴿يَخْرِجُ الْخَبَّ﴾ يظهر المخبوء والمستتر، مما يغيب عن علم الناس، من أرزاق وآجال إذا حان أوانه.

﴿قَالَ سَتَلِدُنَا أَمْذَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: سننظرُ نظرَ المتأمل المدقِّق.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أمره أن يتنحى عنهم قليلاً؛ بحيث يسمع كلامهم ولا يرويه.

﴿وَإِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ بمعنى: أنه نفيس من حيث ختمه وشكله وخطه وجزالته، بما يُعبر عن احترام صاحبه وإتقانه، ودقة ذوقه.

﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ﴾ لا تتكبروا عليّ.

﴿أَفْتَنِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا عليّ.

﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ حتى تحضرون، وهذا من تمام عقلها، وحسن سياستها.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أعربوا أولاً عن قوتهم وشدة بأسهم، ثم أعطوها مساحةً مرنةً لاتخاذ القرار الأصوب والأصلح.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ إذا دخلوها بالقوة والقهر أفسدوها بالتخريب والتدمير، تلمّح لهم بالمسألة والمُوادعة؛ لما تعرفه عن قوة جيش سليمان عليه السلام، ولما تخبره من تاريخ الحروب والغزوات.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا اختبار سياسي حكيم؛ فإن قبلوا الهدية - ويبدو أنها كانت مالاً عظيماً - يتبين لها أن مطلبَ سليمان المال لا غير، فتستعد معه للتفاوض الاقتصادي، وإن رفضوا كان الموضوع أبعدَ من ذلك، وهذا الذي كان من سليمان: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَ تَنِينٍ أَللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ الخطاب لزعيم الوفد الذي حمل الهدية إليه.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ من سبأ.

﴿وَهُمْ صَافِرُونَ﴾ خاضعون لحكمنا.

﴿قَالَ يَتَأْتِيهَا الْمَلَكُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ في القصة اختصار يدلُّ عليه السياق، والظاهر أنَّها بعد أن أبلغها الوفد رسالة سُليمان ومعها الهدية التي رفض قبولها، أرسلت إليه تُخبره بأنَّها قادمة إليه، فطلبَ سُليمانُ من جنده أن ينقلوا عرشها إليه لتجده أمامها عند سُليمان!

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ تقديرٌ لقصر الوقت، بمعنى: أنَّه سيُحضِّره له قبل أن يُغادر مجلسه.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: بلا زمن، والذي عنده هذا العلم لم يُخبرنا الله بشأنه، وكيف حصل على هذا العلم، والظاهر أنَّه جزءٌ من الحالة العامة التي كانت سائدة في مُلك سُليمان، فلا هذا العلم يقبل التعلُّم، ولا الجنّ يقدِّرون اليوم على أن ينقلوا الأشياء الثقيلة من مكانٍ إلى آخر، فذلك كلُّه من خصائص مُلك سُليمان الذي هو معجزات وخوارق للعادات، لا يُقاس عليها ولا يُقتدى بها، والله أعلم.

﴿وَمَن شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن الله تعالى وتقدَّس لا يتنفع بشكرنا له، وإنَّما نفعُ الشكر يعود لنا ثواباً منه وقربةً إليه.

﴿نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيَّروا فيه؛ بحيث لا يظهر لها كما عهدته، أراد اختبار ذكائها، واتَّزان رأيها، ودقَّة ملاحظتها.

﴿نَنْظُرْ أَنَّنَدَى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أتعرف عرشها بعد التغير الذي أحدث فيه، أم تكون غافلةً عنه، ولو عرفته فماذا ستقول فيه وقد خلَّفته وراءها في سبأ؟ إنه أشبه باختبار نمط شخصيتها ومكانة عقلها.

﴿فَلَمَّاجَاتٌ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ قالت كأنه هو، جوابٌ في غاية الذكاء والاتَّزان، والظاهر أنَّها عرفته؛ فهو عرشها الذي عهدته رغم ما حصل فيه من تغيير، لكنها تركته وراءها، فما الذي

جاء به؟ فأجابَ بجوابٍ مُحتمل، لا يستطيع أحدٌ أن يُكذِّبَها فيه، وهذه عادةُ السياسيين في كلامهم وحواراتهم.

﴿وَأَوْنَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ الظاهرُ أنه من قول سُلَيْمَانَ حين رأى علمَها ورجاحةَ عقلها، ذكر نعمةَ الله عليه بالعلم السابق على علمها، والإيمان السابق على إيمانها سبق زمان، وسبق رتبة، والله أعلم.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ جوابٌ لسؤال مُفترض؛ أنها إذا كانت برجاحة العقل هذه، كيف إذن صُدَّت عن توحيد الله وعبادته؟

والجوابُ: أنها نشأت في قومٍ كافرين لا يعرفون إلا عبادةَ الشمس، والإنسان مهما بلغ، أسيرٌ لبيئته ومجتمعِهِ، خاصَّةً لمن يتصدَّر فيهم، ويسعى للاحتفاظ بمكانته عندهم.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ هنا ظهر التفاوت في العلم وهندسة العمران، فلم ينفعها الذكاء بشيء؛ لقلَّة خبرتها في هذا، وهذه مُقاربة لطيفة بين مفهوم العقل ومفهوم العلم؛ فالعاقل مهما بلغ عقله قد يزلُّ أو يضلُّ بسبب نقص المعلومات التي عنده.

ومن ثَمَّ فالدرس المستفاد من هذه الحادثة: أن لا يتَّكَلَّ الذكيُّ على ذكائه في تحليل الأشياء والأحداث من غير علمٍ كافٍ بتفاصيل المسألة وما يحيط بها، وفوق كل ذي علم عليم. واللُّجَّةُ: بركة الماء، والقوارير: الزُّجاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهنا قادها ذكاؤها ورجاحة عقلها، واتَّزان شخصيَّتها إلى التفكير بحالها وعقيدتها التي نشأت عليها، فاعترفت بخطئها، ثم أعلنت إسلامَها على قاعدة التخلية قبل التحلية؛ فهي قد هدمت عقيدتها الفاسدة أولاً، ثم أقامت مكانها عقيدة التوحيد؛ لتبقى عقيدةً نقيَّةً خالصةً لا تشوبها شائبة الماضي.

وفي الربط بين ما رأته من معالم العلم وإتقان الصنعة وبين دخولها في الإسلام تأكيد أن القيم الإسلامية حين تترجم واقعاً في حياة الناس، ونموذجاً صالحاً على الأرض، فإنّ هذا يكون أدعى لنجاح الدعوة، وإقناع الآخرين بها.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

من الآية

٤٥٨ - ٤٥٩

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعُوا اللَّهَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَنُو إِسْمَاعِيلَ يُقَادُّونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا اتَّقَاسُوا بِاللَّهِ لَنُنَيِّسَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يَوْمَئِذٍ كَاوِبَةً يَبْأُظْلَمُونَ إِنِّي فِي ذَلِكَ لِآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَانجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ إِنِّي كُنْتُ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

صالح ولوط

بعد تجربة الملك التي قادها نبيُّ الله سليمان، يعرض القرآن هنا نموذجًا مختلفًا، نموذج الطغيان الذي يحاصر الدعوة ويحارب أهلها بعنادٍ ومكابرة، فتكون غاية الدعاة: النجاة بأنفسهم ومن معهم من وطأة الظلم، ومن عذاب الله الذي يأخذ هذا الطغيان وأهله. وقد تضمَّن هذا النموذج حالتين مختلفتين:

حالة الظلم الذي يُواجهه الدعاة بسبب تعصُّب القبيلة، وتمسُّكها بموروث الآباء والأجداد ولو كان خرافةً وكفرًا، وقد مثل هذه الحالة سيِّدنا صالحٌ في مُواجهة قبيلته ثمود. وأما الحالة الثانية: والتي مثلها سيِّدنا لوطٌ، فكانت تجسُّد مُواجهة الدعاة للفساد والمنكر الذي ينتشر في المجتمعات المدنية على خلاف المجتمعات القبليَّة، ويمكن تلخيصُ هذا النموذج كما ورد في هذه الآيات بالآتي:

أولاً: كانت دعوة صالح ﷺ لقومه مركزة في جانب الإيمان وعبادة الله وحده: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، بينما كانت دعوة لوط لقومه مركزة في الأخلاق؛ لإنقاذهم من الشذوذ الذي شطَّ بهم بعيداً عن فطرة الآدميين: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾.

ثانياً: رفضت ثمود دعوة نبيها ﷺ، ومكروا به مُحاولين قتله وأهله ﴿قَالَ يَنْقُومُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيزَنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَبَعُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وكذلك رفض قوم لوط ﷺ دعوة نبيهم، ومكروا به ليُخرجوه وأهله من قريتهم ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْطَهُرُونَ﴾.

ثالثاً: أهلك الله ثمود، ونجى صالحاً ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبِئْسَ بِيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾، وكذلك نجى الله لوطاً، وأهلك قومه ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

إن الغاية من تقديم هذه النماذج المختلفة - مع ما فيها من دروس وعبر مُتنوعة - إنها هي فتح مجال الاحتمالات المتوقعة لمسيرة هذه الدعوة مهما كان القائمون عليها من الصلاح وحسن الاستقامة؛ فسنن الله غلبة، والتمكين في الأرض لا بُدَّ له من اجتماع أسبابه، ولا

يكفي فيه صدق النية، وحُسن السيرة.

وقد رأينا كثيرًا من الأنبياء - وهم أنبياء - لم يُمكن الله لهم، بل كان غاية أمرهم: النجاة بأنفسهم وبمن معهم.

إن الدعوة اليوم بحاجة إلى أن تنظر في واقعها وواقع العالم من حولها، والتفاوت الضخم في موازين القوى، ولا تتألى على الله بالأمان، ومن ثم ترسم طريقة عملها بما يُناسب إمكانياتها لا بما يناسب رغباتها، والله الهادي إلى سواء السبيل.

دقائق التفسير

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فريق مصدق وفريق مكذب، والمصدقون هم القلة المستضعفون، بدلالة قوله تعالى في مكان آخر: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]، والآية تشير إلى معنى المخاصمة أيضًا.

﴿قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لم تطلبون العذاب وتستعجلونه عليكم بعنادكم وتكذيبكم، ولا تطلبون رحمة الله وهي قريبة منكم لو اهتديتم؟

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ﴾ أسلوب من أساليب الحث والطلب، بمعنى: هلاً تستغفرون الله.

﴿قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أصله: تطيرنا، ومعناه: تشاء منا.

﴿قَالَ طَبَّيْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ما قُدِّرَ لكم من خير أو شر فهو عند الله، وذلك بحسب أعمالكم وما تُقدّمونه لأنفسكم.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الحجر، وذكر المدينة لا ينفي عنهم طبع القبيلة، فثمود قبيلة معروفة وقد استوطنت الحجر، والحجر بين الحجاز والشام.

﴿تَسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة أشخاص، وأصل الرهط: العدد القليل من الناس، والظاهر أنهم من عتاة القوم وطغاتهم.

﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ تعاهدوا وتحالفوا بالله، وهذا دليل أنهم كانوا يعرفون الله، لكنهم يُشركون به على عادة كثير من العرب.

﴿لَنَبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنقتلنه مع أهله غيلةً وغدرًا.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أي: لوليّ دمه، والظاهر أنه ممن لم يشمله وعيدهم؛ لأنه ربما كان من ملّتهم.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: لم نحضر مقتله ومقتل أهله، ولا ندري عن قاتلهم شيئًا، وإنا لصادقون فيما نُخبركم به.

﴿وَمَكْرَنًا مَكْرًا﴾ باستدراجهم إلى حتفهم وهلاكهم.

﴿فَإِنَّكَ يُؤْتِيهِمْ خَاوِيَةً﴾ خالية من أهلها، وكانت في الطريق بين الحجاز والشام يراها الناس.

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ﴾ بمعنى أن الذي يعقل ويُبصر لا يمكن أن يتكسّر إلى مثل هذا الشذوذ.

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ فهم لا يريدون أحدًا يُعكّر عليهم ما هم فيه مُنغمسون، وهذا ديدن الغارق في الشهوة، بخلاف صاحب الشبهة والفكرة الخاطئة.

﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ ربما كان ذلك على سبيل التهكّم والسخرية، لكن حالة هؤلاء القوم لا يُستبعد معها أنهم يُفاخرون بالفساد والرذيلة، ولا يُحاولون تغطيتها أو تسميتها بغير أسمائها، وهذا دَرَك ما تحته دَرَك، وشذوذ ما بعده شذوذ.

﴿إِلَّا أَمْرَاتٌ، قَدَرْنَهُمَا مِنَ الْغَيْرِ﴾ الهالكين الباقين في العذاب، بسبب موالاتها لهم.

﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ إشارة إلى أن عذابهم لم يكن ابتداءً، رغم ما هم فيه من كفر وفساد، وإنما كان بعد النذارة وإقامة الحجّة.

وهنا تدبّرٌ دقيقٌ: أن قوم صالح تأمروا عليه لقتله، وقوم لوط تأمروا عليه لإخراجه، وقد نزلت هذه الآيات على سيدنا محمد ﷺ وهو في مكة، وكانت قريش تتآمر عليه أيضًا لقتله أو إخراجه، وكان في هذا إنذارٌ لهم، وتسليةٌ مطمئنةٌ لنبينا الكريم عليه وعلى إخوانه الصلاة والتسليم.

سُورَةُ الشُّمَّا

من الآية

٦٥-٦٥

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ يَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلٌ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خُلُقَاءَ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌ هَانُوا بَرَهْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥)

الإيمان بالله ﷻ

بعد هذه النماذج المتنوعة والنتائج المختلفة في مصير الدعوة والدعاة، يعود القرآن للتذكير بأصل القضية التي بعث الله بها الرسل، والتي انقسم فيها الناس، وأنتجت كل ذلك التاريخ المختلف أو المتنوع، إنها قضية الإيمان، وفي هذه الآيات يعرض القرآن أدلته في مناقشة المنكرين، وكما يأتي:

أولاً: يُوجِّه القرآن سؤاله الكلي الذي يهز القلوب، ويحرك العقول ﴿اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهو سؤال يدعو أولاً للبحث في مفهوم الألوهية، والصفات اللازمة لها، ثم النظر في هذا الكون وحاجته في كل جزئية من جزئياته إلى القدرة المطلقة، والعلم الشامل، والحكمة الدقيقة التي لا يمكن أن يتَّصف بها إلا إله واحد.

تجدُّر الإشارة هنا أن هذا السؤال الكبير قد جاء مُتصلاً بتزكية شاملة لأولئك النبيين الذين أفنوا حياتهم في سبيل هذه القضية، وإقناع أقوامهم بالجواب الصحيح على هذا

السؤال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثانيًا: انتقل القرآن إلى شواهد الإيمان في نشأة هذا الخلق وما فيه من عناية ورعاية لهذا الإنسان ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاثَ بِهِجَةً مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَعَالِمٍ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾.

ثالثًا: تابع القرآن حديثه عن هذه الأرض، وكيف هيأها وأعدّها لتكون مقرًا صالحًا وممهدًا لهذه الحياة ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

رابعًا: في انعطافه وجدانية عاطفية خاطب القرآن هذا الإنسان من داخله، من ضميره ووجدانه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ﴾.

خامسًا: عاد القرآن ليدكر بنعم الله وآلائه الماثلة في نواحي هذا الكون، والتي تشهد كلها بتدبير الخالق الواحد ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

سادسًا: أكد القرآن النشأة الأولى للخلق، وقدرته سبحانه على إعادة الخلق كما هو مُشاهد في دورة الماء والنبات مما لا يقدر عليه إلا العليم الذي أحاط علمه بالزمان والمكان، وأسباب الحياة وأسباب الموت تبارك ربنا وتعالى ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ هم النبيون السابقون، على نبينا وعليهم الصلاة والتسليم.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يدعُوهم بهذا السؤال الكبير؛ للتفكر في حالهم وحال أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، كيف يجعلونها ندًا لله تبارك وتعالى.

﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ صالحة لاستقرار الحياة فيها.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ﴾ جبالًا ثوابت.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ فلا يختلط أحدهما بالآخر.

﴿أَإِنَّ لَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ استفهام استنكاري، وقد تكرر بعد كل نعمة يعدها، كأنه يقول: هل من ألهتكم من كان مع الله في هذا الخلق وفي هذا الرزق الذي أنتم تعيشون به وتنعَّمون؟
﴿أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والمُضْطَرُّ هو الذي بلغ به الضرر أو الخوف منه مبلغًا مع عجزه عن دفعه.

﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ يكشف الضر.

﴿أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَرٍ وَالْبَحْرِ﴾ بما أودع الله في هذا الكون من نجوم دالة في السماء، ومعالم شاخصة في الأرض.

﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: تحمل لكم البشارة بقدوم المطر.

﴿أَمِنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ وهذا السؤال الذي يعصف بكل الآلهة المزيفة؛ إذ لا يدعي عاقل أنها كانت في لحظة الخلق الأول، أو قبله، بل هي مصنوعة وطارئة، فكيف تصح أن تكون آلهة لهذا الخلق؟

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ في دورة الحياة المحسوسة في النبات وغيره، وفي الحياة الموعودة بالنسبة للإنسان.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ تذكير بأن الذي يخلق هذا الخلق بكل من فيه وما فيه، لا بُدَّ أن يكون عالمًا بكلياته وجزئياته، بل هو عالمٌ به وبصورته وحقيقته قبل خلقه، فكيف بالآلهة المزيفة التي لا علم لها ولا عقل، ولا تسمع ولا تبصر؟

سُورَةُ النِّسَاءِ

من الآية

٦٦ - ٩٣

﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمِمَّا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أَمْدِيرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخَشُّهُمْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِنَا وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلًا لِنُسْكَوَهُ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةُ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ السُّلَمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو الركنُ المُتَمِّم للإيمان بالله؛ ولذلك يأتيان معاً في غالب آيات القرآن؛ حيث إنَّ الإيمان بالله من دون الإيمان بيوم الحساب، يجعل الإنسان كأنه في حِلٍّ من الالتزام العملي بمقتضيات ذلك الإيمان، وقد جاءت هذه الآيات لبحث هذا الموضوع، وما يتعلق به من تصوُّرات وتساؤلات، وكما يأتي:

أولاً: شخّص القرآن حال المشركين وموقفهم من اليوم الآخر ﴿بَلِ أَذْرَكَ عَلِمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ كُنَّا تُرْبًا وَعَابَاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَعَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

فأصل المشكلة عندهم: الاستبعاد المبني على الجهل، وكأنهم يعلمون كيف بدأ خلقهم أول مرة، لكي يتوقفوا عند الخلق الثاني. إنه نوعٌ من الغرور وخداع الذات، وكان مُنتهى حُجَّتِهِمْ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

ثانياً: أكّد القرآن أن سببَ هذا الإنكار أو الاستبعاد إنما هو الجهل المتعمّد بتعطيل الفكر وغلق منافذه، وتعطيل أدواته ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ إِذَا وَلَوْ أَمْرًا مُّذِيرِينَ ﴿٧٠﴾﴾، وهذا تصوير دقيق لحال المشركين عند سماعهم كلمات الإيمان وأدلتها وما تتضمنه من عبر وعظات.

ثالثاً: يؤكّد القرآن أن الإيمان باليوم الآخر هو الحقّ المنسجم مع حقائق هذا الخلق، ومع الغاية من خلق هذا الإنسان، ومع ما في هذه الحياة من دروس وعبر ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧١﴾﴾، ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبينٍ ﴿٧٢﴾﴾، ﴿الْمَرِيرُوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٣﴾﴾، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِداً وَهِيَ تَمُزُّ مِنْ سُحَابٍ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ لِّمَا تَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

رابعاً: أنذر القرآن هؤلاء المكذّبين بعاجل العذاب ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

خامساً: ذكر القرآن علامة من علامات اليوم الآخر تُنبئ عن قرب وقوعه ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، ثم لَحَّ بالعلامات الأخرى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

سادسًا: فصل القرآن حقيقة اليوم الآخر، وأنه الحساب القادم الذي يلقي فيه الناس جزاء أعمالهم ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٩١﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٩٣﴾.

سابعًا: أكد القرآن مصدرية الموثوقة لبيان هذه الحقائق وغيرها، فهو رسالة الله الأخيرة لهذه الأرض، وفيها الخبر اليقين، والحكم الفصل ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٨٠﴾.

دقائق التفسير

﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ وادَّارَكَ أصلها تدارَكَ، أي: تابع ولحق بعضه بعضًا، والمقصود أن معلوماتهم عن الآخرة قد تابعت من كل جيل، واختلط بعضها ببعض تعصُّبًا وتقليدًا، وهوى مُتَّبَعًا بلا دليل ولا بيِّنة، فتشابهت أقوالهم فيها؛ ولذلك عقب بقوله: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: كالعُميان.

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من قصص وحكايات بلا دليل ولا بيِّنة.

﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ تهديد لهم ليدفعهم إلى النظر الجاد والتفكير الهادف.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ تأكيد لرحمته ﷻ بقومه وشفقته عليهم،

ورغبته في هدايتهم.

﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ لحقكم وقرب منكم.

﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب، والإشارة هنا إلى يوم بدر، والله أعلم.

﴿مَاتُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تخفيه.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْءَ﴾ شبه المشرك المعاند بالميت الذي لا يسمع.

﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّهْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ تشبيه آخر بالأصم المدبر الذي لا يرى المتحدث، ولا يسمعه ولا يفهم منه شيئاً.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى﴾ تشبيه ثالث، والمقصود أن هؤلاء المشركين قد أغلّقوا بعنادهم وغرورهم كل منافذ الاطلاع والمعرفة عندهم.

﴿أَكْذَبْتُمْ بَيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ إذ كان التكذيب مبنياً على الحسد والكبر، وليس على النظر والفكر.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حلّ بهم وعيده سبحانه، والظاهر من السياق أنه الساعة.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ الدابة ما يدبّ على الأرض، وخروجها علامة من علامات الساعة، وهي من الأخبار الغيبية الثابتة بالوحي، فينبغي الإيمان بها والوقوف على النص؛ لأن العلم بها وبكل السمعيّات لا يأتي إلا عن طريق النص.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بَيَاتِنَنَا﴾ والفوج: الجماعة من الناس، والمقصود هنا: قادة الكفر في كل أمة.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُزجرون وينتظمون في وقفاتهم وحركاتهم بحسب ما يتلقونه من أمر.

﴿فَهُمْ لَا يَبْطِقُونَ﴾ بحجة ولا باعتذار.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تذكير بنعم الله التي تستوجب

الشكر لا الكفر؛ فالليل جعله للسكن والراحة، والنهار للعمل، ونسب الإبصار إلى النهار مجازاً بمعنى أنه محل الإبصار بخلاف الليل.

وهنا إشارة دقيقة، وهي: أن الله قد أمهلهم كثيراً، فتعاقب عليهم الليل والنهار، وكان لديهم فُسحة مديدة ومتنوعة للتفكير.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل ﷺ مُعلنًا ساعة الفناء وانتهاء الحياة الدنيا، ثم ينفخ فيه مرة أخرى لإعلان ساعة البعث والقيام لرب العالمين، والصُّور من الأمور الغيبية التي لا نعرف عنها شيئاً، فينبغي الوقوف عند خبر الرُوحى، ثم الإمساك عن الكيفية والتفصيل.

﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ والفرع الخوف والذعر والنفرة.

﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ذهب المفسرون إلى أن هذا كائن حين تقوم الساعة، فجعلوها علامة على خراب الأرض ونهاية الحياة، ثم تكلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولم يكن العلم آنذاك قد أثبت دوران الأرض حول نفسها، ودورانها حول الشمس؛ لينتج عن الدوران الأول: الليل والنهار، وعن الدوران الثاني: الفصول الأربعة.

فالجبال التي نراها ثابتة راسخة جامدة إنما هي تدور بدوران الأرض، وهذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء، وليس من علامات الخراب والدمار، والتطرق إلى هذا الصنع في خِصَمُ الحديث عن القيامة هو من باب الالتفات والتذكير المتكرر بنعم الله وآلائه، والله أعلم.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي: من جاء بالعمل الصالح فله مزيد من ثواب الله وكرمه فوق ما يرجو ويستحق، والله يُضاعف لمن يشاء.

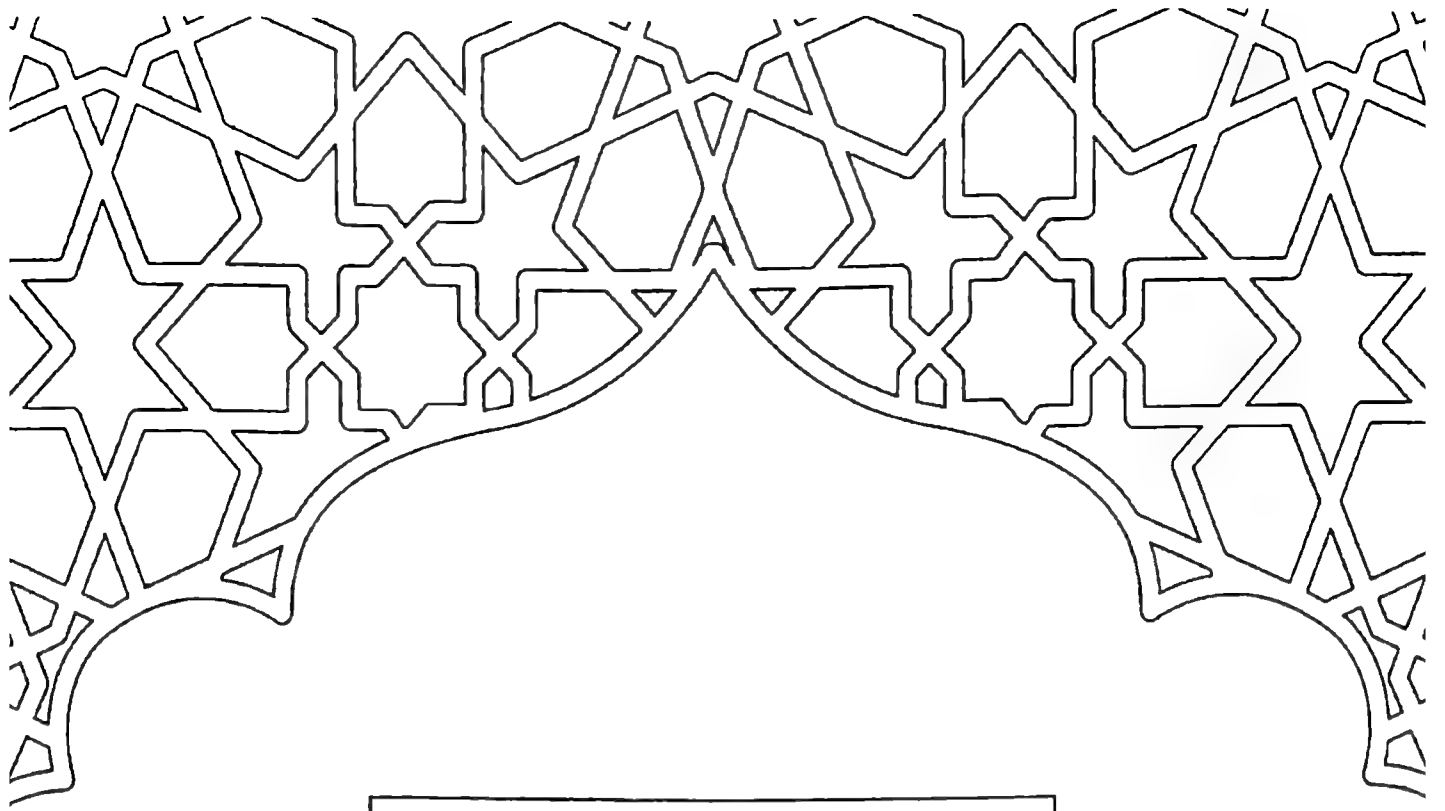
﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالله لا يظلم أحداً، وإنما هي أوزارهم التي اقترفتها أيديهم، وبمحض إرادتهم واختيارهم.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ مكة، وفي هذا التخصيص تشريف لمكة، وتلطّف لا يخفى بأهلها.

﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ الذي جعلها حرماً آمناً.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أصل في علاقة الداعي بالمدعو، فعلى الداعي البيان والإنذار، ثم المدعو يتحمل مسؤوليته التكليفية، وعاقبة اختياره وقراره.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرِكُمَا أَيْنَهُ﴾ دلائل ألوهيته وصدق وعده ووعيده، وفي الآية إشارة لما يكتشفه الإنسان من علوم كونية تشهد لهذا القرآن، كما مرّ معنا آنفاً في قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.



سُورَةُ الْقَصَصِ

المجلس الحادي والسبعون بعد المائة: موسى عليه السلام الهدف الكبير والعناية الإلهية المبكرة

المجلس الثاني والسبعون بعد المائة: موسى عليه السلام بعد أن بلغ أشده

المجلس الثالث والسبعون بعد المائة: موسى عليه السلام والمهمة الكبيرة

المجلس الرابع والسبعون بعد المائة: الدعوة الحمديّة

المجلس الخامس والسبعون بعد المائة: وعد المؤمنين ووعد المكذّبين

المجلس السادس والسبعون بعد المائة: دروس من قصة قارون وتوجيهات ختامية

سُورَةُ الْقَصَصِ

من الآية
١٣ - ١٤

﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧ فَالْقِطْعَةُ ءَالِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِعِينَ ٨ وَقَالَتْ أُمُّرَاتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩ وَأَصْبَحَ نُورًا أُمُّ مُوسَىٰ فَتَرَىٰ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَنُكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾

موسى عليه السلام الهدف الكبير والعناية الإلهية المبكرة

المحور الأساس لسورة القصص هو قصة موسى عليه السلام، وهي القصة الوحيدة التي تناولتها هذه السورة، ثم تنتقل السورة - وفي سياق متصل - إلى واقع الدعوة في مكة؛ لتؤكد الوشائج القويّة بين الدعوتين المحمّديّة والموسويّة، والتي مرّت معنا في تدبر فواتح سورة النمل.

تتناول هذه الآيات المشهد الأول من حياة موسى عليه السلام، وعناية الله تعالى به، من أيامه الأولى بما يتناسب مع الهدف الكبير الذي اختاره الله تعالى له، وكما يأتي:

أولاً: أكّد القرآن أن هذه القصة من الوحي الإلهي الموجه إلى الرسول الخاتم ﷺ، في

تأكيد متكرر للربط بين الدعوتين المباركتين: ﴿تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ

نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

ثانيًا: وصف القرآن واقع السياسة الفرعونية، وأنها قائمة على التفرقة والتمييز العنصري أو الطائفي، وأن طائفة واحدة - وهم بنو إسرائيل - كانت تتحمل العبء الأكبر من ظلمه بذبح أبنائهم، واستحياء نسائهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ثالثاً: حدّد القرآن الهدف الكبير الذي اختاره الله لينقذ هؤلاء المظلومين من نير الظلم والعبوديّة والاستضعاف إلى أفق الحرية والسيادة والتمكين ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَكَاثِبَ مُتَحَذِرِينَ ۝﴾.

رابعًا: بدأت مظاهر العناية الإلهية بهذا المولود الكريم بذلك الوحي الذي حمل إلى أمِّه أمرين، ونهيين، وبشارتين: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ في إشارة واضحة أن هذا المولود الكريم قد أعدّه الله لذلك الهدف الكبير.

خامسًا: نفَّذت أمُّه ﷺ ما أمَرها الله به، فألقته في البحر بالطريقة التي تحفظه من سطوة رجال فرعون، والذين كانوا يبحثون عن أبناء هذه الطائفة المُستضعفة الذين وُلدوا حديثًا ليزبحوهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا؛ حيث وصل الرضيع المبارك إلى قصر فرعون، ليحظى برعايتهم على عكس ما خطَّطوا له ﴿فَالنَّقْطَةُ ۖ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

سادسًا: كانت أمُّه تشعر ببرد الطمأنينة التي ربَّطها الله على قلبها، رغم رقة قلبها، ووهج عاطفتها وهي ترى رضيعها تتجَّه به أمواج النهر إلى يد عدوه.

وهنا يدخل عنصر آخر في المشهد: أخت موسى التي ربما لا تقل عاطفتها عن عاطفة أمها، مع حزن أعمق وقلق أشد، بحكم أنها الأصغر سناً، والأقل خبرة، ولأنها لم يُوح إليها بما يُبشرها ويُطمئنها كما أُوحى إلى أمها، فاندفعت - ويتوجيه من أمها - تتبّع أخاها الرضيع عن بُعد، حتى بصّرت به بين أيديهم وهم لا يشعرون بها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَٰبِطُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

سابعاً: كانت رغبة آسية امرأة فرعون باتخاذها ولداً سبياً في حمايته ورعايته، وكان من مقتضى ذلك: البحث له عن مُرضعة، ولكن الرضيع يمتنع عن كلّ المرضعات بقدر إلهي ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾.

وهنا تدخلت أخته لتشير عليهم بأهل بيت يكفلونه لهم، والقرآن هنا لا يُفصل في كيفية اقتناعهم بهذا الرأي؛ لأن ذلك لا يؤثر في النتيجة، فالهم أنه رجع لأُمّه، ليتحقق وعد الله تعالى لها، فكانت أُمّه تُرضعه دون أن يعلموا أنها أُمّه، ومن ثمّ كانوا يُنفقون عليها وعلى رضيعها، وهذا من مقتضى كفالتها لموسى عنهم ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١١﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فسبحان الله! كيف ألقته في اليمّ منذ يوم أو بعض يوم خائفة عليه منه، ثمّ أعادوه هم إليها باهتمام وعناية، ومزيد رزق.

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ﴾ ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْ خَبَرِ مُوسَى ﷺ ﴾ مع فرعون.
 ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هم المسلمون، في إشارة إلى حاجة هذه الأمة لذلك القصص ولتلك
 التجربة الثرية بعد أن اختارها الله بديلاً عن قوم موسى ﷺ في حمل الأمانة، وتبليغ الرسالة.
 ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ قَسَمَهُمْ إِلَى طَوَائِفٍ، وَأَنْشَبَ الْفُرْقَةَ
 بَيْنَهُمْ، وَهَذِهِ سِيَاسَةٌ مُتَّبَعَةٌ لَدَى طَوَاغِيتِ الْأَرْضِ، وَوَسِيلَتُهُمْ لِإِشْغَالِ النَّاسِ بِبَعْضِهِمْ.

﴿يَسْتَضِعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ هم بنو إسرائيل.

﴿وَيَسْتَعِيءُ نِسَاءَهُمْ﴾ يستبقيهن للخدمة.

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكِ اسْتَضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هم بنو إسرائيل، وَالْمَنْ: الْإِنْعَامُ،
 بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يُنْعِمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا سَيَأْتِي ذَكَرَهُ.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ قَادَةً وَمُلُوكًا، وَقَدْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ أَيَّامَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﷺ.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْمُلْكَ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ فِرْعَوْنَ وَهَلَاكِهِ.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ هَمَجًا وَهَمَجًا وَخُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ حَيْثُ كَانَ الْفِرَاعْنَةُ
 يَخْشَوْنَ زَوَالَ مُلْكِهِمْ عَلَى يَدِ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعِفِينَ سَيَعْلُو شَأْنَهُمْ،
 وَيَكُونُونَ قَادَةً وَمُلُوكًا، فَكَانَ كُلُّ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَهُ وَيَحْذَرُونَهُ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا
 رَآدُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الظاهر أن هذا وحيٌّ على الحقيقة، وهذا هو الأصل،
 وتأويله بالإلهام أو المنام تحرُّزًا عن القول بنبوة النساء لا يخلو من التكلف، ولا أعلم نصًّا
 صريحًا في المنع يقتضي هذا التأويل، خاصَّةً عند من يُفَرِّقُ بَيْنَ مَعْنَى النَّبِيِّ وَمَعْنَى الرَّسُولِ،
 فيرى التبليغ لازماً للرسالة دون النبوة، فهذا التفريق مُتَنَفِّسٌ قَوِيٌّ لِمَنْ يَقُولُ بِنُبُوَّةِ الْمَرْأَةِ؛ إِذْ لَمْ

يَرِدُ اختصاص الرجال إلا بالرسالة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾^(١).

ثُمَّ إِذَا أَمَكَّنَ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ بِالْإِرْضَاعِ بِالْفِطْرَةِ، وَالْأَمْرَ بِإِلْقَائِهِ فِي الْيَمِّ بِالْغَرِيزَةِ، فَكَيْفَ نَتَأَوَّلُ النَّهْيَيْنِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾، وَبِالْبَشَارَتَيْنِ: ﴿إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وَالَّذِي يُؤَيِّدُ أَنَّ هَذِهِ بَشَارَةٌ وَحْيِي قَوْلُهُ تَعَالَى الْآتِي: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ يَفْتَحُ الْبَابَ لِدُعَاءِ الضَّلَالِ وَالْبَاطِنِيَّةِ لِلْقَوْلِ بِاسْتِمْرَارِ مِثْلِ هَذَا الْوَحْيِ عَلَى الْأُئِمَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ قُلْنَا: إِنَّ كُلَّ هَذَا الَّذِي تَلَقَّاهُ أُمُّ مُوسَى وَكَذَلِكَ أُمُّ عِيسَى ﷺ لَيْسَ وَحْيًا، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ أَوْامِرٍ وَنَوَاهٍ، وَبَشَارَاتٍ وَخُطَابٍ مُبَاشِرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران: ٤٢]، فَمَا الَّذِي يَمْنَعُ أَنْ يَنْزِلَ مِثْلُ هَذَا عَلَى الْأُئِمَّةِ مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ؟

﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ الْبَحْرِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ هُنَا: نَهْرُ النَّيْلِ.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ اللَّامُ هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ وَلَيْسَتْ لِلتَّعْلِيلِ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا التَّقَطُّوهُ لِيَكُونَ لَهُمْ وَلَدًا، فَكَانَ لَهُمْ عَدُوًّا، وَالْحَزَنُ وَالْحُزْنُ بِمَعْنَى.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَتْرًا﴾ أَيُّ: خَالِيًا مِنْ كُلِّ هَمٍّ إِلَّا مِنْ هَمِّ رَضِيعِهَا وَهِيَ تَرَاهُ بَيْنَ أَمْوَاجِ النَّيْلِ أَوَّلًا، ثُمَّ بَيْنَ أَيْدِي آلِ فِرْعَوْنَ ثَانِيًا.

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ مِنْ شِدَّةِ حَزْنِهَا وَقَلْقَافِهَا عَلَيْهِ، كَأَنَّ تَرْفَعُ صَوْتَهَا بِالْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ مِثْلًا.

﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا﴾ بِالتَّثْبِيتِ.

(١) تَكَرَّرَ هَذَا النَّصُّ الْكَرِيمُ مَرَّتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فِي سُورَةِ يُوسُفَ / ١٠٩، وَسُورَةِ النَّحْلِ / ٤٣.

﴿وَقَالَتِ لَأُخْتِهِ قُصِّيهٗ﴾ اتَّبِعِيهِ وَتَقْصِي خَبْرَهُ.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ تحريمًا قدرًا، بمعنى المنع وليس التحريم التكليفي، فكلَّمَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ لَتَرْضِعَهُ أَبِي.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ يبدو أنَّهم بعد امتناعه عن الرضاعة صاروا يبحثون له عن مُرضِعة تُنَاسِبُهُ، فتوافد الناس تقرُّبًا لفرعون، فدَخَلَتْ أُخْتُهُ مَعَهُمْ وَقَالَتْ كَلِمَتَهَا دُونَ أَنْ تُثِيرَ الرِّيْبَةَ.

﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ أي: معروفون بالأمانة والنُّصح.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ والمقصود بوعده الله هنا: قوله تعالى المتقدِّم: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ وهو تأكيدٌ أَنَّ ذَلِكَ الْوَعْدَ إِنَّمَا كَانَ وَحْيًا عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَالَيْتُهُ حُكْمًا وَطِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١١﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ فَفَلَسَ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلًا يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ. وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ١٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَمَلْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَعَفَّرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٣ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ١٤ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٥ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ لَمَّا كُنْتُمْ لَنَا كُفْرًا أَفَإِن مَّ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ بِمَا كُنْتَ تَقُولُ لَنَا مَا نَحْمَدُكَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ بِمَا تَقُولُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَبْرًا ١٦ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ١٧ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١٨ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٩ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخَ كَبِيرٌ ٢٠ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢١ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آتِيَةٌ بِكَلْبٍ عَاقٍ ٢٢ قَالَ إِنِّي لَمَنْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٣ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتِفْجَارٌ إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرَتْ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ٢٤ قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجِجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ٢٥ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ٢٦﴾

موسى عليه السلام بعد أن بلغ أشده

يتقبل السياق القرآني ليعرض لنا مرحلة أخرى من حياة هذا النبي الكريم؛ حيث بلغ أشده وأوج قوته، وهو مُنجذبٌ في حياته الاجتماعية إلى جهتين متنافرتين: بيت فرعون الذي تولاه بالرعاية وأغدق عليه حتى بلغ أشده، وبيت بني إسرائيل، وهم أهله الذين كانوا يعيشون تحت وطأة فرعون وظلمه، وكان على موسى عليه السلام أن يختار موقفه، وهنا يأتي الحدث الذي يُعجل بتحديد المسار، ثم لتكون له آثاره وتداعياته الكبيرة والخطيرة، وكما يأتي:

أولاً: تضع السورة إطاراً عاماً لحياة موسى ﷺ؛ حيث بلغ أشده، فاتاه الله حكماً وعلماً، وجعله من المحسنين ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. ثانياً: في هذه المرحلة يحصل لموسى ﷺ حدث مهم في حياته؛ حيث استغاثه رجل من قومه على رجل من قوم فرعون في غفلة من الناس، فضربه موسى بعصاه فقتله دون أن يعلم بذلك أحد، والظاهر أنه لم يُرد قتله، ثم ندم موسى على فعلته هذه، وعدّها من عمل الشيطان: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْغَوَّيِّ فَاسْتَخَفَّهُ الَّذِي مِن شِيعِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، والمقطوع به: أن هذا كان قبل أن يُوحى إليه؛ حيث كان تكليفه بالرسالة بعد فراره منهم، كما هو معلوم.

ثالثاً: رغم شعوره ﷺ بالندم على قتل الفرعوني، إلا أنه وضع لنفسه قاعدة صارمة وحاسمة أن لا يكون عوناً لمجرم، جاعلاً هذا من تمام شكره لنعمة الله عليه ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

وهنا إشارة: أن الفرعوني كان ظالماً، وأن صاحبه الذي استغاث به كان مظلوماً؛ ولذلك لما استغاثه مرة أخرى نصره وهم بأن يبطش بعدوهما، وقد مرّ في فواتح هذه السورة أن فرعون كان يُذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فهذا أصل في العلاقة بين الفتيتين، لكن موسى لا يريد أن يستعجل المواجهة معهم، ومن ثم جعل فعلته تلك خطأ من الشيطان، ثم لأم صاحبه على كثرة خصومته مع قوم فرعون - كما سيأتي -، والله أعلم.

رابعاً: أخذ موسى بعد أن قتل الرجل الفرعوني يترقب الأخبار، وهو خائف مما سيحصل له، ثم قدر الله أن يرى صاحبه الإسرائيلي في خصام مع فرعوني آخر، فاستغاث به الإسرائيلي مرة أخرى، فأنبه موسى على كثرة خصوماته وإن كان من الفئة المظلومة:

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ لكنه لم يتخلَّ عن نصرته، فهمم بقتل الفرعوني ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَنِي كَمَا قَاتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

خامسًا: عرف الفراعنة أن موسى هو من قتل صاحبهم، فأتمروا لقتله، غير أن الله هبَّ له من يُحذِّره ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنَ الْمَلَأِ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰكَ مِنَ النَّصِيبِ﴾، فخرج موسى من أرض مصر فارًا بنفسه على خوفٍ وترقبٍ من فرعون وملئه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وكانت وجهته: أرض مدين شمال جزيرة العرب ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

سادسًا: على ماء مدين كان له مشهدٌ آخرٌ غير كثيرٍ من نمط حياته، حينما وجد الناس يسقون من الماء إلا امرأتين مُنْعزلتين عن الناس ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

سابعًا: ذهب موسى إلى ظل قريبٍ من الماء ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ يَدْعُوكَ لِيجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ لم يكن لموسى إلا أن يستجيب، فانطلق معها حتى وافى أباهما ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وهنا يظهر أن الله تعالى قد اختار لموسى ﷺ هذا البيت الصالح، وقد عرف موسى صلاح هذا البيت من حياة المرأتين، وحِرْصِ أبيهما على مكافأته بالخير أن سقى لهما، فاطمأن وقصَّ قصته التي أَلجأته إلى الخروج، فكان جوابُ الشيخ يُؤكِّد صلاحه وكرمه، وحُسن خلقه.

ثامناً: عَرَضَتْ إحدى المرأتين على أبيها أن يُبْقِيَهُ عندهم أَجِيراً يرعى لهم مَا شِئْتَهُمْ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَبَتِ اسْتَفِجْهُ إِنِّي خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرْتُ الْقَوِيَّ الْآمِينَ﴾ وكانت حاجتهم له قائمة، ولا يبعد أيضاً أن أباهما فهم منها أنها تُريده زوجاً، لكن تعريضاً يُنَاسِبُ أدبها وحياءها لا تصريحاً.

تاسعاً: تَوَجَّهَ الشيخ الكبير إلى موسى بما فيه الحكمة والمصلحة المشتركة له ولابنته ولضيفه: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجِجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

عاشراً: قَبِلَ موسى ﷺ عَرَضَ صاحب البيت، فتمَّ زواجه بالتي اختارها، وإشارة السياق أنها التي اختارته أيضاً، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ أي: بلغ مبلغ الرجال وكملت قوّته، وفيه أن (استوى) تدلُّ على الكمال والقوة، كما تدل على العلوّ.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: في وقت غفلتهم وراحتهم، بمعنى أنه لم يكن في طريقه أحدٌ إلا الاثنين المتخاصمين.

﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ الأول من بني إسرائيل، والثاني من قوم فرعون.

﴿فَاسْتَعَاذَهُ﴾ طلب منه الغوث والعون.

﴿فَوَكَزَهُ﴾ طعنه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ مات بتلك الطعنة، ولم يكن مُتعمداً قتله.

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه أدرك أن عاقبة هذا الفعل قد لا تكون خيراً عليه وعلى

قومه.

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ لن أكون عونًا لهم.

﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستغيثه ويطلب نجده.

﴿إِنَّكَ لَفَؤِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بمعنى أنك تتسبب في الشرّ بكثرة تعرّضك للخصومة، وليس فيه حكمٌ لصالح الفرعوني؛ إذ لو كان كذلك لما همّ بالبطش به، ولأنّه من غير المتوقع أن يعتدي الإسرائيلي - وهو من الفئة المستضعفة - على الفرعوني - وهو من الفئة الحاكمة -.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِلَا مَنٍّ﴾
مُحتمل أن يكون القاتل هو الإسرائيلي؛ لما رأى من غضبه ولومه الشديد له، فظنّ أنّه يقصده، وهنا قرينة: أنّه لا أحد غيره يعلم بقتل الأول.

ولا يبعد أن يكون القاتل هو الفرعوني، بدلالة السياق، ويكون قوله على سبيل التهمة؛ لأنّ حادثة القتل حصلت يقينًا، ولكنهم لم يعرفوا القاتل، فلما رأى هذا الفرعوني شدة موسى وجُرأته عليه حتى كاد أن يقتله، عرف أنّه هو القاتل؛ لأنه لم يعهد هذا في بني إسرائيل، وفي مثل هذه الحالات يكون مثل هذا الاتهام على سبيل الردع والتخويف، والله أعلم.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أي: يُسرع في مشيه.

﴿يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بشأن قتلك والانتقام منك.

﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ جهة مدين.

﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ السبيل السويّ والمستقيم.

﴿تَذُودَانِ﴾ تكفّان غنمهما عن زحمة الرعاة.

﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ حتى ينصرف الرعاة بأغنامهم عن الماء.

﴿وَأَبْرُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لم يُحدد القرآن هويّته، لكنّه ظاهر الصلاح والعدل، فلعلّه كان

نبيًا أو تابعًا لنبيّ، وقد انصرفت أذهانُ بعض المفسرين إلى شعيب عليه السلام؛ لأن مدين قومه الذين

بُعث فيهم، وليس هذا دليلاً كافياً؛ إذ قد يكون الزمن مختلفاً، والله أعلم.

﴿تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ استظلَّ بشجرة قريبة من الماء.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: فقير لمثل ما أنزلته عليّ من الخير، مزج بين شكره لله على نعمائه السابقة؛ إذ نجّاه من فرعون، وأعطاه العلم والحكمة، وبين دعائه؛ إذ هو الآن بحاجة إلى المأوى والغذاء وأسباب المعيشة.

﴿تَمْشَى عَلَى أَسْتِجْيَاءٍ﴾ قد تمكّن منها الحياء، وقد ظهر هذا الخلق الجميل فيها من طريقة مشيها.

﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لأنّ فرعون لا سلطان له على مدين.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَأُ اسْتَسْجِرُ﴾ أي: اتّخذه أجيّراً.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَسْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قيمتان متكاملتان من قيم العمل: القوة، والأمانة، وكلّ ما عداهما تبع لهما، ويدور في فلكهما.

﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٌ﴾ أي: تعمل عندي ثماني سنوات.

﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: إذا قضيت الثماني أو العشر فقد أدّيت ما عليّ، فلا تطلب مني الزيادة عليها، وربما كانت الحكمة الإلهية في بقائه في مدين وبيجوار هذا الرجل الصالح كلّ هذه السنوات الثماني أو العشر؛ لإعداده إعداداً يُناسبُ مهمته الكبرى التي تنتظره، والله أعلم.

﴿١﴾ فلما نفي موسى الأجل وسار بأهليه بالسب من جانب الطور نارا قال لأهليه أنكروا إلى ما كنت نارا أتلي ما بينكم وبينها فجرا أو
جندوز فبنت النار لعلكم تصطلون ﴿٢﴾ فلما أنشأها نوري من منطلي الواد الأيمن في البقعة العبركة من الشجر أن
بته من إلت أنا الله رب العالمين ﴿٣﴾ وإن ألق عصاك فلما رآها تهزأ فأنها جان ولئ مديرا ولم يعقب ينموني أقبل ولا تخف
إنيك من الأمنين ﴿٤﴾ أنشأ يدك في جيبك فخرج عصاة من غير شعور وأخضع إليك جنتك من الرقب فلذلك يهتفون من
زناك إلى فرعون وملأ بهد إلههم كانوا قوما فاسقين ﴿٥﴾ قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ﴿٦﴾ وأخي هرون
فرأفصح بني إسنا فازبلة معي ردما يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴿٧﴾ قال سنشد عضدك بأخيك وتجعل لكنا سلطانا فلا
يصلون إليك ما بيننا أضما ومن اتبعكما الغالبون ﴿٨﴾ فلما جاءهم موسى بآيتنا بينت قالوا ما هذا إلا سحر مثنت وما سيعنا
بهنا في ما بيننا الأولين ﴿٩﴾ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عتبة النار إني لا أبلغ الظالمين
﴿١٠﴾ وقال فرعون بآيها الملاء ما طمئت لكم من إله غيري فأوقد لي يثمن على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أبلغ إلى إله
موسى وإني لأظنه من الكذابين ﴿١١﴾ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إيتنا لا يرجعون ﴿١٢﴾
فأتاهم وجنوده فشدتهم في البية فأنظر كيف كانت عتبة الظالمين ﴿١٣﴾ وجعلتهم آية يذفون إلى
الكار ويوم القيامة لا يسمعون ﴿١٤﴾ وأتبعنهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المذبحون ﴿١٥﴾ ولقد
آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يذكرون ﴿١٦﴾

موسى عليه السلام والمهمة الكبيرة

أتم موسى الأجل ووفى بالشرط، ثم سار بأهله لتبدأ في الطريق مرحلة أخرى، هي
المرحلة الفاصلة في تاريخه عليه السلام؛ حيث اختاره الله رسولا إلى فرعون وملئه، وفيها يلي ومضات
من هذه المرحلة المباركة:

أولاً: في طريقه مع زوجته بعد أن أتم لأبيها الأجل، شاهد نارا على جانب الطور، فترك
أهله واتجه نحو النار؛ لعله يجد فيها من يده على الطريق، أو يأخذ منها جذوة لحاجته

وحاجة أهله ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢١﴾

ثانيًا: هناك على النار كانت اللحظة التاريخية التي يقفُ العقل أمامها عاجزًا عن إدراك كنهها، مُنبهًا بآثارها ونتائجها ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنِ يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾

ثالثًا: وفي تلك اللحظة أيضًا أظهر الله لنبيه آيتين من آياته مقترنتين بتكليف إلهي مباشر مؤذنٍ ببداية الصراع الطويل والمرير مع جبهة الباطل التي كان يقودها فرعون وملؤه ﴿٢٤﴾ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ ۚ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٢٥﴾ أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ يَدٌ بِيضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۚ فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٢٦﴾

رابعًا: عرض موسى ﷺ ضعفه البشري بتواضع العبد لخالقه، داعيًا منه سبحانه أن يُعْضِده بأخيه هارون ﷺ: ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٢٨﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسًا فَاذْهَبْ سَلَامًا عَلَيَّ رَدِّ ۖ أَيْصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٢٩﴾

خامسًا: استجاب الله لموسى سؤله، وزاده طمأنة وتثبيتًا: ﴿٣٠﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا ۖ أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣١﴾

سادسًا: بلغ موسى ﷺ رسالة ربه، فردّوه وكذبوه واتهموه بالسحر ﴿٣٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ۖ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٤﴾

سابعًا: تمادى فرعون في غيّه، وراح يُسخر طاقات أمته فيما لا طائل ولا فائدة منه، سوى إشباع غروره ونهمه في الاستعلاء على قومه واستعبادهم ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ إِنِّي آتِيهَا أَلَمًّا ۖ مَا عَلِمْتُ

لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرٌ فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَدُنْ عَلَى الْعِلَيْنِ فَاجْعَلْ لِي مَرْحًا لَعَلِّي أَدْلِيحُ إِلَى اللَّهِ
مُوسَى وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكَيْدِ الْحَقِّ وَذَلُّوا
أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾.

ثامناً: حَكَمَ الله عليهم كما حَكَمَ على المكذبين من قبلهم بالهلاك الدنيوي والعذاب
الآخروي ﴿٢٨﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُنُودُهُ، فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَكَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ
﴿٢٩﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٣١﴾.

تاسعاً: أَكَّدَ الله اصطفاء موسى لتلك المرحلة الحرجة من التاريخ البشري، وتأيدته له
بالتوراة التي جعلها الله هدى ورحمة، كما اصطفى الأنبياء السابقين، في إشارة إلى وحدة
الرسالة السماوية لدى كل المرسلين مهما اختلفت أسماؤهم وطبيعة أقوامهم ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾.

دقائق التفسير

﴿ءَأَنسَى﴾ أَبْصَرَ ووجد، وفي اللفظة معنى الأُنْس والارتياح.

﴿جَانِبِ الطُّورِ﴾ جهة الجبل الذي يقال له: الطور.

﴿لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ لَعَلِّي أَجِدُ عَلَى النَّارِ مَنْ يُخْبِرُنِي عَنِ الطَّرِيقِ الْمُوْدِّي إِلَى مِصْرَ.

﴿أَوْ جَذُوقٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ قَبَسَ مِنَ النَّارِ يَنْفَعُكُمْ فِي الدَّفْعِ وَنَحْوِهِ.

﴿شَطِيطِ الْوَادِ الْآتَمِينَ﴾ طرف الوادي الذي على يمين موسى ﷺ.

﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ من جهة الشجرة، وتجتمع هنا معالم تلك الأرض المباركة التي سمع فيها

موسى نداء ربه؛ جَبَلُ اسْمِهِ الطُّور، ووَادٍ، وشجرة.

﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ ذَكَرَ المفسِّرون هنا أَنَّ العرب تطلق الجانَّ على ضَرْبٍ من الحَيَّاتِ معروف بسرعة الحركة، ولا يبعد أَنَّهُ أرادَ واحدَ الجنِّ؛ لما هو معهودٌ في أذهان الناس من خِفَّتِهِمْ وسرعة حركَتِهِمْ، ويُعَضَّدُ هذا أَنَّ العصا قُلِبَتْ حَقِيقَةً إلى حَيَّةٍ، فكان تشبيهُها بالجنِّ أَقربَ من تشبيهها بالحَيَّةِ، والله أعلم.

﴿وَلِيَّ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ هَرَبَ خائِفًا مما حصل لعصاه ولم يرجع.

﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ.

﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ من غير عاهةٍ ومرضٍ.

﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أَصْلُ الجناح للطائر، واستُعِيرَ هنا لليد؛ تشبيهًا بحال الطائر حينما يضم جناحه إلى نفسه.

﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ من الخوف، ومعناه أَنَّكَ إِن خِفْتَ من منظر يدك ووهجها، فَضُمَّهَا إِلَيْكَ مرَّةً أخرى ترجع إلى طبيعتها.

﴿فَذَانِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد.

﴿وَإِخَى هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ اعترف بفضل أخيه وتميَّزه عليه في الفصاحة والبيان، رغم فضل موسى المطلق وتقدُّمه عليه، وهذا من الإنصاف وجميل الخُلُق، وفيه أيضًا أهميَّة الفصاحة والبيان في الدعوة إلى الله.

﴿رِدْءًا﴾ مُعِينًا وَمُؤَيِّدًا.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سَنَقْوِيكَ وَنَشُدُّ عَزْمَكَ بِأَخِيكَ، وفيه إشارةٌ أَنَّ الداعية في مهمته الكبيرة بحاجةٍ إلى المُعين، والأخ العَصِيد.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ بُرْهَانًا وَمَنْعَةً.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ لا يَمْسُونكما بسوء.

﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ أَغْلِبُونَ﴾ وعدُّ إلهي، وقد تحقَّق بهلاك فرعون وجُنده، ونجاة موسى وهارون ﷺ وقومهما.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ سببٌ من أهم أسباب الضلال والجمود، ذلك هو التمسُّك الأعمى بموروث الآباء والأجداد دون تفكير ولا تمييز.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ كلمة تهتزُّ لها الرواسي، وتشيب لها النواصي، فهذا المخلوق الذي لا يستغني عن لقمة الخبز، وشربة الماء، ومُعَاوَدَة بيت الخلاء في الصباح والمساء، يقف مُتَنَفِّسًا ومُتَشَبِّهًا بين ملئه وحاشيته بعد أن غطَّى عورته بثوبٍ من صنْع الفقراء والبُؤساء، لِيُعلنَ أَنَّهُ الإله الأوحدا

ثم يُصدِّقُه الغوغاء من كلِّ أعمى قلبٍ، ومطموس بصيرة، يلهثون خلف فُتاته وما تجوِّدُ به لهم يده، ولو أعملوا عقولهم لعلموا أَنَّهُ يتصدَّق عليهم بما سرقه منهم، ومن ثروات بلادهم.

إنَّها صورة مُكرَّرة تعكس علاقة الحاكم بالمحكوم في المجتمعات المُتخلِّفة التي يُعشِشُ فيها الجهل، فينهض فيها الفساد والاستبداد، ويكثر فيها التزلف والنفاق.

﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُّ عَلَى الطِّينِ﴾ حيث يتحوَّل الطين بالنار إلى حجارة صلبة، ويُسمَّى الأجرُّ أو الطين المفخور، فيكون أصلح للبناء وأدوم من اللَّبن، وهامان كان وزيرًا لفرعون.

﴿فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ بناءً عاليًا ومُشرقًا.

﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى﴾ وهذا من سخف عقله إن كان يعتقد أَنَّهُ بطينه المفخور سيبلغُ السماء، ولا يبعد أَنَّهُ إنَّما أراد إشغال الناس وإلهاءهم بهذا البناء عن حديث موسى ﷺ وما جاء به من الآيات الباهرات، ولأنَّ البناء يأخذ وقتًا طويلًا، وجهدًا كبيرًا، فهو أدعى لتحقيق الغرض.

وهذه طريقةٌ شائعةٌ عند الملوك لإشغال رعيّتهم وإلهائهم، وليس هناك من معلومات

يمكن اعتمادها في حقيقة هذا الصرح، وهل تمّ بناؤه بالفعل أو لا.

﴿وَأَسْتَكْبَرَهُوَ وَحُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَهَانَا لِيَرْجِعُوهُمْ﴾ فيه تأكيد للربط بين التكبر والبغي بغير الحق وبين نكران الآخرة والشك بعقيدة الحساب والجزاء.

﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ألقيناهم في البحر.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَارِ﴾ قادة يأخذون بأيدي من اتبعهم إلى النار.

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ خزيًا ومهانةً وهلاكًا.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ المبوذين والمعذبين في نار جهنم.

﴿بَصَائِرَ﴾ جمع بصيرة، بمعنى أن التوراة كتاب علم يُبَصِّرُ الناس بطريقهم، ويُرشدُهم

إلى ما فيه خيرهم.

سُورَةُ الْقَصَصِ

من الآيات

٥٧

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١١) ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (١٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٦) ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُورٍ﴾ (١٨) ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩) ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْهُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَا تَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢١) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٢٢) ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغَىٰ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٢٥) ﴿وَقَالُوا إِن نَّبَغِ الْمُتَدِينُ مَعَكَ نُنَخْطِفُ مِنْ أَزْوَاجٍ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبْنَ إِلَيْهِ تُحْرَمَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَرَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

الدعوة المحمدية

بعد شرح القرآن لقصة موسى ﷺ، التفت إلى واقع الدعوة المحمدية في مكة، وهي محل الخطاب، والمقصود بكل تلك القصص وما فيها من دروس وعبر، مع تأكيد متواصل ومكرر لطبيعة الصلة بين الدعوتين المحمدية والموسوية وأهميتها وخصوصيتها، ويمكن استخلاص المعاني التي وردت في هذا السياق بالآتي:

أولاً: ذكر القرآن بمعالم من قصة موسى ﷺ، في سياق التأكيد أن القصة هذه من وحي الله، وأنَّ محمداً ﷺ لم يكن يعلم عنها شيئاً، وأنَّ الغاية من كل هذا استمرار الرسالة الإلهية بها تحمله من بشارية وندارة، وهدى ورحمة ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا

كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

ثانيًا: أنذر القرآن المشركين بعد أن أقام عليهم الحجة، حتى لم يبقَ لهم عُذْرٌ يعتذرون به ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثًا: أورد القرآن اعتراضًا للمشركين ليس له وَجْهٌ، ولا ينمُّ عن علمٍ ولا نظرٍ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾، فردَّ القرآن عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ لَكُمْ

وواقع المشركين يشهد بأنهم مُحَالِفُونَ لرسالة موسى، مع مخالفتهم لرسالة محمد ﷺ؛ إذ نقضوا أصل الرسالتين باتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله، وكفرهم باليوم الآخر.

رابعًا: أثبت القرآن بطلان اعتراض المشركين، وأنهم غير صادقين في دعواهم، وإنما هو الضلال الناتج عن نزعة الهوى ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتُوبُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

خامسًا: أثنى الله على طائفة من أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتاب السابق والكتاب اللاحق، فأسلموا لله مرتين: مرةً باتباعهم للنبيين السابقين، ومرةً باتباعهم للنبي الخاتم عليه وعلى إخوانه الصلاة والتسليم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا بُنِيَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا

وَيَذَرُهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٢﴾

سادساً: أكد القرآن أن الهداية بيد الله وحده على وفق سننه في الابتلاء والاختبار، وليست بالأمانى؛ فمن اختار طريق الهداية هدي، ومن اختار طريق الضلالة ضل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

سابعاً: أورد القرآن اعتراضاً ثانياً للمشركين: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ نُخَطِّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ وهو اعتراض سياسي ربما اعتذر به نفرٌ منهم ممن لم يتجرأ على المجاهرة بالتكذيب، فهم يُعربون عن خوفهم من محاربة العرب لهم إن خالفوهم فيما يعتقدون؛ إذ كانت قريش سيّدة العرب بموقعها الديني، وسيطرتها على شعائر الحج، ورعايتها للحجيج.

وقد ردّ القرآن هذا الاعتراض أو الاعتذار: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بمعنى أنهم عندهم من الأمن ومن الرزق ما يُطمئنهم، ويدفع عنهم هذا الخوف، وقد أثبت الوقائع فيما بعد أن العرب كانت تنظر في تدنيها إلى قريش، فلما أسلمت أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً.

دقائق التفسير

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي: لم تكن يا محمد في الجانب الغربي من الجبل، والمقصود أنك لم تكن في تلك البقعة، وها أنت تروي لقومك تفصيل قصة موسى مما لا علم لهم به، وهذا دليل على نبوتك وصدق رسالتك.

﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وما كنت من الحاضرين.

﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: وما كنت يا محمد مقيماً مع أهل مدين، وها أنت تقص على قومك قصة موسى مع أهل مدين، وزواجه منهم، ومُكوّنه سنين بين

ظهرانيهم، وما دارَ بينه وبين ذلك الشيخ الصالح، فكل هذا دلائل مُستفيضة على صدق رسالتك ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تأكيد لما مضى، وبيان لمصدر هذه المعلومات، وهو الوحي والنبوة، وأن الغاية من كل هذا إنذار الخلق بصوت الحق، وما فيه من بيان لطريق النجاة، وتحقيق الرحمة والسعادة الأبدية.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (لولا) الأولى حرف امتناع لوجود، و(لولا) الثانية أداة طلب، والمعنى أنه لولا أن يعتذروا حين يقع عليهم العذاب بعدم مجيء الرسول إليهم، لما أرسلنا إليهم رسولاً؛ لعلمنا السابق بعنادهم وكفرهم، ولكن الله أراد أن يُقيم عليهم الحجة ولا يترك لهم عذراً.

﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ هو قول المشركين، يعتذرون به عن اتباع الهدى المحمّدي، كأنهم يقولون: لو كان مثل ما جاء به موسى لاتبعناه، وقد كذبوا في هذا؛ لأنهم كفروا بما جاء به موسى أيضاً من التوحيد؛ حيث عبدوا أصنامهم من دون الله؛ ولذلك قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾.

﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ سِحْرَانِ تعاونا وصدق أحدهما الآخر، ويقصدون به: التوراة والقرآن، وهذا تأكيد لكفرهم بالرسالتين؛ ولذلك قال: ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن، وهذا دفع لما اعتذروا به، وتبيين لكذبهم فيه؛ ولذلك قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى﴾ بيان لأكبر أسباب الغواية والضلال، إنه الهوى الذي يُعمي ويُصم، ويُبعد عن مقتضى العقل والعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فالظالم أبعد ما يكون عن الهداية.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أرسلنا لهم الرسول الذي يُبلغهم قولنا.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ قصد به: الذين أسلموا من أهل الكتاب وصدقوا برسالة محمد ﷺ، فكانوا حجة على غيرهم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مؤمنين بمحمد ﷺ قبل أن نراه؛ لأنه موصوف عندنا في كتبنا، وكنا ننتظر مجيئه.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ لأنهم آمنوا بالرسالتين: رسالة أنبيائهم السابقين، ورسالة محمد عليه وعلى إخوانه الصلاة والتسليم، ولأنهم آمنوا بأنفسهم وكانوا حجة على غيرهم، وهذا يتطلب قدرًا كبيرًا من الصبر والتضحية بالجاء والمكانة الدينية في أقوامهم؛ ولذلك قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وهو درس لكل صاحب علم أن لا يبيع ما عنده من الحق والعلم بغرض ومتاع زائل.

﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ وهذا نموذج لحلمهم وصبرهم، فكل صاحب علم يخالف قومه وما ورثوه من عادات وخرافات فإنه سيتعرض للسوء، وهو هنا مُطالب بالحلم والعفو؛ لأنه في مقام المصلح والداعي إلى الخير.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ صفة أخرى تُبين صدق هؤلاء في إسلامهم وتدينهم، والحديث لا زال عن علماء أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ وهذه من صفات العلماء أيضًا، حتى لا يختلط العلم باللغو، فيحصل ما نراه اليوم مما يمكن تسميته بفوضى المعرفة.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نطلبهم ولا ننازعهم فيما هم فيه، بل هم أهل للشفقة مهما بدوا فيه من الترف والتعيم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هداية التوفيق وتغيير القلوب، أما هداية التعليم والإرشاد فهذه مضمون الرسالة وغايتها.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وفقاً لسننه العادلة، فكلُّ مَنْ طلب الهداية هُدي، وحاشا لله أن يجبر أحداً على الضلال.

﴿نُخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: تأخذنا العرب إذا خالفناهم في دينهم، وينهون سلطاننا ووجودنا في مكة.

﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لأنه بوايد غير ذي زرع، فسخر الله من يأتيه بالثمار والطعام من خارجه.

سُورَةُ الْقَصَصِ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمَّا شَكَنْ مِنْ بَعْدِهَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أَوْثَقَ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْتُهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لِنَفْسِهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَّعُ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسْبَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِلَّ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَاسَمْعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وعد المؤمنين ووعيد المكذبين

عقيدة الجزاء هي العقيدة التي تدفع باتجاه التفكير الجاد بالمنهج الذي يُحققُ الغاية المنشودة في تحقيق السعادة الدائمة، ودرء العذاب والشقاء، ومن ثم نرى هذا التركيز والتأكيد في عرض هذه العقيدة في أغلب سور القرآن، وفي حوارات القرآن مع المكذبين والمُعاندين بشكل خاص، وهنا نموذجٌ لمنهجية القرآن هذه:

أولاً: ذكّر القرآن المشركين بعاقبة القرى المكذبة، والتي دفعها البطر والترف إلى هذا التكذيب، فعجل الله بهلاكها ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمَّا شَكَنْ مِنْ بَعْدِهَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾

تُسَكِّنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿١٥﴾

ثانيًا: أكد القرآن عقيدة العدل الإلهي، وأنه سبحانه لا يُعَذِّبُ أُمَّةً إِلَّا بعد بيان الحق لها، وإقامة الحجة عليها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

وفي هذا ردُّ على كل التصورات الخاطئة عن عقيدة القَدَر، والتعذُّر بها عن كل انحراف وخطيئة وكفر، فالإنسان هو الذي يُسَعِدُ نفسه أو يظلمها، وهو الذي يختار طريق الحق أو طريق الضلال.

ثالثًا: قارَنَ القرآن بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وبين أهل الوعد وأهل الوعيد ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾.

رابعًا: نقل القرآن لنا مشاهدًا من مشاهد المشركين في الآخرة؛ حيث يُناديهم الحقُّ سبحانه على سبيل التهكُّم واللُّوم والتقريع، ويسألهم عن أصنامهم وآلهتهم المزيفة، فيقرُّون بخيبتهم وخسارتهم، وضلال عقولهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

خامسًا: ثم ينقل القرآن مشاهدًا آخر يُنادى فيه على كافَّة الخلق بنداء واحد، وسؤال واحد: ماذا أجبتُم المرسلين؟ وهذا السؤال هو الفِصلُ بين أهل الحق وأهل الضلال، بين السعداء الناجين بإيمانهم واستجابتهم، وبين الهالكين بتكذيبهم وعنادهم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٩﴾ فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَمَسَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾.

سادسًا: يُذكر القرآن هنا بمعالي التوحيد الكلية: توحيدَه في الخلق، وتوحيدَه في الحكم،

وتوحيده في أسمائه وصفاته؛ إذ التوحيد هو عنوان الصراط المستقيم الذي يُفَرِّق بين أصحاب الجنة، وأصحاب الجحيم ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦١﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٢﴾.

سابعاً: يقيم القرآن الحجّة البالغة على وحدانيته سبحانه، وأنه هو وحده الذي يخلُق هذا الكون ويُسيره، ويُحكّم نظامه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾.

ثامناً: يعود القرآن إلى أصل الموضوع ليذكر بذلك اليوم المشهود، والنداء الذي يخطف الأبصار ويذهب بالألباب؛ حيث تنكشف الحقيقة كما هي، ويُقَرُّ الجميع بالحق الذي لا يملكون سبيلاً لإنكاره أو الصدود عنه ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾.

دقائق التفسير

﴿بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا﴾ كَفَرْتَ بنعمة الله وطغت فيها.
 ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ عاد مُلْكُهم لنا بانقطاعهم عن آخرهم، فلم يبق لهم وارث.
 ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ﴾ في أعظمها أو أهمّها.
 ﴿وَمَا كُنَّا مُتَهَلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي، ودفع لأيّ شبهة أو تورّم.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الآخرة

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ مما هو عندكم في الدنيا.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ هو وعد الجنة ونعيمها.

﴿كَمْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب، بمعنى: هل يستوي ذلك الموعود بالجنة والسعادة الدائمة بهذا الذي تمتع بالدنيا وزينتها، ثم أحضرناه للحساب؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ والمنادي هو الله الجليل تعالى، ونداؤه هناك بالصفة التي تليق به، وحسبنا أن نصمت ونتدبر في مدلول ذلك النداء الذي يخلع القلوب.

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: الوعيد بالعذاب.

﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ اعترافٌ وندمٌ ما بعده ندم، وحسرةٌ ما بعدها حسرة، فهؤلاء قادة الغواية والضلال يعترفون أنهم قد ارتكبوا الغواية مرتين: مرةً بغواية أنفسهم، والأخرى بإغواء أتباعهم.

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم، فلم يعد بيننا حبلاً من الصلة والود.

﴿مَا كَانُوا إِلَّا نَاعِبِدُونَ﴾ لأنهم إنما كانوا يتقربون منا ويستجيبون لنا ابتغاء الجاه والمتاع، فهم بذلك إنما عبدوا أهواءهم.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ جوابه محذوف ومفهوم من السياق، ومعناه أنهم لو كانوا يهتدون ويطلبون الهداية لما وصلوا إلى هذه الحال.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ بهتوا ولم يحيروا جواباً، ولم يجدوا قولاً أو خبراً يُجيبون به، ولا

يَعْلَمُونَ مَاذَا يَنْتَظِرُهُمْ بَعْدَ هَذَا السُّؤَالِ: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ؟ وَلَا يَسْتَطِيع أَحَدُهُمْ أَنْ يَسْأَلَ الْآخَرَ أَوْ يُعِينَهُ بِجَوَابٍ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بِمَعْنَى أَنْ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَجَابُوا الرُّسُلَ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، فَهُمْ يَعْرِفُونَ الْجَوَابَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ لِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ صُدُودِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الرُّسُلِ ﴿إِذْ تَمَنَّوْا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرْسِلَ غَيْرَهُمْ، فَكَانَ هَذَا سَبَبًا فِي ضَلَالِهِمْ وَكِبَرِهِمْ وَحَسَدِهِمْ.

﴿سَرْمَدًا﴾ دَائِمًا.

﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ بِنَهَارٍ تَسْعَوْنَ فِيهِ لَشُؤُونِكُمْ وَأَسْبَابِ رِزْقِكُمْ.

﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أَي: فِي اللَّيْلِ.

﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: فِي النَّهَارِ.

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَاهِدًا يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ تَأْكِيدُ أَنْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ لَمْ يَكُنْ عَنْ نَظَرٍ

وَفِكْرٍ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ.

سُورَةُ الْقَصَصِ

﴿إِنْ قُلُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَانْتُنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ لَنَسُوهُ بِالْعُنْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَانْبَغِ فِيَمَاءِ اتِّلَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤْبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُلُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْغَائِبُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَلَّا تَرَآذِكُ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

دروس من قصة قارون وتوجيهات ختامية

في الآيات الأخيرة من هذه السورة يعرض القرآن صورة مركبة، تجمع بين تاريخ الدعوة وواقعها، فتأخذ قطعة من تاريخ الدعوة الموسوية لتدججه مع الواقع الذي تعيشه الدعوة المحمدية في مكة، مع ومضات جليلة من التوجيهات الربانية، وبسياق يؤكد أننا في مدرسة واحدة منها تباعدت أيامها، واختلفت أماكنها:

أولاً: يعرض القرآن هنا قصة قارون؛ ذلك الرجل المليء، الذي أنعم الله عليه بالمال حتى غدا مضرب المثل الذي لا يُنافسه أحد، وكان من قوم موسى، فأغراه ماله بالخروج عنهم،

واختيار طريق الغواية والباطل ﴿ إِن قَرُونَكُمْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَأَيْنَهُمْ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ۖ ﴾ .

ثانيًا: يذكر القرآن أن قومه كانوا يدعونه إلى الخير، ويحاولون نُصَحَه وإنقاذه من هاوية الضلال التي أوقع نفسه فيها ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ ﴾ (٧٦) وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴾ .

ثالثًا: يردُّ عليهم قارونُ بلغة المتعطرس المغرور الذي ينسبُ النعمة إلى نفسه، ولا ينسبها إلى المنعم تبارك وتعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۖ ﴾ .

رابعًا: كان الناس يتفاوتون في نظرهم إليه؛ فأما أهل الدنيا فكانوا يتمنون أن يكونوا مثله، وأما أهل العلم فكانوا يُحذِّرون من طريقته وأسلوبه في الحياة، وعاقبته التي تنتظره وتنتظر أمثاله ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۖ ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ ۖ ﴾ .

خامسًا: لقي قارونُ جزاءه في الدنيا قبل الآخرة؛ ليكون عبرة لكل مُعتبر ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ۖ ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَاتِبُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَاتِبُهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۖ ﴾ .

سادسًا: نبّه القرآن الكريم إلى الحقيقة التي ينبغي أن يقف عندها الإنسان طويلاً، والعبرة التي ينبغي أن يتدبَّرها كلُّ عاقلٍ من قصة قارون وعاقبته البائسة، فالدنيا زائلةٌ بزيتها

وبهرجها ومتاعها وأموالها، وإنما العاقبة للتقوى وعمل الخير ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِينَ﴾.

سابعًا: يؤكّد القرآن مبدأ العدل الإلهي، فللمُحسِن الحسنَى ومزيد فضل، وليس للمُسيء إلا جزاء سيئته ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثامنًا: يؤكّد القرآن للنبيّ الخاتم سيدنا محمد ﷺ أنه مهما طالّت مُعاناته مع قومه وهم في كِبَرهم وعنادهم ومكرهم، فإن يوم المعاد بانتظاره وانتظارهم، ذلك اليوم الذي سيرفعه الله فيه مقامًا محمودًا، وسيسعّد به أصحابه ومُحبّوه وأتباعه، وسيشقى فيه مَنْ كذّبه وعاداه وعانده، وهو خطابٌ كذلك لكلّ داعٍ للحق إلى يوم الدين ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

تاسعًا: يؤكّد القرآن الاصطفاء الإلهي لهذا النبيّ الكريم ﷺ، وأن الله خصّه بهذا القرآن على غير تطلّع منه ولا تشوّف ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾.

عاشرًا: يُوصي القرآن كلّ مؤمن مُوحّد بثلاث وصايا - وإن جاءت صيغة الخطاب لرسول الله ﷺ خاصّة -، وهي:

- التمايز عن أهل الكفر والضلال، وعدم مُعاونتهم في كفرهم وضلالهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

- الدعوة إلى الحق، وعدم الاكتفاء بالعزلة عن الباطل؛ إذ بين الحق والباطل صراعٌ وجود لا صراعٌ حدود ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

- الثبات على عقيدة الحق، عقيدة التوحيد الخالص ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنْ قَرُّونَ كُنَّا مِنْ قَوْمٍ مُوسَى﴾ أي: من بني إسرائيل.

﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ خرج عليهم بظلمه لهم، وتكذيبه لنبیهم، ومآلاته لعدوهم.

﴿مَفَاتِيحُهُ﴾ جمع مفتاح.

﴿لَسَوْأَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ أي: إن حمل مفاتيحه كان يُثقل الجماعة القويّة من الرجال،

فكيف بخزائنه!

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ هو الفرح بالبغي والتعالي على الحق، أما أصل الفرح فمشرع،

ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وقال: ﴿فَإِذْ لَكَ فَلَافَرَحُوا هُوَ

خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ التوازن

والاعتدال، فهذا المال نعمة، والأجدر بصاحبها أن يستعملها فيما يُحقّق سعادته في الدنيا

والآخرة، وجاء التوجيه بقوله: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، مع أن الإنسان ليس من

شأنه أن ينسى هذا؛ ولكن لأنه سبق بذكر الآخرة، فقد يتوهم السامع أن العمل للآخرة

يستدعي إهمال الدنيا.

﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة لخطورة المال إذا استعمل في طرق الفساد.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: بقوّتي وخبرتي وبما أستحقّه من فضلي ومكانتي.

﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وصف ليوم من أيام الآخرة لا يملك فيه المجرمون

سؤالاً ولا جواباً، فهم يعرفون مصيرهم، والله أعلم بحالهم، فلا يسألهم سؤال المستفهم،

وإنما يسألهم سؤال التقرير واللوم والإذلال، وسيُجيبونه - كما ورد آنفاً - بما يؤكّد ندمهم

وإقرارهم بجريمتهم، وذلك في وقت مخصوص للحساب، وفي غير هذا، فإن الله لا يكلمهم

ولا يتقبل منهم قولاً ولا جواباً.

﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هذا هو معيارُ أهل الدنيا الغافلين عن الله واليوم الآخر؛ فصاحبُ الحَظِّ العظيم هو من يملك هذا المتاع وهذه الزينة، وإن كان سيُغادرُها مُجرِّدًا منها ومن كل شيء.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ فالعلماء ينظرون أبعدَ مما ينظر أهلُ الجهل وأهلُ الغفلة، فمعاييرُ السعادة عندهم لا تحكمها الشهوة الزائلة، ولا اللحظة العابرة. ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْضَّالُّونَ﴾ إشارة إلى أن مقاومة هذا الإغراء والإغواء بحاجة إلى صبرٍ مُتَأَصِّلٍ في النفوس، لا تُطِيعُ به التصورات القاصرة، ولا المنافسات الباطلة.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ ليكون عبرةً إلى يوم الدين، وجاء الخسف مناسبا لتطاوله وتعاليه على قومه وعلى النبوة والحق الذي كان معهم.

﴿فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ رغم كثرة خدَمه وحشَمه.

﴿وَمَا كَانُوا مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ بنفسه.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ أي: الذين تمنَّوا أن يكونوا بمكانه ومكانته من المال والجاه، وهم الذين تقدَّم قولهم: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾.

﴿وَيَكَاذِبُ﴾ كلمة مركبة لإرادة التعجُّب، وأصلها: (وي) وهي اسم فعل للتعجب، وقد أُضيف إليها كاف الخطاب للتنبيه إليها، ودججت مع (أَنَّ) التي تُفيد التوكيد.

﴿رَبِّسْتُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يُوسِّع على من يشاء، ويُضَيِّق على من يشاء؛ لحكمة لا تخفى، من تسخير بعض الناس لبعض، ولو كانوا على مستوى واحد لضاعت الأعمال والمِهَن، وهم في كل ذلك مُبتَلَوْنَ ومُتَحَنِّون؛ فالغنيُّ مُبتَلَى بالفقر، والفقر مُبتَلَى بالغني، والسعيدُ من عَرَفَ واجبه وأدَّى حَقَّه أينما كان، وكيفما كان.

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ بمعنى أن الله مَنَّ عليهم فلم يستجب لدعائهم أو تمنَّيهم الأول بأن يكونوا مثل قارون، وهذه إشارةٌ أن الإنسان لا يعلم الغيب، فلا ينبغي أن

يستعجل في دعائه، ولا أن يشعر بالغبن أو اليأس وهو يرى أمنيته بعيدة، فالخير لا يعلمه إلا الله، وكم من غنى افتتن به صاحبه فأوردته المهالك، وكم من فقير صبر عليه صاحبه فكان سبباً لعزته ورفعته.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾ بمعنى أن الدنيا فيها هذا التفاوت في الرزق، وليس فيه دليل على محبة الله لهذا ولا بغضه لذاك، أما الآخرة فتكون خالصة للصالحين الذين نجحوا في دار الاختبار، فلم يطلبوا علوًّا ولا فسادًا. والعلو هنا: التكبر المقترب بالفساد، أما العلو بالإيمان، وطلب السمو والعزة والهمة العالية فهذا من شأن المؤمن الموصول بالله ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ذلك فضل الله وكرمه. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذلك عدل الله تبارك وتعالى.

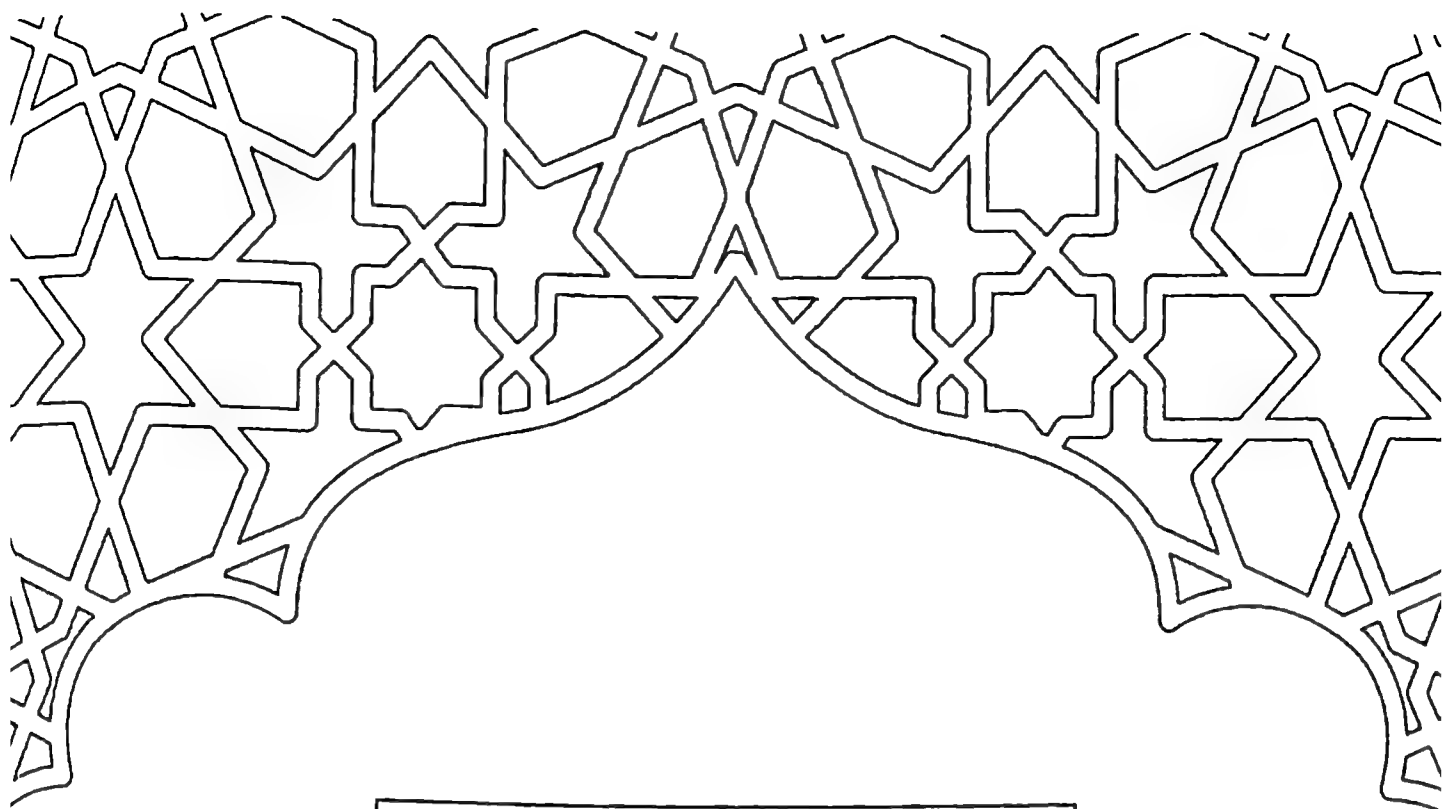
﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى ذلك اليوم الموعود، وهو يوم الحوض، والمقام المحمود، والشفاعة العظمى، فصلّى الله عليك وسلّم يا رسول الله، وحشّرنا تحت لوائك، وفي زمرتك وبين إخوانك وصحبك.

هذا الذي نراه أرجح في السياق، فالحديث عن الآخرة وكونها خالصة للمؤمنين، وفيه تسليّة له ﷺ وللصحابة المعذّبين تحت سياط المترفين والمتكبرين والمفسدين، كما أن السورة مكيّة، فيبعد أن يكون المراد إخباره بالرجوع إلى مكة بعد الهجرة، والله أعلم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: مُعينًا لهم، والخطاب للأمة في شخصه ﷺ فهو المبلّغ، وهو القدوة، كما قال في موضع آخر: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ورسول الله مُنَزَّهٌ عن كل ذلك.

وهنا لطيفةٌ دقيقةٌ: أنَّ هذا التوجيهَ جاء بعد قصَّة موسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، وقد جاء فيها قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ في تأكيد مُستمر على وحدة الرسائل السماوية بصورةٍ عامَّةٍ، وصلَّةُ هذه الدعوة المحمديَّة بالدعوة الموسويَّة بصورةٍ خاصَّةٍ.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ لا يصرفنَّك عنها، والقول فيها كالقول في سابقتها.
﴿وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أمر بالدعوة، في حقِّه ﷺ وفي حقِّ أمته من بعده إلى يوم الدين.
﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فلا ينبغي للمؤمن أن يتعلَّق قلبه بغيره سبحانه، فكل ما عداه هالكٌ وفانٍ.



سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

المجلس السابع والسبعون بعد المائة: فتنة الاختبار والتمحيص

المجلس الثامن والسبعون بعد المائة: ومضات من قصص النبيين ﷺ

المجلس التاسع والسبعون بعد المائة: حوار مع المخالفين والمكذّبين

المجلس الثمانون بعد المائة: العاقبة والمصير المحتوم

سُورَةُ الْغَنَاقِبُوتِ

﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَآبٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴿

فتنة الاختبار والتمحيص

الاختبار مقصدٌ من مقاصد خلق الإنسان، يتناسبُ مع وظيفته وطبيعته تكوينه، وغاية

الاختبار: التمهيد والتمييز بين الصالح والطالح ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المالك: ٢].

وفي هذه السورة تأكيدٌ لهذا المقصد في حقِّ الناس أجمعين، وفي حقِّ المنتسبين منهم للإيمان

أيضاً، وهذه معالم هذا المقصد العظيم كما بيَّنته فواتح هذه السورة:

أولاً: دَفَعَ الْقُرْآنُ تَوْهُمَ بَعْضِ الْمُنْتَسِبِينَ لِلإِيمَانِ أَنَّ دَعْوَاهُمْ هَذِهِ تُخْرِجُهُمْ مِنْ دَائِرَةِ

الابْتِلَاءِ وَالْإِخْتِبَارِ ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ فهذه سُنَّةُ إلهِيَّةٌ ثَابِتَةٌ فِي النَّاسِ كَافَّةً لَا

تَسْتَثْنِي أَحَدًا، وَلَا يَفِلِتُ مِنْهَا أَحَدٌ.

ثانيًا: أكد القرآن أن الإنسان مجزي بعمله، وأن الذين يقترفون السيئات سينالون عقابهم ولن يجدوا لهم مهربًا أو مخرجًا ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ثالثًا: أكد القرآن أن العامل إنما يعمل لنفسه، فما يزرعه يحصده، والله غني عن العالمين، فلا ينتفع من صلاحهم، ولا يتضرر من فسادهم ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ومن جهد فإنما يجهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين.

رابعًا: أكد القرآن سعة رحمة الله، وعظيم عفوه لمن أقبل عليه تائبًا، واستقام على الطريق الذي يرضي الله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

خامسًا: بين القرآن أن موضوع الاختبار لا ينحصر في الشعائر التعبدية؛ من صلاة وصيام ونحوهما، بل هو مساحة أوسع تشمل كل حياة الإنسان ﴿وَوَضَّيْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين.

وجاء تخصيص الوالدين؛ لأنهما الأقرب والأولى بالبر، فمن قصر معهما كان مع غيرهما أجرًا على التقصير.

سادسًا: بين القرآن طبائع بعض النفوس الضعيفة التي تتجه قلوبها نحو المصالح الآنية، فهم مترددون بين طاعة الله وطاعة البشر، وبين الخوف من الله والخوف من البشر، وهذا يعني أن عقيدتهم في الله مرتبكة ومهزوزة؛ ولذلك فهم يدورون مع شهواتهم ورغباتهم أين ما تكون، في طريق الرحمن أو في طريق الشيطان ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

سابعًا: أكّد القرآن أنّ علم الله الشامل والكامل مُحِيطٌ بسلوك الإنسان وخَلَجَاتِ نفسه، فلا يختلط عليه سبحانه إيمانُ المؤمنين بدعاوى المنافقين ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

ثامنًا: نبّه القرآن إلى سببٍ من أسباب السقوط في هذا الاختبار؛ حيث يتصدّى دُعاةُ الباطل للغافلين من الناس، يُرغّبونهم بالباطل، ويُطمئنونهم أنّهم يتحمّلون عنهم كلّ شيءٍ، كما يفعل اليوم من يُسمّون أنفسهم برجال الدين والمراجع الدينيّة، وكثيرٍ من المفتين الذين يدعون الناس لاتباعهم من غير تفكير، ولا سؤالٍ، ولا استدلالٍ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ تأتي الفتنّة لمعانٍ مختلفة، منها: الرِدّة عن الدين كلّهُ أو بعضه، ومنها: الفساد والاضطراب العام، لكنها هنا جاءت بمعنى الاختبار، وهو من أجلى مقاصد الخلق.

وفي الآية دفعُ توهمٍ من يتوهم أن المؤمن مُعاقٍ من الابتلاء؛ إذ المؤمن يعيش في هذه الحياة وهو مُعرّضٌ لعوارضها، ويبتلى في نفسه وأهله وماله كما الناس يُبتَلون، لكنه إنما يتميَّز عنهم بالصبر على المصيبة، والشكر على النعمة، فهما جناحَا النجاح، ومبعثُ السعادة والفلاح.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تأكيد أنّها سنّة ماضية لا تستثني أحدًا ولا تُحاييه.

﴿لَنَدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ لندخلهم الجنّة في رُمرة الصالحين.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ يعني أنّه يخشى من عذاب الناس كما يخشى من عذاب

الله، وهذا دليلُ جهله أو ضعفِ إيمانه، ولا شكَّ أنَّ هذا التصوُّر الخاطئ سيُنتِج نفوسًا مُتردِّدة تسقط في أوَّل اختبار.

﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ طلبًا للغنيمة المادية أو المعنوية، وهو ديدنُ المنافقين والمُتردِّدين واللاهثين خلف مآربهم أينما اتَّجهت.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ وَعِلْمُ اللَّهِ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ، فلا يحُدُّه مكان، ولا يمنعُه زمان، وإنَّما المقصود تجلِّي علمه تعالى في واقع الناس وسلوكهم بما يُقيم الحجة عليهم، ولا يدعُ عُذرًا لمُعتذر.

﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فكلُّ إنسان مجزيُّ بعمله، ومسؤولٌ عن نيته واختياره.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا سَبِيًّا فِي ضَلَالِ الْآخَرِينَ، فَتَحَمَّلُوا وَزَرَ الضَّلَالِ وَوَزَرَ الْإِضْلَالِ.

﴿وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْفَيْكَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ سؤالٌ تقريعٍ وتوبيخٍ، وفيه: أَنَّ ضلالتهم وإضلالهم لم يكن عن نظير وفكر، بل كان عن كذبٍ وافتراءٍ.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيِّئَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٨﴾ وَمَا أَنشَأَ بِمُعْجِزَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابَعُوا آيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُ مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿١٢﴾ ﴿ قَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَنَاتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِن أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ إِنِّي كُنْتُ لَنَاتُوكُمُ الرِّجَالُ وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُونَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا مَنَّلُونَا عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينِينَ ﴿٢٤﴾ وَعَادَا وَنَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعُونَ وَهَمَكُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٢٦﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

بعد بيان مقصد الخلق في الابتلاء والاختبار، والتميز والتمحيص، انتقل القرآن إلى النماذج العملية التي قسّمت الناس بالفعل إلى ناجحين وخاسرين، والتي أفرزتها دعوة الأنبياء ﷺ في تلك الأجيال المتعاقبة من مسيرة البشر:

أولاً: بدأ القرآن بقصة نوح ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿.

وهكذا تكون نتيجة الدعوة التي استمرت قرابة الألف سنة، أنها أفرزت موقفين مختلفين ومتميزين لأولئك القوم: مؤمنين ناجحين، وكافرين هالكين.

ثانياً: ثنى القرآن بقصة إبراهيم ﷺ ومجادلاته لقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ونبد الأصنام والأوثان التي يصنعونها بأيديهم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٢﴾.

ثم ذكّرهم بمصير الأمم السابقة ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَاغُ الْمَعِيتِ ١٣﴾.

وحثّهم على التفكير في الأرض التي يعيشون عليها وما فيها من دلائل وشواهد ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١٤﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٥﴾.

ثم أُنذَرهم العاقبة والمصير الذي ينتظرهم، وقوة الله عليهم، وإحاطته بهم ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ١٦﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُ لَكُم مِّن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨﴾.

لكنهم بعد كل هذا ردّوه وكذبوه، وأضرّموا عليه النار لحرقه، فأنجاه الله منهم ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سلط القرآن الضوء هنا على سبب هذا العناد وهذه المكابرة ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. إنه الولاء الأعمى للقرابة والصداقة، والبيئة المحيطة ولو كانت على الباطل، على قول القائل:

وَهَل أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرُشِدْ غَزِيَّةٌ أَرُشِدُ^(١)

واليوم يتخذ هذا السبب أشكالا جديدة، منها: الولاء للأحزاب والجماعات، ومنها: الولاء للأوطان والقوميات؛ حيث يُعطى للحق والباطل تصنيفا بعيدا عن ذات الموضوع وفكرته وأدلتها، وإنما بحسب هذه الولاءات المنحازة، فيكون مقياس الحق عند هذا غيره عند ذلك، وقد يختصمان ويقتتلان، وكلاهما مُقتنع تماما أن الحق معه.

لقد حذّر القرآن من عاقبة هذه الولاءات العمياء الصمّاء في الآية نفسها: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

ذَكَرَ القرآن بهجرة إبراهيم واستعلائه على كل تلك الولاءات، مُذَكِّرًا بصحبة لوط له ﷺ؛ حيث هاجرًا معًا تاركين الأقسام والأوطان، ومراجع الصبا وذكريات الشباب، وكلّ

(١) هذا البيت للزّيد بن الصّمّة ضمن قصيدة مطلعها:

أَرَتْ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ لِعَاقِيَةٍ، أَمْ أَخْلَقْتَ كُلَّ مَوْعِدٍ

ينظر: «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ص ٤٦٨ / دار نهضة مصر، ط سنة ١٩٨١م، تح علي محمد البجاوي)، و«العقد الفريد» لأحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (٦/ ٣٣ / دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤٠٤ - ١٩٨٣م، تح عبد المجيد الترحيني).

ثم وصل الملائكة بعد إبراهيم إلى لوط، فضاق بهم ذرعاً؛ لأنه يعلم أن قومه لا يُكرمون الضيفان، ولا يُراعون حقاً لقريب أو بعيد، فكانت عاقبتهم الحزى والهلاك ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ يَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِهِنَّ وَمِثْلَهُنَّ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمْلَأُ جَهَنَّمَ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ يَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِهِنَّ وَمِثْلَهُنَّ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمْلَأُ جَهَنَّمَ﴾ (٢٢) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾.

رابعاً: ذكر القرآن أيضاً بقصة شعيب عليه السلام مع أهل مدين؛ حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن الفساد في الأرض؛ إذ كانوا يُطِفُّون في الكيل والميزان، ليأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، فردُّوه وكذبوه، فأهلكهم الله كما أهلك أمثالهم ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

خامساً: ذكر القرآن تذكيراً سريعاً بقصتي عاد وثمود، وهما من قبائل الجزيرة العربية، وقد جمعتهما؛ لما بينهما من تشابه وتقارب في الأحوال والصفات، والأسباب والنتائج ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمُ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

سادساً: عرض القرآن نموذجاً مختصراً من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون، مؤكداً أن صفة الاستكبار كانت السبب في ضلالهم وهلاكهم ﴿وَقَرْنُوا لِفِرْعَوْنَ وَهَمَزَاتٍ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ ﴿٥٠﴾﴾.

سابعاً: في ختام هذه النماذج لخص القرآن أنواع العذاب الذي أصاب تلك الأقوام، مُبَيِّنًا ومؤكدًا لعقيدة العدل الإلهي، وأن كل هذا الذي حصل لهم إنما كان باختيارهم وظلمهم لأنفسهم ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ

وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾

دقائق التفسير

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ الظاهر أن هذه مُدَّة رسالته فيهم، أما عُمره ﷺ قبل البعثة فلم يتعرَّض له القرآن، والأولى السكوت عنه؛ لأنَّ البحث فيه بحثٌ بغير دليل، ولغير فائدة؛ إذ العبرة بصبره الطويل هذا، وما فيه من دروسٍ بليغةٍ في علاقة الداعي إلى الحقِّ بنفسه وبربه، ثم علاقته بأهله ومجتمعه، وحِرْصه على هدايتهم، وإنقاذهم على عنادهم ومكابرتهم، والسَّنة والعام بمعنى، وجاء بهما معًا؛ تجنبًا لتكرار اللفظ، والله أعلم.

﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ عبرة لهم، وعلامة تُرشدهم وتُبصِّرهم.

﴿وَإِذْ هَبْنَا دُخَانًا مِنْ دُونِ الْأَلْحَانِ لَتَرْيَبُنَّ طَبَقًا مِنْهُمَا فَلَمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَوْبِقِ وَأَنْذَرَ الْقَوْمَ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَمْلِكُوا وَلَاحِقٌ لَهُمُ الْيَوْمَ جُزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ إشارة أن العلم سببٌ للإيمان، وأنَّ الإيمان سببٌ لكلِّ خير.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تأكيدٌ أنَّ عبادة الأوثان ليست نظرًا وفكرًا، بل هي الإفك والبهتان؛ إذ الآلهة الصِّماء العمياء غالبًا ما يُرْسَخُها في أذهان العامة من له مصلحة في ذلك سياسيَّة أو اجتماعيَّة أو ماديَّة، وقد جاءت الإشارة السريعة إلى هذه الغاية الهابطة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ هذا مُشاهد ومحسوس في دورة النبات، من حياةٍ إلى موتٍ ومن موتٍ إلى حياة، والنظر الصحيح يقود إلى الإيمان بإعادة الإنسان أيضًا وبعثه بعد موته، والآية التالية تؤكد هذا المعنى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعدله وحكمته سبحانه.

﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ برحمته وسعة عفوه.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ بمعنى أنكم لا تجدون لكم مخرجاً أو مهرباً من عذاب الله وقدرته عليكم، لا في الأرض ولا في السماء.

﴿أُولَئِكَ يَبِيسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي: ييأسون من رحمته يوم القيامة؛ حيث لا تُقبل التوبة، ولا ينفع الندم، وأتى بالفعل الماضي؛ لتأكيد وقوعه.

﴿فَأَنْجَحَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ حيث كانت عليه برداً وسلاماً بقدرة الله ولطفه ورحمته.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ إشارة إلى دور العصبية والمصالح الدنيوية في تشبُّث الناس بأعرافهم وتقاليدهم ولو كانت باطلاً.

﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ﴾ حيث كان مع إبراهيم ثم هاجر معه ﷺ.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فإبراهيم أبو الأنبياء، والكتاب اسم جنسٍ يشمل الكتب السماوية كلها.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ تأكيدٌ لمستوى الانتكاس والشذوذ عن الفطرة الآدمية.

﴿وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ﴾ بإخافة المارة ونهب أموالهم وإجبارهم على المنكر.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ ظاهرٌ في أنهم قد غرقوا في هذا الخبث حتى في مُنتدياتهم ومجالسهم العامة.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ جاءته الملائكة يبشرونه بغلامٍ يولد له.

﴿كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ﴾ أي: من الباقيين في العذاب.

﴿سِئَاءَ بِهِمْ﴾ أصابه الغمُّ والهَمُّ.

﴿وَصَافَكَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ كناية عن خيرته وانسداد الأفق أمامه؛ وما ذاك إلا لخوفه على ضيوفه من قومه الذين خبرهم وعرف خبثهم وسفاهتهم.

﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عذابًا من السماء؛ حيث أمطروا مطر السوء، حتى هلكوا جميعًا.
﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: بقي من القرية آثارها المدمرة، وخرائبها الشاهدة على ذلك العذاب.

﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ اعملوا لليوم الآخر واطلبوا ثوابه.

﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ ولا تفسدوا.

﴿الرَّحْفَةَ﴾ الزلزلة.

﴿جَثِمِينَ﴾ خامدين مكبوبين على وجوههم لا حراك بهم.

﴿وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ﴾ من آثار منازلهم.

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: كانوا أهل عقول وبصائر، لكنهم عطّلوها بكبرهم وعنادهم، فليس لهم عذر ولا حجة عند الله.

﴿وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ﴾ قادرين على الخروج والهرب من قدر الله وحكمه فيهم.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لوط؛ حيث أمطروا بالحصباء والحجارة.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود، وقد أهلكهم الله بالصوت، وهو طريقة من طرق التدمير لم يتوصّل لها العلم إلا حديثًا.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ قارون.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ فرعون وجنده، ومن قبلهم قوم نوح.

﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فالله هو الملك الحق،

وحاشا أن يصدّر عنه الظلم، وإنما هو ظلم الإنسان لنفسه بتكبره وعناده وحسده، وتغليب شهوة الدنيا وبريقها الزائل على ما عند الله من خير وفضل.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

من الآية

٤١٣ - ٤٥٢

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ أَتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٥﴾ وَلَا تَجِدُوا أُمَّةً أَحْسَنَ إِلَّا بِآلِي هِي أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَمَكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي شُكٍّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢﴾﴾

حوار مع المخالفين والمكذبين

بعد عرض كل تلك النماذج وما فيها من دروس وعبر تُلجئ العقول إلى التفكير الجاد بمصائرهما وما ينتظرهما، أخذ القرآن بمحاورة هذه العقول، وفتح آفاق التفكير أمامها، لعلها تتغلب على نوازع الشر وأسباب العناد، ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: يُقَرَّرُ القرآن قبل البدء بالحوار حقيقة أن الإِشْرَاقَ بالله واتخاذ آلهة من دونه دعوى باطلة مُتَهافتة لا تقوم على علم، ولا يُسندُها برهان، ومن ثَمَّ فالمشرك إنما يتمسك بالوهم الذي لا يدفع عنه ضرراً، ولا يجلب له خيراً ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾
وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾.

ثانيًا: يُقَرَّرُ القرآن صفاتِ الداعي الذي يحملُ هذا الدين، وَيُرْغَبُ الناس فيه ويجادلُ عنه، وهي صفات تُمزج بين العلم وبيانه، وبين العبادة الصادقة وآثارها في النفس والسلوك، وبين الاستشعار الدائم لمراقبة الله والخشية منه ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ابْتَغِ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

ثالثًا: يُقَرَّرُ القرآن قواعدَ للتحاور مع أهل الكتاب: المجادلة بالتي هي أحسن، وتمييز المحسن منهم عن الظالم، والتذكير بالمشاركات الإيمانية الجامعة ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

رابعًا: يُقَدِّمُ القرآن دليلًا قاطعًا على أَنَّ هذه الرسالة إنما هي وحيٌّ من الله، وليس للهوى البشريُّ فيها نصيب، وهذا الدليل يستند إلى أُمِّيَّتِهِ ﷺ وأنه لم يكن يقرأ من كتاب، ولا يعلم الخط والكتابة ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَتَاكَ الْمُبِطُوتُ﴾ ﴿١٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾.

خامسًا: يردُّ القرآن شبهةَ أثارها المشركون تتلخص في أنَّهم يُريدون آيةَ خارقة، وهذا مع ما فيه من مُماحكةٍ ومُجادلةٍ باطلةٍ دليلٌ على انتكاسة عقولهم، فإنَّهم لم ينظروا في مضمون الرسالة وما جاءت به من أخبارٍ وأحكام، والتي تحمل في ذاتها دليل صدقها، وتضمن السعادة والطمأنينة لمن يتبعها ويسير عليها، وتُحقِّق العدلَ بين الناس على علمٍ وبصيرة، فهذا كله كأنه لا يعينهم، ولا يستحقُّ النظر والتفكير فيه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا

وَيَبَيِّنُكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٥﴾

دقائق التفسير

﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ مثل
ضربه الله لحال المشركين وهم مُتَشَبِّهُونَ بأصنامهم وأوثانهم، فبَيْتُ العنكبوت لا يَسْتَقِرُّ ولا
يُثْبِتُ على أساس، وهو مُفَكِّكٌ مُخْتَرِقٌ تلعبُ به الريح، ولا يَبْقَى من قطرة ماءٍ ولا ذرَّة غبارٍ،
وهكذا حال العقائد الوثنيَّة التي لا تستند على دليل، ولا تُبنى على منطق، ولا تصمد أمام
التفكير، وليس لها جواب على سؤال، ولا قدرة على حوار.

ثم إِنَّ المشركين يستنصرونها ويستترزقونها، وهي أضعفُ منهم وأفقرُ منهم، وأما في
الآخرة فسيكْتَشِفُونَ أَنَّهُمْ ما استظلُّوا بشيءٍ، ولا احتَمُّوا بشيءٍ، وهكذا هي العنكبوت حينما
ترى بيتها يتهاوى بأدنى هبَّةٍ، وأقصر نفخةٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهذه الأصنام التي هي كبيت
العنكبوت ليست شيئًا، بل هي وهمٌ في وهمٍ، وسرابٌ في سرابٍ.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ لأنَّ العالم ينظر في
موضوع المثل ومغزاه، أما العايب الهازل فإنه يتعامل مع المثل بنفسٍ مريضةٍ، وعقلٍ غافلٍ.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ تلك هي الصلاة التي يُريدها الله، إنَّها
صلةٌ بين الإنسان وربِّه، وصلةٌ بين الإنسان وأخيه، إنَّها العبادة الممزوجة بالأخلاق ومعاني
الخير والنبل والفضيلة، أما حينما تنعزل الصلاة عن كلِّ هذه المعاني؛ حيث تقترن بالظلم
والنفاق والمنكر فهذه صلاةٌ مغشوشةٌ، تُشوِّه الدين، وتضرُّ العالمين.

وقوله: ﴿تَنْهَى﴾ أي: تزرع في صاحبها الوازع والرادع، فقامت في نفسه مقام الناهي، والله أعلم.

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وصف لأهمية تلك الصلاة وعظمتها، تلك التي تنهى عن الفحشاء والمنكر بدلالة السياق، والصلاة ذكراً.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ عقيدة تبعث في نفس المؤمن حسَّ الرقابة الذاتية، واستصحاب الخوف من الذنب والخطيئة، وتلك هي التقوى.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ خلق إسلامي رفيع، ومبدأ عزيز من مبادئ التحاور والتفاهم مع الآخر، وهو متضمن لحسن المعاملة بشكل عام، وضمان حقوقهم الكاملة دون بخس ولا ظلم، وإذا كان هذا في حق أهل الكتاب، فهو الأولى بين المختلفين داخل المنظومة الإسلامية.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بعدوان وخيانة ونحوهما.

﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ توجيه رباني بإعلان المشتركات العقدية والفكرية مع أهل الكتاب، وهذه حقيقة معرفية، وفيها غاية دعوية إصلاحية لا تخفى على لبيب، وليس في هذا ما يחדش عقيدة الولاء والبراء، بل هو من فقه العلاقات الذي يغيب في زحمة الصراع، وردود الأفعال المرتبكة وغير المتوازنة.

﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ فالذين ءانتههم الكتاب يؤمنون به، إبراز للذين أسلموا من أهل الكتاب، أو الذين كان بعلم الله أنهم سيُسَلِمون، وهو إبراز مقصود لتوسيع دائرة المشتركات، مع ما فيه من إقامة الحجة على المعاندين والمكذبين.

﴿وَمَنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: من أهل مكة، وأتى بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾ إشارة وبشارة باستمرار دخولهم في الإسلام.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيداً لأُمِّيَّة ﷺ، والأُمِّيَّة نقص في حقِّ كلِّ إنسان إلا في حقِّه ﷺ فهي شرف؛ لأنها تُثبتُ صدقَ الوحي، ونزاهته ﷺ في رسالته وما يُبلِّغه عن ربِّه؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِذَا لَازَ تَابَ الْمُبِطِلُونَ﴾ فكانت أُمِّيَّة قاطعة لهذا الارتياب.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بمعنى أن القرآن أبعد ما يكون عن الرِّيب؛ إذ هو يحملُ بنفسه آياتَ صدِّقه ودلائلَ وحيِّه. وفي الآية إشارة إلى أن الذين يُدرِّكون هذه الآيات وهذه الدلائل إنَّما هم أهلُ العلم، بخلاف الجاهلين والغافلين.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ تأكيداً أن الإنسان العاقل السوي لا يُمكنه إذا أطلع اطلعاً صحيحاً على هذه الآيات إلا أن يفتح لها عقله وقلبه، وعليه فالجحود ليس اجتهداً ولا رأياً صادراً عن نظير وفكر، وإنما هو العناد والظلم، ومُجانبة العدل في القول والحكم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هذا قولُ الظالمين الجاحدين، وليس الباحثين عن الحق، ولو كانوا صادِّقين في دعواهم لتفكَّروا أولاً في معاني آيات القرآن وما فيها من هُدي وعدلٍ ونورٍ قبل أن يطلبوا خوارق العادات؛ ولذلك ردَّ القرآن عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنَى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

من الآية

٥٣ - ٦٩

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هُرِّ الْعَذَابِ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣﴾
لَمُحِيطَةً بِالْكَافِرِينَ ٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥﴾ يَتَّبِعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذْ
أَرْضَى وَسِعَةً فَاتَى فَأَعْبَدُونِ ٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ
غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ وَكَأَنِّ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا
اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ
٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلَاكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ
٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ
٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ٦٩﴾

العاقبة والمصير المحتوم

بعد هذا الحوار وما تضمنه من قواعد ومبادئ، شرع القرآن بتذكير هؤلاء الناس بالمصير المحتوم الذي ينتظر الجميع، والذي سيلقى فيه كل الناس نتيجة أعمالهم، وحصاد حياتهم ومسيرتهم على هذه الأرض:

أولاً: يذكر القرآن استعجال المشركين بالعذاب، وهو استعجال مُتَضَمِّنٌ للجهل والعناد والمكابرة، غير أنهم إنما يهلكون أنفسهم، فالعذاب محيطٌ بهم، وسيواجهونه في أجله المحتوم ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هُرِّ الْعَذَابِ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣﴾
يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥﴾ يَتَّبِعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذْ

تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾

ثانيًا: يُخَاطَبُ اللهُ عباده المؤمنين أَنْ يتوجهوا إليه وحده، وأن لا يتشبَّثوا بحدود الطين والتراب إذا كان ذلك على حساب عقيدتهم ودينهم، وقد تقدَّم نموذج إبراهيم عليه السلام الذي ترك أرضه ومربع صباه، وهاجر بدينه إلى الله، وكأنَّ هذا التوجيه جاء ليُمهِّد الطريق ويُهَيِّئ النفوس للهجرة المباركة ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾.

ثالثًا: يُؤكِّد القرآن حقيقة هذه الدنيا وأنها ذاهبة إلى الفناء بكلِّ مَنْ فيها وما فيها، وأنَّ كلَّ نفسٍ مهما كانت كبيرة أو صغيرة، شريفة أو ضيعة، حاكمة أو محكومة، ستذوق كأس الموت، ولا يُستثنى من هذا القرار أحد ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. فالحياة التي يحكمها الموت ليست بحياة على الحقيقة طالَّت أم قصُرت، وإنما الحياة الحقَّة هي تلك الحياة الخالدة الباقية التي لا يعقبها موت، ولا يقطعها فناء.

رابعًا: يُبيِّن القرآن طريق النجاة في تلك الحياة الخالدة الباقية ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

إنَّه الإيمان والعمل الصالح، والصبر على لأواء الطريق ومشاقه وابتلاءاته، مع التوكُّل على الله، فهو المولى وهو النصير، وهو على كلِّ شيء قدير.

خامسًا: يُحذِّر القرآن من الانزلاق في مهاوي الغواية والضلالة، كما هو شأن أولئك الذين أغلقوا منافذ المعرفة فلم يسمعوا النذير، ولم يُبصروا الطريق، ولم يُفكِّروا في هذا الكون الذي يعيشون فيه ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٠) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ نَزَّلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾
 ثم يذكر القرآن هنا حالة من التقلب ونكوث العهد على طريقة العائشين واللاهثين وراء
 شهواتهم وأهوائهم ﴿٦٥﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلَاكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا
 هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾.

سادساً: يُذكر القرآن المشركين من أهل مكة بما أنعم الله عليهم من نعمة الأمن؛ حيث
 الحرم الشريف الذي جعله الله واحةً للأمن، بينما القبائل العربية حول مكة وفي صحراء
 الجزيرة يغزو بعضها بعضاً، وينهب بعضها بعضاً، وهذه نعمة تستوجب الشكر والتفكير
 العميق ﴿٦٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْخَظِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْيَالًا بَاطِلًا يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ
 اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٥﴾.

سابعاً: يعود القرآن للتحذير من أسباب الغواية والفتنة، فيذكر اثنين منها: الكذب على
 الله، والتكذيب بالحق.

والكذب على الله شأنُ الدعاة الضالِّين المُضِلِّين الذين يصنعون دينهم من وحي خيالهم،
 ونوازع شهواتهم ومصالحهم، وهؤلاء هم السدنة والكهنة وطبقات رجال الدين الذين
 يُزيِّنون للناس الباطل، ويُفتونهم بغير ما أنزل الله.

والتكذيب بالحق الصورة المكتملة للتي قبلها؛ إذ التصديق بالحق ينفي الباطل ويدحضه،
 فكانت الديانات الباطلة والمزيفة تسعى لتشويه الحق وطمسه وتكذيبه؛ لتُحافظ على
 وجودها ومصالح سدنتها وكهنتها، ومن ثمَّ كان التكذيب بالحق مُتمماً لصناعة الباطل
 والكذب على الله ﴿٦٥﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ
 مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٥﴾.

ثامناً: يختتم القرآن هذه السورة ببيان صفة الذين يستحقون الهداية والنجاح، والنجاة من
 مهاوي الفتنة والضلال ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٥﴾.

والمقصود بالجهاد هنا: بذل غاية الجهد والاجتهاد لمعرفة الحق والالتزام به، والثبات عليه
 مهما كلف من جهد وتضحيات، وهذا يعني أن هؤلاء جادُّون مع أنفسهم، صادقون في
 توجُّههم، لا يُلهيهم المتاع، ولا يستخفُّهم الرعاع، وهؤلاء هم المُحْسِنون حقًّا، وإن كانوا
 ضعفاء أو فقراء، مُحْسِنون لأنَّهم أَحَسَّنوا لأنفسهم أولًا، فأوردوها موارد الخير والهدى،
 و مُحْسِنون لغيرهم ببذل الجهد في سبيل إنقاذهم ونُصحهم، وتقديم الخير لهم، و مُحْسِنون إلى
 الحقيقة والعلم والمعرفة بطول البحث الهادف، والنظر الجادَّ بصدق وأمانة، هؤلاء هم
 الناجِحون في هذا الاختبار الكبير مهما نالهم من وصَبٍ وتعبٍ.

دقائق التفسير

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ على سبيل الاستهزاء أو التحدي، وإمعانًا في التكذيب
 والمُعَانَدَة.

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في علم الله وتقديره.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُكُمْ﴾ إشارة للخروج والهجرة عن
 الأرض التي لا يتمكن المؤمن فيها من المحافظة على دينه.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تأكيدٌ لحتمية الموت بتنزيله منزلة المحسوس من المطعومات،
 والتعميم على كل الخلق مؤمنهم وكافرهم، إلا أن تذوقهم له مختلف باختلاف رضا الله
 عنهم، أو سخطه عليهم.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: لننزلنهم.

﴿نَعَمْ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ تأكيدٌ لقيمة العمل، وهو هنا: العمل الصالح، وأنَّ الإنسان مجزيٌّ
 بعمله لا بنسبه ولا بجاهه.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ يعني أن كثيرًا من الدواب التي تعيش على

هذه الأرض لا تُقدِر على كسب رزقها بنفسها، ولكن الله ﷻ يرزقها ويرعاها.

﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وكذلك يرزقكم أنتم، وفيه إشارة لدفع التخوف من الفقر بعد أن رَغِبَهم بالهجرة من مكَّة في الآية السابقة.

﴿وَلِينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ هذه مناقشة عميقة لعقيدة المشركين، فهم لا يعتقدون في أصنامهم أنها هي التي خلقت السماوات والأرض، وسَخَّرَتِ الشمس والقمر، بل هذا الله وحده، لكنَّهم بعباداتهم وشعائهم ونذورهم ينصرفون إلى أصنامهم، فكانت المُقدِّمة شيئاً والنتيجة شيئاً آخر.

وهذه من غرائب المعتقدات، ونموذج صارخ من انتكاسة العقل البشري، إذ إنَّ منطق العقل السليم أنَّ الذي يستحقُّ العبادة والدعاء، وتتوجَّه إليه القلوب بالتوكل والطمأنينة إنما هو الذي بيده الخلق، وله القدرة على النفع والضرر، والرزق والمنع، والإحياء والإماتة ﷻ والآيتان التاليتان تؤكِّدان هذا المعنى وتُعمِّقانه بشواهد التوحيد المبثوثة في هذا الكون.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ يعني أنَّ هذه الدنيا إذا قُطِعَتْ عن الآخرة وعقيدة البعث والحساب والجزاء لم يَبَقَ فيها سوى اللهو واللعب، والمتاع الزائل.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: هي الحياة الجديرة بوصف الحياة؛ لأنَّها حياة دائمة لا يقطعها موت أو فناء.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عودٌ على بدءٍ في مناقشة المشركين، فبعد استنطاق عقولهم واعترافهم بأنَّ آلهتهم لا تخلق السماوات والأرض، ولا تُسَخِّرُ الشمس والقمر، عاد هنا لاستنطاق فطرتهم، فهم إذا كانوا في البحر واستشعروا خطر الموت من الغرق، تراهم يلجؤون إلى الله وحده، لكنَّهم بعد نجاتهم يتذكرون آلهتهم المزيَّفة تلك!

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا﴾ تهديدٌ ووعدٌ بصيغة الأمر.

﴿وَيَخْطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ بالغزو واعتداء بعضهم على بعض.

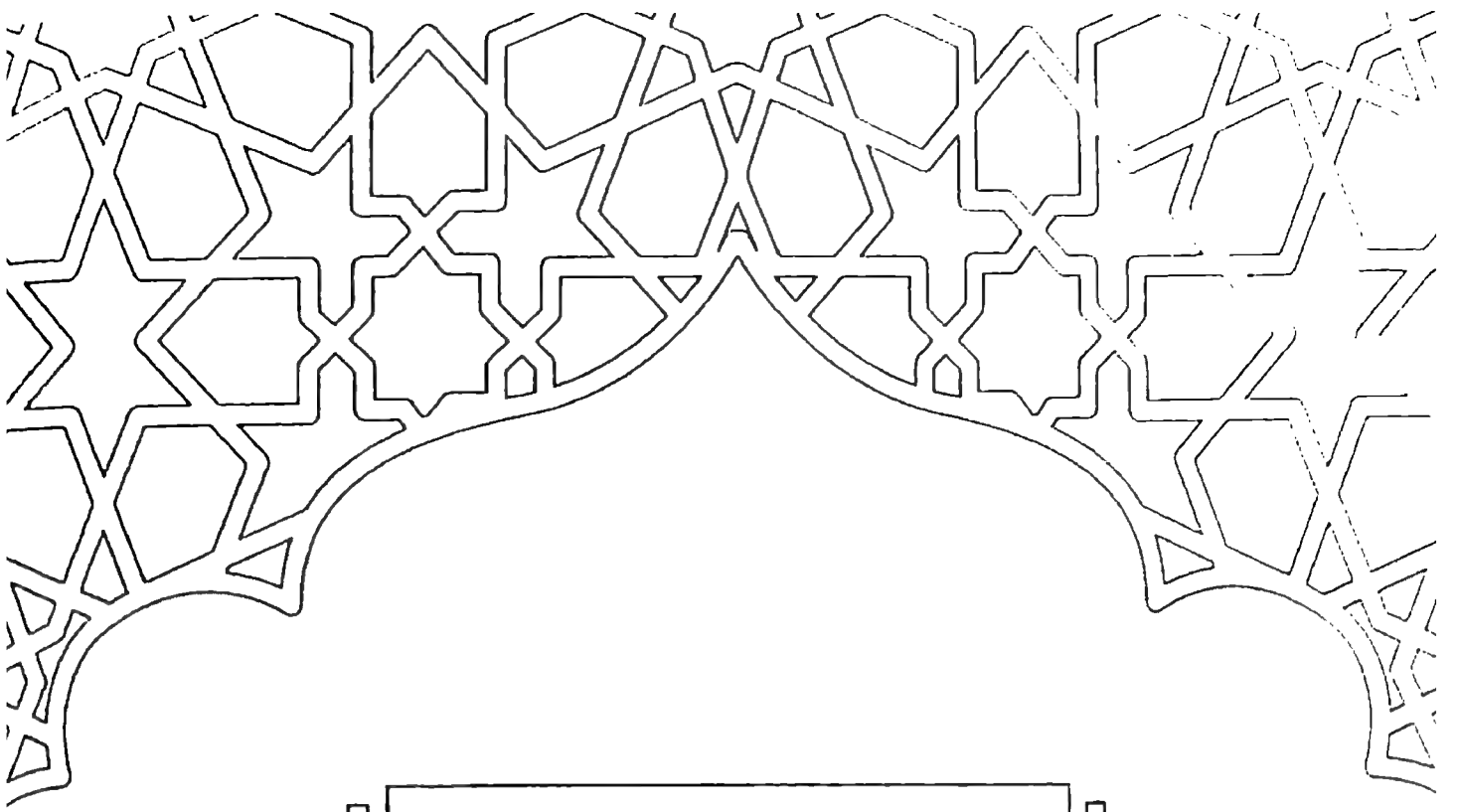
﴿مَتَوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ مقامٌ ومنزلٌ لهم.

﴿وَالَّذِينَ جَهِدُوا فِيْنَا﴾ بطلب الحق، والسعي له، والتمسك به، والصبر عليه.

ومعلوم أن هذه السورة مكيّة، بمعنى أنها نزلت قبل الإذن بالقتال، ومن جعل القتال طريقاً للعلم والهداية بهذه الآية، فالآية لا تُسَعِّفه، وإنما القتال في وقته داخلٌ في مضمون الجهاد العام الموصول إلى طريق الهداية، والله أعلم.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ جاء بصيغة الجمع - مع أن سبيل الله واحد - إشارة إلى كثرة طرق

الخير وتنوعها، وكلٌ مُيسَّرٌ لما يُناسبه ويُناسب إمكانيّاته واستعداداته، والله أعلم وأحكم وأرحم.



سُورَةُ الرَّوْمِ

المجلس الحادي والثمانون بعد المائة: صراع الحق والباطل

المجلس الثاني والثمانون بعد المائة: آيات الله في الكون والإنسان

المجلس الثالث والثمانون بعد المائة: المنظومة القيمية لبناء الإنسان والمجتمع المسلم

المجلس الرابع والثمانون بعد المائة: قصة الإنسان في حياته وعاقبة أمره

سُورَةُ الرُّومِ

﴿الذِّكْرُ﴾ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَكْلَبُونَ (٣) فِي يَضِيعِ سِنِينِ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

صراع الحق والباطل

تستهل سورة الروم بالتعليق على حَدَثٍ كبيرٍ كان يجري على الحدود الشمالية لجزيرة العرب، لتجعل منه مدخلًا أيضًا للحديث عن الصراع المديد والعميق في تاريخ هذا الإنسان بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر، وبين الحسنة والسيئة، ثم العاقبة والنتيجة المحتومة لهذا الصراع، وكما يأتي:

أولاً: كانت الأرض شمال الجزيرة العربية ما بين الشام والعراق تشهد صراع نفوذ وهيمنة بين الإمبراطوريتين العظيمتين: فارس والروم، وكانت فارس مجوسية وثنية، وكانت الروم كتابية نصرانية، وكان الصراع بين المؤمنين والمشركين في مكة يتأثر بما يجري هناك؛ حيث كان المؤمنون يشعرون أنَّ الروم أقرب لهم، على خلاف المشركين الذين كانوا يشعرون أنَّ الفرس أقرب لهم.

وقد نزلت فواتح هذه السورة للتعليق على خسارة الروم في معركتهم الأخيرة قبل نزول السورة؛ حيث انتاب المسلمين شعور بالغم والحزن، غير أن السورة حملت البشارة الأكيدة لهم بقرب انتصار الروم وهزيمة الفرس ﴿الْم ۝١ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۖ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾.

ثانيًا: بين القرآن سببين رئيسين لتمسك أهل الباطل بباطلهم؛ أولهما: الجهل، وثانيهما: الغفلة عن الآخرة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾.

ثالثًا: يدعو القرآن هؤلاء الناس إلى التفكير في أنفسهم وفي هذا الكون من حولهم، التفكير في سر الحياة، وأصل الوجود، والحكمة من وجود الإنسان على هذه الأرض وتمكينه من طاقاتها ومواردها ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾.

رابعًا: يدعوهم أيضًا للسَّير في هذه الأرض وأخذ العبرة من الأقوام السابقة، وما جرى لهم بعد تكبرهم وطيشهم وغرورهم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ ۚ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَى ۚ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾.

خامسًا: يؤكد القرآن حقيقة الآخرة، وأنها امتداد لهذه الحياة الدنيا، فالله الذي بدأ الخلق هنا سيعيده هناك، وإذا كانت البداية من أجل الامتحان والاختبار، فالإعادة ستكون

لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِينَ ﴿١٤﴾ سَادِسًا: يُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ أَيْضًا أَنَّ النَّاسَ هُنَاكَ فِي الْآخِرَةِ سَيَنْفَسِمُونَ إِلَى فَرِيقَيْنِ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿١٥﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٨﴾.

دقائق التفسير

﴿آلَمَ﴾ من الحروف المقطعة، وقد تقدّم الحديث عنها في سورة البقرة.

﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ في أقرب مكانٍ لأرض الجزيرة؛ حيث كانت المعارك بينهما تدنو وتبعد، لكن المعركة الأخيرة التي نزلت بسببها السورة كانت الأدنى، والله أعلم.

﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَاقِبُونَ﴾ (٢) فِي يَضِعُ سِينٌ ﴿٣﴾ وَعَدُّ إلهيٍّ واضحٌ ومحددٌ بانتصار الروم وكرتهم على الفرس، وقد حصل هذا بالفعل، فكانت معجزةً من معجزات النبوة، ودليلاً مضافاً من أدلة الوحي.

﴿وَيَوْمَ يُنْفِرُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) يُنْصِرُ اللَّهُ ﴿٢﴾ لِأَنَّ الرُّومَ كَانُوا عَلَى دِيَانَةِ سَمَويَّةٍ، وَكَانُوا عَلَى آخِرِ دِينِ نَزَلٍ، فَكَانُوا أَهْلَ حَقِّ مَعَ مَا شَابَهُمْ مِنْ شَوَائِبِ الْبِدْعَةِ وَالْإِنْحِرَافِ وَالتَّحْرِيفِ؛ إِذْ إِنَّ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ لَمْ تَخْرُجْ بَعْدُ مِنْ مَكَّةَ، فَبَقِيَ النَّصَارَى عَلَى مَا هُمْ فِيهِ قَبْلَ بَلُوغِهِمُ الدَّعْوَةَ الصَّحِيحَةَ مُتَوَقِّعِينَ، وَقَدْ يَكُونُ لكَثِيرٍ مِنْهُمْ الْعُذْرُ، فَإِذَا وَاجَهُوا دَعْوَةً وَثْنِيَّةً وَاضِحَةً لَيْسَ لَهَا صِلَةٌ بِدِينٍ وَلَا كِتَابٌ كَدَعْوَةِ الْمَجُوسِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَجِدُ نَفْسَهُ مُنْحَازًا لَهُمْ، يَفْرَحُ لِفَرَحِهِمْ، وَيَحْزَنُ لِحُزْنِهِمْ.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ تأكيد آخر لقرب تحقق النصر، أي: نصر الروم على الفرس، فهذا هو السياق، أما محاولة صرف هذا الوعد إلى وعد المسلمين بالنصر على المشركين، فهذا بعيد عن السياق، لكن لا يبعد أن يكون بطريق الإشارة واللزوم، بمعنى أن الله الذي ينصر الروم لما معهم من بقايا العقيدة السماوية، سينصر هؤلاء المؤمنين الموحدين أيضاً، بل هم أولى بنصره وتأيده سبحانه، والله أعلم.

﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يعلمون الظواهر الدنيوية؛ من أسباب الرزق والمتاع، والزينة والراحة، ولا يفكرون في دلائل هذه الموجودات، وسر هذا التنسيق والتكامل فيما بينها، فإنهم لو فكروا في هذا لوصلوا إلى الإيمان.

وهذا الذي عابه القرآن على مشركي العرب يُعدُّ اليوم ظاهرة طاغية في السلوك البشري؛ حيث الاهتمام الزائد والمبالغ به في أسباب النعيم والراحة، والبهرج والخيلاء، والإعراض عن التفكير في سر هذه الحياة وما وراءها، وحتى المؤسسات العلمية والتعليمية غداً فيها التركيز واضحاً ومُنحازاً بشكل كبير للعلوم المادية، والابتعاد عن العلوم العقلية والفلسفية، وهذا كله مؤثر على جنوح البشرية نحو المادة، والتعامل الظاهر مع مفردات الكون بما يحقق المتعة والشهوة لا بما يُقرب إلى الحقيقة الكامنة في هذا الوجود.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا سؤال فيه تأنيب شديد، فالإنسان الذي يُسخر عقله للتلذذ والتمتع بما هو موجود، ولا يسأل نفسه لماذا هو موجود أصلاً، وما الغاية من وجوده، ولماذا وجدت له هذه الأشياء، هو إنسان منكوس ومقلوب في تفكيره واهتمامه، وهو أقرب للسلوك الحيواني الذي يبحث عما يملأ بطنه، ويسدُّ شهوته، ولا يدري مُبتدأه من خبره.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ تأكيد أن هناك غاية لهذا الخلق، فلا يعقل أن كل هذا الذي نراه إنما هو للتمتع المجرد، والمنافسة في جمع الحطام والتباهي بالمظاهر والشهوات.

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ هذا تأكيدٌ متصلٌ أنَّ غايةَ الخلق ليست العمران المجرد، فالعمران بلا إيمان وبلا أخلاقٍ ستكون عاقبته الدمار والخراب، بل قد يكون الدمار والخراب في ثقافة العمران هذه نفسها؛ إذ هي ثقافة قائمة على التنافس والتباهي والاستعلاء الباطل، مما يجعل البشرية كلها تعيش في حالة صراعٍ دائمٍ، فما يُشيدُه هؤلاء يهدِّمُه غيرهم، وهذا هو المُشاهد والملموس في تاريخ البشر، وواقعهم المتجدد والمتكرر.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَ ﴾ فالسوء من العذاب جزاء السوء من العمل، ولا يظلم ربُّك أحداً.

﴿ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ تفسيرٌ للسوء الذي أثبتَه لهم بقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَوُوا﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: يأسون من رحمة الله.

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُم مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ﴾ أي: من أصنامهم وأوثانهم، بل سيكفرون بهم.

﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ بعد أن رفعت عنهم غشاوة جهلهم وعنادهم، وأيقنوا أنَّ ما كانوا عليه إنما هو الوهم والباطل.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ ﴾ إلى فريقٍ مختلفة؛ فمنهم المؤمن، ومنهم الكافر، ومنهم الشقي، ومنهم السعيد.

﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ في جنةٍ يُسعدون ويُسرُّون، وأصلُ الروضة: الأرض المخضرة بالماء والعشب.

﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظَاهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿٢٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

آيات الله في الكون والإنسان

في ثنايا الحديث عن صراع الحق والباطل والذي تقدّم في المجلس السابق، كان القرآن قد دعا المشركين إلى النظر في أنفسهم وفي هذا الكون من حولهم لعلهم يهتدون ويرشدون. وفي هذه الآيات يتناول القرآن صوراً ونماذج متعددة ومتنوعة من آيات الله الماثلة في هذا العالم المنظور، والتي تستفز العقل ليصحو من غفلته، ويهب من رقدته:

أولاً: نبّه القرآن إلى تنوع الأوقات في اليوم واللييلة، والتي هي مجال واسع للتأمل والتفكير

﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظَاهِرُونَ ﴾

ثم قرّن هذا التنوّع بخلق السماوات والأرض، إشارة إلى السبب الفلكي في تكوين هذه الأوقات، وهو الذي يُعرف علميًا بدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ثم نبّه إلى الدور الوظيفي لتقسيم اليوم إلى ليل ونهار، فالليل للسكن والنوم والراحة، والنهار للعمل وابتغاء الرزق ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

ثانيًا: نبّه القرآن إلى سنّة الله في الإحياء والإماتة، وما يُسمّى بدورة الحياة، والتي نراها ونلمسها كلّ يوم في النبات وغيره ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فهذه دلائل على حكمة الخالق؛ إذ لولا هذا لما استمرّ الخلق. وفيه أيضًا دليل الحياة الأخرى بالنسبة للإنسان ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

ثم نبّه القرآن إلى ظاهرة كونية تستدعي التأمل والتفكير؛ وهي دورة المياه على هذه الأرض، والتي تتجّ عنها دورة الحياة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخَيِّ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم أكّد أنّ الذي تقوم كلّ هذه الحياة بأمره قادرٌ على أن يبتّ فينا الحياة مرّةً أخرى، بل هذه هي سنّة الله في ما نراه ونلمسه في حياتنا الدنيا ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرَجُونَ ﴿١٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانُونٌ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثالثًا: نبّه القرآن إلى خلق الإنسان ثم انتشاره في هذه الأرض ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾.

رابعًا: نبّه القرآن إلى العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة، والتي هي أساس استمرار الحياة الأدمية وتكاثرها، وما ينبغي أن تُؤسّس عليه الأسرة لاستقرارها وعطاؤها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ

خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾

خامسًا: نبّه القرآن إلى اختلاف الناس في لغاتهم وألوان بشرتهم، وأنّ هذا جزءٌ من النظام الكوني العام، فالذي خلق الإنسان وكثره ونوّعه هو نفسه الذي خلق السماوات والأرض، ومن ثمّ نجدُ هذا التنسيق بين الإنسان وما حوله بما يضمن حاجاته واستمرار حياته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾.

سادسًا: بعد هذه التنبيهات والآيات الباهرات، أخذ القرآن بمناقشة هذه العقول واستنطاقها، وضربَ المثل لها من واقعها الذي تعيشه ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالله الذي خلق كلّ هذا الخلق وكثره ونوّعه، وأقامه على سنّةٍ واحدةٍ ونظامٍ واحدٍ كيف يأتي من يُنازعه في خلقه أو مُلكه ﷻ؟ والإنسان بفطرته وطبيعته لا يرضى أن يُشاركه عبده فيما يملك، أو أن يُنازعه في تدبير ماله وشؤونه مُنازعة الشريك لشريكه؛ بحيث يخشى منه ويحسب له حسابه.

سابعًا: في ثنایا هذه التنبيهات، جاء التأكيدُ المتكرّر لأهمیّة فتح منافذ المعرفة، والتحرّر من ربقة الغفلة والجمود والبلادة التي تغلق الآفاق الرحبة أمام الإنسان:

فجاء التنويه بأهمیّة التفكير: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ثم بأهمیّة العلم، والذي هو نتاج التفكير السليم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾، ثم نبّه إلى وظيفة السمع وما تتضمنه من الإصغاء ومحاولة التدبّر والفهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، ثم كرّر التنويه بالعقل، والذي هو أساس الفهم والعلم، والتفكر والتدبّر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم حذر من أصل الضلال وسببه الأول، ألا وهو الجهل وتنكُّب طريق العلم ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

فاعجب بعد هذا لمن يعرض الوحي بعيداً عن مقتضى العلم والعقل والفكر، ويدّعي التنازع والتضاد بين آيات الوحي ومُسلّمات العقل!

دقائق التفسير

﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يعني أن الله تعالى مُستحقٌ للتزنية والتفديس دائماً وأبداً، صباحاً ومساءً.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يعني أن الله تعالى مُستحقٌ للحمد من أهل السماوات والأرض، وفي كل وقت وحين، وهذه الآية والتي قبلها تُشيران إلى أهمية الذكر ليلاً ونهاراً، ومع الذكر التأمل والتفكير اللذان يقودان إلى معرفة الله وتزنيهِه سبحانه عن كل شريك، وعن كل صفة وحالة لا تليقُ به، وقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: وقت الظهيرة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إذ أصل الخلق كان من التراب الذي ليس فيه روح، ثم يكون من النطفة والحبة والنوى، وهي أشياء جامدة وإن كانت فيها مقومات الحياة الأولى، لكنها أشبه بالميت في جمودها وسكونها وعدم قدرتها على الحركة.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ في دورة الحياة المألوفة؛ حيث تخرج البذرة الجامدة من الشجرة النامية، وتخرج البيضة الساكنة من الطائر المتحرك.

﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد جدها وقحطها.

﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تشبيهٌ لبعث الناس وإعادة خلقهم بما يرونه في الدنيا من إحياء الأرض بعد موتها، ومن إخراج الميت من الحي، وإخراج الحي من الميت.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ حيث خلق الله أبانا آدم من التراب، ثم جعل أجسادنا تتغذى بالنبات الذي يتكوّن وينمو من الماء والتراب.

﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ خلق حواء من آدم، ثم خلق كل ذكر وأنثى من سلالة البشر أنفسهم؛ من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ بيان لوظيفة المرأة الأساس، وهي أن تكون المأوى المستقر الذي يملأ البيت بالسكينة والطمأنينة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بيان للقيمة المحورية التي تحكم العلاقة بين الزوجين، وهي قيمة مركبة من الحب والرحمة، وهي المعيار الحق الذي يقيس نجاح هذه العلاقة من فشلها، وكل قيمة أخرى أو حق آخر ينبغي أن يدور حول هذه القيمة؛ فالبيت الذي ليس فيه مودة ولا رحمة لا تنفعه وفرة مال، ولا كثرة عيال، ولا زينة ظاهرة، أو كسوة فاخرة.

وإنّ مما يجدر التنبيه إليه هنا: ظهور ثقافة المنافسة والمناكفة بين الزوجين تحت عناوين مختلفة؛ كإثبات قوة الشخصية، وعدم التنازل عن الحق، وكأنيهما يعيشان في قاعة المحكمة - وهي ثقافة غريبة عن أصولنا وعاداتنا -، مما كان له الأثر البالغ في زيادة معدلات الطلاق، والنفرة عن الزواج؛ إذ حقوق الزوجين أكبر وأدق من أن تحدّها أحكام قضائية، بل هذه الأحكام إنّما وُجدت لدفع الظلم، ورفع الضرر، وليست لإقامة الحياة السعيدة، فالسعادة أسمى وأرفع من ذلك، وما يطلبه الزوجان من حقوق ينالانه وزيادة في أجواء المحبة والرحمة أكثر بكثير مما ينالانه تحت حكم القاضي، أو فتوى المفتي.

﴿وَاخْتَلَفُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْمُ﴾ ذكر هذا الاختلاف في سياق التنبيه إلى آيات الله في الخلق مُشعِرًا بالامتنان، وعليه فإنّ هذا الاختلاف هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تمييز ومفاضلة، وفيه تأكيدٌ لعالمية الإسلام ونظرته العادلة للإنسان، خاصّةً أنه جاء بعد الحديث عن الأصل الواحد، والنشأة الواحدة.

﴿وَابْتَغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عملكم لطلب الرزق.

﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصواعق.

﴿وَطَمَعًا﴾ بالغيث والمطر.

﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أن تستقر على هذا النظام الكامل المتناسق، والذي أودعه الله فيهما بإرادته وحكمته سبحانه.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ بمعنى أن الله كما أقام السماوات والأرض بأمره، فهو القادر أيضا أن يأمركم بالخروج للحياة الثانية، فليس بوسعكم حينئذ إلا الاستجابة، وهي استجابة قدرية تكوينية ليس للإنسان فيها خيار.

﴿كُلُّ لَهُ قَانُونٌ﴾ طائعون مُستجيبون.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ تقريب لأذهان المشركين والمشككين؛ إذ إعادة الصانع لصنعه أهون عليه من اختراعها أول مرة، أما بالنسبة للخالق العظيم فكلاهما سيان؛ البدء والإعادة.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من حالكم وواقع حياتكم.

﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من عبيدكم، ومن هنا للتبعيض.

﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾ من هنا بيانية، وليست للتبعيض.

﴿فِي مَا رَزَقْنَكُمْ﴾ فيما تملكون من مالٍ ومتاع.

﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أنتم وعبيدكم متساوون في هذا الملك الذي هو لكم؟

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتعاملون مع هؤلاء العبيد، وتحسبون حسابهم وكأنهم مثلكم من حيث حقهم في التصرف بهذا الملك.

والمعنى الإجمالي لهذا المثل: أنه هل لكم من العبيد من يُشارِكُكم في أموالكم حتى يكون مثلكم سواء بسواء، حتى إنكم لا تتصرفون في هذا المال إلا بحضورهم وموافقتهم كما يفعل الشريك مع شريكه؟

وغاية المثل: أنَّ الله تعالى هو خالقُ هذا الخلق، وبالتالي فهو الذي يملكُه ويتصرَّف فيه بما يشاء، أما الادِّعاء بوجود آلهةٍ من هذه المخلوقات تُشاركُ الله في مُلكه وحُكمه، فهذا من أبطل الباطل.

[illegible]

بعد هذه التنبيهات وما تَضَمَّنَتْه من الإشارة إلى التناسق الكوني في منظومة الخلق، جاءت هذه الآيات لَتُنَبِّهَ إلى المنظومة القيمية التي يقوم عليها التشريع الإسلامي لبناء الإنسان المسلم والمجتمع المسلم، والتي يمكن استخلاصها في النقاط الآتية:

أولاً: الاستقامة على دين الله، الذي هو دين التوحيد والفطرة والإنابة والتقوى وإقامة الصلاة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

وهنا تنبيهٌ إلى التلازم والتكامل بين الدين والفطرة؛ إذ الفطرة صورة الإنسان المعنوية التي خلقه الله عليها كما هي صورته المادية التي جاءت بأحسن تقويم، ففطرة الإنسان تحمل في ذاتها البراءة من الغش والظلم والكرهية، والإسلام دين الفطرة؛ لأنه من وحي الله الذي خلق هذه الفطرة.

ثانياً: الوحدة القائمة على أساسٍ متينٍ من العقيدة الصحيحة: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

ثالثاً: الثبات على الحقِّ مهما تغيَّرت الظروف والأحوال ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

رابعاً: الاتزان النفسي في الرخاء والشدة ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ

كَسَفَا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۖ

خامسًا: التكافل الاجتماعي، وصلة الرحم، ورعاية المسكين والمحتاج، ومن انقطعت به السبيل ﴿ فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۖ ﴾

سادسًا: الامتناع عن الربا واستغلال الناس بالباطل ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيئُوا عِنْدَ اللَّهِ ۖ ﴾ فالربا يمحق البركة، ويقطع أواصر الرحمة والمودة في المجتمع، بخلاف الزكاة التي تطهر المال وتُنمِّيه، وتوطد العلاقة بين الغني والفقير، وتطهر المجتمع من أسباب التحاسد والتباغض والتدابُر ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ ۖ ﴾

سابعًا: التوحيد الحق لله الذي خلقنا وبيده رزقنا، وهو الذي يُحيينا ويُميتنا ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۚ هَٰذَا مِنْ شُرَاكِكُمْ مَن يَقَعُلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۖ ﴾، والتوحيد هو الأساس الذي تلتقي عليه المنظومتان العقدية والقيمية، وهو الأساس الذي يقوم عليه الدين كله.

ثامنًا: التربية على تحمل المسؤولية، فإنما يجني العامل ما عمل، ويحصد الحاصد ما زرع، على مستوى الأفراد والدول والمجتمعات ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۖ ﴾، ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۖ ﴾

تاسعًا: الاعتبار بأحوال الأمم السابقة، وما جرى لهم بعد ظلمهم وكفرهم وتكذيبهم للحق الذي جاءهم به أنبياءهم ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿١٠﴾، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ
لَجَرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

عاشراً: التشوُّف إلى رحمة الله، والبحث في هذه الأرض وما فيها من آيات ومن موارد
للخير والرزق ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إنَّها الحركة الدائبة المستمرة بين مجال النظر ومجال العمل، وبين مجال اكتساب الرزق وأداء
واجب الشكر، وكلُّ ذلك مُستند على عقيدة صحيحة وثابتة أساسها الإيمان بالله الواحد
الأحد، والاستعداد ليوم الحساب.

حادي عشر: فتح منافذ المعرفة، والبُعد عن الانغلاق والتعصُّب وكلُّ ما من شأنه أن
يُعطل أدوات التفكير والتعلُّم ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدِيرِينَ
﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَاقْمْ وُجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: أقبل على الدين واستقم عليه، ولا تلتفت عنه يمينا أو شمالاً.
﴿فَإِطْرَ اللَّهُ إِلَٰهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الفطرة صورة الخلق الأصلية في هذا الإنسان في
جانبها النفسي أو المعنوي، فكما أنَّ للإنسان صورة مادية جسدية، فكذلك له طبائعه التي
فطره الله عليها والتي هي صورته المعنوية، وعلاماتها في الإنسان أنَّها تظهر فيه من غير
تكلف ولا تعلُّم.

وذلك مثل حنان الأم؛ فالأم تمتلك هذه الصفة الظاهرة مهما اختلفت درجات التعلُّم
والتثقف، ومهما تباينت الأزمنة والأمكنة، ومثل هذا ظاهرة التدين التي لم يحُلْ منها شعبٌ

من الشعوب، أو مجتمعٌ من المجتمعات، وكذلك التنزُّه عن كشف العورات في اللقاءات العامة مهما كان دين الشخص ومستواه الثقافي أو المعيشي، وبالتالي فهناك ما يمكن أن نُسَمِّيه: سلوكًا مُنْسَجِمًا مع الفطرة، وسلوكًا شاذًّا عنها.

وهكذا في الأديان والمعتقدات والأفكار، فحينما نقول: الإسلام دين الفطرة؛ فإننا نقصد أنَّه الدين المُنْسَجِم مع الفطرة، والذي يَحَقُّق في الإنسان خصوصيَّته الإنسانية.

ولا ينبغي أن تُفهم الفطرة على أنَّها الإسلام نفسه؛ إذ الطفل يولد ولا يعرف عن الإسلام شيئًا ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، وعليه فقوله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»^(١)، إنما يعني أنَّ فطرته الأصلية مُنْسَجِمة مع عقيدة التوحيد ومبادئ الإسلام، فلو تُرك له الخيار قبل أن تتلوَّث فطرته لما اختار غير الإسلام، وليس معناه أنَّه يُولد وهو يُؤمن بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ، فهذا لا دليل عليه، ولا يصدِّقه الواقع.

﴿لَا بَدِيلَ لِمَخْلَقِ اللَّهِ﴾ نهيٌ بصيغة الخبر، أي: لا تُبدِّلُوا فِطْرَةَ اللَّهِ التي فطر عليها هذا الإنسان.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ العدل المستقيم الذي لا عِوَج فيه، والمُنْسَجِم مع مُقتضيات الفطرة السليمة.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راغبين إليه بالتوبة والاستقامة، وقد جاء بصيغة الجمع؛ للدلالة على أنَّ قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ إنما قصد به كلَّ المؤمنين وإن كانت صورة الخطاب لمحمد ﷺ.

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري، ينظر: صحيح البخاري (١/٤٦٥) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (٨/٥٢) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ أي: فِرَقًا مُخْتَلَفَةً مُتَنَاحِرَةً، وهذه نتيجة لتفريق الدين؛ فالأمة التي تنقسم في تصوراتها عن الدين ستنقسم في ولائاتها، وتفريق الدين لا يكون إلا ببعد الناس عن أصول الدين ومُحكّماته، ومصادره الصحيحة.

وقد رأينا اليوم من المنتسبين للإسلام مَنْ يُعرض عن القرآن والسنة، بل ينتقص منها ومَنْ نقلَها وحملَها إلينا، ثم يستمدُّ تصوراتَه عن الدين من الروايات التاريخية، ومما تقوله له مرجعيّاته الدينيّة وإن كان بلا حُجّة ولا دليل، فهذا السلوكُ مِنْ شأنه أن يُفرّق الدين الواحد إلى اثنين أو أكثر، وسيتبع هذا انقسام الناس أيضًا.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ حيث يتحول التدين من بحثٍ عن الدين الحق والتمسك به طريقًا للخلاص إلى ولاءٍ حزبيٍّ يتقرب فيه المتدين إلى مَنْ يوالونه ويواليهم، بغض النظر عن قُرْبِهِمْ أو بُعْدِهِمْ بالنسبة للدين نفسه.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَايَنَهُمْ﴾ تهديدٌ بصيغة الأمر، وكذلك قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وفيه إشارةٌ أنّ سعةَ الرزق قد تكون سببًا في الفتنة والكفر إذا لم يؤدّ الإنسان حقّها وشكرها.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: كتابًا سماويًا يُظهر حُجَّتَهُمْ.

﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يُؤيِّدُهم في دعواهم، ونسبة الكلام إلى الكتاب نسبةٌ مجازيّةٌ، فكأنّ الكتاب كائنٌ حيٌّ ينطق بحُجَّتَهُمْ، وغاية التشبيه هذا فيه تنبيهٌ إلى شدة تمسُّكهم بما معهم من الباطل، وكأنّ لديهم حُجّة ناطقة لا تحتل الشك.

﴿وَنَقْطُونَ﴾ يياسون من رحمة الله.

﴿وَيَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يُوسِّعه.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّق.

﴿فَاتِذَا لَفِئَتِي حَقَّ﴾ أمر بصلة الأرحام وأداء حقوقهم.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾ من انقطعت به السبيل فحِيلَ بينه وبين ما يملك، فهذا أهلٌ للمعونة وإن كان غنيًا حتى يصلَ إلى أهله وماله.

﴿لَا يَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ليزيد مالكم مما تأخذونه من أموال الناس.

﴿فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ بمعنى أنه وإن رأيتُموه يزداد بسبب الحرام والربا، فهو عند الله مُحْتَقَرٌ لا خيرَ فيه؛ لأنه سُحِتْ ومصيرُهُ النار.

﴿وَمَاءَ الْيَنْتَمِ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: تتضاعف حسناتهم، وهذا هو الأصل؛ إذ الزكاة عبادةٌ، وهي ركنٌ من أركان الإسلام، ولا يمنع أيضًا أن تكون المضاعفة بزيادة الرزق؛ لأنَّ الزكاة تُنمِّي المال وتدفع صاحبه للعمل به، وكذلك المُزَكِّي بحق يكون محبوبًا ومؤتمنًا ومحل ثقة التجار، وهذه من أسباب زيادة الرزق، والله أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا﴾ مُحاجةٌ للمشركين الذين يؤمنون أن الله هو خالقهم، وهو رازقهم، ثم يتوجهون بالعبادة إلى أصنامٍ عاجزةٍ ليس بيدها من أمر حياتهم أو مماتهم شيء.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ الفساد ضدُّ الصلاح، وظهوره في البرِّ والبحر، بمعنى أنه فسادٌ عام في العقائد والأفكار، والتربية والأخلاق، والبيئة وموارد الرزق، والعلاقات المختلفة بين الأفراد والدول والمجتمعات.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ يشمل كلَّ سلوكٍ بشريٍّ يخرجُ بهم عن الهدى المستقيم، وعن مقتضى الفطرة الآدمية والقيم الإنسانية، وفي مثل هذا السلوك تعمُّ الفوضى والآثرة المحرَّمة، وينقلب الذكاء والخبرة والتقدم العلمي والقدرة المادية إلى وسائل للتدمير والتخريب، وسفك الدماء، وصناعة الشقاء لهذا الإنسان، وهذا هو الذي نراه اليوم بعد انتكاسة الفطرة، وضياع الموازين الصحيحة والحاكمة لسلوك الناس.

﴿لِيَذِقَ لَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ بمعنى أن هذا الذي أصابهم هو بعض جزائهم الذي يستحقون، وفيه تهديدٌ ضمني لا يخفى.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بمعنى أن هذا الذي أصابهم يكفيهم للتفكير في حالهم وفي طريق خلاصهم، والرجوع مقصودٌ من مقاصد الابتلاء، فإن رجعوا كان هذا ابتلاءً محمودًا، وهو بمعنى التأديب، وإن لم يرجعوا كان انتقامًا - والعياذ بالله -، فهذه دالةٌ للتفريق بين مُسمَّى الابتلاءين: ابتلاء الله لعباده الذين يُحبُّهم ويُحبُّونه حتى يرجعوا إليه بكلِّيتهم مهما انتابتهم الغفلات والسهوات، وبين ابتلائه سبحانه للطاغين والظالمين، وهو ابتلاءُ النعمة والعذاب.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أمر بالحركة والبحث والتأمل والاعتبار، وفيه إشارةٌ لأهمية علم التاريخ، وكونه أحد روافد المعرفة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ يتفرقون هناك في الآخرة بحسب ما كانوا عليه من افتراق هنا في هذه الدار، فأهل الكفر إلى النار والشقاء، وأهل الإيمان إلى الجنة والرضوان.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: عليه وبأل كفره.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يُمهّدون بعملهم هذا طريقهم إلى الجنة والسعادة الأبدية.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فجزاؤهم كلّ من فضل الله؛ لأنه غنيٌّ عن أعمالنا، وفيه إيحاءٌ لطيفٌ بسعة هذا العطاء؛ لأنه نسبّه لفضله وليس لفضل الله حدًّا.

﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ بهطول المطر والماء الذي تحيا به الأرض.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من رزقه الذي أودعه في البرّ والبحر، وفيه ترغيبٌ بالسعي وترك القعود والتواكل والكسل.

﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ترغيبٌ بالشكر، والشكر أن تنسبَ النعمة إلى المنعم سبحانه، وتستعين بها على طاعته لا على معصيته.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على وفق سنن الله الثابتة وليس هو وعدًا مطلقًا؛ إذ قد نرى النصرَ المُقْتَرَنَ بالتمكين، وقد نرى النصرَ المُقْتَرَنَ بالنجاة فقط، وقد نرى الغلبة على المؤمنين لا بتعادهم عن سنن الله في هذه الحياة، وهذا كله واقعٌ ملموسٌ، وعليه شواهد من قصص القرآن، والقرآن يُفسَّرُ بعضُه بعضًا، أما النصر بمعناه الأخروي فهو الثابت بإطلاق، والله أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ دليلٌ على أَنَّ السماء هنا ليست السماء التي تُقابل الأرض، وإنما هي العلوُّ القريبُ الذي تُؤثِّرُ فيه الرياح.

﴿وَجَعَلَهُ كِسْفًا﴾ قطعًا من الغيوم.

﴿فَفَرَى الْوَدَقَ﴾ حَبَّاتِ المطر.

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ من بين السحاب.

﴿وَلِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: كانوا قبل نزول المطر آيسين مُحْبَطِينَ.

﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، وتشبيه عودة الناس مرة أخرى بعد موتهم بحياة الأرض بالمطر بعد موتها وجديها.

﴿وَلِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أخرى لا تحمل السحاب وإنما فيها إعصارٌ يهلك الزرع.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: رأوا زرعهم يصفرُّ بعد الخضرة.

﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهذا من غرائب فعل المشركين، فهم يعبدون الأصنام، ويسترزقون بها، فإن جاءهم البلاء سبوا الله ولم يسبوا آلهتهم!

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ﴾ يُشَبِّهُ الكافر المعاند الذي أغلق كل منافذ المعرفة بالميت الذي لا

يسمع.

﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ تشبيه آخر لهم بحال الأصمّ المُدبر، فهو لا يسمع ولا يرى الشفاه وهي تتحرك بالكلام، ولا يرى تقاسيم الوجه، بمعنى أنه غير قادرٍ على التقاط أية معلومة، وهكذا حال المعاندين.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ تشبيه ثالث بحال الأعمى الذي لا يعرف الطريق، ولا يُميز معالمه، وهكذا حال الغافلين.

﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ سماع المطيع المنقذ لأمر خالقه.

سُورَةُ الرُّومِ

من الآية

٥٤: ٦١

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤﴾
 ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ٥٥﴾
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦﴾
 ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧﴾
 ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٥٨﴾
 ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩﴾
 ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾

قصة الإنسان في حياته وعاقبة أمره

يُلخِّصُ القرآنُ في خواتيم هذه السورة قصَّةَ الإنسان من مراحل تكوينه وتطوُّر حياته حتى قيام الساعة، وما يعقبها من حسابٍ وجزاء، مع الإشارة إلى طريق الفوز والنجاة، إنه عرضٌ لخلاصة التجربة الإنسانية بمنظور الحقيقة الكبرى والقيم المُنْبِئَةِ عنها:

أولاً: ذكر القرآن مراحل خلق الإنسان من أيامه الأولى التي لم يكن يقوى فيها على شيء، ولا يستقلُّ بنفسه في مطعمٍ أو مشربٍ أو قضاء حاجةٍ، ولا يعرف ما حوله ولا مَنْ حوله، ولا ما يضره ولا ما ينفعه، حتى بلغ أشده مع الأيام، ثم ما لبث أن عاد إلى ضعفه مع تغرُّر في الصورة والشكل، فهناك كان طفلاً مُقبلاً على الدنيا، وهنا أصبح شيخاً مدبراً عنها، هناك ينتظر القوَّة والأشدُّ، وهنا ينتظر الموت والقبر: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

ثانياً: ذكَّرَ القرآن بذلك الأجل المحتوم والمصير الذي ينتظر الحياة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾.

في ذلك اليوم سينظر الناس إلى ما تركوه وراءهم من ذكريات دنيوية، فلا يراها الغافلون إلا ساعة عابرة ليست لها قيمة؛ لأنها كانت بالنسبة لهم ساعة لهو ومتاع، أما المؤمنون الذين

آتاهم الله الإيمان والعلم والحكمة فإنهم يعرفون ما الدنيا وما موقعها بالنسبة للآخرة، وما المسؤولية التي كانت مُلقاة على عاتقهم فيها ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْأَلُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثالثاً: آنذاك يصدر الحكم العدل بحق هؤلاء الذين ظلموا وتكبروا وأفسدوا في الأرض ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

رابعاً: للخلاص من تلك العاقبة البائسة، يبيّن القرآن طريق النجاة بالأدلة الواضحة، والأساليب المقنعة التي لا تُبقي عُذراً لمُعذِر ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِثَابِتَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فمشكلة هؤلاء أبداً لم تكن من جهة الفكر والنظر، بل من جهة العناد والمكابرة، فلقد طُبعت قلوبهم على الكفر حتى لم تعد تصغي لموعظة، ولا تنتفع بدليل. خامساً: يُوصي الله تعالى نبيه الكريم ﷺ وكلّ مَنْ آمَنَ به بوصية الثبات والصبر على طريق الحق مهما بلغت محاولات المبطلين في المكر والعداوة والاستفزاز ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ﴾ هي مرحلة طويلة تبدأ من النطفة فالعلقة فالمضغة، حتى الولادة ثم الطفولة التي لا يستقل فيها الطفل بشؤونه من غير رعاية وحماية.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ ضَعِيفٍ قُوَّةً﴾ وهي مرحلة الشباب والعمل والعطاء، وهي مرحلة طريفة لذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وهذه هي دورة الحياة، والتنبيه إلى هذه المراحل المختلفة يُذكر الإنسان بطبيعة خلقه حتى لا يغترَّ بقوته، ولا ينسى مُستقبله وما ينتظره. وفيه أيضًا إشارة إلى أن هذا الإنسان قد مرَّ بحياةٍ طويلةٍ ومُتنوعةٍ، وكانت تكفيه أن يعتبر ويتعظ، ويُفكر بما يصلح له في دنياه وأخراه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ هو من الجناس؛ إذ الساعة التي يقصدونها هي الوحدة القياسية لأجزاء اليوم، والتي كانوا يعرفونها في الدنيا، وهي غير ساعة القيامة، وقسمُهم هذا ناتجٌ من شدة جهلهم، وتسرعهم وقلة رويّتهم، وهو تعبيرٌ أيضًا عن دهشتهم وهول صدمتهم.

والأظهر أنهم يعنون أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعةً، وكأنهم يؤمّنون إلى أنهم لم يأخذوا وقتًا كافيًا للتفكير، وسياق القرآن بذكر مراحل الخلق من ضعفٍ إلى قوّةٍ إلى ضعفٍ يُعزّزُ هذا المعنى، والله أعلم.

﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق بعنادهم وتكبرهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ بإشارة تربط بين العلم والإيمان، فالعلم يقود للإيمان، والإيمان يُزكي العلم، ويوجه صاحبه نحو الخير والصدق، وشهادة الحق.

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: لقد لبثتم طويلًا قبل أن تُواجهوا هذا المصير البائس، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في علم الله وتقديره.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: اعتذارهم بجهلهم وضيق وقتهم، ونحو هذا.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يُستجاب لهم بإزالة اللوم والعتب الذي يستحقونه على جرائمهم، وما يتبعه من عذاب وعقاب.

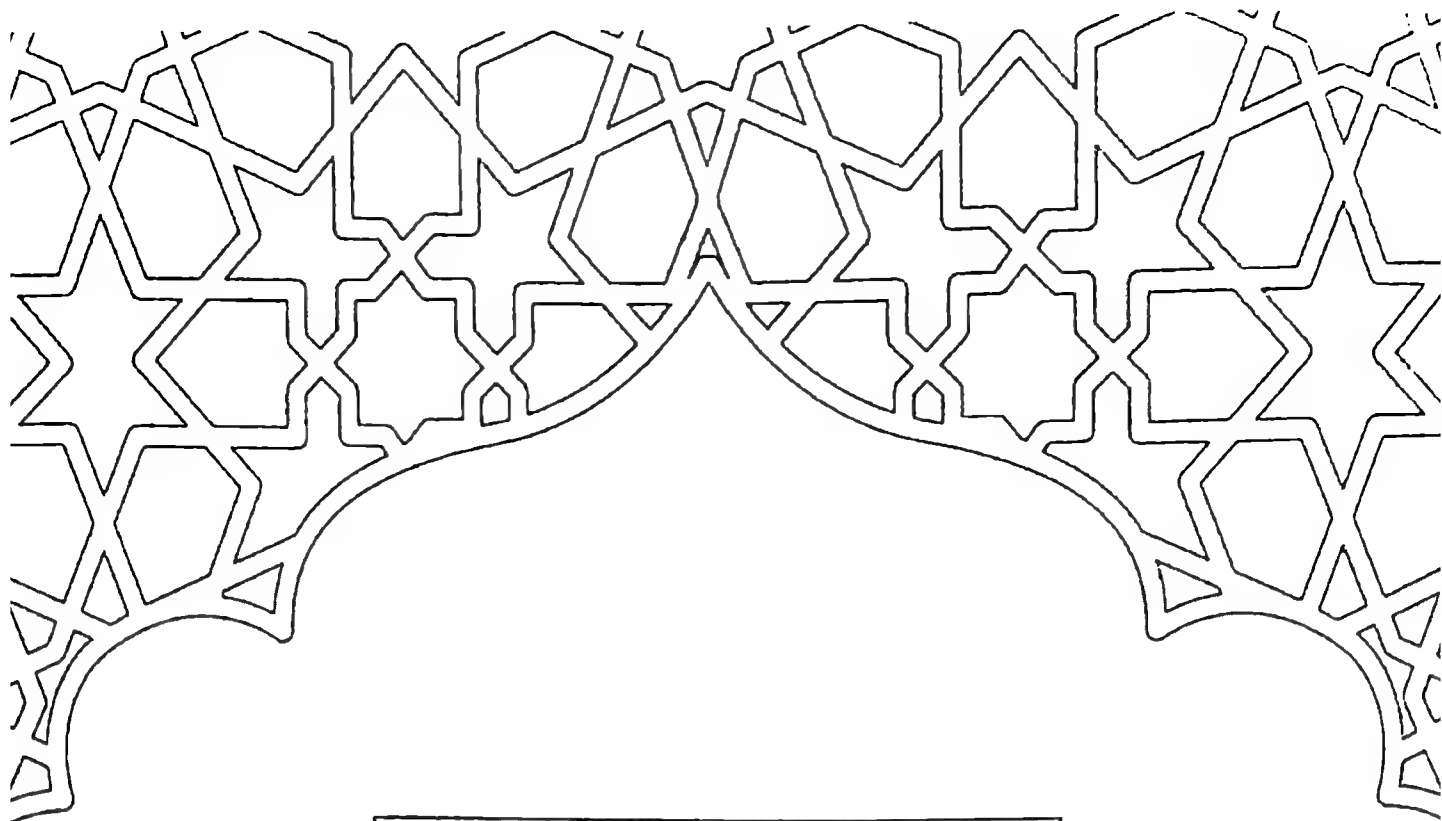
﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينّا لهم الحقّ بكلّ الطرق، وضربنا لهم الأمثال، وذكرناهم بحالِ الأقوام السابقين، إشارة لبُطلان حُجَّتْهم وما يُقدِّمونه من معذرةٍ واستِعتابٍ.

﴿مُبْطِلُونَ﴾ أصحاب باطلٍ.

﴿كَذَٰلِكَ يَظْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ممن تقدّمت أوصافهم، وهم أهلُ العناد والمكابرة الذين عطّلوا عقولهم، وأغلقوا عيونهم، وصمّوا آذانهم، وولّوا مُدْبِرِينَ، أما الذين لا يعلمون لعدم تمكّنهم من العلم وأدواته، أو أنّ الدعوة لم تبلغهم، فهذا الجهل الذي يُرجى معه قبولُ العُذر، والله أعلم.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فطريق الحقّ يستلزم الصبر، وذكر الوعد الحقّ يحدو بقلوب المؤمنين ويشدّها إلى الصراط المستقيم، فيُهوّن عليهم المصائب، ويخفّف عنهم المكائد.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ الاستخفاف من الحفّة التي هي مدعاة التردّد والتذبذب، والتوجيه هنا لكلّ مؤمنٍ ألا يستجيب لمزالتق الظالمين، وألا يَحِيدَ عن الطريق وراء كلّ شهوةٍ أو شُبْهةٍ.



سُؤَالَةُ الْقِيَمَاتِ

المجلس الخامس والثمانون بعد المائة: المنظومة القيمية والتربوية

المجلس السادس والثمانون بعد المائة: أهل الهداية وأهل الضلال

﴿الْعَاقِبَةُ﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمَنْ النَّاسُ مِنْ بَشَرٍ لَمْ يَلِدْ لَهُوَ الْكَافِرُ إِلَّا ضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا نُنَادَى عَلَيْهِمْ أَيْشْنَاهُمْ أَنْ تَسْمَعُوا كَأَن فِي أذُنِهِمْ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَافَ
السَّاعُونَ بِغَيْرِ عَمَلٍ تَرَوْهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَعْدِيكُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ
لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ
الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَضَعْنَا لِلْإِنْسَانِ يُولَدِيهِ حَمَلَتَهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى
الْمَصِيرِ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ
أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَبْنَىٰ إِنَّمَا إِنْ نَأَىٰ عَنْكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي
السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَبْنَىٰ أَفَعِدَّ الصَّلَاةَ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا
أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي سَبِيلِكَ
وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

المنظومة القيمية والتربوية

الموضوع الأساس لسورة لقمان موضوع تربوي جاء بمقدمات إيمانية مؤسّسة للقيم
التربوية، ثم تجسّدت هذه القيم بوصايا أب حكيم حريص على ابنه وهو يقدم له خلاصة
حكيمته وتجربته، واختيار الأب في هذا المجال له أكثر من مغزى ومعنى، ثم يأتي نصف
السورة الآخر ليرسم المعالم المميّزة لطريق الحق عن طريق الباطل، بتسلسل يوجي أن نقطة
الافتراق كانت نقطة تربوية، فالتربية السليمة تبني الإنسان السليم القادر على اختيار الطريق

الأفضل له ولمستقبله، بعكس ذلك البعيد الذي تشوّه عقله وتلوّث فطرته فتخبط في مهاوي الضلال والظلام.

أما منهج هذه السورة في بناء المنظومة القيمية التربوية - وهو لا شك جزء من منهج القرآن الشامل - فيمكن استخلاصه في النقاط الآتية:

أولاً: بيان مصدر هذه القيم والذي هو مصدر الإسلام كله ﴿الْعَمَّ﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿فَهَذِهِ الْقِيمُ وَالْأَحْكَامُ وَالتَّوْجِيهَاتُ لَيْسَتْ اجْتِهَادًا بَشَرِيًّا، وَلَا تَصَوِّرَاتٌ تُثَمِّلُهَا الْبَيْئَةُ وَالظُّرُوفُ الْمَحِيطَةُ فِي زَمَانٍ مَا أَوْ مَكَانٍ مَا، إِنَّهُ الْوَحْيُ الْمُنَزَّهُ عَنِ النِّقْصِ وَالْخَطَأِ وَالْإِنْحِيَاذِ وَالْمُحَابَاةِ.﴾

ثانياً: ذكر القرآن قِيمَتَيْنِ مُتِلَازِمَتَيْنِ، وهما من القواعد الكبرى في المنظومة القيمية: الهدى؛ وهو العلم النافع، والرحمة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ ثم ذكر القيمة الثالثة؛ وهي العبادة المبنية على الاعتقاد الصحيح والمنسجمة مع الهدى والرحمة ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم كرّر الإشارة إلى الهدى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وهذه القيم هي نفسها القيم التي أكّدها سورة الفاتحة: الرحمة، والعبادة، والهداية، مما يدلّ على أننا نقرأ منظومة مترابطة يقوّي بعضها بعضاً، ويؤكد بعضها بعضاً، وكما أكّدت سورة الفاتحة أنّ المتمسكين بهذه القيم هم الذين أنعم الله عليهم واختارهم من بين خلقه لنعمته ومرضاته، جاء التأكيد هنا بتميّزهم وإحسانهم وفلاحهم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والإحسان قيمة أيضاً.

ثالثاً: في مقابل هذه القيم الكبرى يذكر القرآن أضدادها من القيم المقلوبة والمعايير المنكوسة التي تُدَمِّرُ المجتمعات وتهوي بها في مهاوي الردى والضلال والهلاك، فيذكر الضلال الذي يُقابل الهدى، والجهل الذي يُقابل العلم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ يَذْكُرُ الْاِسْتِكْبَارَ وَهُوَ أَسُّ الضَّلَالِ، وَقَرِينُ الْجَهْلِ ﴿١٠١﴾ وَلَإِذَا نُنُنَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾.

رابعًا: يعود القرآن إلى التذكير بفصل التفرقة بين الحق والباطل، ألا وهو الإيمان ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿١٠٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٥﴾، ثُمَّ يُقِيمُ الْحُجَّةَ الْقَاطِعَةَ، وَالشَّوَاهِدَ الْمَلْمُوسَةَ وَالنَّاطِقَةَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ ﴿١٠٦﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۚ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠٧﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٨﴾.

خامسًا: بدأ القرآن بقصة لقمان وأسلوبه في تربية ابنه وتأديبه وتهذيبه مستهلاً بتزكية شاملة وعامة لهذه التجربة ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴿١١٠﴾ وهذا بمثابة التهيئة لقبولها والافتداء بها، والحكمة تعني: العلم، وتعني: الهدى، وتعني: وضع الشيء في مكانه المناسب، وتعني: التخطيط السليم وترتيب الأولويات، فهي القيمة الجامعة للخلال الحميدة، والفعال المجيدة.

ثم ثنى بالشكر ﴿١١١﴾ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴿١١٢﴾ وهي قيمة أخرى تعني: تجرّد الإنسان من هواه حتى لا يرى ما معه من العلم والحكمة إلا نعمة ربانية تستوجبُ الشكر لا الكفر، والتواضع لا التكبر، والرحمة بالخلق لا التعالي عليهم.

سادسًا: وكانت الوصية الأولى من لقمان لابنه: ﴿١١٣﴾ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ فالشرك أساس الظلم، ومنبع الخطايا والرزايا، فمن تجرأ على الله كان على غيره أجراً، ومن تسبّب في ضلال نفسه وأهله كان بضلال غيره أخرى وأولى.

سابعًا: في جملة معترضة يُعَرِّجُ القرآن على علاقة الولد بوالديه، ووجوب طاعته لهما، ومصاحبتها بالمعروف حتى لو كانا على دين آخر ﴿١١٥﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا

عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهُ، فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذِيكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ
تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى
نُورٍ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ قِيمَةٌ يَقْرَنُهَا الْقُرْآنُ بِالْإِيمَانِ
بِالله وإفراده بالعبادة، وقد مرَّ معنا قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿١٥﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿١٦﴾ [الإسراء: ٢٣].

وفائدة التذكير بحقوق الأبوين في هذا السياق لا تخفى، إلا أنه لا يبعد أن يكون المراد -
مع هذه الفائدة - أن لقمان أعادَ على ابنه هذا التوجيه الرباني؛ لأن الوصية بالوالدين من
ثوابت الشرائع السماوية كلها، وتذكير الأب ابنه بحقوق الأبوة ليس فيه مثلبة، بل هو من
تمام التربية المطلوبة.

ثامناً: بعد الإيمان بالله وبرِّ الوالدين شرعَ لقمانُ في بناء الرقابة الذاتية التي تجعل في
الإنسان رقيباً عليه من داخله، لا يفارقه في خلوة أو جلوة ﴿يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰۤاَتِ بِهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وهذه
الرقابة والحسُّ المُرَهَف هي التي تُسمِّيها التقوى، فليست التقوى سوى المراقبة والحشية
والحذر.

تاسعاً: بعد الرقابة الذاتية جاء التذكير بالصلاة؛ لأنها عنوان لصلاح العلاقة بالخالق
العظيم تبارك وتعالى ﴿يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلٰوةَ﴾ وإقامة الصلاة تعني المداومة عليها وأدائها على
الوجه الأمثل والأكمل.

عاشراً: بعد إقامة العلاقة الصحيحة مع الله تأتي العلاقة مع الخلق بالنصح، وتبيان الخير
من الشر، والمعروف من المنكر ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فهذه علاقة نافعة، وفيها
استشعار المسؤولية العامة لإصلاح المجتمع وسد ثغراته، ولأن هذه المسؤولية تواجه في

العادة صدودًا وفتنًا من أهل الشهوات والنزوات، لم ينس لقمان أن يذكر ابنه بالصبر ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

حادي عشر: ولترسيخ هذه العلاقة يُنبه لقمان ابنه إلى التحلي بالتواضع ولين الجانب ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

ثاني عشر: يحنن لقمان وصاياه لابنه بمسائل ذوقية وجمالية، وهذا باب واسع من دقائق الآداب التي تُضفي على الحياة بكل جوانبها وعلاقاتها طابعًا من الأُنس والسكينة والمحبة ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

دقائق التفسير

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وَصَفُ الْقُرْآنِ هُنَا بِالْحِكْمَةِ جَاءَ مُنَاسِبًا لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ الْأَسَاسِ؛ حَيْثُ سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِاسْمِ لُقْمَانَ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِالْحِكْمَةِ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ وَهَذِهِ إِشَارَةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ، لَا سِيَّمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَمْرًا مُبَاشَرًا بِالشُّكْرِ: ﴿إِنْ أَشْكُرَّ لَكُمْ﴾.

وقد وردت روايات تنفي عنه النبوة، لكنها لا ترقى إلى درجة الاحتجاج، والله أعلم. والخلاف في هذا لا يضُرُّ؛ لأنَّ لقمان ليست له شريعة إلا ما أورده القرآن عنه هنا في هذه السورة، والأخذ به مُتَحْتَمٌّ سواء كان نبيًّا، أم كان حكيماً من غير نبوة.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿تفسير للمحسنين الذين يستحقون أن يكون القرآن لهم هُدى ورحمة، فهم قد أحسنوا علاقتهم بالله وعلامة ذلك الصلاة، وأحسنوا علاقتهم بالخلق وعلامة ذلك الزكاة، وكان كل ذلك ابتغاء لوجه الله وطلباً لمرضاته وثوابه﴾ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ الَّذِي لَيْسَ لَهُ سَنَدٌ وَلَا تُرْجَى مِنْهُ فَائِدَةٌ.

ويشتريه بمعنى يأنس به ويهتم به حتى يبذل فيه وقته فكان كالمشتري له، وهناك من يشتريه بهاله إن كان يباع محفوظاً في كتاب ونحوه، أما اليوم فإن أموال الأمة تنفق على هذا اللهو أكثر بكثير مما تنفق على العلوم الصحيحة والبحوث النافعة.

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فذلك اللهو لم يكن لقضاء الوقت والتسلية فحسب، بل للصدّ عن سبيل الله، وإشغال الناس عن تدبّر هذا القرآن، والتفكّر فيما هم أحوج إليه لصلاح حالهم ومآلهم.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: يتخذ سبيل الله وآياته استهزاءً وسخريةً.

﴿كَانَ فِي أذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ثقلاً يمنعها من السماع.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ على خلاف ما اعتاده البشر من وضع الأعمدة التي يقوم عليها كلّ سقف مرتفع، وهذه آية ظاهرة يراها الإنسان بلا تكلف ولا تشوّف.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَعْمِدَ بِكُمُ﴾ أي: جعل في الأرض الجبال لتحفظ توازنها فلا تضطرب ولا تتحرّك إلا في مسارها المحدّد، واستقرار الأرض وكونها مُمهّدة لحياة الناس آية أخرى كذلك.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ربط بين استقرار الأرض وبث الحياة فيها، فلولا استقرارها وتمهيدها لما غدت صالحة لحياة الناس والأنعام، وكلّ كائن حيّ يتحرك عليها.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ بعد أن ذكر صلاحية الأرض لحياة الإنسان والحيوان نّه إلى صلاحيتها أيضاً للإنبات وإخراج الزرع والشجر، وبهذا تكتمل صورة الحياة، وقد جاء التنبيه إلى كلّ هذه الآيات المتناسقة لدحض ما يسعى إليه المبطلون من إشغال الناس بلهو الحديث عن هذه الحقائق الصافية والدلائل الهادية، ووصف النبات بأنه كريم دليل على رفع الحرج عن تسمية المخلوق بما يشبه صفات الخالق من حيث اللفظ لا من حيث حقيقة المعنى.

﴿ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ سؤال تعجيزي لأولئك المشركين الذين اتخذوا لهو الحديث بديلاً عن آيات الله، وحرّموا أنفسهم من الاطلاع على أسرار هذا الكون وما فيه من دلائل وشواهد، وهو سؤال يُحفّز العقل وينتشل من وهدة اللهو والعبث. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ تقدّم القول في لقمان ؑ في صدر السورة، ووصفه بالحكمة هنا تزكية له، وليُمهّد العقول والقلوب لتدبّر وصاياه الآتية والأخذ بها.

﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنّ فائدة الشكر تعود على الشاكر ولا تعود على الله، فهو الغنيّ الحميدُ سبحانه.

﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ فإنّها يكفرُ على نفسه أيضاً.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ ينصّحه ويذكّره.

﴿يَبْنِي﴾ نداء اللطف والمودّة والرحمة، وهذا خُلِقَ من أخلاق الدعوة الناجحة.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ ضعفًا على ضعف، فالحمل يُضعف الأم ويُرهِقها، ثم الطَّلَق والولادة كذلك، ثم الإرضاع وما تتطلبه رعاية الطفل من سهرٍ وحذرٍ ومتابعةٍ، فكلّ ذلك تعبٌ على تعب، ووهنٌ على وهن.

﴿وَفِيصَلُّهُ، فِي عَامَيْنِ﴾ الفصل الفطام، والسياق جاء لتأكيد الوهن الذي تُعاني منه الأم بسبب وليدها، وفيه أنّ مُدّة الرضاعة الشرعيّة حولان فما دون، بدلالة قوله: ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ و﴿فِي﴾ تحتلّ النقص ولا تحتلّ الزيادة، وقد ورد هذا الحكم صراحة في سورة البقرة ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَدِيكَ﴾ إعلاء من شأن الوالدين والبرّ بهما؛ حيث قرّنها بطاعة الله، وستى هذه الطاعة وذلك البرّ شكرًا؛ لأنّه جاء بعد التذكير بنعم الله أولاً، ثم بما يتحمّله الوالدان والأم خاصة من جهدٍ ومشقةٍ.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يُعَالِجُ القرآن هنا مسألةً معقّدةً وشائكةً، فالأصل أن طاعة الوالدين من طاعة الله، وشكرهما من شكره، لكن ماذا لو كان الوالدان في الطرف المضاد لمنهج الله؟ هنا يأتي التوجيه الربّاني الذي يوازن بين القيمتين؛ فطاعة الله مقدّمة على طاعة الوالدين قطعاً، فعلى الولد أن لا يستجيب لضغوطهما مهما بلغت في هذا الاتجاه، أما حقوقهما الدنيويّة من الرعاية والنفقة والاحترام فهذه محفوظة لهما مهما بلغا من الشرك ومن الحماس له والدعوة إليه، وفي قوله: ﴿وَصَاحِبُهُمَا﴾ على ما هما عليه من الشرك والمجاهدة؛ فيه دليلٌ أن مُصاحبة المؤمن للمُشرك لا تחדش الإيمان، ولا تنقُضُ عقيدةَ الولاء والبراء.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: من أقبل عليّ بالطاعة، وفيه ترغيب بصحبة الصالحين والافتداء بهم.

﴿يَبْنِيٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أراد أن الله لا يخفى عليه شيء مهما كان صغيراً أو دقيقاً، والخردل نباتٌ معروف، وحباته مضرب المثل في الصغر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ صفتان لله تفيدان إحاطة علم الله بالكائنات دقيقةً وجليلها، وأسبابها ونتائجها، واللطيف من اللطف المُوحي بمعرفة الخفايا والدقائق التي لا تُرى في العادة، والخبير مُوحي بالعمق، ومعرفة الجذور والأصول، والمُقدمات والنتائج.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ من الأذى، في إشارة أن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من شأنه أن يتعرّض للأذى بمختلف الطرق والأساليب.

﴿إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ بمعنى أن الصبر على هذا دليلٌ على العزيمة والقوة وصدق التوجّه، ويحتمل أيضاً أن تلك الوصايا كلّها مطلوبة على وجه الإلزام والعزيمة ولا تحتمل التهاون والرخصة.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تُعرض عنهم بجانب وجهك تكبراً وتعالياً عليهم.

﴿وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ جذلاً مغروراً بما عندك من مالٍ أو متاع.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ المختال هو المعجب بنفسه والذي يمشي مشية الخيلاء، والفخور يمتنُّ على الناس ويُفاخرهم بها عنده.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ الاقتصاد معناه الاعتدال، كأنه يقول له: لا تدبَّ دبيباً ولا تهرول هرولة، فالديبب علامة التكبر، والهرولة علامة الخفة.

﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ اخفض من صوتك، فلا ترفعه إلا على قدر الحاجة.

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أقبحها.

﴿أَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ وهنا مسألة دقيقة؛ إذ الحمار خُلِقَ من خلق الله، وصوته مخلوقٌ لله كذلك، والحمار ليس مُكَلِّفاً، وليس قادراً على تبديل صوته، فلا بُدَّ أن يَتَّجِه الإنكار إلى محلٍّ غير محلِّ الخِلقة.

والأظهر في هذا أن نقول: إنَّ صوتَ الحمار يُنَاسِبُ خِلْقَتَهُ ووظيفته، لكنَّه بالنسبة للإنسان مصدر إزعاجٍ وعدم ارتياح، ومن هنا جاء تشبيهُ صوت الإنسان المُزَعِج المُتْجَاوِز للحدِّ بصوت الحمار، ومن هنا كان الإنكار، والله أعلم.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٠٥﴾ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٠٦﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٠٧﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غِلَظٍ ﴿٢٠٨﴾ وَلَٰئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠٩﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢١٠﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرٍ أَكَلَهُمُ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١١﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢١٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢١٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢١٥﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٢١٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُقًا رَّبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَنْحَاثِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢١٨﴾﴾

أهل الهداية وأهل الضلال

بعد بيان القرآن لمنظومته القيمية والتربوية، شرع في بيان حال الناس وانقسامهم وفق هذه المنظومة؛ فمنهم من تربى عليها واستمسك بها فكانت له العروة الوثقى وحبله المتين وطريقه المستقيم، ومنهم من شطَّ عنها فتاه في غياهب الضلال، واتَّبَعَ وساوس الشيطان فأوردته موارد الجحيم، وقد جاءت هذه الآيات لتبيِّن حال الفريقين، ومعالم الطريقين:

أولاً: بدأ القرآن بالتنبيه على نقطة الافتراق الأولى، وهي قضية الإيمان، وراح يُخاطب العقل البشري ويدعوه للنظر في هذا الكون الفسيح، فالنظر قيمة عظيمة، وهي كذلك

المؤثر الأقوى على شعور الإنسان بجديّة الأمر وصدقه في طلبه، وبحثه عن الحقيقة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِرَبِّكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

ثانيًا: أما أولئك المؤمنون بوجوده سبحانه وبأنه خالق السماوات والأرض، لكنهم يُفسدون هذا الإيمان بخرافة الأوثان والأصنام، فيقول القرآن فيهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم يتعجب القرآن من صنيعهم ومناقضتهم لأنفسهم ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَافُتٌ لِّدَعْوَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ثالثًا: يبيّن القرآن أسباب هذا الضلال والانحراف؛ فيبدأ بالجهل الذي هو أساس المفاسد والبلايا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

والقرآن هنا يُشير إلى ما يسمّيه العلماء بالجهل المركّب، وهو الجهل الذي يظنّ معه صاحبه أنّه من أولي العلم ومن جهابذته وفلاسفته؛ ولذلك فهو لا يسأل، ولا يُصغي، ولا يستفتي، بل يجادل ويمجادل حتى في أخطر القضايا وأعلاها شأنًا، وأوسعها أثرًا.

رابعًا: ثمّ يُشني القرآن بالتعصّب الأعمى للأباء والأجداد، وما تركوه من موروث ديني وفكري وسلوكي حتى لو كان خاليًا من الدليل، وبعيدًا عن المنطق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

خامسًا: ثمّ يُثلث القرآن بسوء الخلق كالتكبر الفارغ، والتعالي على الخلق، والغرور بالدنيا ومتاعها ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢٢﴾.

سادساً: وفي مُقابل هذا الفريق البائس، يُشيدُ القرآن بأهل الحقّ المتمسكين به، والداعين إليه ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾.

وقد ربطَ القرآن هنا بين قيمة الإحسان وبين هذا الاستِمساك بالعروة الوثقى، فالإنسان المُحسِن مع نفسه، والمُحسِن في علاقاته، والمُحسِن في عمله لا بُدَّ أن يهتدي إلى الطريق الحقّ. وبعد هذه القيمة العظيمة، يذكُر القرآن قيمَتين عظيمَتين أُخرَين من شأنهما تثبت هذا الإنسان على طريق الهداية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فالصبر لتثبيت المبتلى، والشكر لتثبيت المعافى، فلولا الصبر لزلَّ الأول في مهاوي الحسد والكراهية، واليأس والبؤس، ولولا الشكر لضلَّ الثاني في مهاوي الغرور والكبر والبطر.

سابعاً: يُذكُر القرآن بالحقيقة الكبرى التي تنتظر هؤلاء وهؤلاء، تنتظر الإنسان أينما كان وكيفما كان ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ثامناً: يُحذّر القرآن - في ثنايا هذه المقارنات - أولئك الضالين مما ينتظرهم في ذلك اليوم العصيب ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

تاسعاً: في هذه الآيات تكرر التنبيه إلى عظمة الخالق، وأنه الغنيُّ الحميد الذي لا ينقصُه شيءٌ، ولا يحتاج إلى شيءٍ، وأنه القادر على كلِّ شيءٍ فلا يُعجزه شيءٌ، ولا يشغله شيءٌ عن شيءٍ، وأنه العليم الحكيم الذي لا نهاية لعلمه، ولا حدود لحكمته، وأنه الحقُّ المطلق الذي لا

يُخَالِفُهُ إِلَّا الْبَاطِلُ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٩﴾.

دقائق التفسير

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مما تقدّمت الإشارة إليه قبل الدخول في قصّة لقمان مع ابنه، فمن السماء ماؤها الذي تحيا به الأرض، ومن الأرض أشجارها وأنهارها وأنعامها ومواردها في برّها وبحرّها، فكلّ هذا مُسَخَّرٌ للإنسان، وهذا التسخيرُ مُرتبَطٌ بوظيفة الإنسان على هذه الأرض، وهي الاستِخلاف، والذي يحمل في أحد معانيه إدارة الأرض بعدالة وأمانة.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ أكملها وأتمّها وظلّلكم بها.

﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فَمِنْ نِعَمِهِ الظاهرة: المال والجمال والعيال، وَمِنْ نِعَمِهِ الباطنة: الحكمة والسكينة والطمأنينة.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يُخْلِصُ دِينَهُ وَتَوَجَّهَ لِلَّهِ.

﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: استعصم بالحق، فكان بمنأى عن الانحراف والتهيان.

﴿نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا﴾ نُمِيعُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ مُدَّةُ أَجَالِهِمْ.

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ نَأْخِذُهُمْ رَغْمًا عَنْهُمْ.

﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ إِلَى عَذَابٍ شَدِيدٍ وَثَقِيلٍ.

﴿الْحَمِيدُ﴾ الذي يستحقُّ الحمد دائماً وأبداً.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ أي: لو تحوّلت كلُّ أشجار الأرض إلى أقلامٍ.

﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: ولو تحوّل ماءُ البحر إلى مدادٍ ومعه سبعةُ أبْحُرٍ.

﴿مَا نَفَدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ ما انتهت كلماته سبحانه، فعِلْمُ الله لا يُحْدُ بأقلامٍ ومدادٍ، وهو أوسعُ وأشملُ وأبقى من الدنيا وما فيها.

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنٍ وَاحِدَةٍ﴾ فالكثرة والقلة لا تعني لله شيئاً، فقدرة الله على الخلاق كلها كقدرته على واحدٍ منها، وهذا ردٌّ على مَنْ يُنكِرُ البعث على سبيل الاستبعاد، كأنه يستقل أن يُعيدَ الله كلَّ هؤلاء الناس على اختلاف أجيالهم في ساعةٍ واحدةٍ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كثيرُ الصبر، كثيرُ الشكر.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: كالسُّحُبِ المتراكمة.

﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ عدل، يُوفي بعهده فلا ينكث، ومن هنا تبعيةُ شُعِرِ بالقلة، فالمعهودُ عن المشركين غير هذا؛ إذ هم ينقلبون بعد نجاتهم جاحدين وكافرين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ والختَّارُ: الغادرُ الناكثُ للعهد.

﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ ترسيخُ لقيمة المسؤولية، وتأكيدُ لعقيدة العدل الإلهي، وقد جاء التذكيرُ بها في خواتيم سورة لقمان؛ لأن قصتها تدور حول علاقة الوالد بولده.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: لا يغُرَّنكم الغرور بعيداً عن دين الله وطريقه المستقيم، ويصحُّ إطلاقُ الغرور على كلِّ من يكون سبباً في هذا؛ كهوى نفسٍ، ووسوسةٍ شيطانيةٍ، وكيدٍ عدوٍّ، وضوايعةٍ صديقٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يعلمها غيره.

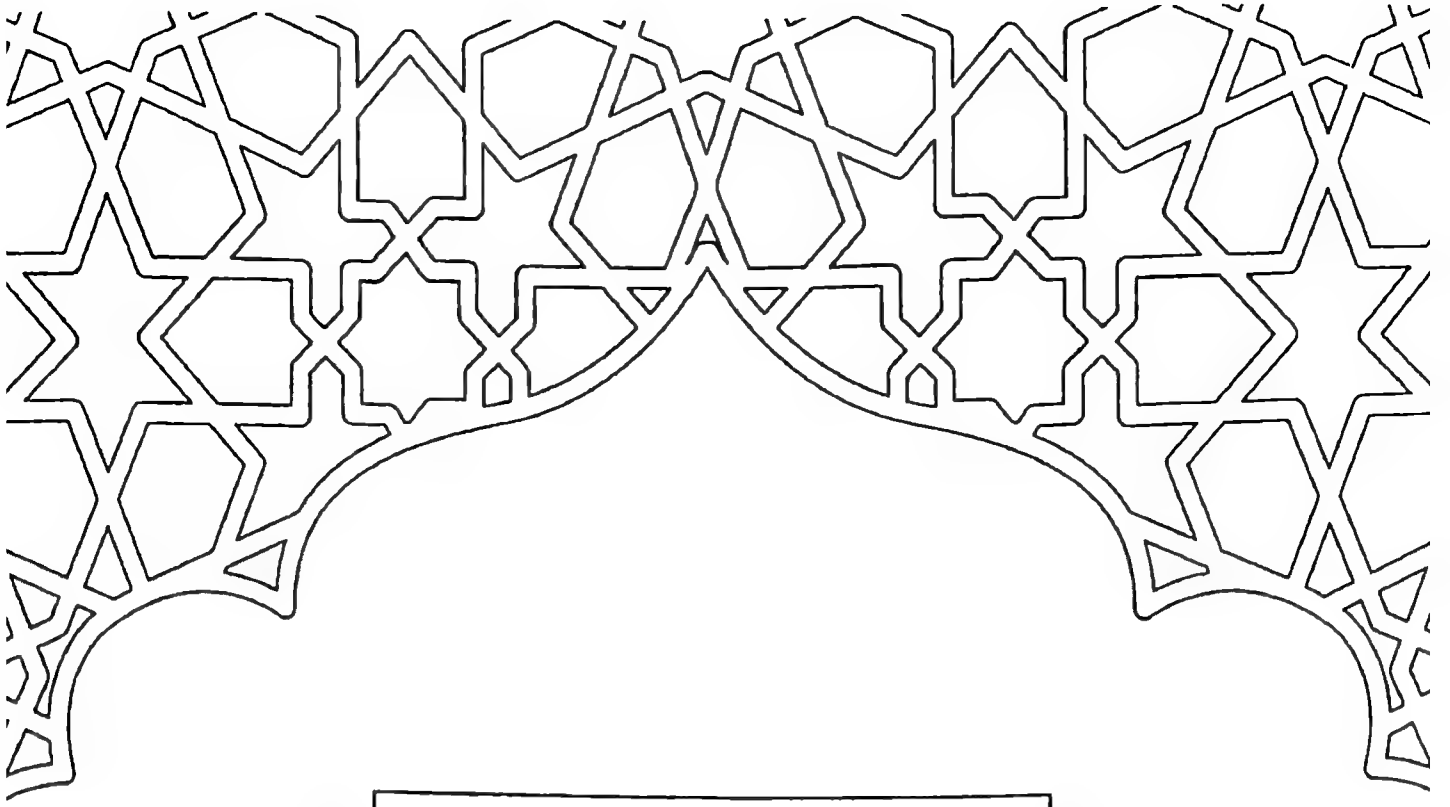
﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يُنَزِّلُ الغيث في مواعده ومكانه غيره.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ هو علمُ الله الشاملُ لكلِّ ما يكون في الأرحام من تلقيح، وتخليق، ونفخ روح، وصفاتٍ ماديّةٍ ومعنويّةٍ.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: ماذا يكون لها من عوارض وطوارئ.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ عطفَ الخاصِّ على العام؛ للتنبيه عليه والتذكير به،

فمكان موت الإنسان داخلٌ في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، والله أعلم.



سُورَةُ السَّجْدَةِ

المجلس السابع والثمانون بعد المائة: حوار في مسائل العقيدة

117A

تعالجُ سورة السجدة في كلِّ آياتها موضوعًا واحدًا، وقضيةً واحدةً هي قضية الإيمان، وتدخل مع المشركين في حوارٍ مُعمَّقٍ حول الأسس الإيمانية والمسائل العقدية التي يُنازعون فيها، والتي تحوّل بينهم وبين الدخول في مظلة الإيمان، مع أنَّهم يشتركون مع المؤمنين في أصل الإيمان بالله، فهم يُؤمنون بوجود الله، ويؤمنون أنه تعالى هو الذي خلقهم وخلق الخلق كله بسماواته وأرضيه ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١).

ولديهم أيضًا بقايا من الإبراهيمية؛ كتعظيم المسجد الحرام، ومشاعر الحج، أما تلك المسائل التي يُنازعون فيها - والتي تنقض هذه المشتركات - فقد تناولتها هذه السورة المباركة كالآتي:

أولاً: استهلّت السورة بموضوع القرآن ورفض المشركين الإيمان به ﴿الْم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) أمر يقولون أفترئه بل هو الحق من ربك لتُنذر قومًا ما أتتهم من نذير من قبلك لعلمهم بهتدوت ﴿وقد اكتفى القرآن هنا بتأكيد بطلان قولهم؛ لأنَّ القرآن يحوّل دلائل صدقه في نفسه، لكن موقفهم هذا المُسبق هو الذي يحوّل بينهم وبين هذه الدلائل.

ثانيًا: يربط القرآن بين مسألة الإيمان بالقرآن ومسألة التوحيد، وهي المسألة الأساس التي تعدُّ نقطة الافتراق بين طريق المؤمنين وطريق المشركين، وقد أخذ القرآن يُذكرهم بما هو موجودٌ في أعماق فطرتهم من اعترافٍ بوحديته تعالى في الخلق، وهذا من شأنه أن يقودهم إلى توحيدهِ تعالى في العبادة والطاعة؛ إذ لا معنى لأن يؤمن الإنسان بوجود خالقٍ واحدٍ لهذا الكون ثم يذهب ليسجد ويعبد آلهة متعددة، فهذا تناقض لا يقبله عقل، ولا تستسيغه فطرة.

(١) تكرر هذا النصُّ الكريم في القرآن الكريم مرتين: سورة لقمان / ٢٥، وسورة الزمر / ٣٨.

يقول القرآن: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ليصل من هذه الحقيقة إلى الحقيقة الأخرى التي ينازعون فيها: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

فالولي الذي بيده كل شيء إنما هو الخالق الذي خلق كل شيء، أما هذه الأصنام المخلوقة بأيديكم فأنى لها أن تفعل لكم شيئاً أو تشفع لكم في شيء؟

ثالثاً: يُقرّر القرآن هنا حقيقةً منطقيةً لا ينبغي أن يختلف فيها عاقلان، وهي أن الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما هو وحده الذي يُدبّر الأمر فيهما ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

والقرآن يُشير هنا إلى أن تدبير الأمر يقتضي بيان الحق من الباطل، وطريق السعادة من طريق الشقاء، وهذه هي رسالة القرآن الذي يُنكره المشركون.

رابعاً: يُذكّر القرآن بصفات الله التي لا ينبغي أن تنفصل عن ربوبيته لهذا الكون، فمن آمن بخالق لهذا الكون لا بُدَّ أن يؤمن أيضاً بصفات الكمال له ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

والإشارة هنا أن خالق هذا الخلق هو الأعلم به وبما يُصلحه، ومن ثمَّ كانت رسالة الله هي الحق، وهي الأصلح لهذا الكون؛ ولذلك عقّب القرآن بما يُعزّز هذه الصفات الجليلة، وبما يدحض دعوى المشركين في وجود شريك مع الله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

فالذي خلق الخلق بهذا الإتقان، وخلق الإنسان على هذه الصورة وجعل له السمع والبصر والفؤاد لا يمكن أن يترك الخلق لغيره، فمن أين استمدّت هذه الأصنام سلطتها على هؤلاء المشركين؟ ومن الذي منحها هذه القوّة التي يتوهّمها المشركون فيها، حتى إنهم

يُقَدِّمُونَ لها النذُورَ والقرايينَ تَقَرُّبًا إِلَيْهَا، وخَشْيَةً من غَضَبِهَا، وهي الصَّمَاءُ البَكْمَاءُ التي لا تَخْلُقُ شَيْئًا، ولا تعلمُ شَيْئًا؟

خامسًا: ينتقل القرآن في حوارهِ هذا إلى مسألةٍ مفصليَّةٍ يَنازعُ فيها المشركون أيضًا، وهي من أعقد المسائل عندهم: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

إنهم يستبعدون قدرةَ الله على بَعْثهم وإعادة خلقهم بعد موتهم، مع أنهم يُؤمنون أنَّ الله هو الذي خلقهم أولَ مرَّةٍ! وفي التفكير المنطقي البسيط أنَّ صانعَ الشيء أولَ مرَّةٍ أقدر على إعادة صنعه؛ ولذلك يَتَّجِه القرآن إلى مخاطبتهم بما من شأنه أن يُحَفِّزَ فيهم الرغبةَ في التفكير والنظر الجادَّ، فالمسألة ليست مسألة نظريَّة فلسفيَّة مُجرَّدة، إنَّها مصيرهم، ومصير آبائهم وأبنائهم، إنَّها سعادةٌ دائمةٌ، أو شقاءٌ دائمٌ، إنَّها لا تحتمل اللعب والعبث، ولا المغامرة والمجازفة: ﴿قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

وبعد هذا الرجوع المؤكَّد والمحتَّم، يعرِضُ القرآن صورةً بائسةً وذليلةً لهؤلاء المنكرين والمُشكِّكين ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وهي صورةٌ كفيَّةٌ بالعاقل أن يُعيدَ النظر في موقفه، وأن يُفَكِّرَ مليًّا في ما الذي يُمكن أن يتتَّظَّره.

سادسًا: ثم يتناول القرآن موضوع الهداية والضلال، وأنها مسؤوليَّة المكلف نفسه، فمن شاء اهتدى، ومن شاء ضلَّ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ ولا يكون هذا إلا برفع الاختيار الذي هو مناط التكليف والتمايز وتحمُّل المسؤولية، ثم نبَّه القرآن إلى سببٍ من أسباب الضلال ﴿فَذُوقُوايَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

إنَّه الإهمال الذي يُعبِّرُ عن قلة الاكتراث والانغماس في اللُّهُو والعبث، والذي عبَّرَ القرآن عنه فيما بعد بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

مُنْقِمُونَ ﴿ ثُمَّ نَبَّهَ إِلَى سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا
سَجْدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿

فهناك شعورٌ بخطورة الأمر، وهناك عملٌ ومثابرةٌ، وهناك قلوبٌ صافيةٌ، ونفوسٌ
متواضعةٌ لا يحول الاستكبار بينها وبين طريق الخير.

سابعًا: ثم يعرض القرآن نتيجة الفريقين ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ
﴿ ١٨ ﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ١٩ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ
بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿

ثامنًا: يذكر القرآن هنا سنةً من سنن الله في تذكير القلوب الغافلة والنفوس اللاهية
﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِيِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، فالابتلاء
بالمصائب والمحن يُشعر الإنسان بضعفه، فيرفع عنه غشاوة الغرور والاستكبار، فإذا
ارتفعت هذه الغشاوة كان أقرب للرجوع إلى نفسه والتفكير في حاله وماله، أمّا الذي لا
ترتفع غشاوته حتى في حالة الضعف والابتلاء فذلك هو الظالم لنفسه ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ
بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾.

تاسعًا: ثم يذكر القرآن هنا بقصة موسى ؑ، في إشارة إلى البعد التاريخي لهذه الدعوة:
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
﴿ ٢٢ ﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

وفي السياق التاريخي أيضًا، يدعو القرآن إلى الاعتبار بحال الأمم السابقة وما حلَّ بها
نتيجة لاستكبارها وإعراضها عن دعوة أنبيائها ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ
الشُّرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾.

عاشراً: ثم يعود بهم القرآن من النظر في التاريخ إلى النظر في الأرض وما فيها من آيات ودلائل تُقَرَّبُ صورة الحياة الآخرة، وكيفيّة البعث والنشور ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

حادي عشر: يطرح القرآن تساؤل المشركين عن موعد الآخرة، وهو تساؤل لا ينمُّ إلا عن استخفافٍ بالأمر واستهزاء مريضٍ وعابثٍ؛ ولذلك كان الجواب يحملُ لهم الوعيد والتهديد، وهو المناسب لطريقتهم هذه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

ثاني عشر: تختتم السورة بتوجيه ربّاني للنبيّ الكريم ﷺ - ثم لكلّ الدعاة من بعده - ألاّ يشغل هؤلاء المعاندين والمستهزئين؛ لأنّ الانشغال بهم يضرّ بالدعوة ويحول بينها وبين العالمين ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأنّه يحمل دلائل صدقه في ذاته.

﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هم قومه ﷺ الذين كانوا في جاهلية فليس عندهم كتاب، ولم يبعث الله إليهم نبياً.

وفي الآية دليل على أنّ مات منهم قبل البعثة فالأصل فيه براءة الذمّة؛ لأنّه غير مُكَلَّف ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وهنا أيضاً ملحوظة؛ فإنذار الرسول ﷺ لقومه لا يعني أنّ رسالته خاصة بهم، فهذا منتزِعٌ بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي ليست من أيامنا؛ لأنّ يومنا هو حصيلة دَوْرَانِ الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكلّ كوكب يومه، فكيف

باليوم الذي كان قبل خلق السماوات والأرض؟ فذلك لا يعلمه إلا الله، والمقصود بالإخبار عن تلك الأيام إنما هو التقدير على مراحل، كما هي سنة الخلق كله.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بعظمة الله وجلاله وعلوه وغناه عن جميع خلقه؛ العرش وما سوى العرش، وهذه من الأخبار الغيبية التي نؤمن بها كما وردت، ونُحجم عن الدخول في كیفیاتها وصورتها؛ لأنَّ العقل لا يملك الأدوات القادرة على ذلك، ثم نتدبر المقصود من إخبارنا بها، وهو مقصودٌ يسيرٌ على مَنْ يَسْرُهُ الله عليه؛ فالنصُّ يوحى بكمال الملك والسلطان والعظمة والعلو المطلق، وهذا يكفي ويُريح عقولنا وقلوبنا من الجدل الذي لا نتيجة له.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: هو سبحانه الذي يُدبِّرُ أمرَ السماوات والأرض، وهو الذي يُنزلُ وحيه وأمره على أنبيائه من السماء إلى الأرض.

﴿ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ﴾ عمل الناس وأخبارهم وأحوالهم بما تُدَوِّنه الملائكة، وهذه سنة من سنن الله في تدبير الملك، أما علمه سبحانه فهو علمٌ شاملٌ ومحيطٌ بكل شيء، ولا يحتاج إلى أداة أو واسطة.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ دليلٌ مُضافٌ على ما تقدَّم أنَّ اليومَ وحدةٌ زمنيةٌ نسبيةٌ، فيوم الأرض غير يوم المريخ أو زحل، وأيام الله في هذا الكون الفسيح لا حصر لها، والله أعلم.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أتقنه وأحكمه.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ تنبيهٌ إلى عظيم قدرة الله؛ حيث خلق هذا الإنسان المتكامل الخلق، والحسن الصورة والقوام من ماء مهين يُستقَدَّرُ منه، وهو ماء الرجل.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيَّهِ﴾ نفخ فيه الروح التي خلقها الله له، وإضافة الروح إلى الله إضافة ملوك واختصاصي لا إضافة أبعاضٍ وصفاتٍ، كما نقول: سماء الله، وأرض الله،

وبيتُ الله، وخلقُ الله.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ تنبيهٌ إلى أدوات المعرفة التي هي شرط التكليف وتحمل المسؤولية، وقوله عقبها: ﴿فَلْيَلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ من يُعطَل هذه الأدوات لا يهتدي إلى الحقِّ، ولا يقدر على الشكر.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يسأل المشركون سؤالَ المستهزئ المستكبر عن كيفية عودتهم بعد أن يُدفنوا في الأرض، ويضيعوا في ترابها.

﴿قُلْ يَتُوبَ لَكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وُكِّلَ بقبض أرواحكم، وفيه دليلٌ أنَّ الملائكة لهم وظائف مختلفة تتعلق بالخلق وإدارته وفق سُنن الله والنظام الذي اختاره لهذا الكون.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ خَجَلًا وندامةً.

﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمعُ ونُبصرُ لا كما كنَّا في الدنيا.

﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ذلك قوله تعالى الذي توعَّد به إبليس وجنوده: ﴿قَالَ فِعْزَيْكَ لَا غُوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ [ص: ٨٢ - ٨٥].

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الباء للمصاحبة، بمعنى أنَّهم يُسَبِّحون الله ويحمدونه معًا.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ينهضون من نومهم لأداء الصلاة والعبادة والدعاء.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا يعلم أحدٌ من الخلق حقيقة النعيم الذي أعدَّه الله لهؤلاء المؤمنين، وهذا أسلوبٌ معروفٌ في تعظيم الأمر والمبالغة فيه، وذلك فضلُ الله وكرمه الذي ليس له حدٌّ.

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ تأكيدٌ لمبدأ العدل الإلهي؛ فكلُّ إنسانٍ مجزيٌّ بعمله، والعمل معيارُ التفاضل، أمّا الأشياء المكتوبة قدرًا على الإنسان كجنسه ونسبه ولون بشرته، فهذه لا اعتبار لها في ميزان الله.

﴿ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ التي يأوي إليها المؤمنون، وفيه معنى السكينة والاستقرار.

﴿ نَزْلًا ﴾ أي: إكرامًا لهم، وأصل النزل ما يُقدَّم للضيف.

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أي: كلما طلبوا الخروج منها تجدد الأمر بمُكوّنهم فيها، فلا يخرجون منها أبدًا.

﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى ﴾ أي: من مصائب الدنيا؛ كالفقر، والمرض، والقتل، والمحن.

﴿ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قبل عذاب الآخرة.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يتعظّون فيستغفرون ويتوبون.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ الظاهر من السياق أنّه لقاء الآخرة، وفائدة تأكيد لقاء نبينا محمدٍ بأخيه موسى ﷺ في ذلك اليوم - مع ما فيه من تأكيد الحياة الأخرى - أنّ موسى صاحب رسالة، وقد دعا قومه كسائر الأنبياء والرسل إلى توحيد الله والإيمان باليوم الآخر، فانقسم الناس على فريقين كما انقسم الناس في رسالة محمدٍ ﷺ. وقد تقدّم أنّ الكافرين المكذّبين سيرون هناك الحقيقة التي كذبوا بها وسيندمون، فناسب أن يؤكّد القرآن لمحمدٍ ﷺ ولأمّته من بعده أنّهم سيلتقون بمن سبقهم من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم وأحبابهم، وسيكون ذلك اللقاء مُتمّمًا لسعادتهم، فما قرأناه في آيات القرآن من أخبارٍ وقصصٍ عن أولئك الصفوة الأخيار سنراه عيانًا، وفي ذلك أيضًا مزيد حسرةٍ للكافرين والمكذّبين، ثم إنّ رسالة موسى بالتحديد هي الأقرب إلى رسالة محمدٍ ﷺ؛ ولذلك كان الاستشهادُ بها أكثر، ووُرودها في القرآن أطول، والله أعلم.

وأما قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ فهو بمعنى أنه أمر يقين، وليس معناه نهي النبي ﷺ عن الشك، إلا إذا حُمِلَ على أن النهي مُوجَّهٌ إلى غيره، كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِحَبْطَنَ عَمَلِكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والله أعلم.

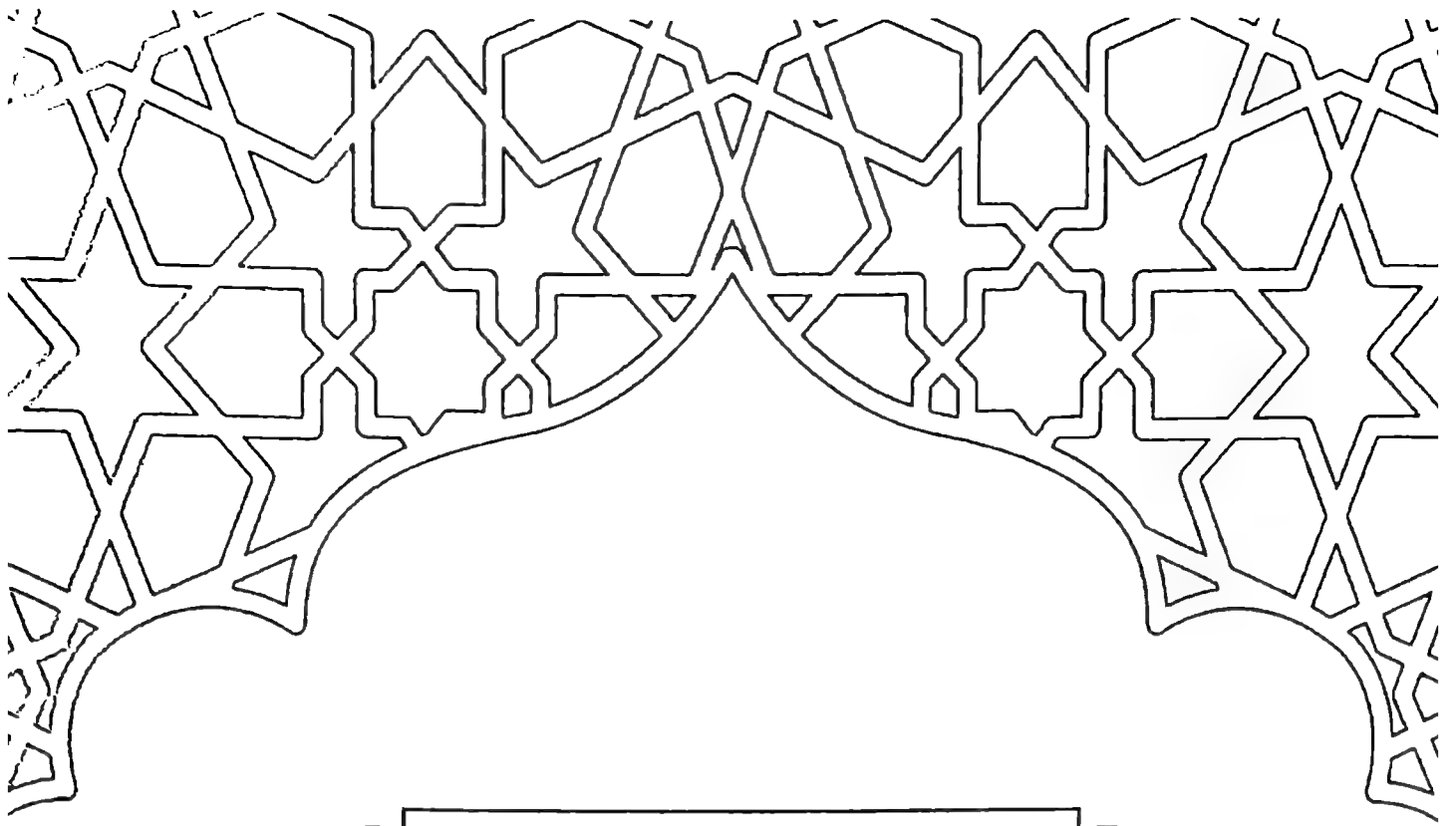
﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: بين الفريقين على امتداد التاريخ؛ ففي كل حلقة من حلقات الدعوة هنالك مُصدِّق، وهنالك مُكذِّب، وهنالك صالح، وهنالك طالح، فغداً سيتميز الناس على فريقين: فريق الأنبياء ومن صدَّق بهم واتبع هديهم، وفريق المحرومين الأشقياء من المكذِّبين والمعاندين.

﴿الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ الأرض القاحلة الميتة التي ليس فيها نبات.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي: متى يوم اللقاء هذا والحساب والجزاء والفصل بين الخلائق؟

وهو سؤال يُورِّدُه المكذِّبون على سبيل السُّخرية والاستهزاء، ويبعد في السياق أن يكون الفتح بمعنى النصر في بدرٍ أو غيرها؛ إذ السياق عن البعث والحساب، ثم إنَّ قوله تعالى في تَمَّة الآية: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنه يوم القيامة، والله أعلم.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ أي: مُنتظرون لعذابهم؛ لأنَّه واقعٌ بهم لا محالة وإن كانوا غافلين عنه، كما تقول للماشي في طريق الهلاك أنه ينتظر هلاكه، وإن كان هو لا يترقبه ولا يتشوف له.



سُورَةُ الْأَحْزَابِ

المجلس الثامن والثمانون بعد المائة: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم

المجلس التاسع والثمانون بعد المائة: ولما رأى المؤمنون الأحزاب

المجلس التسعون بعد المائة: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً

المجلس الحادي والتسعون بعد المائة: وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّبِيِّ تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ٤﴾ أَدْعَوْهُمْ لِأُبَّائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ مِنْ بَعْضِهِمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٦﴾ وَلَئِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧﴾ لَقَدْ تَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٨﴾

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم

لسورة الأحزاب خصوصية عن باقي السور؛ لأنها تناولت حياة نبينا الكريم ﷺ في أدق خصوصياته، وقد أشارت السورة نفسها إلى الغاية من هذا تناول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

فمن أجل هذه الغاية الجليلة، بسطت هذه السورة حياة رسول الله ﷺ العامة والخاصة؛ في علاقاته الاجتماعية مع زوجاته وأهل بيته، وفي حياته الدعوية والتربوية مع أصحابه وأحبابه وكل الناس الذين يعيشون معه في المدينة أو في محيطها، ثم تصدّيه لأحزاب الكفر والضلالة، ولخيانة يهود لما بينهم وبينه من موثيق وعهود، وكذلك معاناته الطويلة - بأبي هو وأمّي - من الدور المؤذي الذي تبنته الفئة المنافقة ومن يقف خلفها.

وربما كان من توفيق الله تعالى أن تكتب هذه الكلمات في تدبر هذه السورة العزيزة أمام الروضة المشرفة في رحاب المسجد النبوي الشريف، فكنّت أقرأ الآيات وأعيدّها وأتدبّر

معانيها وأنظر في سياقها وتسلسلها، ثم أنظر أمامي فأمثلني بالرهبة، وكأنها الآن تنزل، وها هو رسول الله ﷺ يتلوها على أصحابه، ويؤمهم بها في محرابه، وينشرها بين الناس كل الناس مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، ينشرها بينهم كما أنزلت عليه، وفيها خلجات نفسه، وفيها أسرار بيته، فيها ما كان يستحي أن يظهره ويؤوح به ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، ﴿وَإِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

فعليك يا أيها الحبيب صلوات الله وسلامه دائماً وأبداً، عسى الله أن يغفر لنا، ويرزقنا شفاعتك ومُصاحبتك على الحوض، وفي أعلى جنان الخلد.

في فواتح هذه السورة كان الحديث عن رسول الله ﷺ مُرتبطاً بوظيفته الكبرى في تبليغ الرسالة، وموقعه ﷺ بين المؤمنين، وبعض الأحكام والتوجيهات المناسبة لهذا السياق: أولاً: استهلّت السورة بوصية التقوى، وإخلاص الطاعة لله وحده، وأتباع شريعته ووحيه، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وهي وصية للأمة كلها في شخص نبيها ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٢.

ثانياً: ولأن هذه الوصية تستدعي العداء من طرف الكافرين وأحزابهم ومُنافقيهم، جاء التوجيه بأهمية التوكل على الله وحده، فهو سبحانه مُقدّر الأقدار، ومُيسّر الأسباب ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ثالثاً: ثم شرع القرآن بإعلانه إبطال الموروث الجاهلي، لتستبين سبيل الحق عن سبيل الباطل، فلا يبقى في هذا عذرٌ لمعتذر، ولا تأويلٌ لمأول ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَتَيْنِ فِي جَوْفِهِ ٣﴾.

وفي هذا تمهيدٌ وتهينةٌ لاستقبال الأحكام الإلهية الناقضة للعادات الجاهلية ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ أَلْفًا تُفْلِكُهُنَّ مِنْهُمْ أُمْتُهُنَّكُمْ ٤﴾ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ٥ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ

يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ اذْعَوْهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ اقْسَمُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا
 آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ. وَلَٰكِنْ مَا
 تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢﴾.

فمن عادات الجاهلية: الظهار، وهو أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، وقد
 جاء ذكر أحكامه مفصلة في سورة المجادلة، ومن عاداتهم الشائعة: التبني، وقد خصه القرآن
 هنا بالتفصيل، وجعل من فعل الرسول ﷺ المثل الأول؛ حيث كان ﷺ قد تبني زيد بن
 حارثة رضي الله عنه، فلما أراد الله أن يُبطل هذه العادة بدأ بنبيّه، وفي هذا ترسيخٌ لمعنى القدوة والأسوة
 الحسنة التي تدور السورة حولها.

رابعًا: بعد ذلك انتقل القرآن لبيان مكانة الرسول ﷺ في هذه الأمة: ﴿الَنَّبِيُّ أَوْلَىٰ
 بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذه هي القيمة المحورية التي تُنظم علاقة المسلمين بنبيّهم، فهو
 ﷺ ليس مُبلِّغًا لرسالة فحسب كما يتوهم المتوهمون، بل هو المحور الإنساني الذي تدور
 حوله الأمة في وجودها وحركتها، فهو نقطة البداية في نشأتها وتكوّنها، وهو القدوة الأولى
 في تطّلعها وسيرها إلى الله، وتقديم أي شخص عليه في الاهتمام والمحبة والاتباع يعدّ خرقًا
 كبيرًا لعقيدة الأمة وهويّتها الجامعة.

ومعنى أنّه المحور الإنساني في هويّتنا: أننا لا نُقدّم أيّ إنسانٍ عليه كائنًا من كان، كما أننا لا
 نُقدّم على القرآن كتابًا، ولا نُقدّم على الكعبة مكانًا، فهذه محاور تلتقي عليها الأمة، فمن
 أحدث فيها وابتدع وقَدّم وأخر، فقد ارتكب جناية عظيمة بحق الأمة، وأقل آثار هذه
 الجناية ما نراه اليوم من اضطرابٍ في هويّة الأمة، واختلافٍ في أولويّاتها ومصادر دينها
 وشريعتها.

خامسًا: يُوصّل القرآن لمكانة أهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام ﴿وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾
 ومع ما في هذا الحكم الربّاني القاطع من تركيتهنّ وإعلاء شأنهنّ، وفرض احترامهنّ
 وتبجيلهنّ، ففيه أيضًا مغزى مرتبط بصورة التأسّي والافتداء، والتي هي محور هذه السورة؛

إذ إنَّ حياته ﷺ اليومية مع أهل بيته تُشكِّل جانبًا كبيرًا من النموذج الذي ينبغي أن يُحتذى في تكوين البيت المسلم، وعلاقاته الداخلية، وطبيعة حياته واهتماماته وسلوكه اليومي، ومن ثمَّ جاء التذكير بهذه المعاني في هذه السورة نفسها بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْتَلَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

وعليه فإنَّ الانتقاص منهنَّ هو انتقاصٌ وتشكيكٌ في هذا الذكر الذي كلَّفهنَّ الله بحمله إلى الناس، إضافةً إلى عقوقٍ مفضوحٍ بحقهنَّ وهنَّ أمهاتنا بنصِّ القرآن، بل إنَّ الرفض لهذه العلاقة إنَّما يُعلنُ عن نزعه لصفة الإيمان عن نفسه، والعياذ بالله.

سادسًا: يُؤصِّل القرآن أنَّ محور العلاقات الاجتماعية فيما بين المسلمين كافَّة إنَّما هو الرَّحِم، فصلة الأرحام أساس البناء الاجتماعي ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وهذا المحور تنبني عليه حقوقٌ وواجباتٌ والتزاماتٌ منها: الإرث، والنفقة، ومن سوء فقه الرجل - وربَّما سوء تدبُّره - أن يُقدِّم على رَحِمه مَنْ يرتبط معهم بروابط المصلحة المادية أو الحزبية.

سابعًا: يُؤكِّد القرآن أنَّ رسالة محمدٍ ﷺ ليست بدعًا من الرسالات، بل كلُّها يرجع إلى مصدرٍ واحدٍ، وميثاقٍ واحدٍ ﴿وَلِذَٰ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾.

ثمَّ يُشير إلى انقسام الخلق تجاه هذه الرسالة، وذاك الميثاق إلى مؤمنين وكافرين، وصادقين وكاذبين ﴿لَيْسَتِ الْصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وبهذه الآية يُمهِّد القرآن للمحديث عن معركة من معارك الإيمان الخالدة، وهي معركة الأحزاب.

دقائق التفسير

﴿يَنَائِيهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ خطابٌ للأُمَّة في شخص نبيِّها؛ إذ ليس من المتصور أن يُطِيع الرسول ﷺ الكافرين والمنافقين في معصية الله.

وفي الآية معنى لطيفٌ يُشعر المؤمن بالطمأنينة التامة على عصمة الوحي، وصدق التبليغ، فالله بجلاله وعظمته لم يترك التبليغ للجهد البشري للأنبياء ﷺ، بل هو معهم بتأييده وتسديده ﷻ.

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ تنبيهٌ إلى قيمة الإخلاص في التوجه والعمل، وتحذيرٌ من الشتات والضياغ والتردد، فلا يمكن للإنسان السوي أن يؤمن بالشيء وضده، أو أن يُطيع الله ويُطيع الشيطان، وهذا التنبيه مُناسبٌ لما قبله، ومُهمٌّ لما بعده لإبطال العادات الجاهلية المخالفة للوحي؛ كالظهار، والتبني.

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ بمعنى أن قول الرجل لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمي كذبٌ وباطلٌ، فالزوجة لا تكون أماً.

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ فالمُتبنَّى من الأولاد لا يكون ابناً، بل هو انتسابٌ باطلٌ كذلك.

﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ كلامٌ مجرَّدٌ ليس له سندٌ من الشرع، ولا سندٌ من الواقع.

﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي: انسبواهم لأبائهم ولا تنسبواهم لأنفسكم، فهذا هو حكمُ الله الحق والعدل.

﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ بمعنى أن هذا الذي أبطل القرآن بُنُوته ولم يُعرف له أبٌ يُؤويه وينتسبُ إليه، فواجبُ المجتمع أن يحتضنه في ظلال الأخوة والموالة الإيمانية التي لا تُفَرِّق بين بعيدٍ وقريب.

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وهذه مسألةٌ دقيقة؛ فاللسان قد اعتاد على نسبة هذا الابن لأبيه من التبني، وبعد تحريم التبني أصلاً، أصبحت هذه النسبة ولو بالمناداة ونحوها مُحَرِّمةً كذلك، ولكن اللسان قد يزلُّ عن غير عمدٍ، فهذا لا حرج فيه ولا إثم، والله أعلم.

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فلا يتقدّم على رسول الله في ولايته على المؤمنين أحد من الخلق، وولايته ﷺ ولاية رحمة عامة، ونصح شامل؛ لأنّه موصوف بنص الكتاب: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ من حيث تعظيمهنّ، وتقديرهنّ، والاعتراف بفضلهنّ، وحُرمة الزواج بهنّ بعده ﷺ، بخلاف الأحكام الفقهيّة العمليّة، كالإرث والخلوة، فهذه لأنّ النسب خاصّة.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أصل في تقديم الأرحام على غيرهم في العلاقات الاجتماعيّة وما يبنّي على ذلك من توارث. أما عامة المؤمنين والمهاجرين خاصّة، فلهم مكانتهم في ضمير الأمّة، لكن صلة الأرحام والتوارث بينهم له فقهه، فلا يصح الخلط بين الدائرتين، فبرّ الوالدين والأعمام والعَمَّات شيء، وتعظيمُ الأنصار والمهاجرين وكذلك أهل العلم والفضل شيء آخر، وقد جاءت هذه الآية لإبطال التوارث بين المهاجرين والأنصار، والذي كان مُتَّبِعًا عقب الهجرة والمؤاخاة حتى نزول هذه الآية.

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾ من غير الإرث، كالصلة والوصيّة والصدقة، فهذا كلّه جائز ومفتوح لعامة المسلمين ولمن بينهم تناصّر وتواصل من باب أولى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ عهدهم في تبليغ الرسالة كما أنزلها الله عليهم من غير زيادة ولا نقصان، ولا انحياز ولا محاباة.

﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ خصّهم بالذكر، وهؤلاء هم أولو العزم أفضل الرسل ﷺ.

﴿لَيْسَ لَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ ليسأل الأنبياء عن أمانتهم التي بلّغوها - وهو سبحانه أعلم بهم -، لكن لتبكيت المكذّبين والمُعاندين وإلزامهم الحُجّة؛ ولذلك عقّب بعدها: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿٢﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٣﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَتِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿٦﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَإِلَهِهِمْ مِنَ قَبْلِ لَا يُؤْلَوْنَ إِلَّا دُبُرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿٧﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَعِدُّونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٩﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ جَدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَؤْذِنُ عَنْ أَسْبَابِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١٣﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٤﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٥﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَاتَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسٍ شَرًّا فَرِيقًا ﴿١٨﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَدَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْغُوهَا وَكَاتَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ مَثْقَلٍ قَدِيرًا ﴿١٩﴾

ولما رأى المؤمنون الأحزاب

حَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ اسْمَ الْأَحْزَابِ مِنْ اسْمِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَنَاولَتْهَا هَذِهِ الْآيَاتُ، وَهِيَ مَعْرَكَةٌ لَهَا خُصُوصِيَّتُهَا مِنْ بَيْنِ الْمَعَارِكِ كَمَا لِلسُّورَةِ خُصُوصِيَّتُهَا مِنْ بَيْنِ السُّورِ؛ حَيْثُ إِنَّهَا الْمَعْرَكَةُ الَّتِي رَدَّ اللَّهُ فِيهَا الْعَدُوَّ دُونَ قِتَالٍ، وَهِيَ كَذَلِكَ آخِرُ مَعْرَكَةٍ تَقَرَّبَ فِيهَا قَرِيشٌ مِنْ

حدود المدينة، بل هي التي حسمت الصراع المسلح مع قريش.

وقد تناولت هذه الآيات تلك المعركة من زوايا مختلفة، وبحسب المواقف المختلفة أيضًا:

أولاً: بدأ القرآن بعرض نتيجة المعركة؛ حيث إنها لم تكن متوقعة لأحد، لما بين الفريقين

من تفاوتٍ شاسعٍ في العُدَّة والعدد، وشبكة التحالفات ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ولا شك أن البدء بهذه النتيجة يُوجي بأهميتها وما سترتب عليها من آثار، إضافة لما فيها

من تأييد إلهيٍّ مُباشر، بما يُعزِّزُ الحالة الإيمانية لدى المؤمنين، وثقتهم بوعده الله الأكيد بإتمام

النعمة وإكمال الدين.

وتجدرُ الإشارة إلى أن القرآن عاد ليؤكد هذه النتيجة بعد عددٍ من الآيات: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَنَآلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

ثانيًا: وصف القرآن المشهد الخطير للمعركة والمأزق الخائق الذي وجد المسلمون أنفسهم

فيه: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

ثالثًا: شخَّص القرآن الدور الخطير الذي لعبته المجموعة المنافقة في ذلك الظرف

العصيب، فانطلقوا يُشكِّكون في دين الناس والوعد الذي سمِعَه المسلمون عن نبيِّهم ﴿وَإِذْ

يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ومنهم من راح يُبْطِط العزائم، ويُبْثُّ الخوفَ والقلقَ والاضطراب ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ

يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن

يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

ومنهم من ولَّى هاربًا بذرائع واهية، ولا شك أن الفِرار في تلك اللحظة يُزلزلُ القلوب،

وَيُخْلِلُ الصُّفُوفَ ﴿وَيَسْتَشِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿

وقد بين القرآن أن هؤلاء الفارّين كانوا قد عاهدوا الله على الثبات وعدم الفرار ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدَّبَرَ﴾ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿؛ ولذلك بدأ القرآن بمحاجبتهم: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٦ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

ثم عرّض القرآن صورًا أخرى لهذا التخاذيل والمواقف الخيانية، والتي تؤكد أن هؤلاء لم يكونوا من المؤمنين وإن ادّعوا ذلك ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٨ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ١٩ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

رابعًا: بعد تشخيصه لحال المنافقين ودورهم الخياني الخطير، راح القرآن يُبرِزُ حال الصفّ المؤمن من المهاجرين والأنصار، وعامة المؤمنين ممن صدّقوا الله فصدقهم الله، ولا شك أن وجود الرسول ﷺ معهم وبين صفوفهم - وهو الأسوة والمثل الأعلى في السراء والضراء - كان له الأثر الأبلغ في تثبيتهم وتشجيعهم على الصبر والمرابطة، حتى جاء وعد الله ﴿وَلَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ ٢١ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا

﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

خامسًا: أخيرًا عرض القرآن لصفحة أخرى من صفحات الخيانة والغدر، جاءت على يد إحدى القبائل اليهودية التي كان بينها وبين رسول الله ﷺ أحلاف ومواثيق، فنقضوا عهدهم وتحالفوا مع قريش، فأمكن الله منهم بعد فرار قريش ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٥﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْهَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

دقائق التفسير

﴿إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ﴾ قريش ومن تحالف معها من قبائل العرب، وذلك يوم الأحزاب. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الظاهر أنهم الملائكة، وما يعلم جنود ربك إلا هو. ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي: من أعالي المدينة ومن الجهة المقابلة لها، ورُبَّمَا يكون الأحزاب قد وصلوا المدينة من طريقين مختلفين، أو أنه أراد بني قريظة؛ حيث كانوا في الجهة الثانية المقابلة للخنديق، وقد غدروا بالمسلمين، ونقضوا عهدهم معهم. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ من شدة الخوف والفرع، والحناجر جمع حنجرة، فكانت القلوب قد انخلعت من أماكنها، وصعدت إلى مستوى الحناجر؛ لما رآته من هول وشدة.

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ أي: الظنون المختلفة تبعًا لاختلاف مستوى الإيمان ودرجة اليقين؛ فالمؤمنون الصادقون لا يظنون بالله إلا الخير، وأمَّا المنافقون وضعاف الإيمان فيظنون بالله ظنًا آخر.

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ تأكيدٌ لحالة الفزع والقلق التي أصابت المؤمنين في ذلك اليوم، وهي حالة بشرية طبيعية في مثل هذه الظروف؛ حيث الخوف على النساء والذري، والخوف من المصير المجهول، والخوف على مستقبل الدعوة أيضًا، وهم قطعًا لا يعلمون الغيب، ولا يعلمون ما الله مُبْتَلِيهم به، أمّا عقيدتهم في الله وتوكلهم عليه، والتفافهم حول نبيهم ﷺ، واستعدادهم للتضحية فكل هذا ثابت لا يتزعزع ولا يتزلزل، فرضي الله عنهم وأرضاهم على ما صبروا وأخلصوا، وقدموا وبذلوا.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ عطف الذين في قلوبهم مرض على المنافقين للتمييز بين المنافق الخالص الذي يُبطن الكفر ويظهر الإيمان، والآخر الضعيف والمتردد والذي لم يستقر الإيمان في قلبه، واشتراكهم في هذا القول دليل على تأثير المنافقين في دائرة أوسع من دائرتهم، وهذا القول مع ما فيه من سوء ظن بالله وبرسول الله، فيه أيضًا تشييط للمسلمين، وإضعاف لروح المقاومة عندهم.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: من المنافقين.

﴿ يٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ أي: لا جدوى في مقامكم ورباطكم، فارجعوا إلى مساكنكم.

﴿ وَيَسْتَشِذْنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي: مكشوفة للعدو، وليس بينها وبينه حائل.

﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ تكذيب صريح من القرآن لدعواهم تلك، وفضح لنواياهم.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ أي: لو اقتحم المشركون المدينة من كل جهاتها.

﴿ ثُمَّ سِيلُوا الْقَيْنَةَ ﴾ أي: طلب منهم المشركون الارتداد عن محمدٍ ودينه.

﴿لَا تَوَهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: لسارِعوا إلى إجابتهم والدخول في دينهم، وهذا تأكيد أن هؤلاء المنافقين لم يكونوا مؤمنين أصلاً، وإنما هم كاذبون وخائنون.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَرُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ هذه طبيعة المنافقين، فهم مع القوي، ومع من يظنون فيه مصلحتهم، فإذا كان غير ذلك انقلبوا عليه ونكثوا عهودهم.

﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالأجل المكتوب عنده سبحانه والذي يحول بينكم وبين الموت. ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يحميكم من قدر الله، ومن الموت الذي كتبه الله عليكم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ وهم الذين يصدُّون الناس عن الجهاد، ويُرَغِّبُونَهُمْ فِي الْقُعُودِ، وهذا معنى قولهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: تعالوا معنا واتركوا الجهاد. ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والبأس هنا: القتال.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ يخلون عليكم بكل شيء؛ لأنهم لا يريدون الخير لكم، ثم أكد هذا المعنى بقوله الآتي: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾.

﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وَصَفُ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ حِينَ تَكُونُ الْمَوَاجَهَةُ مَعَ الْعَدُوِّ وَتَلْتَحِمُ الصُّفُوفُ، فلا شيء يفضح المنافقين كالقتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ﴾ أي: ألقوا عليكم من مفاخرهم ومآثر شجاعتهم الكاذبة ما ينتقصون به من شجاعة المؤمنين وصبرهم وثباتهم، وهذا ديدنُ المنافقين والمُتَنَفِّعِينَ بَعْدَ كُلِّ مَعْرَكَةٍ، فهم قبل المعركة وأثناءها خائفون وجِلُّون، فإذا انقشعت راحوا يتغنَّون ببطولاتهم، ويتنقصون من المجاهدين الصادقين.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَزُمُوا فَاحْبِطْ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ بيان لحقيقتهم وللدافع الأساس الذي ينتج كل هذه المواقف السيئة، فهم كافرون حقيقة وإن تظاهروا بالإسلام.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يظنُّ المنافقون أنَّ الأحزاب لا زالوا قريبين من المدينة وأنهم لم يرحلوا.

﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كَرَّةٌ ثَانِيَةٌ.

﴿يُودُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ أي: يودُّ المنافقون لو أنَّهم كانوا خارج المدينة في البادية مع الأعراب.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ بمعنى أنَّهم يكتفون بالسؤال عنكم عن بُعد، وعن أخبار مُواجهتكم مع المشركين.

﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنَّهم لا يقاتلون عن إيمان، وإنما إن حضروا القتال قاتلوا بما يظنون أنَّه يدفع عنهم تهمة الكفر والخيانة.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وهذه قاعدةٌ من أعظم قواعد الدين؛ فالرسول ﷺ هو المثل الأعلى الذي تجسّد الإسلام كلّهُ في سلوكه، فهو النموذج التطبيقي للوحي، ولا يمكن فهم الوحي أو تطبيقه من غير سنّته وسيرته الطاهرة ﷺ.

وقد أشارت الآية إلى هذا المعنى فربطت بين التأسّي به وبين ذكر الله: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ وما عرّض هذا الجانب من سيرته ﷺ في هذه السورة العزيزة إلا لتحقيق هذه الغاية.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ هذا هو الموقف اللائق بأولئك الصفوة رضي الله عنهم وأرضاهم؛ وفي هذا تفسير لقوله تعالى المتقدّم: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ فحاشا لهؤلاء الأصفياء الأوفياء أن يظنّوا غير ظنِّ الحقِّ بالله ثم برسوله ﷺ، وهؤلاء هم الذين امتدّحهم الله وامتدّح مواقفهم: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ مَدَقُّوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ وليس بعد هذه التزكية من تزكية.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَفُورًا رَحِيمًا﴾ تذكيرٌ بعقيدة الجزاء التي تنتظر الفريقين: المؤمن وغير المؤمن، مع الإشارة اللطيفة إلى سعة رحمة الله حتى بأولئك المنافقين الذين خانوا الله ورسوله؛ ترغيباً لهم بالتوبة والأوبة إلى الطريق المستقيم، وفي هذه إشارة تربوية لكل مؤمن أن يحرص على هداية الناس ما وجد إلى ذلك سبيلاً، فإسلامنا دين الرحمة، وليس دين النعمة.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَنَالُوا خَيْرًا﴾ لم ينالوا بغيتهم بالظفر على المؤمنين.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ ذكّرُ هذا في مقام الامتنان دليلٌ على أن القتال ليس مطلباً دينياً بحد ذاته، بل الرحمة والدعوة إلى الخير هي الأصل، والقتال استثناء، وفي هذا الاستثناء استثناء آخر؛ ففي هجوم المشركين على المسلمين في مدينتهم تحقّق الاستثناء ووجب القتال، لكن لما كان عدد المسلمين أقل، وعدّتهم أضعف تحقّق الاستثناء الثاني، فأصبح تجنّب القتال مطلباً بما يحفظ بيضة الإسلام، ويدفع عن المسلمين.

ولذلك عمل رسول الله ﷺ على حفر الخندق، وهمّ بأن يُعطي ثلث ثمار المدينة لبعض القبائل المتحالفة مع قريش؛ لكي يكفّوا عن القتال^(١). وهذا فقهٌ عظيمٌ ودقيقٌ.

(١) قال ابن هشام في «السيرة النبوية»: (فلما اشتدّ على الناس البلاء، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وهما قائدَا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعاً بمن معها عنه وعن أصحابه، فجزى بينه وبينهما الصلح). ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٢٢٣) مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط. ٢، ١٣٧٥ - ١٩٥٥ م، تح مجموعة من المحققين)، وقد رُويت هذه الحادثة في أغلب كتب السير والتواريخ، وحتى بعض كتب الرواية، ينظر: «دلائل النبوة» (٣/٤٣٠) دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤٠٥)، و«معرفة السنن والآثار» كلاهما للإمام أحمد بن الحسين البيهقي (١٣/٤١٢) مجموعة ناشرين، ط. ١، ١٤١٢ - ١٩٩١ م، تح عبد المعطي أمين قلعجي)، و«جوامع السيرة» للإمام أبي محمد علي بن حزم الظاهري (ص ١٤٩) دار الكتب العلمية)، و«الدرر في اختصار المغازي والسير» للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر النُميري القرطبي (ص ١٧٣) دار المعارف، ط. ٢، ١٤٠٣، تح شوقي ضيف)، و«البداية والنهاية» للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٤/١٢٠) دار إحياء التراث العربي، ط. ١، ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م، تح علي شيري)، وغيرها.

أمّا ما نراه اليوم من تدمير لحواضر الإسلام، وتشريد لملايين المسلمين تحت اسم الجهاد، وجعل الأحياء السكنيّة ساحة للحرب، ولردود الأفعال الانتقاميّة، فهذا أبعد ما يكون عن الجهاد الحقّ، وليس في هذا تبرئة لساحة الأعداء مهما كانوا، فهم أعداء، وهذا هو المتوقّع والمتنظر منهم، لكن الجاهل قد يضرّ بنفسه أكثر مما يطلبه منه عدوّه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ اختيار هاتين الصفتين الكريمتين لله تعالى في التذييل على هذا الموقف، يُشير إشارة قويّة إلى أنّ القوّة والعزّة قد تقترنان بكفّ العدو ومنعه من القتال، وليس شرطاً أن تقترن بالقتال المباشر.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ هم بنو قريظة الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله، وظاهروا المشركين يوم الأحزاب وتحالفوا معهم، فلما صرّف الله المشركين، تحرّك الرسول ﷺ لتأديب هؤلاء، فنزلوا على حكمه، وتركوا صياصيتهم، أي: حصونهم التي كانوا يتحصّنون بها، فقتل المسلمون مقاتلتهم، وأسروا الباقين ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

﴿وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ حيث أصبحت غنيمة للمسلمين، وهذه لا شك إحدى أهم ثمار هذه المعركة؛ حيث تخلص المسلمون من جيبٍ خطيرٍ كان يهدّد أمن المدينة من داخلها.

﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْثُوهَا﴾ بشارة للمسلمين أنّهم سيفتحون أرضاً جديدة، وأنّ دينهم سيتشر في هذه الأرض، وقد كان ذلك بعد غزوة الأحزاب؛ حيث فتحت خيبر ثم مكّة، والإشارة إلى خيبر أقرب للسياق، والله أعلم.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

بيت النبوة هو النموذج الذي ينبغي أن تكون عليه بيوت المسلمين، وهذا من تمام التأسي برسول الله ﷺ.

وقد جاءت هذه الآيات لتبسط القول في حياته ﷺ مع أهل بيته، ومن جوانب وزوايا مختلفة تلتقي كلها لتكوين الصورة المتكاملة:

أولاً: يبدأ القرآن بالتنبيه إلى الأساس الذي قام عليه بيت النبوة، وطبيعة العقد القائم بينه ﷺ وبين كل زوجة من زوجاته ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨﴾ وَلَئِنْ كُنْتُنَّ تُحِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾.

فمن كانت ترجو الدنيا بزواجها من رسول الله، فإنها لا تليق أن تكون زوجة له، ولا أما للمؤمنين، وطلب الدنيا بحد ذاته ليس إثماً، لكن الزواج له غاية أسمى من المتاع الزائل، وله رسالة كبرى في تأسيس البيت المسلم الذي يكون مدرسة تربية للأجيال، ولبنة صالحة في بناء المجتمع، فكيف بالبيت الذي هو المثل الأعلى في كل ذلك.

وهنا ملحوظة دقيقة، وهي أن أمهات المؤمنين كلهن ممن اختار الله ورسوله والدار الآخرة؛ إذ لو كانت واحدة منهن ترجو الدنيا وزينتها، لفارقها رسول الله ﷺ وسرحها سراحاً جميلاً.

ثانياً: يؤكد القرآن عقيدة العدل الإلهي في تحمل المسؤولية وتبعاتها لكل مكلف، ولو كانت أمماً للمؤمنين، وزوجة لسيّد المرسلين، بل هذه مسؤوليتها مضاعفة؛ لأنها القدوة لكل زوجة مسلمة، ولأنها عاشت مع الوحي ووعت نزوله وتطبيقه في بيتها ﴿وَبَيْنَمَا أَطْبَعُ قَالَ أَتَيْنَا نَارَ اللَّهِ وَسَرَّحَهَا سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٩﴾. ثانياً: يؤكد القرآن عقيدة العدل الإلهي في تحمل المسؤولية وتبعاتها لكل مكلف، ولو كانت أمماً للمؤمنين، وزوجة لسيّد المرسلين، بل هذه مسؤوليتها مضاعفة؛ لأنها القدوة لكل زوجة مسلمة، ولأنها عاشت مع الوحي ووعت نزوله وتطبيقه في بيتها ﴿وَبَيْنَمَا أَطْبَعُ قَالَ أَتَيْنَا نَارَ اللَّهِ وَسَرَّحَهَا سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٩﴾.

وليس معنى الآية تجويز وقوع الفاحشة منهنّ، بل هو للتنبيه الصارم على العدل الإلهي، وحدود الشرع التي لا تُحاي أحدًا، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله في صدر هذه السورة: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ أَنَّ اللَّهَ وَلَا تُطِيعَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

ثالثًا: ثم يُصدر القرآن توجيهاته التربويّة والاحترافيّة لأُمّهات المؤمنين؛ فينبّه أولاً على الاحتياط في القول؛ لأنّه الأداة الأولى والأقرب للتواصل، وبه تنكشف الملامح الأولى لشخصيّة الإنسان: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسَنًا كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

ثم يُعرّج لتأكيد أهمية الاحتشام والستر، والنهي عن عادات الجاهلية في التبرّج ومخالطة الرجال الأجانب: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. ثم يُوصيهنّ بأداء الواجبات من صلاة وزكاة، وكلّ أمر مفروض في كتاب الله أو في سنّة رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ثم يُذكّرهنّ بوظيفتهنّ الخاصة من بين كلّ العالمين، وهي وظيفة التبليغ لسنّة النبي الكريم ﷺ في حياته معهنّ، ولا شكّ أنّ هذا الجانب لا يعلمه غيرهنّ، وهو من صميم الدين الحنيف وشرعه الشريف ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ وهذه تزكية من الله لهنّ دون استثناء، وتأكيد لعدالتهنّ، وأنّهنّ أهل لأن يؤخذ الدّين عنهنّ رضي الله تعالى عنهنّ وأرضاهنّ.

رابعًا: في ثانيا هذه التوجيهات الربّانيّة، يذكّر القرآن الغاية الكلّيّة لهذه التوجيهات: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ولا شكّ أنّ المقصود بهذا الخطاب أُمّهات المؤمنين بعبارة النصّ القاطعة، وبدلالة

السياق؛ حيث تكرر الخطاب الصريحُ لهنَّ ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيَّ﴾، وتكرر الأمر والنهي لهنَّ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ .. الخ.

ثم إن لفظة: ﴿أَهْلَ﴾ أطلقها القرآن على الزوجة، فقد مرَّ معنا قولُ موسى ﷺ: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [طه: ١٠]، ولم تكن معه إلا زوجته، وأطلق: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على الزوجة أيضًا: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

ويلاحظ هنا أن الخطاب جاء بصيغة الجمع المذكر مع أنه موجهٌ إلى امرأةٍ واحدةٍ؛ وهذا لاحتماله دخول كلٍّ من في البيت من ذكورٍ وإناثٍ؛ ولذلك قال نوحٌ ﷺ في ابنه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥].

أما إخراجُ الزوجة من مُسمَّى أهل البيت فلا تحتِمُهُ اللغة، ولا يحتمِلُهُ السياق. خامسًا: يذكر القرآن الصفات الحميدة التي ينبغي أن يتحلَّى بها كلُّ مسلمٍ ومسلمةٍ، وهي جملةٌ من القيم، منها: قيمٌ إيمانيَّةٌ وتعبُديَّةٌ؛ كالقنوت، والخشوع، والصوم، والصدقة، ومنها: قيمٌ أخلاقيَّةٌ؛ كالصدق، والصبر، والعفة ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم بعد سلسلة الصفات هذه، يُركِّز القرآن القول في صفةٍ أخرى تعدُّ الفیصل العملي بين الإيمان الصادق، والادِّعاء الكاذب ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾.

ويلحظ في الآيتين: التنصيص على المرأة مع الرجل، في إشارة أن هذه من الصفات اللازمة لتكوين البيت المسلم.

سادسًا: يعرض القرآن نموذجًا عمليًا لما بدأ به في فواتح السورة من إعلانه لإبطال

العادات الجاهلية، وقد اختار القرآن هذا النموذج من بيت النبوة، وفي هذا أكثر من دلالة، من بينها أن الموروث الاجتماعي يحتاج إلى قوة كبيرة لتغييره؛ فافتضى الأمر أن يبدأ رسول الله ﷺ بنفسه ليكون قدوة للناس، وليسقط حاجز الهيبة عن كل موروث باطل.

ويتلخص النموذج النبوي في أنه ﷺ كان قد تبنى قبل البعثة زيد بن حارثة، فكان يُنادى: زيد بن محمد، وكان ﷺ يحبه حباً شديداً، وكان زيد قد تزوج بامرأة شريفة تُسمى زينب، فلما أراد الله أن يُبطل عادة التبني وأثارها النفسية والاجتماعية، أمر نبيّه أن يتزوج من زينب بعد طلاقها من زوجها زيد، وكان هذا ثقيلاً على رسول الله - بأبي هو وأمي -، فكان يُوصي زيداً بالتمسك بزوجته، مع أنه يعلم أنه سيُطلقها، وأنها ستكون زوجة له ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

وقد أبانت الآية عن حكمة هذا الأمر: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾.

ثم أكد القرآن انتفاء الحرج عن رسول الله ﷺ في تنفيذه لأمره سبحانه: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

سابعاً: يبني القرآن على هذه القصة قاعدة كلية في الدعوة إلى الله، وقد جاءت في مقام المدح لأنبياء الله ﷺ، وتحفيزاً لكل عالم ومبلغ وداعية أن يجذو حذوهم، ويقتدي بهم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

فهؤلاء الصفوة وفي مقدمتهم نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم عليه وعليهم أجمعين قد بلغوا رسالات الله كاملة كما أنزلها الله عليهم، ولو كان في ذلك مُفاصلة أقوامهم، أو تحمّل الأذى والمشقة من قبلهم، فهم لا يخشون ذا سلطان، ولا ذا جاه، ولا ذا قرابة، أو صداقة، لا

سطوة الحاكم بقوته وحديده، ولا سطوة المجتمع بأعرافه وتقاليده، وكل هذا إنما يكون بالمنهج الرباني الذي يُراعي الحكمة في الدعوة، وترتيب الأولويات، وتقدير النتائج والمآلات، كما عُرِف ذلك في سُنَّته وسيرته ﷺ.

ثامناً: ثم ينطلق القرآن من خصوصية دقيقة لرسول الله ﷺ تتعلق بموضوع القصة إلى خصوصية كبرى تتعلق بالدين كله، وبالوحي كله، وبالرسالات السماوية كلها: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.

فهذا إعلان قاطع بتوقُّف سلسلة النبوات والرسالات عند رسول الله ﷺ، فلا نبي بعده، ولا رسول بعده، ولا وحي بعده، فهو النبي الخاتم، والرسول الخاتم، ورسالته رسالة الله الأخيرة إلى الأرض، وهذا يقتضي أنها الرسالة الصالحة والمناسبة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لئلا تنقطع الغاية الكلية التي من أجلها خلق الله الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلو لم تكن هذه الرسالة الخاتمة صالحة لكلِّ زمانٍ، لانقطع الناس عن الله بالكلية، وحاشا لله أن يخلق الخلق ثم يتركهم أو يهملهم.

تاسعاً: يتوجَّه القرآن بعد هذا في خطابه إلى المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ ليؤكد لهم أن الله معهم، وأن نور الوحي باقٍ بينهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فليكونوا هم مع الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝١١ وَسِيحُوا بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝١٢ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٣ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ؕ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

عاشراً: ثم يعود القرآن إلى بيان صفاته ﷺ ووظيفته تجاه هذه الرسالة الخاتمة، وتجاه الناس كل الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٤ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝١٥ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا﴾.

ثم يؤكد ما استهل به السورة وما تكرر في ثنايا الآيات السابقة من ضرورة التمسك بالوحي، وعدم الالتفات إلى الكافرين والمنافقين ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَزْوَاجَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

حادي عشر: ثم يتطرق القرآن إلى مسألة دقيقة من مسائل البيت المسلم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

ثاني عشر: ثم يعود القرآن إلى بيت النبوة لبيان ما أحله الله لنبيه ﷺ وبتفاصيل دقيقة، حتى لا يبقى هناك التباس أو غموض ولو كان في أحص خصوصياته ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم يلتفت القرآن إلى ما شرعه الله للمؤمنين عامة في هذا المجال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ليعود ثانية في الآيتين التاليتين إلى ما بدأ به في هذه الآية: ﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُفَوَّى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَنِهُنَّ وَلَا يُخْرَجَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَانَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾.

دقائق التفسير

﴿فَمَتَّعْنَا لَئِنْ أُمِيتَكُمْ وَأُسْرِحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أعطيكن حقوقكن وأطلقكن طلاقاً حسناً.

﴿يَلْبَسَاءَ النَّقَى لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ ﴿لَا تَهْنِ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى لِنِسَائِهِمْ.﴾
 ﴿إِنْ أَتَقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ بمعنى أَنَّ لِيَنَّ الْقَوْلَ عِنْدَ مُخَاطَبَةِ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ لَيْسَ
 مِنْ صِفَاتِ النِّسَاءِ الْمُتَّقِيَّاتِ.

﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ بمعنى أَنَّهُ سَيَطْمَعُ بِاسْتِمَالَتِهَا فَيَكُونُ أَجْرًا عَلَيْهَا.
 ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بمعنى: السَّكُونُ وَالِاسْتِقْرَارُ، فَالْمَرَأَةُ تَعْلَمُ السَّكِينَةَ وَالِاسْتِقْرَارَ
 وَالْأُنْسَ فِي الْبَيْتِ، وَهِيَ الْمَعْنِيَّةُ بِرِعَايَةِ الْأَطْفَالِ وَتَنْشِئَتِهِمْ عَلَى الْأَخْلَاقِ وَالْقِيَمِ السَّالِمَةِ،
 وَلَيْسَ فِيهِ مَنَعٌ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ لَشُؤُونِهَا؛ كَالْتَعَلُّمِ، وَالتَّطَبُّبِ، وَالصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ، وَصِلَةِ
 الرَّحِمِ.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ ﴿حَيْثُ كَانَتِ الْمَرَأَةُ لَا تَتَوَرَّعُ عَنِ إِظْهَارِ مِفَاتِنِهَا
 لِلرِّجَالِ الْأَجَانِبِ.﴾

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ﴿لِيُبْعِدَ عَنْكُمْ كُلَّ مَا يَنْبَغِي التَّنَزُّهُ
 عَنْهُ.﴾

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿مِنَ الرِّجْسِ، وَفِيهِ تَأْكِيدٌ لَا يَخْفَى.﴾

﴿وَإِذْ كُنَّا مَا يَمُنُّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ ﴿حَيْثُ كَانَ الْوَحْيُ
 يَنْزِلُ فِي بُيُوتِنَّ، وَكَانَ ﷺ يَعِيشُ مَعَهُنَّ بِهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ، وَفِي هَذَا امْتِنَانٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِنَّ،
 وَتَكْلِيفُهُنَّ وَاجِبَ التَّبْلِيغِ وَنَقْلِ مَا تَعَلَّمْنَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.﴾

﴿وَالْقَانِسِينَ وَالْفَنِينَ﴾ ﴿الْمُخْلِصِينَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَالْمُخْلِصَاتِ.﴾

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ ﴿ذَكَرَ الْخُشُوعَ وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّ الْخُشُوعَ رُوحُ الصَّلَاةِ،
 فَاتَّفَقَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.﴾

﴿أَنْ يَكُونُوا لَكُمْ حُجْرَةً﴾ ﴿أَيُّ: الْإِخْتِيَارِ.﴾

﴿وَلِذَاقِ تَقْوُلٍ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام والصحبة، وهو سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه، والذي كان يُدعى زيد بن محمد؛ حيث تبنّاه قبل البعثة وقبل ورود النهي.

﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالرعاية والمحبة والعتق.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ حيث إنّ الله أخبره أن سيدتنا زينب زوجة زيد ستكون زوجة له بعد أن يُطلقها زيد، فلما جاءه زيد يشكوها إليه ولم يكن يعلم بما قدره الله بشأن زوجته، أخذ رسول الله ﷺ يُوصيه بالتمسك بها، ويقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: فيها.

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ حيث كان ﷺ يستحي أن يُبدي ذلك، ويخاف من تقولات أعدائه من كافرين ومنافقين، فتكون في ذلك فتنة للناس، وتشوية للدعوة.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أي: طلقها وأنهى العلاقة بها، ولم يذكر القرآن اسم صحابيٍّ غيره.

﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ نصّ على أن الله هو الذي اختارها لنبيّه، وهو الذي زوّجه بها.

﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ بيان للحكمة من هذا الاختيار القدري، فكأن الله أراد أن يُبطل عادة التبنّي ويحسمها عملياً حسماً نهائياً.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ بمعنى أنّه لا ينبغي أن يجتمع الحرج مع ما شرّعه الله له، فليس في شرع الله ما يُستحي منه.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في الرسائل السابقة، وليس هذا التوجيه خاصاً بالرسول الخاتم ﷺ.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ إشارة أنّ هذا الذي حصل في بيت النبوة وزواجه ﷺ من سيدتنا زينب كان قدراً إلهياً لا خيار لأحد به.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي: ما كان ينبغي ذلك، وفيه تأكيد لإبطال عادة التبنّي.

﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ فاصلُ العلاقة بينه وبين المؤمنين هي رسالته التي ختم الله بها الرسالات، والتي هي طريقهم إلى عزة الدنيا وسعادة الآخرة. وكونه ﷺ خاتماً للنبيين يقتضي انقطاع الوحي، فمن ادّعى نزول وحي الله على أحد من خلقه بعد النبي، فهو مُخَالِفٌ لصريح هذه الآية؛ إذ النبوة الوحي: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ ﴾^(١).

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ سَبِّحُوهُ بداية النهار ونهايته؛ أما البداية فاستعداداً للعمل، وأما النهاية فاستغفاراً لما قد يكون فيه من زلة وتقصير.

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ الصلاة من الله: الرحمة والعفو والمغفرة.

﴿ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ وصلاة الملائكة: الدعاء بالمغفرة.

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ في ذلك اليوم الذي تنتفض فيه الخلائق كلها للحساب، يبشّر الله هؤلاء المؤمنين بالنجاة والفوز، وآته سبحانه يُحييهم بالسلام، كما قال في آية أخرى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨].

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا ﴾ لله بالوحدانيّة، ولأنبياء الله جميعاً بالصدق وتبليغ الأمانة، وشاهدًا على الناس مَنْ آمَنَ بالله، وَمَنْ كَفَرَ، وَمَنْ أَطَاعَ، وَمَنْ عَصَى.

﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ بالجنة وسعادة الدارين.

﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من النار وشقاء الدنيا والآخرة.

﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ وصفٌ لرسول الله ﷺ، فهو السراج الذي يُنيرُ الحياة كلّها بنور هديته وسنته كما تنيرها الشمس.

(٢) تكرر هذا النصّ الكريم مرتين في القرآن الكريم: في سورة الكهف/ ١١٠، وسورة فصلت/ ٦.

﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾ لا تلتفت إليه ولا تنشغل به عن تبليغ ما أنزله الله إليك.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلُوا بِهِنَّ.

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ هذا حكمُ الله في المرأة التي يُطَلِّقُها زوجها قبل الدخول بها، فإنَّها لا تعتدُّ عدَّةَ الطلاق، بل لها الحقُّ في الزواج بعد الطلاق مُباشرةً.

﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أعطوهنَّ حقوقهنَّ كاملةً.

﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فارقوهنَّ فراقًا جميلًا من غير أذى ولا انتقاصٍ من قدرهنَّ وقدر أهلهنَّ؛ إذ الطلاق غالبًا ما ينتج عن سوءٍ في العلاقة، وقلة انسجام واحترام، فجاء التنبيه القرآني للتحرز والوقاية عن الظلم والإثم.

﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنَّ، وقد ورد تسمية المهر أجرًا في زواج موسى ﷺ: ﴿قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَّجٌ﴾ [القصص: ٢٧].

﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ ورد في هذه المسألة ثلاثة شروط:

الأول: أن تكون هناك امرأة مؤمنة متَّصِفة بالإيمان، وأن تهَبَ هذه المرأة نفسها لرسول الله ﷺ، رغبةً فيه من غير صداق، وأن يرغب النبي ﷺ في نكاحها، وقد وردت في سبب النزول روايات كثيرة، إلا أن الذي في «الصحيحين»: أن امرأة عرَّضت نفسها على رسول الله، لكنَّه ﷺ لم يُرد نكاحها، فلم تكن له فيها حاجة، فلم يتزوَّج بها أصلًا، وهذا نصُّ الحديث:

عن سهل بن مُعَاذٍ قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إِنِّي وَهَبْتُ مِنْكَ نَفْسِي، فَقَامَتْ طَوِيلًا، فَقَالَ رَجُلٌ: زَوَّجْنِيهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ، قَالَ: «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُضِدُّقُهَا؟»، قَالَ: مَا عِنْدِي إِلَّا إِزَارِي، فَقَالَ: «إِنْ أُعْطِيَتْهَا إِيَّاهُ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمَسْ

شَيْئًا»، فقال: ما أَجِدُ شَيْئًا، فقال: «الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ»، فلم يجد، فقال: «أَمَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟»، قال: نَعَمْ، سُورَةُ كَذَا، سُورَةُ كَذَا، لسورٍ سَمَّاهَا، فقال: «زَوَّجْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٣).

﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ الصداق واجبٌ في كلِّ تزويج، فكانت إباحة الزواج للنبي ﷺ من غير صداقٍ خصوصيةً له، والله أعلم.

﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ الإرجاء معناه: التأخير، والمعنى أَنَّهُ ﷺ له أن يَرُدَّ مَنْ يجوز له نكاحها حتى لو عَرَضَتْ هي نفسها عليه، كما تقدَّم في حديث «الصحيحين».

﴿وَتَتَوَيَّرُ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: التي تختارها زوجة لك.

﴿وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي: لك أن ترجع إلى المرأة التي تركتها.

﴿ذَلِكَ أَذْنَى﴾ أقرب إلى رضاها.

﴿أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا أَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ غاية رحمة كريمة تُبَيِّن قَدَرَ زوجات النبي ﷺ عند الله، فكلُّ واحدةٍ منهنَّ دون استثناء ينبغي أن تكون قريرة العين سعيدة وراضية تمام الرضا.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ هذه الآية حَسَمَتْ مَنْ يكون لها الحقُّ أن تكون أُمًّا للمؤمنين؛ حيث اختارهنَّ رسولُ الله، وأدناهنَّ، واحتفظ بعلاقته معهنَّ، بعد أن خيرهنَّ فاختَرَنَّهُ واختَرَنَ الله والدار الآخرة، فهؤلاء هنَّ أمهات المؤمنين؛ لم يزدنَ بزوجةٍ جديدةٍ، ولم ينقُصنَ بفسخٍ أو طلاقٍ.

(٣) متنق عليه، واللفظ للبخاري، انظر: صحيح البخاري (٥/٦٨) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ -

١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٤/١٤٣) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِذٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْنِينَ لِجَدِيبِ إِنْ دَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زَوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْسَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مَثَبُهَا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِيهِنَّ ذَلِكَ آذَنٌ أَنْ يُعْرِفَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّيْنٌ لِّرَبِّنَا الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونَتِ أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقِيلَوا تَفْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

في الرُّبْع المُتَبَقِّي من هذه السورة يتناول القرآن مسائل وقضايا مختلفة، لكنها تنتظم كلها تقريباً في مواجهة الأذى الذي كان يتعرَّض له رسول الله ﷺ وأهل بيته والمؤمنون والمؤمنات عامة؛ حيث تكرر الفعل: ﴿يُؤْذَى﴾ وما اشتق من جذره في هذه الآيات ست مرات، هذا عدا الألفاظ الأخرى التي تدخل في معناه؛ كالبُهتان والإرجاف والظلم، وقد شخَّصت هذه الآيات مصادر هذا الأذى ومستوياته، ثم شرحت منهجية التعامل معه والأحكام المناسبة له، وكما يأتي:

أولاً: بدأ القرآن بتنبية المؤمنين أنفسهم إلى ما قد يقع منهم عن غير قصد، مما يُسبب أذى لرسول الله ﷺ ولأهل بيته رضي الله عنهم وأرضاهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِظِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

ثم يشرع القرآن في وضع الأحكام العملية الملزمة للجميع في حياته ﷺ وبعد انتقاله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٢﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خِفْتُمْ فإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

ثانياً: استثنى القرآن الكريم من أحكام الدخول والمكوث والسؤال والاختلاط التي وردت آنفاً عدداً من الرجال والنساء الذين تربطهم بزوجات النبي ﷺ صلات خاصة، وفي مُقدِّمتهم المحارم ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا بَنَاتِهِنَّ وَلَا إِخْوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَقْفَيْنَ اللَّهُ إِبْنَ اللَّهِ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

ثالثاً: يدعو القرآن الكريم المؤمنين إلى معرفة رسول الله ﷺ ومكانته عند الله تبارك وتعالى وعند ملائكته، ثم يأمرهم بها من شأنه أن يُعمّق فيهم هذه المعرفة، ويُذكّرهم دائماً بهذه المكانة ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ولا شك أن هذه تربية عملية يحتاجها المؤمنون في علاقتهم مع رسول الله ﷺ أكثر من حاجته إليها بأبي هو وأمي.

رابعاً: يُحذّر القرآن الكريم أولئك الذين يؤذون رسول الله ﷺ ويؤذون المؤمنين والمؤمنات عن قصد وسوء نية - والإشارة هنا للمنافقين -، مُبيناً لهم أن هذا الإيذاء كأنه إيذاء لله، والله سبحانه لا يلحقه أذى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨.

خامساً: يوجّه القرآن الكريم أهل بيت النبي ﷺ وسائر نساء المؤمنين بالستر، والالتزام بالحجاب الشرعي؛ ففيه الوقاية والحماية لمن أذى المنافقين وضعاف الإيمان والنفوس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩﴾.

سادساً: يُصدر القرآن تهديده الشديد للمنافقين الذين هم مصدرُ الإرجاف والأذى والشائعات الباطلة ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا قَتِيلًا ٦١ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٢.

ومعلوم أن المنافقين يعيشون مع المؤمنين في دولة واحدة، وفي مجتمع واحد، وقد ضمن لهم الإسلام حقوقهم المدنية في الأمن والعمل، وحرية التنقل على أنهم جزء من المسلمين بحسب حكمهم الظاهر، لكن المنافقين استغلوا هذا الغطاء لتمرير مكائدهم، ثم بلغ بهم

الصَّلَفُ أَنْ يُجَاهِرُوا بَعْدَاوَتَهُمُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ أَوْ مَنَاسِبَةٍ، مِنْ هُنَا كَانَ هَذَا التَّهْدِيدُ بِمِثَابَةِ الْإِنذَارِ قَبْلَ أَنْ يَتَعَاطَلَ مَعَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا يَتَعَاطَلُ مَعَ الْأَعْدَاءِ الظَّاهِرِينَ، وَالْمَعْلُومُ أَنَّ هَذَا التَّهْدِيدَ بَقِيَ فِي إِطَارِ التَّهْدِيدِ وَالتَّخْوِيفِ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ إِلَى حَرْبٍ مَفْتُوحَةٍ مَعَهُمْ، وَبَقِيَ الْمَنَافِقُونَ يَعْيشُونَ بِأَمْنٍ وَأَمَانٍ فِي ظِلِّ دَوْلَةِ الْعَدْلِ مَعَ كُلِّ مَا اقْتَرَفُوهُ.

سابعًا: يَذْكُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي تَنْتَهِي فِيهِ هَذِهِ الْحَيَاةُ؛ لِيَتَهَيَّأَ الْجَمِيعُ لِمُلَاقَاةِ مَا عَمَلُوا وَمَا قَدَّمُوا، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ آخَرٌ لِلْمَنَافِقِينَ وَمَنْ يَقِفُ خَلْفَهُمْ ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝١٤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٥ يَوْمَ تُغْلَبُ وُجُوهُُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝١٦﴾.

ثامنًا: يُذَكِّرُ الْقُرْآنُ أَيْضًا بِالدُّورِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْقَادَةُ وَكُتَبَاءُ الْقَوْمِ فِي إِضْلَالِ النَّاسِ وَدَفْعِهِمْ لِمُحَارَبَةِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا رَبَّنَا إِنَّا إِتَيْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ زُبُرًا مِنْ ذُرَاهِمَ نَارٍ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝١٧﴾.

تاسعًا: يَرْبِطُ الْقُرْآنُ بَيْنَ مَا يَحْصُلُ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ مِنَ الْأَذَى الْمَقْصُودِ وَغَيْرِ الْمَقْصُودِ، وَبَيْنَ الْأَذَى الَّذِي كَانَ يَتَعَرَّضُ لَهُ مُوسَى ﷺ، فِي إِشَارَةٍ إِلَى شِدَّةِ التَّرَابُطِ وَالتَّشَابُهِ بَيْنَ الرِّسَالَتَيْنِ، وَحَاجَةِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَهِيَ الْأُمَّةُ الْبَدِيلَةُ عَنْ قَوْمِ مُوسَى لاسْتِلْهَامِ التَّجَرُّبَةِ السَّابِقَةِ، وَالِاتِّعَاضُ بِهَا وَالتَّعَلُّمُ مِنْهَا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ۝١٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝١٩ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٢٠﴾.

عاشرًا: يُخْتِمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ السُّورَةَ الْعَزِيزَةَ بِقَضِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْكَبِيرِ: قَضِيَّةِ اسْتِخْلَافِهِ فِي الْأَرْضِ وَتَحْمُلِهِ لِأَمَانَتِهَا، وَالْمَصِيرِ الْمَحْتَمِ الَّذِي سَيَلْقَى كُلُّ إِنْسَانٍ فِيهِ حِسَابُهُ وَجَزَاءُهُ، وَمَا قَدَّمَهُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَالْجِبَالِ قَابَتِكَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقَنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

دقائق التفسير

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾
هذه الآية أصل في آداب الدخول على البيوت، وقد نهى القرآن المسلمين أن يدخلوا على بيت رسول الله من غير إذن، ثم نبّه إلى مسألة دقيقة، وهي أن بعضهم كان يدخل من دون استئذانٍ منتظرًا نُضَجَ الطعام، وقد يمكث طويلًا حتى ينضج، فيثقل على أهل البيت، ومنهم من يطول بهم الحديث حتى بعد الطعام.

و﴿نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ أي: مُنْتَظَرٍ نُضِجَهُ، و﴿وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِلْحَدِيثِ﴾ أي: تمكثون طويلًا بسبب أنيسكم في الكلام مع بعضكم، ثم أرشدكم إلى السلوك الأقوم فقال: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ ومجموع الكلام يتركز في أدبين: أدب الدخول، وأدب المكوث.

﴿إِنْ دَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ أي: الدخول من دون استئذان، وطول المكوث من غير حاجة.

﴿فَيَسْتَخِي مِنْكُمْ﴾ فكان رسول الله ﷺ يتحمل هذا الأذى، ولا يُنبههم إليه؛ لشدة حيائه، بأبي هو وأمي.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ من بيوتهن.

﴿فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: لا تدخلوا عليهن، والظاهر أن الحجاب هنا ما يسر البيت، أما ستر الجسد فليس له صلة بسؤال المتاع، فالمرأة إن كانت خارج بيتها فالخطاب بالستر والاحتجاب يُوجّه إليهما، والله أعلم.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بهذه الأشياء، التي تنمُّ عن قَلَّةٍ في النباهة، وعدم مُراعاة الحال.

﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ فَأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حُرْمَةً مُؤَبَّدَةً، لَا تَنْقُضِي بَعْدَهُ وَلَا بغيرها.

﴿وَلَا نِسَاءِيَهُنَّ﴾ أي: من يَثْقَنَ بهنَّ من النساءِ المسلمات، فلا يَحْتَجِبْنَ عَنْهُنَّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الصلاة والسلام على رسول الله من الأذكار العظيمة والعبادات الجليلة التي تُبْتَغَى بها القُربى، وقد وردت بإطلاقٍ دون تقييدٍ بعددٍ، ولا كَيْفِيَّةٍ، ولا صِيغَةٍ مُحَدَّدَةٍ، لِيَسْبَحَ الْمُؤْمِنُ فِي هَذَا الْفَضَاءِ الْجَمِيلِ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَحَالٍ، ومن فوائد هذا الذكر: استِذْكَارُ صفاته ﷺ وحقوقه على أُمَّتِهِ، ليكون المحور الذي يلتقي عليه المسلمون، والراية التي يلتفُّون حولها، والحقُّ الذي يحتكمون إليه، إِنَّهَا لَيْسَتْ ذِكْرًا مُجَرَّدًا، بل هي وسيلةٌ لربط هذه القلوب بأُسُوتِهَا الْحَسَنَةِ، وعنوان وحدتها، وطريق استقامتها، فعليك صلاةُ الله وسلامُهُ سيَّدي رسول الله ما دامت السماواتُ والأَرْضُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ هؤلاء هم الذين يؤذون رسول الله عن عداوةٍ له، بخلاف أولئك الذين مرَّ ذكرهم من المسلمين الذين قد يؤذونه ﷺ عن غير قصدٍ، وإِنَّا لَقَلَّةٌ النباهة والاحتياط.

﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ بغير ذَنْبٍ وقعوا فيه يَسْتَوْجِبُ هَذَا الْإِذَاءَ، بمعنى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يؤذون الْمُؤْمِنِينَ لِإِيْمَانِهِمْ لَا لِشَيْءٍ آخَرَ.

﴿قُلْ لَا أَزْوَاجَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَدَّمَ نِسَاءَ النَّبِيِّ وَبَنَاتِهِ؛ لِأَنَّهُنَّ الْقُدُورُ وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى لِلنِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ.

﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابٍ﴾ والجلباب: الثوب الذي يستر جسد المرأة، فيُذْنِبُهُ بِمعنى: يُسَدِّلُهُ من فوق رؤوسهنَّ، وهذا لا يكون في الثوب الضيق؛ لِأَنَّهُ لَا يُسَدِّلُ، وَلَا فِي الشَّفَافِ؛

لأنه لا يستر. أمّا مسألة الوجه والكفين فلا تتناولها الآية، والأولى عدم تحميل النصّ أكثر مما يحتمل، ومن أراد بحث هذه المسألة فلينظر في كتب السنّة وتطبيقات الصحابة رضوان الله عليهم، وفي كتب الفقه.

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذَنُ﴾ بمعنى أن هذا الستر أقرب إلى أن يعرف الناس أنهم حرائر مُحْتَشِمَات، فلا يتعرّض بالأذية لهنّ أحدٌ، والأذى الذي هو مناط الحكم هو الأذى الذي يقع على المرأة من جرأة في الكلام معها بغير ما ينبغي، إلى الأذى بالاعتداء المباشر، أمّا أن يُحدّث المرء نفسه بحديث سوءٍ فإنّما إثمُه عليه، وليس هذا هو الأذى؛ لأنّ هذا لا يمكن التستر عنه، وعليه فإن كانت المرأة في بيئة غير آمنة، وليس هناك من يحميها، فإنّ خروجها لا يجوز حتى لو كانت بكامل حجابها وسترها، والله أعلم.

﴿وَالْمَرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم الذين يُروّجون الأخبار الكاذبة التي تُثيرُ الفتن والاضطراب في صفوف المسلمين.

﴿لِنُغْرِبَنَكَ بِهِمْ﴾ أي: لنُسَلِّطَنكَ عليهم، ولنُغَبِّكَ بقتالهم.

﴿مَلْعُونِينَ أَتَيْنَا نَقْفًا أَخَذُوا وَفَتَلُوا نَفِيلًا﴾ أي: في حالة تسليط الله المسلمين عليهم، وإذنيه بقتالهم، وهي صورة قصد بها ردع المنافقين وتخويفهم، ولم يرد أنّه ﷺ قاتلهم أو أذن بقتالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ لم يذكر القرآن في هذه الآية نوع الأذى الذي تعرّض له موسى ﷺ، فكأنّ المقصود التذكير بجنس الأذى لا بنوعه، فهذا يكفي للاعتبار، وقد أورد القرآن في غير هذا الموضع أنواعاً من الأذى من قِبَل قومه ومن قِبَل أعدائه، وفي السنّة كذلك، وليس هنا محل التفصيل.

﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ ذا جاهٍ ومنزلةٍ.

﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: صواباً ليس فيه ظلمٌ ولا حيفٌ، وفيه تذكيرٌ وتأكيّدٌ لأهميّة

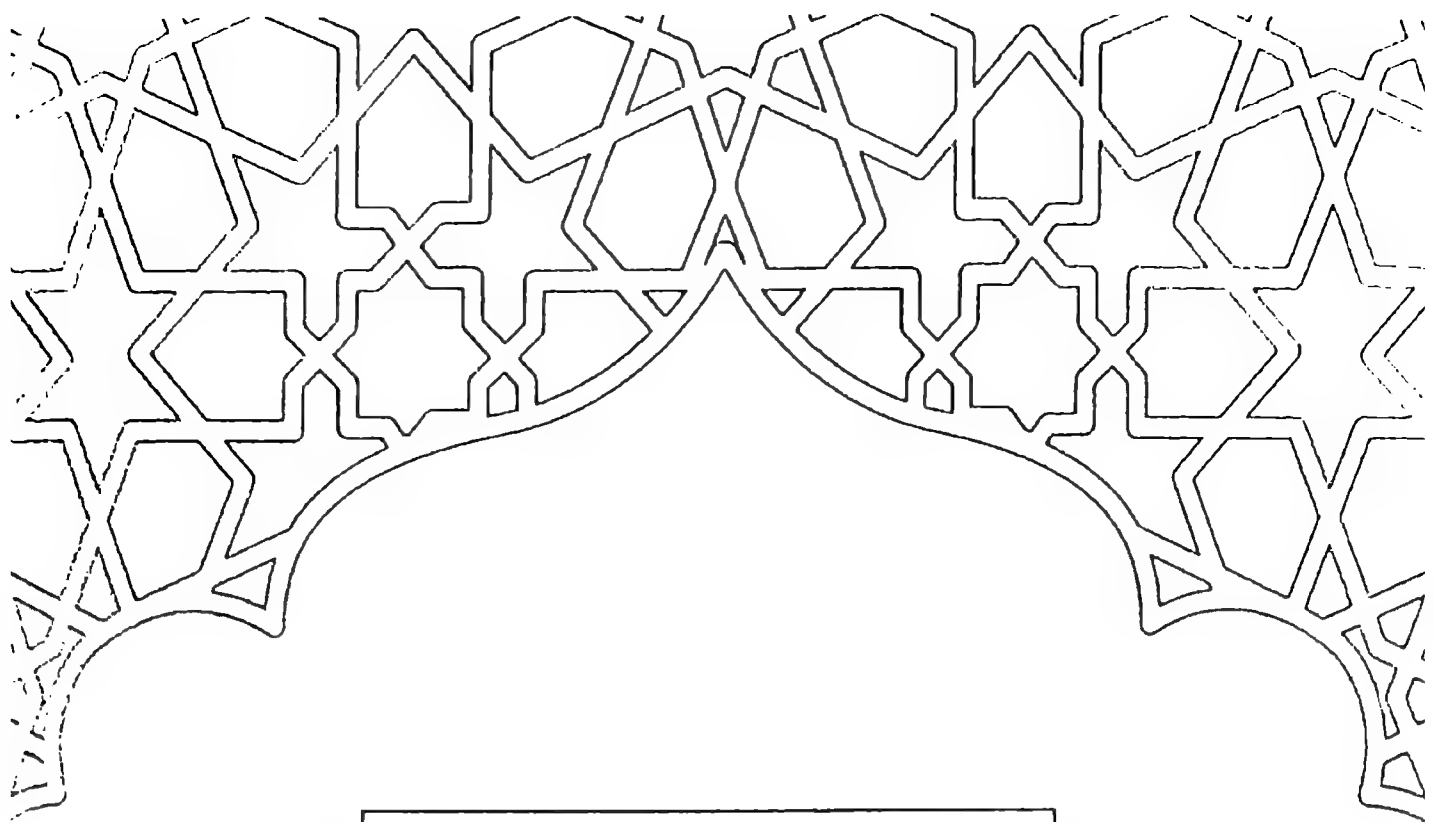
القول ومسؤولية الكلمة.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ مسؤولية التكليف وإعمار الأرض وإدارتها بمنهج الله، وتلك هي الخلافة عن الله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠].
﴿عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبْتَنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ۖ﴾ لأن هذه المخلوقات لا عقل لها، ولا خيار لديها، ومن ثم فهي لا تقوى على حمل هذه الأمانة التكليفية.
﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ﴾ بما أودعه الله فيه من عقلٍ مُميّز، وإرادة حرة قادرة على الدخول في ميدان الاختبار، مع استعدادٍ فطريٍّ للتعلُّم والاستفادة من التجارب؛ ولذلك قال الله تعالى:
﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ۖ﴾ [البقرة: ٣١].

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ليس لأنه حمل الأمانة، فحملُ الأمانة شرفٌ لآدم وذريته على سائر الخلق ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وإنّا الظلم والجهل يلحق من كرمه الله بهذه الأمانة ثم نكس عنها، وقربّه الله وكرمه وأسجد له ملائكته، ثم راح يعبد الشيطان ويعبد الحجارة! وحاشا لله أن تلحق هذه الصفات كلّ بني آدم وفيهم صفوة الخلق من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين.

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ فهؤلاء هم أهل الظلم والجهل، ممن خانوا الأمانة، واختاروا النكوس والمهانة، وقد قدّم المنافقين؛ لأنّ السياق كان يتحدث عنهم وعن أذاهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فهؤلاء هم أهل الولاية والكرامة، وهم المُقَرَّبون عند الله؛ لثباتهم على الحق، ونجاحهم في ميدان الاختبار.



سُورَةُ سَبَأٍ

المجلس الثاني والتسعون بعد المائة: عمارة الأرض وخرابها بمنظور إيمانيّ ويُعدّ تاريخيّ

المجلس الثالث والتسعون بعد المائة: فقه الحوار

سُورَةُ سُجَا

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ ۝٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠﴾ أَيْنَ أَعْمَلُ سَبِغْتِ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ وَلَسَلِمَتْنَا لِرِيحٍ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ۝١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَسُوْا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رَّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَنْثَىٰ وَشَقِيءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ تُجْزَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ ۝١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلُّ مِزْقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ۝٢١﴾

عمارة الأرض وخرابها يعظون الإيمان ويعلم تاريخهم

تناول سورة سبأ قضية الإيمان وتأثيرها المباشر في صورة المجتمع وقوته، ونمط حياته وتطوره، وقد جاء شطر السورة الأول - والذي هو موضوع هذا المجلس - متضمنًا لمقدمة

تُلخّصُ المفاهيم الإيمانيّة واختلاف الناس فيها الاختلاف المعروف بين مُصدّق ومُكذّب، ثم تعرض لنموذجين مختلفين من الدول والحضارات التي قامت في التاريخ، ومدى تأثير الإيمان من عدمه في اختلاف هذين النموذجين:

أولاً: يعرض القرآن في مقدمة هذه السورة جملة من المفاهيم الإيمانيّة المؤثرة في حياة الناس وواقعهم، وكما يأتي:

- يؤكّد القرآن أنّ الذي له ملك السماوات والأرض إنّما هو الله وحده ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ وهذا الاستهلال كأنه يُمهّد لموضوع السورة؛ حيث يتنازع الناس ويختلفون في من يملك الأرض ومن يحكمها، وما الأساس الذي ينبغي أن تدار عليه هذه الأرض.

- يؤكّد القرآن أيضاً أنّ الله وحده هو الذي يعلم حقيقة هذا الخلق من مُبتداه إلى مُنتهاه، وأنّه سبحانه الرحيم بهذا الخلق ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾، ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

وهنا إشارة: أنّ منهج الله هو الأصلح لهذه الأرض؛ لأنّه مبنيٌّ على علمٍ شاملٍ، ورحمةٍ واسعةٍ، وهاتان الصفتان هما الأساس في بناء المجتمع السليم، والدولة الرشيدة؛ إذ إنّ إرادة الخير لوحدها والقصد لتحقيق المصلحة لا يكفيان من دون علمٍ بحقائق الأمور والأحوال ومآلاتها، كما أنّ العلم لوحده لا يكفي من غير القصد الصادق لتحقيق الرحمة والغايات النبيلة والعادلة في الحكم.

- يُشير القرآن في هذا السياق إلى دور أهل العلم في إدراك هذه الحقيقة وتبيينها للناس:

﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

- ثم يعرض القرآن لموقف أهل الجهل والضلال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ﴾

وهذا الجزم غاية السفاهة والجهل، فهم لا يعلمون الغيب، ولا يعلمون كيف خُلقوا أصلاً، ثم يتجادون في السخرية والاستهزاء ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّمَّزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴿

وهنا يُبين القرآن حقيقة حالهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾، ثم يردُّ عليهم بما يكشف جهلهم وضعفهم: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

فهم لا يملكون لأنفسهم حياة ولا موتاً، ولا يعلمون كيف بدأ هذا الخلق، ولا كيف سينتهي، وليست لديهم القدرة على تغيير نواحيه أو التنبؤ بأحداثه، ومع هذا يجزمون بنفي ما لا يعلمون، ويقولون في هذا الخلق وكأنهم أعلم به من خالقه وأقدر عليه منه.

- في ثانياً هذا العرض يؤكد القرآن النتيجة المحتومة التي تنتظر الفريقين: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿، ولا شك أن التذكير بعقيدة الجزاء في هذا السياق له دلالة الخاصة في بيان أثر هذه العقيدة في نمط المجتمع والدولة المبنية منه، والسلوك العام لكل صاحب مسؤولية صغرت أو كبرت.

ثانياً: يعرض القرآن نموذج الحكم الرشيد الذي يستفيد من كل الطاقات المتاحة في أرضه، ويُسخرها في البناء والعمران وتحقيق مستوى أعلى من الترفه والتنعّم، وهذا النموذج تمثّل في الملك الذي أعطاه الله لنبيه داود، ثم لابنه النبي سليمان ﷺ، وقد حمل هذا النموذج المعاني والدلالات الآتية:

- يشير القرآن إلى أن الحكم الرشيد المنبثق من الإيمان بوحداية الخالق يحقق الانسجام المطلوب بين الإنسان وبين البيئة المحيطة به ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُوتِي مَعَهُ

وَالطَّيْرُ ﴿١٠﴾، ﴿وَلَسَلَيَمَنَّ الرِّيحُ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْاحُها شَهْرٌ﴾، ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾.

صحيح أن هذه الصور من الانسجام تدخل في باب المعجزات وخوارق العادات مما لا مجال لتقليده، أو محاولة تكراره، لكن هذا ليس مطلوباً أيضاً، وإنما المطلوب الاقتداء المنهجي الذي يُشير إليه القرآن، فالذي خلق هذا الخلق كله واحد، والذي شرع الدين وعلمنا الإيمان هو نفسه الذي خلقنا وخلق هذا الكون، وبالتالي فالانسجام متحقق بين شرع الله وخلق الله، أما كيف يظهر هذا الانسجام، فلكل زمان ما يناسبه، ولكل حالة ما يُناسبها.

- يؤكد القرآن أن هذا الحكم يستند إلى رقابة إيمانية ذاتية لا تُنتج بطبيعتها إلا العمل الصالح ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ﴾.

والشكر - كما مرَّ معنا - : استعمال النعمة في الطاعة، وهذه من أُسس الحكم الرشيد، بخلاف أولئك الذين يُبددون ثروات بلادهم في غير ما منفعة.

- يشير القرآن إلى القوة في هذا الحكم، وذلك من خلال قوله: ﴿وَالنَّالَهُ الْخَديْدَ ۝١٠﴾ أن أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ ۝١١ والسابغات: هي الدروع، ذكر الصفة وحذف الموصوف؛ تنبيهاً على أهمية الصفة بأن تكون الدروع سابغة وكافية لحماية الجند.

- يشير القرآن أيضاً إلى الصناعة، وقد تقدّم قوله في صناعة الدروع: ﴿وَالنَّالَهُ الْخَديْدَ ۝١٠﴾ أن أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ ۝١١، ثم قال أيضاً: ﴿وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ ۝١٢﴾ والقطر: معدن من المعادن المستخدمة في أنواع مختلفة من الصناعات.

- يشير القرآن أيضاً إلى حركة البناء والعمران: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَرِّبٍ ۝١٣﴾ وأصل المحراب: الحصن العالي، ثم استعمل في القصور المحصنة، والأماكن المخصصة للعبادة، ثم شاع استعمالها في مكان صلاة الإمام من المساجد، ولا يمنع من إرادة كل ذلك؛ فالحصون

والقصور والمساجد كلها من مظاهر الحكم السليمانى الرشيد.

- ثم يشير القرآن إلى حركة النقل بما تحمله من تحرك المسافرين والتجار، ونقل البضائع:

﴿وَلَسَلِّتُمْ عَلَى الْريِّحِ غُدُوَهَا شَرْوًا وَآخِهَا شَرْوًا﴾ وتسخير الريح هنا لتيسير حركة السفن ذهابًا وإيابًا.

- ثم يشير القرآن إلى حالة الرخاء والنعيم الواسع في هذا الملك ﴿وَجِفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ

رَاسِيَتٍ﴾ والجِفَانُ: جمع جَفَنَة، وهي قَصْعَة الطعام، والقُدُور الراسيات: الثابتات التي لا تتحرك لعِظَمها، وفي هذا إشارة لوفرة الطعام، وهو مقصدٌ من مقاصد الحكم الرشيد.

وقد مرَّ معنا في قصّة يوسف ﷺ كيف أنّه سخر جهده من أجل توفير الطعام لشعب مصر، وفي هذا تصحيحٌ لمفهوم الحكم الرشيد الذي اقترن لدى كثيرٍ من الوعاظ بالزهد والتقشُّف وحرمان النفس من النعم، وهي الصورة المأخوذة من حياة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم دون النظر إلى أسبابها الموضوعيّة، ومنها: الحالة الاجتماعيّة العامة، ومستوى الحياة الاقتصاديّة، ومنها: التوجه الشخصي نحو الإقلال من الترف، وهذا حقٌّ، لكنه ليس شرعًا مُلزمًا لكلّ الناس فضلًا عن ملوكهم وأمرائهم إذا خافوا الله في رعيّتهم، والله أعلم.

- وقد مرَّ في ثنايا هذه الملامح ذكر التماثيل: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ﴾ والتمثال: صورةٌ مجسّمةٌ لمخلوقٍ ما، ومعلومٌ أنّ هذا مُحَرَّمٌ في ديننا إذا كان لذي روح، وهو الغالب في التماثيل والمتبادر للذهن.

وهنا مسألتان:

الأولى: أنّ صناعة التماثيل بحدّ ذاتها ليست من مسائل العقيدة، وإنّما هي من مسائل الفقه؛ لأنّه من المقطوع به أنّ عقائد الأنبياء لا تختلف، وإنّما تختلف الأحكام الفقهيّة تبعًا للحاجة وتطوُّر الحياة.

والثانية: أنّ ذكر التماثيل هنا في مقام المدح والامتنان يعني أنّ القيم الجماليّة مطلوبة، وإن

كانت طريقة التعبير عنها تختلف من شريعة إلى شريعة، ومن زمان إلى زمان.

- أخيرًا يُصحّح القرآن من خلال هذا النموذج تصوّرًا خاطئًا لدى كثير من الناس عن طبيعة الجن وقدراتهم ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ فالجن لا يعلمون الغيب، ولا يستطيعون أن يُميّزوا بين الجسد الذي فيه رُوح والجسد الذي سُلبت منه الروح إذا كان في صورة الأول وهيئته، فكيف ينسب لهم العلم بمقادير الكون والتحكم بحياة الناس وإراداتهم؟

ثالثًا: بعد هذا النموذج يعرض القرآن نموذجًا مُختلفًا، فيه دلالات وإشارات مختلفة، إنه نموذج مملكة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾:

- يُخبرنا القرآن أن مملكة سبأ كانت عامرة بالخير والنعيم حينما كانت طيبة بالإيمان والعمل الصالح: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، وربما كانت هذه المرحلة أيام بلقيس؛ حيث أسلمت وقومها مع سليمان لله رب العالمين، وهذا رابطٌ نفيسٌ بين النموذجين؛ فمملكة سبأ الطيبة والمؤمنة والمتنعة إنما كانت امتدادًا لمملكة سليمان ﷺ.

- يُخبرنا القرآن أن هناك انقلابًا حصل في عقيدة الناس، فتنگروا لإيمانهم، وكفروا بربهم، فتغيّرت أحوالهم، وتمزقت دولتهم ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴾، وهنا إشارة أيضًا للفساد المُستشري في مؤسسة الحكم؛ فكان الإهمال في صيانة السدود والمحافظة عليها، وأخذ الاحتياط لكل طارئٍ محتملٍ، فتدمير مملكتهم بالسَّيل العَرِمِ قد لا يكون تدميرًا قدريًا بحتًا كما حصل لقوم نوح، بل هو تدميرٌ ناتجٌ عن فسادهم، وهذه من سُنن الله في العقوبة أيضًا، أن يعاقب الفاسد بفساده، والله أعلم.

- يذكر القرآن من مظاهر النعيم الذي حباهم الله به: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ فكانت القرى متواصلة على طريق سفرهم وتجارتهم، فالمسافر كلما قطع قرية ظهرت له قرية، يقبل في واحدة، وبيت في أخرى، وهذا مظهر للعمران وإحياء الأرض، لكنهم تنكروا لهذه النعمة وكفروا بها ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ كأنهم يسألونه أن يمحو هذه القرى، ولم يذكر القرآن بُغْيَتَهُمْ في هذا؛ فقد يكون حسداً لأهل هذه القرى، وما يسترزقون به من مواقعهم هذه، وهذا وارد، وفيه مظهر من مظاهر الفساد الأخلاقي والمجتمعي.

ويُحتمل أنهم قالوا ذلك تحدياً لله، ورداً على من كان يُذكّرهم بشكر هذه النعمة، وهذا سلوك أشنع من الأول، وعلى الاحتمالين فقد ظلموا أنفسهم ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فكان ذلك سبباً في عقوبتهم، وزوال ملكهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ﴾.

- يُنبئ القرآن في ختام هذه القصة إلى أن السبب في كل هذا الذي حصل لهم ولأمثالهم ممن يُنعم الله عليهم بالملك والقوة والأمن والرزق الوفير، ثم تتغير أحوالهم ويعمهم الخراب والدمار إنما هو باتباع الهوى ومسالك الشيطان ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يُبين أن إبليس لم يجعل الله له سلطاناً عليهم؛ إذ لو كان له سلطان عليهم لسلب التكليف والاختيار منهم، وإنما هي الوسوسة التي تستجيب لها أهواؤهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْخُذُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يعلم سبحانه الأرض وما فيها، وما يدبُّ عليها، وما يدخل فيها، وما ينبُت منها.

﴿لَا يَغْرِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يغيب عن علمه شيءٌ منها كان دقيقاً أو صغيراً، ومثقال ذرة يعني: وزن هبأة لا قيمة لها.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ربط بين الرجوع إلى الله والتمسك بدينه وبين سعة الرزق، كما قال في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي: كذبوا بها، وسعوا في إبطالها؛ ظناً منهم أنهم يُعجزون الله سبحانه في طلبهم ومُعاقبتهم.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: يعلمون ذلك علم اليقين كأنهم يرونه رأي العين.

﴿إِذَا مُزِقَّتُمْ كُلُّ مُزَقٍّ﴾ إذا تمزقت أجسادكم، وتفتت في قبورها.

﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يدعوهم للتفكير في كل ما حولهم، فالتفكير بداية الطريق إلى الهداية.

﴿إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ كما كانت عاقبة من قبلهم، والقصد من تذكيرهم بهذا أن يدفعهم للتفكير الجاد الذي دعاهم إليه.

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ تائب مُقبل على الله.

﴿يَجِبَالٌ أَوِيٍّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ أي: رددي معه تسيحه لربه، وقد ورد هذا المعنى في قوله

تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، والظاهر أن داود عليه السلام

كان يسمَعُ هذا التسييح، أو أَنَّهُ يَتَفَعُّ به بوجهٍ ما؛ لَأَنَّهُ اقْتَرَنَ بالتسخير، أَمَّا مُجَرَّدُ تسييح الجبال والطيَرِ بمعناه العام وهو التسييحُ الذي تُسَبِّحُه كُلُّ الخلائق ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١)، فلا يختصُّ به داود عليه السلام.

﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ جعلناه لِنَّا طوع يده، وفيه إشارةٌ إلى أهمية الحديد في الصناعات.

﴿سَبِغَتْ﴾ دروع كاسية.

﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ في ربط حَلَقِ الحديد بعضها ببعض، وضبط المسافة بين كُلِّ واحدةٍ والتي تليها، وفيه توجيةٌ لِإِتْقَانِ الصَّنَعَةِ.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ معجزةٌ له عليه السلام لتسيير السفن المُحمَّلة بالناس أو البضائع، فتسَّجِه شهرًا مع حركة السفن وهي ذاهبة من موائنه، ثم ترجع شهرًا آخر مع عودة السفن.

﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ﴾ معدنٌ يخرج من باطن الأرض - كالنفط ونحوه - يُستعمل في الصناعات، ولأغراضٍ مختلفة.

﴿وَمَنْ يَزِغْ﴾ ينحرف عن طاعته.

﴿مَحْرَبَ﴾ أبنية عالية مثل: الحصون والقصور العالية، والمساجد، ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع

جفنة، وهي: قَصْعَةُ الطعام، ﴿كَالْجَوَابِ﴾ كالحياض الكبيرة.

﴿مَادَهُمْ عَلَى مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُمْ﴾ الظاهر أن سُلَيْمَانَ عليه السلام توفاه الله وهو مُتَكَيِّئٌ على عصاه، فبقيَ على هذه الحال حتى أَكَلَتِ الأرضُ عصاه، فخرَّ على الأرض، هنالك تبَيَّنَتِ الجنُّ أَنَّهُم لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سُلَيْمَانَ، والظاهر من الآية أيضًا أَنَّهُ لَبِثَ طويلًا على هذه الحال، فقد عَقَّبَ بعد هذا بقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو

(١) تكرر هذا النص الكريم في مطالع سورتي الجمعة والتغابن.

كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٠﴾

والقصة أبرزت الجانب المقصود في إبطال خُرافة أن الجنَّ يعلمون الغيب، أمّا مُلابسات القصة الجانبية من مثل: كيف بقي الجسد الطاهر كلّ هذه المدة، وهل عِلِمَ به أهله أو لم يعلموا، وكيف لم يستغرب الجنُّ مُكوثَ الجسد على حالٍ واحدةٍ - وهذا خلاف المعتاد قطعاً -، فالأقرب أن القصة كلها مُنْسَجَمَةٌ مع طبيعة مُلك سُليمان ﷺ في خُروجها عن السُّنن الكونية المعروفة، من مثل: قصة الهُدهد، وعرش بلقيس .. إلخ، فهذه أخبارٌ غيبيةٌ ليس لنا إلا الإيمان بها، وأخذ العبرة العملية من دلالاتها، دون الخوض في كیفياتها ولوازمها، ولا ينبغي أن نحكم على إرادة الله المطلقة بمقاييسنا الأرضية الضيقة.

كما أنّه لا يصحُّ أن نجدَ لها التّأويلات العلمية المتكلفة؛ لأنّ هذا أيضًا معناه أننا ننظر إلى هذه المعجزات الإلهية على أنّها أمورٌ عاديةٌ يمكن أن تخضع لنواميس الأرض، ولتتذكّر دائماً أن عنوان الإيمان الحقّ إنّما هو الإيمان بالغيب، فهناك غيبٌ أوسعُ وأكبرُ من عالم الشهادة، وإقحامُ الغيب في نواميس الشهادة تضليلٌ للعقل والعلم، وتضييعٌ لحقيقة الإيمان، والله أعلم.

﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ لم يذكر القرآن وقت الإعراض هذا ولا في أي عهد، لكن الظاهر أنّه بعد عهد بلقيس، وربما بمدة ليست قليلة، وأمّا سَيْلُ الْعَرِمِ فهو من العرامة، وهي الشدة الطاغية.

﴿ذَوَاتِ أَكْلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: أنّه لم يبق فيها من أطايب الشجر شيء، فالخَمْطُ: الثمرُ المرُّ، ويقال: إنّهُ الأراك، والأَثَلُ: شجرٌ معروفٌ لا ثمر له، والسِّدْرُ معروفٌ كذلك، وثمرته النَّبَق.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ لم يُسمَّ القرآن هذه القرى المباركة، ولا يُعَدُّ أن تكون الشام؛ لمحل الصلة بين اليمن والشام في النموذجين من عهد بلقيس التي أسلّمت مع سُليمان، والله أعلم.

﴿قَرَى ظَهْرَهُ﴾ بارزة للعيان على الطريق بين سبأ والشام، كلما قطع المسافر قريةً بدت له أخرى.

﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ بمعنى أن هذه القرى التي على الطريق كانت مُقدَّرة على مراحل؛ بحيث لا يمضي المسافر نهارًا كاملاً أو ليلةً كاملةً إلا ومرَّ بواحدةٍ منها؛ ولذلك قال: ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ كأنهم يطلبون أن تُمحي هذه القرى، وقد تقدَّم تأويله.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ قصصاً لمن بعدهم يتحدثون بها في مجالسهم وأماكن سمرهم.

﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرقناهم في البلاد، وشتتنا مُلكهم.

وهنا مناسبة لطيفة: أن مُكرري الآخرة كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ ويقولون: ﴿هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا مَزِقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، ثم استعمل القرآن هذا اللفظ في الذين تنكروا للإيمان، وأورده مورد الاتِّعاض والاعتبار، كأنه يقول: إن التمزيق كلَّ التمزيق آتيكم قبل موتكم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ حينما توعد بإغواء بني آدم فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: لم يكن لإبليس سلطة عليهم تسلب إرادتهم منهم.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ استثناء مُنقطع؛ فسلطان إبليس على

بني آدم منفيٌّ بالكلية، والمستثنى إنما هو وسوسة الشيطان وإغواؤه، وتزيينه للباطل، فهذا كله كائن، وهو جزء من سنة الاختبار والتمايز، والله أعلم.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُوكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْسِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتِ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحَقُّنَّ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَنْتَفِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ هَٰذَا أَقْرَبُ إِلَيْنَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ نَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِّلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْتُمْ صَدَقْتُمْ كُرْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُخْرِجُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْإِنِّ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَصْنَافٍ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِنَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ مَا يَنْفَقُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ. وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكُلَا أَهْلُكُلَا إِنَّا كُرْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْفُرُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَابِنَاتُنَا يَنْتَقِلُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَبْصُرَكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ تُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا ءَابِنَاتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَابِنَاتُهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِرَحْمَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَشِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَلَٰئِنْ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُرْسِي إِلَىٰ رَبِّ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ نَرَىٰ إِذْ فَرَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ. وَإِنَّ لَهُمُ النَّارَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَرِّ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾

يفتح القرآن في هذه السورة باباً واسعاً للحوار مع المشركين يتناول فيه أصول معتقداتهم، ويُجيب عن تساؤلاتهم وشبهاتهم بصورٍ مختلفةٍ، ومستوياتٍ متنوعةٍ، وبانتقالاتٍ مؤثرةٍ بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وبين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، مع تأكيد مستمر لآداب الحوار حتى مع القوم الذين يخالفوننا في أصول ديننا وعقيدتنا:

أولاً: يضع القرآن في هذه الآيات أساسين كبيرين لفهم طبيعة هذه الرسالة، ورؤيتها لبني آدم والميدان الذي تفتحه أمامهم للتنافس والتميز.

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، ثم يقول: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾.

فأصلُ الحوار ينطلق إذن من المفهوم العالمي لهذه الرسالة، ومن الفرص المتساوية التي تكفلها هذه الرسالة لبني آدم على السواء لحمل هذه الرسالة وتبليغها والسمو بها، ومن ثمّ فليس هناك أغراض جهويّة أو قبليّة أو عنصريّة، وإنّما الميزان ميزان العمل، فمن تقدّم به عمله تقدّم، ومن تأخّر به عمله تأخّر، مهما كان نسبه وأصله وفصله، ولا شك أنّ هذه الأسس تبعث روح الطمأنينة في نفوس المخاطبين؛ لأنّ الإنسان لا يرضى أن يُخاطب بالدين من ناحية، ثم يُخاطب بالاستعلاء والنظرة الفوقيّة من ناحية أخرى.

ثانياً: يبدأ القرآن بطرح سؤالٍ يسهّل فيه للعقل البشري أن يدرك أنّ هذه الأصنام لا تنفع ولا تضرّ، وأنّ الخالق الوحيد لهذا الكون إنّما هو الله ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴾، ثمّ يطرق على هذه العقول مرة أخرى: ﴿ قُلِ ارْءَوْا الَّذِينَ الْحَقَمْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

ولأنه كان بعض عقلاء المشركين لا يُنكرون هذه الحقيقة، وأن أصنامهم لا تملك شيئاً في هذا الوجود، لكنهم يتبرَّكون بها استشفاعاً وتقرباً إلى الله، ردَّ القرآن عليهم: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

وهذا هو منطق العقل والفطرة؛ فالشفيع إنما نستشفع به إذا كنَّا على يقين أنه مُقَرَّبٌ ممن ندعوه، أما استشفاع المشركين بأصنامهم إلى الله مع انعدام الدليل على قرب هذه الأصنام من الله ورضا الله عنها، فهذا تضليلٌ للنفس، وكذبٌ على الله.

ثالثاً: وعلى صلة بالسؤال الأول، يطرح القرآن سؤالاً يمسُّ واقعَ الناس وحياتهم، وأسباب رزقهم: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ وهذا الجواب الذي لا يملك المشركون محيصاً عنه، فالله هو الذي خلق الأرض وما فيها، وشقَّ فيها الأنهار، وأودع فيها المعادن، وليس لأصنامهم في كلِّ هذا شأن ولا نصيب، ثم يُضيف القرآن أن الله الذي خلق هذه الأرزاق هو الذي يُقدِّرها أيضاً بين الناس ضمن نظامٍ محسوبٍ لضبط توازن الحياة ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

رابعاً: يعرض القرآن قول المشركين في الرسول ﷺ وفي الرسالة كما هو: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِيحُوا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

ثم يبيِّن حالهم وأتهم كانوا في جاهليَّة لم ترَ نورَ الوحي، ولم ينزل فيها كتاب: ﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٤١) وكذبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَمَعَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

خامساً: يضع القرآن قاعدةً في التحاور مع المخالفين تعتمد العدل، وتنزل بالداعية إلى مستوى خصمه؛ تمهيداً لانطلاقٍ متكافئٍ للحوار، وهذا من الخلق القرآنيّ الفريد ﴿وَإِنَّا أَوْ

إِيَّاكُمْ لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٠﴾ أي: بما أننا نختلف معكم في أصول الدين، وفي التصورات الكبرى للكون والحياة، فإنه لا بُدَّ أن يكون أحدنا على الحق والثاني على الباطل، فتعالوا نتحاور لنكشف أنفسنا، ونتعرّف على مواقعنا.

ثم ينزل في مستوى الخطاب أكثر من هذا، فيقول: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ أَجْرَمَكَا وَلَا تَسْأَلُونِي عَنْمَا تَعْمَلُونَ﴾ وكلّ هذا تشجيع لهم للجلوس على بساط الحوار، وتطمين لهم أنّ الحوار إنّما هو لمصلحتهم، وليس تمييزاً لأحدٍ عليهم، أو لسلبهم شيئاً مما عندهم من جاءه أو مالٍ.

سادساً: يوجّه القرآن الرسول ﷺ أن يدعو أولئك المخالفين للتفكير مثني وفرادي، أي: بعيداً عن ضغط الجمهور، والمناكفات والمزايدات التي تعجّب بها المجادلات الجماهيرية؛ حيث تختلط الغايات، فيكون البحث عن الانتصار للنفس، أو الحزب، أو القبيلة، أمّا أن يفكر الإنسان مع نفسه، أو يجلس إلى جانب مَنْ يثق به، ويتحاور معه بهدوء بعيداً عن ذاك الصخب، فلا شكّ أنّ هذا علامة على صدق التوجّه والرغبة في الوصول إلى الحقّ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرْدَيَّ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

سابعاً: يؤكّد القرآن أهمية نزاهة الداعية المبلّغ عن الله عن كلّ غرضٍ دنيويٍّ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثامناً: يذكر القرآن بعد كلّ هذا حواراً سيجري بين هؤلاء المشركين أنفسهم، ولكنه في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه حوار، وكأنّه يقول لهم: لقد كان بوسعكم أن تتحاوروا بهذا وتفكّروا في مضمونه وأنتم هناك في دار العمل، فما الذي أشغلكم وعطلّ عقولكم؟ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

تاسعاً: وفي ثانيا ما تقدّم يلتفت السياق إلى مشهد آخر، ليعرض حواراً آخر غايته إبطال عقائد المشركين، وبراعة الملائكة مما ينسبه المشركون إليهم، وبيان مدى جهلهم وتخبّطهم في ذلك: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْنَاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٢﴾﴾

دقائق التفسير

﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شركٍ ﴿تأكيد لتوحيد الله في الملك، والذي هو تفرّيع عن توحيد الله في الخلق، فالذي خلق الأشياء هو الذي يملكها.

﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴿نفى لدعوى المشركين في تقرّبهم إلى الله بأصنامهم، وما يرجونه من شفاعتها يوم القيامة، فالشفاعة حق، لكنّها لا تكون إلا لمن أذن الله له.

ثم يسترسل السياق ليرسم صورة من صور الشفاعة هناك؛ فالناس بعد توجّهِهم لطلب الشفاعة يمشكون ما الله أعلم به في كربٍ وضيقٍ، حتى يكشف الله ما بهم، ويأذن بالشفاعة فيُعيلي بها شأن الشافع، ويُنفّس كرب المشفوع له، فيستبشرون جميعاً برحمة الله وعفوه ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

﴿قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشْكِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بمعنى إن كنّا نحن قد أجرمنا - كما تَزْعَمُونَ - فلن تتحمّلوا وزرنا، وكذلك نحن لا نحاسبُ على أعمالكم، فكلُّ عاملٍ مسؤولٌ عن عمله، وفيه دعوة للتفكير بالمصير المحتوم الذي ينتظر الجميع، بعيداً عن صخب المجادلة والمباحكة.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة؛ حيث تجتمع الخلائق كلها.

﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقضي بيننا وبينكم بحكمه الحق ﷻ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لن يؤمنوا بالقرآن، ولا بالتوراة والإنجيل.

﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون ينتظرون جزاءهم.

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يتجادلون ويتلاومون.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهذا ديدن المستكبرين وقادة الضلالة في الأرض؛ حيث كانوا يُسخِّرون كلَّ جهدهم ومكرهم لإضلال الناس وصدِّهم عن طريق الحقِّ، كما نراه اليوم من إنفاقٍ لا حدود له، وتبذيرٍ لموارد الأرض من أجل التضليل السياسي والإعلامي، وخداع الجماهير، ودفعها باتجاه الانحراف، وإخضاعها لمشاريع بعيدة عن فطرة الإنسان وتطلُّعاته، وطبيعة تكوينه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ الطبقة المترفة في كلِّ مجتمع هي التي تخشى التغيير حتى لو كان هذا التغيير باتجاه الأفضل.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ هذا هو ميزانهم، فهم يرون أنفسهم الأفضل من غيرهم، ولا يرون النعم التي هم فيها إلاَّ أنها حقُّ لهم بحكم تميُّزهم في أصل تكوينهم، وفيما يفاخرون به من أحسابٍ وأنسابٍ، ومن ثمَّ فهم يرون أنه حتى لو كانت هناك آخرة وحساب فلن يكونوا هناك من المُعَذِّبِينَ، فهم أعلى وأرقى من أن يُحاسَبوا أو يُعَذَّبوا!

وقد ردَّ القرآن تصوُّرهم الخاطيء هذا: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لحكمة يعلمها سبحانه، وليس في هذا تفضيلٌ للغني على الفقير، بل الميزان الحقُّ ميزان الإيمان والعمل: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ

جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَا إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ والمقصود: إظهار براءة الملائكة من هذا القول، وبيان جهل المشركين وشدة غفلتهم وضلالهم.

﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ فقد كان المشركون يخلطون بين الملائكة والجن، فجعلوا الملائكة بنات الله، ثم جعلوا بين الله وبين الجن نسباً! ومن معاني عبادتهم للجن اتباعهم لإبليس وغوايته، واستسلامهم لوساوسه، وهذه صفة عامة في كل المشركين.

﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ بمعنى أن مشركي مكة لم يبلغوا من القوة عُشر الأقسام السابقين الذين أخذهم الله بعد تكذيبهم للرسل، والمقصود بهذا الإخبار التهديد.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: بنصيحة واحدة.

﴿مَتَنَى﴾ اثنين اثنين، يتحاوران ويفكران معاً.

﴿وَفَرَدَى﴾ كل فرد يفكر مع نفسه.

﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: من جنون، وكانت العرب تنسب الجنون إلى مس الجن، والله أعلم.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ النبي ﷺ لم يسألهم أجراً أصلاً، وإنما المقصود التهكم، كأنه يقول لهم: ما أخذته منكم من أجر ونحوه فخذوه.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ بمعنى أن الباطل لا يفعل شيئاً إذا جاء الحق، فلا يُقدم ولا يُؤخر، ولا يُنشئ شيئاً ولا يُعيد، وهذه أمانة اضمحلاله وزواله.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾ عند البعث.

﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ فلا مهرب.

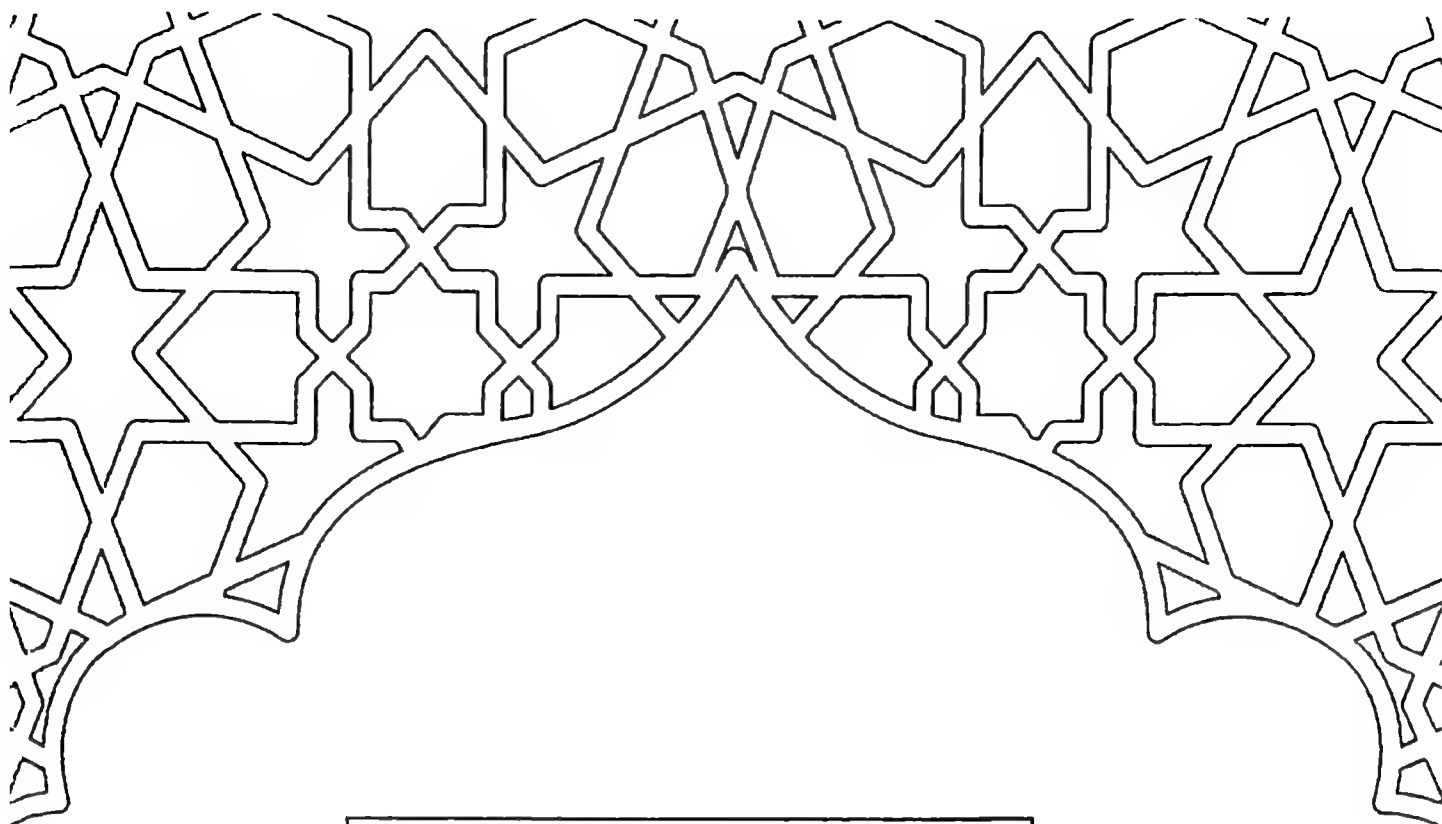
﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أخذوا من المكان الذي هم فيه، وهو أرض المحشر.

﴿ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ ﴾ أي: كيف لهم أن ينالوا مُبتغاهم وقد غدا بعيدًا عنهم، فالآخرة ليست دار استدراك وتوبة، فقد أعطاهم الله في الدنيا من الأعمار ما يُمكنهم فيه التراجع والاستغفار، وكان ذلك قريبًا منهم وبين أيديهم.

﴿ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي: كانوا يتكلمون بالغيب كلامًا باطلاً، كمن يرمي هدفًا بعيدًا عنه؛ بحيث إنه لا يراه، ولا يعلم مكانه.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ حيث هم الآن يتمنون الرجوع إلى الدنيا لكي يؤمنوا ويتوبوا، ولكن الله جعل بينهم وبين ما يتمنون حائلًا.

﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ بأشباههم من الأمم السابقة، فلم يرجع منهم أحدٌ إلى الدنيا، وهذه سُنَّةٌ ثابتة من سُنن الله في هذا الخلق.



سُورَةُ فَاطِمَةَ

المجلس الرابع والتسعون بعد المائة: طريق الإيمان

المجلس الخامس والتسعون بعد المائة: معايير التمايز والتفاضل بين الناس

سُورَةُ فَاطِرٍ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَتِهِ مَتْنَىٰ وَتِلْكَ وَرُبَّعٌ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
 (١) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۖ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تَقُولُوا (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ۖ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَحْكَمْ اللَّهُ بِهِ لَخُلُوفٌ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ ۚ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ مَا هُمْ يَعْمَلُونَ (٨) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَبْنِيٍّ فَأَخْبِنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ۚ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۚ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُؤْتِي الْبَلَدَ النَّهَارَ وَيُؤْتِي اللَّيْلَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۚ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ ۚ وَلَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٧)

طريق الإيمان

تستهل سورة فاطر بالتذكير بمعاني الإيمان الكلية، وما ينبني عليها من كليم طيب، وعمل صالح، وحياة كريمة عزيزة، بخلاف أولئك الذين اتبعوا سبيل الشيطان فزين لهم أعمالهم، وأضلهم وأعمى أبصارهم، والقرآن يعرض كل هذا ويدعمه بكل ما من شأنه أن يأخذ بقلوب الصادقين مع الله، والصادقين مع أنفسهم إلى طريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة، وأما المكابرون والمعاندون فقد قامت عليهم الحجة:

أولاً: تأكيد أن الله وحده هو خالق السماوات والأرض وموجدهما من العدم على غير مثال سابق، وخالق كل من فيهما وما فيهما بلا شريك ولا منازع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَّثَ وَرَبَعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وإذا كان الله هو وحده الخالق، فهو إذن وحده الرازق الذي يُقدّر الرزق، ويُقدّر أسبابه ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ﴾، ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

ثانياً: تأكيد أن الله وحده هو خالق هذا الإنسان، وهو الذي أمده بأسباب الحياة، وسخر له البر والبحر ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ تَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

ومن ثم فهذا الإنسان مُفتقر إلى الله في أصل وجوده، وفي أسباب حياته، ووسائل عيشه ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

ثالثاً: بيان بطلان دعوى المشركين فيما ينسبونه إلى الله من شرك ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ﴾، ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه تسليّة لرسول الله ﷺ بعد تكذيب قومه له.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: لا يغرنكم الشيطان بالله، فيزيّن لكم الشرك والمعصية.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فاحذروه كما يحذر العدو من عدوه.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ أتباعه وأنصاره.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ هذه من أخطر أسباب الغواية، وتثبيت أهل الباطل

على باطلهم؛ إذ يرونه الحق الذي لا ينبغي الرجوع عنه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يضل من يستحق الضلالة، ويهدي من

يستحق الهداية، فمن طلب الضلالة وأخذ بأسبابها ضلّ، ومن طلب الهداية وأخذ بأسبابها هُدي، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ أي: لا تهلك نفسك بالتحسر والحزن عليهم.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ لأنّ الرياح هي التي تحمل السحاب وتحرك به إلى

حيث يشاء الله.

﴿فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أحيا بماء السحاب الأرض فجعلها مخضرة بعد أن

كانت يابسة.

﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ مثل هذا الذي ترونه من إعادة الحياة إلى الأرض سيكون بعثكم وإعادة

الحياة لكم.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ بمعنى أن من كان يطلب العزة في مناهج الكفر

والضلال فهو وإهم؛ لأن العزة لله وحده، وفيه بيان لسبب من أسباب الضلال؛ حيث ينبهر

الناس بالباطل في حال نشوته فيلهثون وراءه طلباً للشهرة والمجد، والمتاع الزائل.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ بمعنى أن سبب العزة والرفعة عند

الله إنما هو الكام الطيب والعمل الصالح، وليس بهذا البهرج والحيلاء الباطل الذي يتمسك

به المشركون؛ ولذلك عَقِبَ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾.

فيتحصّل أنّ عمل الناس على صنفين: مقبولٌ مرفوعٌ عند الله، وهو الكلم الطيب والعمل الصالح، ومرفوضٌ مردودٌ على أصحابه بالخيبة والهلاك، وهو العمل السيئ.

وقد فرّق بين الكلم الطيب والعمل الصالح؛ لأنّ العمل تابعٌ للقول؛ إذ إنّ الكلم هنا إنّما هو النطق بالشهادتين، فهو الذي يصعدُ أولاً ثم يتبعه العمل، وقد جاء بالصعود للكلم الطيب، وبالرفع للعمل الصالح؛ لتنوع الأساليب مع أنّ المعنى واحد.

وفيه إشارةٌ أنّ صعود الإيمان أسبق وأسرع؛ إذ جعل الإيمان يصعدُ بنفسه، والعمل الصالح كأنّه بحاجةٌ إلى من يرفعه، والله أعلم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ خلق أباكم آدم من ترابٍ، ثم أنبت أجسادكم من هذا التراب الذي فيه مصدر غذائكم بعد أن صوّركم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾.

﴿وَمَا يَعْمرُّ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: يطول به العمر.

﴿هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ﴾ الفرات: العذب، وأفاد هنا التأكيد، بمعنى أنّه شديد العذوبة.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ والأجاج: المالح، وأفاد هنا التأكيد، بمعنى أنّه شديد الملوحة.

﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: من الماء العذب ومن الماء المالح تأكلون اللحم الطري، وهو السمك.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان، وفيه إشارةٌ إلى قيمة التزيّن والتجمل؛ إذ سبقت مساق الامتنان والتفضل.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ﴾ أي: تمخرُ الماء ذهاباً وإياباً.

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤْلِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل الليل على النهار بانسحاب ضوء

الشمس حتى يختلط فيه بعض الوقت، ثم يدخل النهار على الليل بشروقها فيختلط فيه أيضًا بعض الوقت، في حركة متواصلة ومستمرة لتؤدي وظيفة لا يتصور استمرار الحياة بدونها، والإنسان يشاهد هذا كل يوم، ويحسب به أيامه وأسابيعه وشهوره وسنينه وعقوده وقرونه، ألا يدعو هذا ليتفكر ما سر هذه الدورة الفلكية اليومية؟ وما مناسبتها لحياة الإنسان، ومن الذي سخرها بهذا النظام الدقيق؟

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ والقَطْمِير: القشرة الرقيقة الملتفة على نواة التمر، والمقصود أن هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لا تملك من هذا الخلق شيئًا ولو كان بمقدار قشر النواة.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي: الأصنام.

﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم عاجزون عن الحركة والنجدة، وفائدة الافتراض هذا إثبات صفة العجز، ولأنَّ المُشْرِك قد ينسب لها السمع؛ ولذلك يُخَاطِبُهَا ويسألها! فكان الردُّ أنه حتى لو كانت تسمعك كما تدَّعي، فإنَّها لن تستجيب لك بشيء.

سُورَةُ فَاطِمَةَ

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جُنَيْهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا الْحُرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۝٢٢ إِذْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَنٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ ۚ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨ إِن الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠ وَالَّذِي أَرْجَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْبَادُهُ لَخَيْرٌ بَصِيرٌ ۝٣١ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۚ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۚ إِذْنُ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا لَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۚ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ۚ لَا يَسْنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٣٨ هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ ۚ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۚ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۚ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بِالْآخِرُونَ ۝٤٠ ۞ إِنَّا اللَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا ۖ إِن أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤١ وَأَنفَسُوا بِأَلَلِّهِمْ أَنِجْنَاهُمْ لِيَن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِّكَوْنِ أَهْدَىٰ مِن إِحْدَى الْأُمَمِ ۚ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن نَّجْعِدَ لِّلنَّاسِ اللَّهُ تَبْدِيلًا ۚ وَلَن نَّجْعِدَ لِّلنَّاسِ اللَّهُ تَحْوِيلًا ۝٤٣ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُم مِّن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤ وَلَوْ يَوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ إِحْمًا كَسَّبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا ۚ وَلَئِكَ يُوْخِرُهُمُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبَى اللَّهُ كَانَ يَعْبَادُهُ بِصِيرًا ۝٤٥﴾

معايير التمايز والتفاضل بين الناس

بعد بيانه لطريق الإيمان ومعاله وآثاره في الكون والحياة، شرع القرآن في وضع المعايير التي ينبغي أن يتمايز بها الناس، خاصة أن فلسفة الخلق الكلية في الإسلام تقوم على أساس الاختبار والتمايز ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وبكل تأكيد فإن ميدان الاختبار هذا وما ينتج عنه إنما هو ميدان العمل، وهو الميدان الذي يسع جميع الناس أن يتباروا فيه ويتنافسوا، ويمكن تلخيص ما أوردته هذه الآيات في هذا المجال بالنقاط الآتية:

أولاً: يؤكد القرآن أن كل إنسان يتحمل مسؤولية عمله خيراً كان أو شراً ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾، ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

إن كل هذه التأكيدات في سورة واحدة وفي مقطع واحد من آياتها دليل على خطورة هذه القاعدة، ومدى حرص القرآن الكريم على ترسيخها في عقول الناس ونفوسهم، فهي مع ما فيها من تأكيد لمبدأ العدل الإلهي، فيها أيضاً تحفيز الإنسان للمبادرة إلى العمل، والمنافسة في الخيرات، وتشجيع روح المراجعة والتوبة والإنابة، واستشعار جدية الأمر وخطورته.

ثانياً: يضع القرآن صوراً متقابلة يفرز من خلالها صورة الخير والحق والهدى عن صورة الشر والباطل والضلالة؛ ليكون الناس كل الناس على بينة من ذلك ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾.

وهذا هو الفرز الأول: فرز بين الجاهل الذي يتخبط في جهله تخبط الأعمى، وبين اليقظ المتنبه الذي يمشي بوعي وبصيرة، ويلزم من هذا إلزام الإنسان بالنظر والتفكير والتبصر، فالجهل بالنسبة للمكلف القادر على التعلم ليس عذراً.

ثم يفرز القرآن الطرق والمناهج ذاتها: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ فهناك الديانات المحرّفة البيّنة التحريف، وهناك الخرافات الباطلة البيّنة البطلان، وهناك المبادئ الهدّامة التي تهدم العقل والسلوك، وتدعو إلى أتباع الشهوات والمنكرات، ويُقابل هذا كلّ منهج الحقّ والعدل والنور، ومن مهامّ المُكلّف أيضًا: أن يُميّز هذا عن تلك، وأن لا يخلط بين الحقّ والباطل، ولا بين النور والظلمة.

ثم يفرز القرآن بين واقع الناس الذين يعيشون في حمأة الجاهليّة وجورها وظلمها، وبين المؤمنين الذين يتفوّنون ظلال الإسلام وأمنه وعدله ﴿وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ثم يعود إلى الإنسان نفسه ليفرز بين الإنسان الحيّ القادر على التمييز بين هذه الأشياء، وبين ذلك الآخر الذي عطّل في نفسه كلّ أدوات الاستبصار والتفكير، فأصبح كالمتّ الذي لا يعي، ولا يسمع، ولا يرى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

ثالثًا: يبيّن القرآن أنّ هذا التفاوت والاختلاف بين الناس إنّما هو سنّة من سنن الله في هذا الخلق ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ﴾ ولكن هذا التفاوت ليس سواء؛ فهناك التفاوت القدري الذي لا يملك الإنسان فيه تغييرًا؛ كاختلاف الناس في أجناسهم وأنسابهم وألوانهم، وهناك التفاوت التكليفي الذي يتحمّل فيه الإنسان مسؤوليّة خياره وموقفه وعمله، وهذا هو أساس الاختبار والتمايز.

رابعًا: يؤكّد القرآن أنّ الله لا يُحاسب الناس إلّا بعد بيان الحقّ لهم وإقامة الحجة عليهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

خامسًا: يُنبِّه القرآن إلى أنَّ العلم هو طريق الإيمان والخشية والتواضع والعمل الصالح ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

كما أن التكبر هو طريق الضلالة والتهيه والعمى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السِّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدِلُسُنَّتَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَن تَجْدِلُسُنَّتَ اللَّهُ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

سادسًا: يُبَيِّن القرآن تفاوت المؤمنين أنفسهم في قوَّة إيمانهم، ومستوى التزامهم بطاعة ربهم ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٤٤﴾ وهذا ميدان آخر، وفرز آخر، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

سابعًا: يُبَيِّن القرآن أنَّ نتيجة الإيمان والهدى والعمل الصالح ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا أَغْرَابٌ ﴿٢٤﴾

أنا أولئك الأشقياء الثعساء ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ﴿٣١﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ

صَلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا
فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿١٠﴾

ثامناً: يُؤكِّد القرآن أنَّ علمَ الله شاملٌ ومحيطٌ بالناس وأعمالهم، وما تُكِنُّه ضمائرهم
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وتأكيدُ هذه الصفة
الجليلة للمولى الجليل ﷻ في هذا المقام له دلالاته وأثره البالغ في تكوين الرقابة الذاتية
للمؤمن، والاطمئنان بأنَّ كلَّ ما يُقدِّمه الإنسان مجزيٌّ به صغيراً كان أو كبيراً، ولا يظلم
ربُّك أحداً.

تاسعاً: يختتم القرآن الكريم هذه السورة مُذكِّراً بالأمد المتاح للإنسان؛ كي يُفكِّرَ ويُحاسبَ
نفسه ويُراجِعَها، ويرى موقعه بين هذه السُّبُل، ووزنه في هذه المعايير، فالله لا يُعجِّلُ
بالعقوبة، وإنَّما يُمهِّلُ ليتذكَّرَ من يتذكَّر، ويرجع من يرجع ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا
كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.

دقائق التفسير

- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تحملُ نفسٌ حملَ غيرها.
- ﴿وَلَا يَدْعُ مَثْقَلَةٌ﴾ ذكرَ الصفة وحذف الموصوف، أي: نفسٌ مُثْقَلَةٌ ومُحْمَلَةٌ بالذنوب.
- ﴿إِلَى حِمْلِهَا﴾ تطلب من يُعِينُها ويحمل شيئاً من ذنوبها.
- ﴿لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان من استنجدت به قريباً لها.
- ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ تشبيه للفارق بين حالتي النعمة والشقاء.
- ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ شبهَ المشركين المعاندين بالموتى الذين لا يسمعون.

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: ليس هناك أمة في البشر إلا جاءها رسول من الله، وإن لم يذكر القرآن لنا أسماءهم وأخبارهم، وفي هذا ردٌّ على من يظنُّ أنَّ الرُّسل كلَّهم كانوا في منطقنا هذه.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ المقصود بكلِّ هذا الكتب السماوية السابقة؛ التوراة والزبور والإنجيل والصحف، فهي البيِّنات والزُّبر والكتاب المنير، فهذه صفاتٌ مشتركةٌ لموصوفٍ متعدِّد، وفيها من تكرار المعنى وتأكيده ما لا يخفى.

﴿فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ﴾ أي: فكيف كان عذابي لهم، وقد ذكر النكير بمعنى إنكاره تعالى لشركهم وظلمهم، وأراد اللّازم له وهو العذاب، والله أعلم.

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ذكر ما يُميِّز الجبال بعضها عن بعض في لون صخورها وعلاماتها وطرقها، فمنها الأبيض والأحمر والأسود، والغرابيب: هي الطرق السود، وأصلها من الغراب، ثم أكَّدها بقوله: ﴿سُودٌ﴾، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: إنّ العلماء أكثر خشية من غيرهم؛ لمعرفتهم بمقام ربِّهم، فالعلم الحقُّ يُوصِل إلى الإيمان الحقِّ، ويورث التقوى والخشية من الله.

وهنا إشارة مأخوذة من السياق: أنَّ النظر في الكون وما فيه من تنوُّع واختلاف هو علمٌ يُوصِل إلى هذا الإيمان، ويورث تلك التقوى.

﴿فَنَجْرَةَ لَن تَكْبُورَ﴾ تجارة رابحة لن تخسر.

﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ كما وعدهم.

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وليس لفضل الله حدًّا، ولا لكرمه نهاية.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ بمعنى أنَّ القرآن جاء مُصَدِّقًا للكتب السابقة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ هم أمة محمد ﷺ الذين اصطفاهم الله

لحمل هذا القرآن.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: من المؤمنين الذين آمنوا بالقرآن من يظلم نفسه بارتكاب المعاصي، فالؤمنون ليسوا كلهم سواء، هكذا هي طبيعة البشر، وميدان التنافس والسبق مفتوح للجميع.

﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: مُقِلٌّ مِنَ المعاصي واقِفٌ عند حدود الله، وهذه مرتبة أعلى مما قبلها.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وهذه هي المرتبة العليا، وهؤلاء هم السابقون السابقون، والمقربون عند الله.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الواو هنا واو جمع، وقد جمعت الأوصاف الثلاثة الماضية بأن لهم الجنة، مع تفاوت في الدرجات، ومن ثم قيل بأن هذه الواو هي أغلى واو جمع في القرآن الكريم.

﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار الخلود، وهي الجنة.

﴿لَا يَمَسُّنَ فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب.

﴿وَلَا يَمَسُّنَ فِيهَا لُغُوبٌ﴾ مشقة.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أي: يستغيثون ويطلبون النجدة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أجيالاً تعقب أجيالاً.

﴿إِلَّا مَقْنًا﴾ إلا بغضاً واحتقاراً.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: يتحمل عاقبة كفره.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: هل لهم شراكة مع الله في خلقها أو ملكها وحق التصرف

فيها؟

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ حيث وُضِعَ لهما هذا النظام والناموس

الكوني الذي لا يخرج عن عنه.

﴿وَلَيْنَ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ إِنَّ هُنَا نَافِيَةٌ بِمَعْنَى: مَا، أَي: لَوْ زَالَتَا لَمَّا أَمْسَكَهُمَا أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ.

﴿جَهَدَايْتَنِي﴾ أَي: بِأَيْمَانِهِمُ الْمُغْلَظَةَ وَالْمُؤَكَّدَةَ.

﴿لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ هَذَا قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ؛ حَيْثُ كَانُوا يُقْسِمُونَ بِالْأَيْمَانِ الْمُسَدَّدَةِ أَنَّهُ لَوْ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا لَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَلَكَانُوا أَهْدَى مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَعَالَوْنَ عَلَى الْعَرَبِ بِمَا مَعَهُمْ مِنْ عِلْمٍ وَكِتَابٍ.

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بِمَعْنَى أَنَّ الَّذِي صَدَّاهُمْ عَنِ الْوَفَاءِ بِمَا تَعَاهَدُوا عَلَيْهِ وَأَقْسَمُوا بِهِ إِنَّهُ هُوَ الْكَبِيرُ وَمَكْرُ السُّوءِ.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أَي: لَا يَنْزِلُ وَلَا يُحِيطُ إِلَّا بِهِمْ.

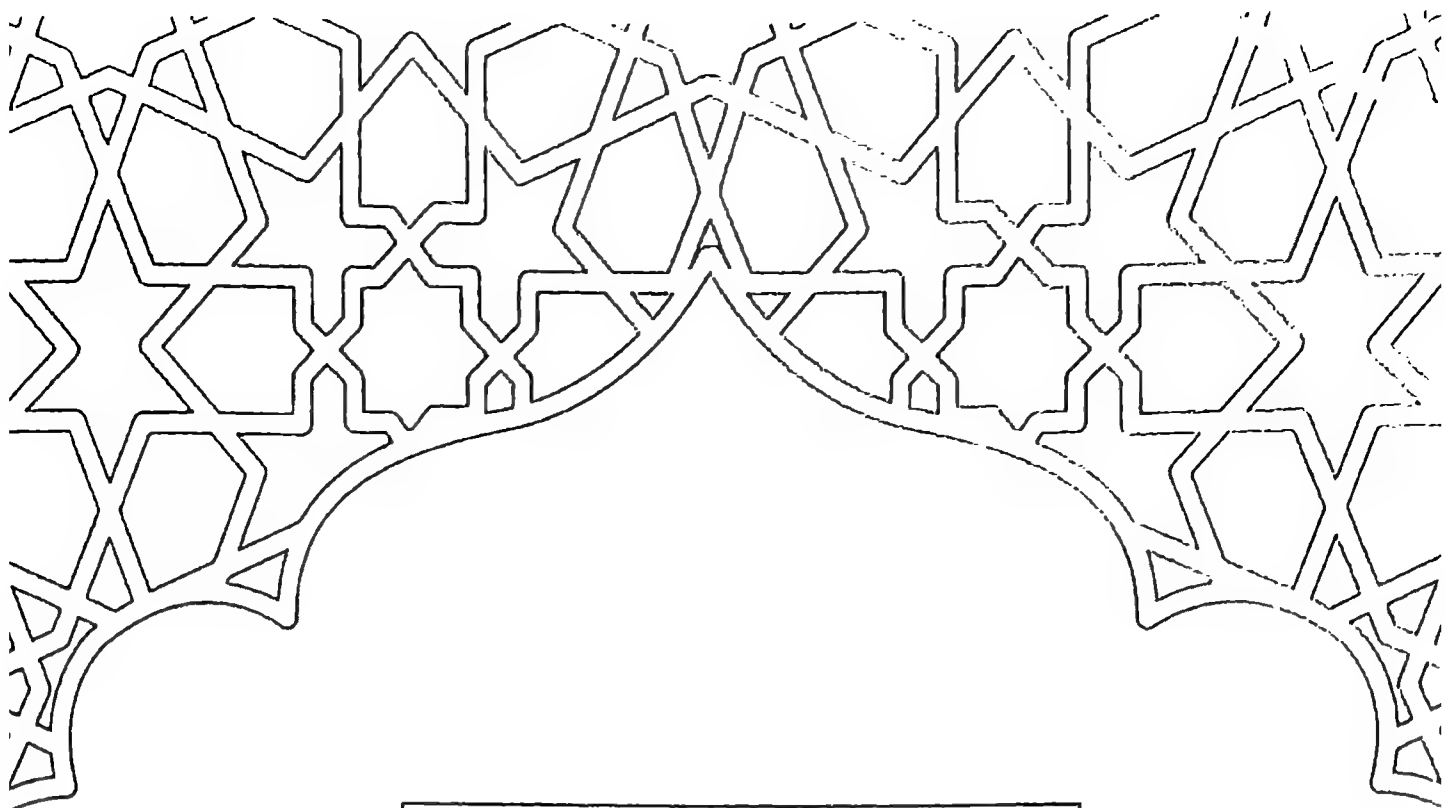
﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي: الْعَذَابَ وَالْهَلَاكَ كَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ.

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بِأَنَّ يُغَيَّرَ فِيهَا فَيَجْعَلَهَا بِحَقِّهِمْ نِعْمَةً بَدَلَ النِّقْمَةِ، بَعْدَ أَنْ اسْتَحَقُّوا النِّقْمَةَ.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بِأَنَّ يُحَوَّلَ الْعَذَابُ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فِيهِ أَنَّ الْقُوَّةَ وَحْدَهَا لَيْسَتْ سَبَبًا فِي الْأَفْضَلِيَّةِ، وَلَا ضَامِنَةٌ لِلْبَقَاءِ؛ فَالْأَقْوِيَاءُ لَمَّا ظَلَمُوا أَخَذَهُمُ اللَّهُ، هَكَذَا كَانَ فِرْعَوْنُ، وَكَانَتْ عَادُ، وَكَانَتْ ثَمُودُ.

﴿وَلَوْ تَوَخَّذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ فَاللَّهُ لَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ، وَإِنَّمَا يُمَهِّلُ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ وَمُقَدَّرٍ لَعَلَّ تَائِبًا يَتُوبُ، أَوْ رَاجِعًا يَرْجِعُ ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.



سُورَةُ الْيَسَنِ

المجلس السادس والتسعون بعد المائة: الدعوة إلى الله

المجلس السابع والتسعون بعد المائة: عقيدة البعث والجزاء

﴿١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَإِنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ مَا آوَوْهُمْ
فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨﴾ وَمَوَاقٍ عَلَيْهِمْ وَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩﴾
إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِغُفْرَانٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَيَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا
وَأَخَّرُهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّبِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا نَكِيدُونَ
﴿١٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ
وَلَيَسْجُرَّنَّكَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى
قَالَ يَبْقَوْنَ آتِيعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٩﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٧﴾
﴿٢٨﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٣٠﴾ يَنْحَرُونَ عَلَى
الْعِبَادِ مَا بَأْسُهُمْ مِن رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا
جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْبَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ
وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْبَلَدُ النَّارُ فَإِذَا هُمْ مَظْلُمُونَ ﴿٣٨﴾ وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٩﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٠﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ
تُذْرَكَ الْقَمَرُ وَلَا الْبَلَدُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤١﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٢﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمُ مِن مِّثْلِهِ مَا
يَرْكَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَئِن لَّمْ تَنْفَرْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقْدِرُونَ ﴿٤٤﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا
خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَمَا تَأْنِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الْيَتِيمُ
كَفَرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِيعُ مَنْ لَوْ بَشَاءَ اللَّهُ أَطَعْتَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٨﴾

تتناول هذه السورة الكريمة موضوعين أساسيين: الدعوة إلى الله، والتذكير بعقيدة البعث والجزاء، وبين الموضوعين وشائج لا تخفى، فالدعوة ليست سوى عملٍ دؤوبٍ، ورغبة صادقة لإنقاذ الناس من دركٍ الشقاء وسوءِ المقلب، والأخذ بأيديهم إلى سعادة الدارين. فكان الموضوع الأول مقدمات عملية لتحقيق الفوز والنجاة وفق الشروط والمؤهلات التي يحددها الموضوع الثاني، وكما يأتي:

أولاً: يؤكد القرآن الغاية الكبرى لبعثه ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥﴾ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦﴾.

وهنا جملة من الأمور:

أولها: أنَّ الرسالة المحمدية مُنْبِئَةٌ من ثلاث صفات ربّانية: الحكمة، والعزة، والرحمة، وهذه صفاتٌ كاملةٌ مُتكاملةٌ، عبّرت بشكلٍ واضحٍ عن كمال هذه الرسالة، فهي رسالة العلم والحكمة: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾، وهي رسالة القوة والرحمة: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

وثانيها: أنَّ الرسالة إنما تدعو الناس إلى الصراط المستقيم، وهو الصراط العدل الذي لا ظلم فيه ولا اعوجاج ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وثالثها: أنَّ القوم الذين نزلت فيهم هذه الرسالة لم يكونوا أهل كتابٍ ولا أهل علمٍ ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

ثانياً: يُبيّن القرآن أنَّ هؤلاء المدعوين قد انقسموا على صنفين: صنفٍ عاندوا وكابروا، وأغلقوا منافذ الفكر والمعرفة عندهم، وصنفٍ أصغوا واستمعوا، وسألوا وفكروا، فشرح الله قلوبهم، وأنار سمعهم وأبصارهم.

أما الصنف الأول فيقول فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي

أَعَنَّفِهِمْ أَغْلَظَ فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾.

أما الصنف الثاني فيقول فيهم: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾.

وهكذا هو انقسام الناس أمام الدعوة في كل زمانٍ ومكانٍ، وإِنَّمَا الفارق في النسب؛ فكلما اشتدَّت الدعوة وثبت أصحابها، دخل الناس فيها أفواجا، ويبقى المعاند مُعَانِدًا مهما كان حجمه ووزنه؛ ولذلك فقريش التي حاربت رسول الله ﷺ ومال أكثرها للباطل في بداية الأمر، رجعت بأغليبيتها إلى دين الله بعد الفتح.

ثالثًا: ينقل القرآن لنا في هذه الآيات نموذجًا من الدعوات السابقة، فيه تسليّة للنبي ﷺ وللمؤمنين معه في مكة، وفيه عِظَةٌ واعتبارٌ ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

ولم يُسمَّ القرآن هذه القرية، ولم يُعرَّف بأولئك المرسلين؛ فالغاية هنا استخلاص العبرة المجردة لا غير، وكان الله قد أرسل إليها رسولين اثنين، فلما كذَّبوهما عزَّزَهما بثالث ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، ردَّ أهل القرية على هؤلاء الرسل دعوتهم: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

فعِلَّةُ التكذيب كونهم بشرًا، وهو تعليلٌ فاسدٌ؛ إذ كان الواجب النظر في مضمون الرسالة وغايتها، وهكذا هم أهل الباطل في كل زمانٍ ومكانٍ، تقصُر بهم همَّتُهُم عن النظر في المناهج والأفكار والمعلومات، ليحبسوا أنفسهم على شخص المتحدِّث واسمه ونسبه ولون بشرته؛ ولذلك ردَّت عليهم رسلهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ

الْمُبِيتُ ﴿﴾ بمعنى أننا نُبلِّغُكم رسالةً من ربِّكم، فانظروا فيها، هنا لجأ الباطل إلى أسلوبه المعهود؛ الاتِّهام والتهديد واستعمال القوة بدل النظر والتفكير والتحاوُر ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿﴾ لم يتنازل الرسل عن دعوتهم، بل واجهوا قومهم بالحقيقة كما هي: ﴿قَالُوا طَيَّرَكُم مَّعَكُمْ أَإِن ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

رابعاً: ينتقل القرآن إلى مشهدٍ آخر في القصة، مشهد رجلٍ لا يبدو أنه من المرسلين، لكن القرآن أعطاه مساحةً واسعةً تزيد على ما خصَّصه للمرسلين الثلاثة، إنه رجلٌ من أهل القرية ناصحٌ لهم، مُشفقٌ عليهم، جاء يسعى ليقول كلمته: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْتَقِمُونَ أَتَبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ أَتَبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ويبدو أنه كان عارفاً بطبيعة الرسالة، وبصفات هؤلاء المرسلين.

ولعلَّ القرآن هنا قد اختَصَرَ لنا المشهد، فلم يذكر لنا من أين استَقَى الرجل هذه المعلومات، وما إن كان قد التَقَى بهم سابقاً، أو أنه جاء يسعى فسمع كلامهم مع قومه فانشرح له صدره، الله أعلم، إلا أنه بدأ يُحاوِر قومه في أصل عقيدتهم: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٢﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ثم توجه بالخطاب إلى المرسلين الثلاثة كأنه يُعاهدُهم ويُشهدُهم: ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾، ثم كانت عاقبته عند الله هكذا بلا مُقدِّمات ولا مُمَهِّدات: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ﴿﴾ لِيُجِيبَ بِحَسَنِ الدَّاعِيَةِ المتعلق بدعوته، والحريص على هداية قومه حتى في اللحظة التي يتلقَى فيها مثل هذه البشارة: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

خامساً: يذكر القرآن عاقبة هذه القرية الظالمة الآثمة، مُذكِّراً أيضاً بالقرون السابقة

والمصير البائس الذي لفَّ كلَّ أولئك المكذِّبين ﴿٢٨﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿٣٠﴾ يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٣﴾.

سادساً: ثم بدأ القرآن يأخذ بقلوب الناس وعقولهم إلى ما في هذا الكون من آيات بيّنة شاهدة على وحدانيّته سبحانه، وناطقة بقدرته وعظمته وحكمته ﴿٣٤﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٥﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٦﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾.

ثم ينتقل إلى هذا النظام الموحد والمتكامل بما يضمن استقرار الحياة واستمرارها ﴿٣٨﴾ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾، ثم يصعد بالأنظار والأفكار إلى ذلك الفلك العلوي وما فيه من دلائل ومظاهر وأسرار ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٢﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٣﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٤﴾.

ثم يلفت أنظارهم إلى أسفارهم وتنقلاتهم، وكيف سخر لهم ما يحملهم وأمتعتهم في البحر والبر ﴿٤٥﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٦﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمُ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٨﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٩﴾.

سابعاً: وبعد كلَّ هذه الآيات والدلائل البيّنة، يعرض القرآن موقف هؤلاء المعاندين المكذِّبين ﴿٥٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥١﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥٢﴾، ثم يربط القرآن بين موقفهم هذا من الإيمان وموقفهم من

الأخلاق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

إنه التكبر على الله، والتكبر على عيال الله، وقسوة القلب تجاه حقائق الكون ودلائلها كقسوة القلب تجاه المحرومين والمستضعفين، وهذا الربط له في القرآن نظائر كثيرة؛ من مثل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَسِيرِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

دقائق التفسير

﴿يس﴾ من الحروف المقطعة، وقد مرَّ الحديث عنها في أوائل سورة البقرة، على خلاف ما يُشاع أنه اسم من أسماء نبيِّنا محمد ﷺ؛ إذ هو قولٌ بلا دليل، ونظيرُ هذا القول في ﴿طه﴾ [طه: ١].

وهنا وقفة: فإن شيوخ هذين الاسمين عند عامة الناس على أنَّهما من أسمائه ﷺ؛ بحيث تنصرف أذهانهم عند الإطلاق إلى هذا فينبغي ملاحظته، واحترام هذين الاسمين وتبجيلهما في النداء؛ لمحل انصرافهما في أذهان الناس، وهذا من حسن التأدب معه ﷺ.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو علمُ الله السابق أنَّهم لن يؤمنوا استكباراً وعناداً من أنفسهم، وليس بسلب الإرادة عنهم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ هذه صورة مركبة فيها تقريبٌ حالهم وهم يناون عن الحق، وعن نور الوحي، فينطوون على أنفسهم لشدة عنادهم، كما ينطوي المكبل بالقيود.

وفيه أيضاً تقرير صورة عذابهم في الآخرة، والتي تُناسب ما اختاروه لأنفسهم في الدنيا؛ حيث سيقيّدون بالسلاسل فعلاً، وتجمع أيديهم مع أعناقهم، والأذقان: جمع ذقن، وهو

مجمع اللحين، ومُقَمَّحُونَ أي: شاخصةٌ أبصارهم، ومرتفعةٌ أذقانهم لِعَلَّظَ السلاسل التي حول أعناقهم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّاءً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ طريق الحق، وهذا الجعل ليس على سبيل سلب إرادتهم، بل هو نتيجة لما اختاروه لأنفسهم، وهذا من سننه تعالى الثابتة في الاختبار والتكليف، فالله لا يظلم أحداً، ولا يكره أحداً على الضلالة، وإنما هم من أغلق منافذ النظر في ملكوت الله الواسع، وأغلقوا منافذ النظر في أنفسهم وفي تاريخ أسلافهم، فسدوا طريق المعرفة على أنفسهم، فكان لهم ما أرادوا.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتكبرهم وعنادهم، وهذا في فئة مخصوصة من المشركين، وليس عاماً فيهم؛ إذ قد أسلم كثير منهم وحسن إسلامهم، ولو كان هذا عاماً في المشركين أو الكافرين لانقطع سبيل الدعوة إليهم.

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ ظاهره قصر الإنذار على هؤلاء المؤمنين، والحقيقة أنه قصر إضافي جاء لمدح المؤمنين وإعلاء شأنهم في مقابل أولئك المعاندين، أما الدعوة إلى الله بشاره ونذارة فمفتوحة للعالمين كل العالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والتنويه بشأن هؤلاء الصفوة في هذا المقام يفيد أنهم إنما اهتدوا؛ لأنهم طلبوا الهداية بصدق، وفتحوا عقولهم وقلوبهم لكلمة الحق، فكل من كان كذلك كان جديراً بالهداية والانتفاع بالدعوة وإن لم يكن الآن مؤمناً.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من عمل صالح أو طالح، وفيه إشارة إلى قدرة الله على إحياء قلب الكافر بالإيمان، وإحياء قلب العاصي بالتوبة.

﴿وَهَآئِذْ نَسُفُكُمُوهَآ﴾ حيث لكل عمل آثاره في نفوس الناس وحياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، فالسنة الحسنة لها آثارها، والسنة السيئة لها آثارها، وما يتركه المرء من علم وسمعة، وصدقة

جارية ووقف يُتَفَعُّ به، كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ بَعْدَهُ.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ وَأَثَارِهِمْ.

﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَى.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أَي: فَأَيَّدْنَاهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أَي: تَشَاءُ مِنَّا بِمَجِيئِكُمْ، وَالطَّيْرَةُ: الشُّؤْمُ.

﴿قَالُوا طَيَّرَكُم مَّعَكُمْ﴾ أَي: شُؤْمُكُمْ مَعَكُمْ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَظُلْمِكُمْ.

﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ شَرْطٌ حُذِفَ جَوَابُهُ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ فِي السِّيَاقِ، وَمَعْنَاهُ: إِنَّ ذِكْرَنَاكُمْ بِاللَّهِ

تَشَاءُ مَتَمِّمٌ مِنَّا؟

﴿مُسْرِفُونَ﴾ مُتَجَاوِزُونَ لِلْحُدُودِ.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ مِنْ أَطْرَافِهَا.

﴿يَسْعَى﴾ يَمْشِي مُسْرِعًا.

﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الَّذِي خَلَقَنِي مِنَ الْعَدَمِ.

﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ فَاشْهَدُوا عَلَى إِيْمَانِي، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ أَعْلَنَ إِيْمَانَهُ وَلَمْ

يُخْفِهِ عَنْ قَوْمِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يَسُوؤُهُمْ.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لِإِهْلَاكِهِمْ، فَالْأَمْرُ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أَهْلَكَهُمْ بِالصَّوْتِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ الَّذِي لَمْ

يُكْتَشَفُ الْعِلْمُ إِلَّا مُؤَخَّرًا.

﴿يَنْحَسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ بِمَعْنَى أَنَّ هَؤُلَاءِ يَسْتَحَقُّونَ التَّحَسُّرَ عَلَى حَالِهِمْ وَمَا أَوْقَعُوا

أَنْفُسَهُمْ فِيهِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: يَا حَسْرَةً احْضَرِي فَهَذَا أَوَانُكَ.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ فمَاء العين يتدفق تدفقاً ولا يحتاج إلى واسطة لإخراجه، وهذا من معنى التفجير ولوازمه.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ليأكلوا من ثمار النخيل والأعناب التي خلقها الله لهم ولم تعملها أيديهم؛ لأن الثمار من خلق الله وليست من صنعمهم، فتكون (ما) نافية، وهذا أوفق لسياق الامتنان والشكر، ويجوز في اللغة أن تكون (ما) موصولة، بمعنى: ليأكلوا من هذه الثمار ومما صنّعت أيديهم، ولكنه بعيد عن السياق، والله أعلم.

﴿الْأَزْوَاجِ﴾ الأصناف المختلفة.

﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ حيث جعل الذكر والأنثى لاستقرار الحياة واستمرارها.

﴿وَعَايَةً لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ إشارة إلى أن الليل أصل؛ لأنه لا سبب له، والنهار استثناء؛ لأنه مُرتبط بطلوع الشمس، فإذا انسلخ النهار بغروب الشمس بقي الليل.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ والمقصود حركة الشمس اليومية التي يراها الناظر البسيط والبدوي في الصحراء دون تكلف، بغض النظر عن حركتها الذاتية، فهذه خارج السياق، والمعنى أن تعاقب الليل والنهار مستمر في هذه الأرض بشروق الشمس وغروبها، فإذا أذن الله بإنهاء الحياة توقفت حركة الشمس هذه كما توقفت النجوم والكواكب كلها، وذلك مستقرها، والله أعلم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ والمقصود هنا: تقدير الأهلة في دورتها الشهرية المعروفة، والعرجون: عذق الرطب المتقوس، وهي صورة تمثيلية للهِلال في أول الشهر وفي مُنتهاه.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ لأنها في مدارين مختلفين، وذلك من تقديره سبحانه ولطفه في خلقه.

﴿وَلَا أَلِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ لأنهما أثران ناتجان عن حركة فلكية محسوبة لا مجال فيها للإسراع أو البطء، ولا مجال فيها للفوضى.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: كلٌ يجري في مداره وموقعه المخصص له.

﴿وَأَيُّهُ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: حملنا أولادهم - والمقصود هنا: أولاد بني آدم عامة - في البحر على هذه السفن التي تمخرُ البحر وتعمُ عليه بقُدرة الله، وهي مُحمَّلةٌ بالأثقال، وبعُد في السياق أن يكون المقصود سفينة نوح ﷺ؛ وذلك لقوله تعالى الآتي: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾، والله أعلم.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل والخيول ونحوها.

﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ فلا مُغيث لهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: اتَّقُوا الله تقوى شاملة فيما تُقدِّمون، وفيما تُخلِّفون، وجوابُ (إذا) محذوف؛ لأنه مفهومٌ من السياق، وتقديره: أَعْرَضُوا، بدلالة قوله تعالى الآتي: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: على المساكين والفقراء.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِعِم مِّنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ فيه استِكبارٌ وازدراءٌ بالفقراء والمساكين، وفيه أيضًا سُخريةٌ بعقيدة المؤمنين أن الله يرزُق مَنْ يشاء، وبهذا يجتمعُ في المشركين سُوء الدين، وسُوء الخلق.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصِيَّةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَيُفْخَعُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بَنِيَّ إِنَّا كُنَّا بِكُمْ مُّؤْمِنِينَ فَمَا أَصْبَحْتُمْ بِمَا نَعْمَدُكُمْ ﴿٥٢﴾ فَالْيَوْمَ لَا تَطْلُمُ نَفْسٌ سَنًا وَلَا تَنْجُزُوتُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٤﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ فِيهَا فَاكِهُةٌ وَهُمْ مَا يُدْعَوْنَ ﴿٥٦﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٧﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَتْيَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٨﴾ أَلَمْ نَعْهِدْ إِلَىٰكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥٩﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٢﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٣﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٦﴾ وَمَنْ نَعْمِرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٨﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئُنَا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلِكُوكُونَ ﴿٧٠﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧١﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٧٣﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٤﴾ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ لَعَلَمٌ مَا يُبْصِرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٧﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٧٩﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَنَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨١﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ الْمَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾

عقيدة البعث والجزاء

في هذه الآيات تعرض السورة جوانب ومشاهد مختلفة من ذلك اليوم الذي سيبعث الله فيه الناس للحساب والجزاء، وفيه عرض كذلك لشبهات المنكرين وتساؤلاتهم، وكما يأتي:

أولاً: يبدأ القرآن بعرض تساؤل لمنكري الآخرة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهو تساؤل قُصِدَ منه التهكُّم والاستهزاء، وليس طلباً للجواب، أو بحثاً عن المعرفة، وقد ردَّ القرآن عليهم بما يُناسب قصدهم: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إنَّها لحظة الصدمة، والمفاجأة التي ستزِلُّ بهم وهم في أشغالهم وخصوماتهم؛ فالساعة لا تأتيهم إلا بغتة، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين آمنوا بالساعة واستعدَّوا لها، وتنبَّهوا إلى علاماتها وأشراطها.

ثانياً: بعد الساعة وانتهاء الحياة الأولى كُلِّها، يعرِض القرآن صورة البعث والخروج للحياة الثانية ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وفي وسط هذا الدهول يتساءل المشركون وكأنَّهم كانوا في رقدة: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدًا﴾، فيأتيهم الجواب: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

ثالثاً: يُوكِّد القرآن أنَّ ذلك اليوم هو يوم العدل الإلهي المطلق الذي يُلْقَى فيه كلُّ عامل ما عَمِلَ ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

رابعاً: يقسِّم القرآن الناس هناك بحسب أعمالهم التي قدَّموها لأنفسهم ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ هؤلاء هم المؤمنون.

أمَّا المجرمون فيقال لهم: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يمتازون عن المؤمنين كما تميَّزوا عنهم في الدنيا، وناصبوهم العدا والبغضاء، يمتازون عنهم ليلقوا مصيراً آخر يَلِيقُ بعنادهم وظلمهم واستكبارهم ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿٦١﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٢﴾

خامسًا: يُوجَّهُ القرآن بعد كل هذا نداءه لبني آدم، ذلك النداء الذي يخترق حواجز الزمن، فيتلقاه مَنْ يسمعه في هذه الدار ليتعظ ويعتبر، ويتلقاه مَنْ في تلك الدار؛ ليزداد الطائعون سعادةً وحُبورًا، ويزداد المجرمون شقاوةً وبُورًا: ﴿الَّذِينَ آٰمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ لَّهُمْ أَفْلَحٌ وَلَا نَعْدُ﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩١﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٠﴾

سادسًا: وعلى صلة بهذا النداء الكريم، يرسم القرآن لهؤلاء ولغيرهم طريق النجاة الواضحة البينة التي هي فوق الشك والشبهة ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

سابعًا: ثم يأخذ بهذه العقول والقلوب مرة أخرى إلى دلائل الإيمان وشواهد الماثلة في هذا الكون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾

ثامنًا: ثم يلتفت إلى النبي الكريم ﷺ مُسْلِيًّا وَمُؤَاسِيًّا على تكذيبهم له وهو الناصح لهم، الحريص عليهم - بأبي هو وأمي - ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٦﴾

تاسعًا: ثم يختم القرآن هذه السورة الكريمة بحوار مع مُنْكَرِي البعث ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعِظَمَ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿قُلْ يُعْزِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنشَأْتُم مِّنْهُ تُنَادُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِن دُونِهِمْ ۚ بَلَىٰ ۚ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ ۖ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿فَسُبْحٰنَ الَّذِي يَبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْكُمْ أَرْبَابًا مُّكْرَمِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩١﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٠﴾

فالذي خلق الإنسان من نطفةٍ كيف لا يقدر على خلقه مرة أخرى؟ والذي خلق آدم من لا شيء، وخلق السماوات والأرضين كلّها بما فيها ومن فيها، كيف يُعجزُهُ أن يُعيدَ خلقهم؟ إنّه نداء العقل والفطرة، لو كانوا يسمعون.

دقائق التفسير

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي نفخة الصُّور الأولى، والتي يُعلن فيها نهاية الحياة ويموت فيها الناس.

﴿يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يختصمون في شؤون حياتهم، بمعنى أن الساعة تأتيهم بغتة وهم غافلون.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ كما هو شأن المحتضر الذي يُوصي بما عنده، فهؤلاء الذين يحضرون النفخة يصعقون صعقةً واحدةً، فلا تُتاح لهم توصية ولا غيرها.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي: النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والقيامة من القبور.

﴿مَنْ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور.

﴿يَنْسِلُونَ﴾ يخرجون من قبورهم سراعاً.

﴿قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أي: من منامنا، يُشبّهون موتهم الذي كانوا فيه بالنوم، وهذا دليل أنّهم في تلك المدة التي تسبق البعث لم يكونوا يُعذبون، والجمع بين هذا وبين ما وَرَدَ من نعيم القبر وعذابه: أنّ حياة البرزخ حياةٌ طويلة، ولا مانع من اختلاف أحوالها، والله أعلم.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِيهُونَ﴾ هو شغل التَّعَمُّم والتفكُّه، وليس شغل الجهد والمشقة.

﴿عَلَى الْأَرْبَابِ﴾ جمع أريكة، وهي السرير.

﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ ما يطلبون.

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ وهذا غاية المنى؛ حيث يُحيي الله عباده المؤمنين بتحيةة السلام.

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ميّزوا أنفسكم عن أهل الجنة؛ فليس لكم معهم

نصيب.

﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِئَ آدَمَ﴾ ألم أوصيكم وأبين لكم بما أوحيت في كُتبي وعلى لسان

رُسلي.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلاَ كَثِيرًا﴾ خلقًا كثيرًا.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فلا تتكلم، وليس هذا حالة دائمة عند أهل النار، بل هو

وقت شهادة الجوارح كما يظهر من السياق، ولأنَّ كلام أهل النار بعد الحساب والشهادة

ثابت، وقد مرَّ بنا كثيرٌ منه.

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فالذي جعل اللسان يتكلم وهو

قطعة لحم، قادرٌ على أن يجعل بقية الجوارح تتكلم، وليس بالضرورة أن يكون ذلك الكلام

من جنس كلامنا اليوم، والله أعلم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ

لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (لو) هذه - والتي هي

حرف امتناع لامتناع - جاء بها لبيان قدرة الله المطلقة ومشيتته التي لا يُجْذُّها حدٌّ، وليبان

نعمة الله على هؤلاء؛ حيث منَحهم البَصَرَ والقدرة على النظر، ولو شاء لطمَس على أعينهم

فلا يُبْصِرُونَ طريقهم، ومنَحهم القدرة على الحركة والذهاب والمجيء، ولو شاء لأقعدَهم

في مكانهم، فالله قادرٌ على أن يُوقِعَ عليهم مُتخالفَ العقوبات، ولكنه أمهلهم لعلهم يرجعون،

ولعلهم يتفكرون، ولكنهم أبوا إلا العناد والمكابرة.

﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ بمعنى أن الدنيا هذه ليست دار مقرٍّ، فحتى مَنْ طاق

عمره فيها فإنه سيعيش حياة نكدٍ بأسقامٍ وأوجاعٍ، وانحناءٍ ظهرٍ، وضعفٍ سمعٍ وبصرٍ.
﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: عاقلًا يسمع ويُبصر ويُفكر، بخلاف الجاهل المُعاند الذي هو
كالميت، فلا يسمع، ولا يُبصر، ولا يُفكر.

﴿وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: يحلُّ بهم الوعيد الذي توعدَّهم الله به.
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ فالله خلق الخلق بيده، كما قال في السماء:
﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال في آدم ﷺ: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].
﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ مُلْكًا مُؤَقَّتًا على سبيل الاختبار والاستخلاف، وإلا فالله هو مالك
الملك ولا يشرك في ملكه أحدًا.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ سخرناها لهم.
﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: منها ما يتخذونه للركوب، ومنها ما يتخذونه للأكل، ثم
فَصَّلَ هذا بقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ﴾ والمنافع كالأوبار والأصواف المُستعملة في
الملابس ونحوها.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ﴾ أي: الأصنام لا تستطيع نصر المشركين، بينما
المشركون يُجندُّون أنفسهم لخدمة الأصنام وحمايتها.

﴿فَلَا يَخْزُنَكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: فلا تحزن لتكذيب الكفار لك.
﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ مُحَاصِمٌ مُعَرِّبٌ عن خصومته الله الذي خلقه.
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ لأنَّه لو تذكَّرَ خَلْقَهُ لما ضَرَبَ هذا المثل.

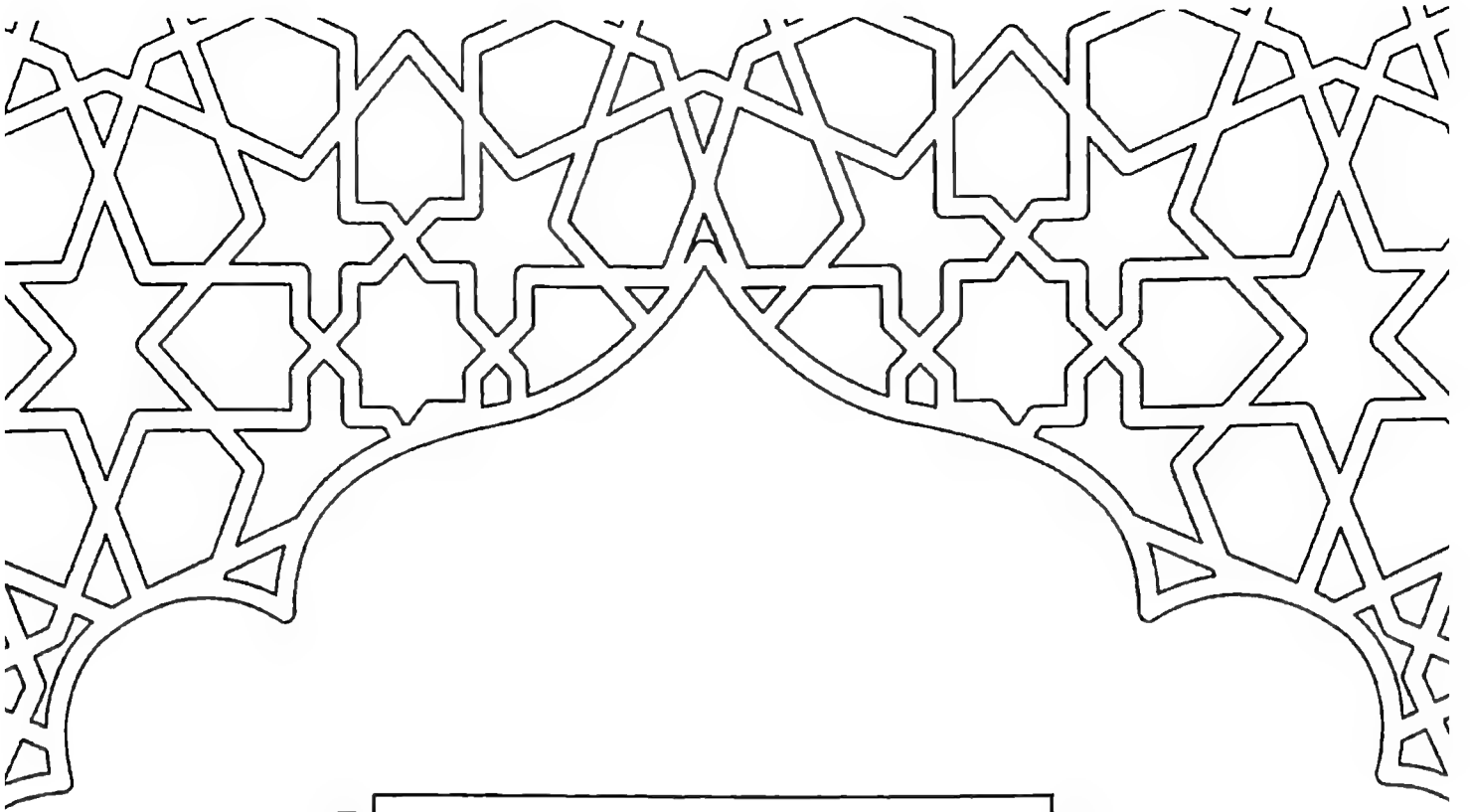
﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ إنه مُتَعَجِّبٌ كيف يقول محمد ﷺ بأنَّ الله قادرٌ على
إعادة الحياة لهذه العظام بعد أن تَبَلَّى وتفت وتختلط بالتراب، ولكن هذا السائل نَسِيَ نفسه
المخلوقة من نطفةٍ من ماءٍ مَهِين.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إذ الخلق الثاني في عادة البشر أهون من الخلق الأول.
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ وهي ظاهرة من ظواهر هذه الحياة؛ حيث تؤول الأشجار بعد أن كانت زاهية الخضرة إلى حطبٍ يابسٍ تستعمل في الوقود، ضمن دورة حياتية يُشبهها القرآن دائماً بدورة الحياة الإنسانية من موتٍ إلى حياة، ومن حياةٍ إلى موتٍ، ومن موتٍ إلى حياة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩].

أما الحديث عن وجود شجرتين يؤخذ غصنٌ من هذه، وغصنٌ من هذه فتتقد النار، فلا يتسع له السياق؛ لأن السياق يتحدث في إطارٍ أوسع، وفي تسلسلٍ مختلف، قصد منه الإشارة إلى بيان قانون الحياة والممات في هذا الخلق، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ بمعنى أن الله لا يحتاج إلى الوسائل والوسائط، ولا إلى المعامل وهندسة الصناعات، وإنما أن تتوجه إرادته إلى تكوين الشيء الذي يريده فيكون، وهذا فيه دليلٌ آخر على البعث مستندٌ إلى معنى الربوبية والألوهية، فالله الخالق لكل شيء كيف يُعجزه شيء؟

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه الله الذي بيده ملك كل شيء، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيه وعدٌ للمتقين، ووعدٌ للكافرين، وهو خطابٌ لمن ذكرهم الله تعالى بهذين الوصفين في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، والله أعلم.



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

المجلس الثامن والتسعون بعد المائة: حوار مع المشركين

المجلس التاسع والتسعون بعد المائة: ومضات من قصص النبيين

المجلس المائتان: تَتَمَّةُ الحوار مع المشركين

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۚ﴾ فَالْجَزْبُ زَجْرًا ۚ ﴿١﴾ فَالتَّائِيَةُ ذِكْرًا ۚ ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۚ ﴿٣﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ
 ۚ ﴿٤﴾ إِنَّا زَيْنًا أَلَمَّا يَرِيتِ الْكَوَاكِبِ ۚ ﴿٥﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۚ ﴿٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْأَعْلَى وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۚ ﴿٧﴾
 دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۚ ﴿٨﴾ إِلَّا مَنْ خِطَفَ لُخْفَةً فَانْتَعَمَ شَبَابًا نَاقِبٌ ۚ ﴿٩﴾ فَاسْتَفِينَهُمْ أَهْمُ أَشَدِّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ
 طِينٍ لَازِبٍ ۚ ﴿١٠﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۚ ﴿١١﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۚ ﴿١٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ۚ ﴿١٣﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۚ ﴿١٤﴾
 أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَوَدَا لَتَبْعُوهُمْ ۚ ﴿١٥﴾ أَوَدَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۚ ﴿١٦﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۚ ﴿١٧﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۚ ﴿١٨﴾
 وَقَالُوا بَيِّنَاتٌ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۚ ﴿١٩﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۚ ﴿٢٠﴾ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۚ ﴿٢١﴾ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ فَأَقْدَرُواهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۚ ﴿٢٢﴾ وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ۚ ﴿٢٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ۚ ﴿٢٤﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ ۚ ﴿٢٥﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
 يَتَسَاءَلُونَ ۚ ﴿٢٦﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۚ ﴿٢٧﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ ﴿٢٨﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ۚ ﴿٢٩﴾
 فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاقُونَ ۚ ﴿٣٠﴾ فَأَعْوَيْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا عَاوِينَ ۚ ﴿٣١﴾ فَأَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۚ ﴿٣٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۚ ﴿٣٣﴾
 إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۚ ﴿٣٤﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّمَا نُنَادِيكُمُ الْإِلَهَيْنَا لَشَاعِرٍ مُتَجَنِّدٍ ۚ ﴿٣٥﴾ بَلْ جَاءَهُ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ۚ ﴿٣٦﴾
 إِنَّكُمْ لَذَاقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ ﴿٣٧﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ ﴿٣٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ ﴿٣٩﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ۚ ﴿٤٠﴾ فَوَكَهَهُ
 وَهُمْ مُكْرَمُونَ ۚ ﴿٤١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۚ ﴿٤٢﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۚ ﴿٤٣﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۚ ﴿٤٤﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ۚ ﴿٤٥﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا
 هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ۚ ﴿٤٦﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۚ ﴿٤٧﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ۚ ﴿٤٨﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ ﴿٤٩﴾ قَالَ قَائِلٌ
 مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۚ ﴿٥٠﴾ يَقُولُ أَهْ نَكَّ لِيَنَ الْمُصَدِّقِينَ ۚ ﴿٥١﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَوَدَا لَتَالْمَدِينُونَ ۚ ﴿٥٢﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ۚ ﴿٥٣﴾ فَأُطْلِعَ
 فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۚ ﴿٥٤﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ۚ ﴿٥٥﴾ وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاصِرِينَ ۚ ﴿٥٦﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ۚ ﴿٥٧﴾ إِلَّا مَوَئِنَّا
 الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۚ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْقَوْمِ الْعَظِيمِ ۚ ﴿٥٩﴾ لَيْسَلٌ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۚ ﴿٦٠﴾ أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزَّلَا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۚ ﴿٦١﴾ إِنَّا
 جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۚ ﴿٦٢﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۚ ﴿٦٣﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسُ الشَّيْطَانِ ۚ ﴿٦٤﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا قَائِلُونَ
 مِنْهَا الْبُطُونَ ۚ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِنْ حَمِيمٍ ۚ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۚ ﴿٦٧﴾ إِنَّهُمْ الْقَوَاءُ آيَاءُ هُمْ صَالِينَ ۚ ﴿٦٨﴾ فَهُمْ عَلَى مَا تَسْتَكْبِرُونَ
 يَهْرَعُونَ ۚ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۚ ﴿٧٠﴾

سورة الصافات سورة مكيّة تتناول طبيعة الصراع القائم آنذاك في مكة بين التوحيد والشرك، وكل آياتها إنّما تدور حول هذا الموضوع، وتعرضه بأساليب متنوعة، فيها المحاورّة المباشرة سؤالاً وجواباً، وأخذاً وردّاً، وفيها ضرب الأمثلة من قصص النبيين وأقوامهم، وفيها كذلك انتقالات سريعة تعرّض لنا مشاهد من الآخرة مُتضمّنة لحوارات التحشّر والتندّم، وسنتناول هذه المشاهد والمعاني بحسب تسلسلها في هذه الآيات، وكما يأتي:

أولاً: يؤكّد القرآن في مُستهلّ السورة وحدانيّة الله تبارك وتعالى بجملة من المؤكّدات؛ منها: القسم، ومنها: حروف التوكيد وأدواته المعروفة في اللسان العربي ﴿وَالصَّاقَتِ صَقًا ۝١﴾
﴿فَالزَّجَرَتِ زَجْرًا ۝٢﴾ ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا ۝٣﴾ ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾.

ثانياً: يُشير القرآن إلى مصداقيّة الوحي في كلّ ما يُشرّعه أو يُحِبُّ به، وتفرّده أيضاً بنقل الحقائق الغيبيّة، وفي هذا تخليص للعقل البشري من لوث الخرافة والأساطير، وأعمال السحر والتنجيم والشعوذة ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْآخِلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُخْرًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾.

ثالثاً: يدعو القرآن المشركين إلى النظر في هذا الخلق العظيم وفي خلق أنفسهم أيضاً، ففي هذا بلغة لمن أراد الهداية ﴿فَاسْتَفِهِمْ أَهْمَ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝١١﴾.
رابعاً: يُبيّن القرآن أنّ سبب ضلال هؤلاء إنّما هو الاستهزاء وأخذ الأمور بماخذ السخرية واللهو والعبث ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٥﴾.

ثم يربط القرآن بين هذه النظرة اللاهية العابثة وما فيها من سُخرية واستهزاء بأصل الداء

الغضال والذي هو التكبر البغيض الذي يُعْمِي ويُصِم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ تَنَالِشَاعِرٍ تَجْنُونَ ﴿ثُمَّ التَّعَصَّبَ لِمُورُوثِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ دُونَ نَظَرٍ أَوْ تَحْيِصِ﴾ إِنَّهُمْ الْفَوَاءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٢٦﴾ فَهُمْ عَلَىٰ عَائِدِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾.

خامسًا: يعرض القرآن موقف المشركين من الآخرة، في إشارة إلى أن هذا الموقف وما فيه من إنكار ليوم الحساب هو الذي يقودهم إلى السخرية واللغو والعبث في حياتهم وفي القضايا المصيرية المطروحة أمامهم ﴿أَإِذَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعَظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٢٩) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٣٠﴾.

سادسًا: يردُّ القرآن عليهم بأن يوم الحساب آتٍ لا محالة، وأنهم هناك سيندمون وسيتلاومون ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٣١) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٣٣﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٤﴾ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٥﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٣٦﴾ وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٣٧﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٣٨﴾ بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴿٣٩﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٤١﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٤٣﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَغْوَيْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٤٥﴾ فَأِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٤٧﴾.

سابعًا: ينتقل السياق هنا لعرض صورة من صور الآخرة فيها بيان لعاقبة الفريقين: الكافرين والمؤمنين، وهذا أسلوب قرآني متكرر لدفع القلوب ترغيبًا وترهيبًا للنظر الجاد، والتفكير الهادف قبل فوات الأوان ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٤٨) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٤٩﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٥٢﴾ فَوَكَّدَ لَهُمْ يُنْكِرُونَ ﴿٥٣﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٥٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٥٦﴾

بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿١٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿١٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿١٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿١٩﴾.

ثم يعود القرآن وفي معرض المقارنة لينقل صورةً مختلفةً تمامًا عن صورة هذا النعيم: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ﴿١٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا قَامِلُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾.

ثامناً: وفي هذا السياق ينقل القرآن مشهداً فريداً، يتحاور فيه المؤمنون وهم في غمرة السعادة والخبور، مشهد يتذكرون فيه دنياهم وما كان فيها من صراع، فينهض أحدهم ليطلِعَهم على قرين له كان على الباطل، وكان يجهد نفسه لأخذ صاحبه معه لولا أن نجاه الله، فإياه في سواء الجحيم.

نعم لقد كانا قرينين، لكن لكل واحدٍ منهما مشربه ومذهبه، فافترقا هناك أيما افتراق ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهِيَكَ لِمَنِ الْمَصْدِقَيْنِ ﴿٥٢﴾ أَمْ ذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَمْ نَأْمَدِيثُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾.

تاسعاً: يدعو القرآن كافة الناس إلى هذا الفوز العظيم، وإلى العمل الجاد للحاق بركب الصالحين، وعباد الله المخلصين، وهي الغاية العملية لتلك الصور وتلك المشاهد الغيبية التي ينقلها لنا القرآن ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾.

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّجَرَتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّلَيَّتِ ذِكْرًا﴾ يُقَسِّمُ اللهُ بِالملائكة ويذكر بعض صفاتهم؛ فالصَّافَّاتُ: جماعات الملائكة التي تَقِفُ صفوفًا منتظمة، وهو مشهدٌ يُوحى بالجلال والروعة والنظام، وإن كنا لا ندري عن حقيقة تلك الصفوف وهيئتها وغايتها، فليس ذلك مطلوبًا منّا، ولا يتصل بوظيفتنا نحن على هذه الأرض، فإيجاءات الصورة الكلية تكفي.

أما الزاجرات والتاليات، فالظاهر أنَّها جماعات الملائكة التي تنزل بالذكر، وهو الوحي، وقد عطفَ العام على الخاص؛ تنبيهًا على أهميَّة الخاص، فالوحي جاء لغايات كثيرة، من أهمها: زجر الناس عن الشرك، والإثم، والظلم؛ ولذلك قدَّمه.

وقد يأتي الزجر بمعنًى آخر، وهو الصيحة لإماتة الناس جميعًا، ثم الصيحة لبعثهم؛ حيث سَمَّاها القرآن: زَجْرَةً، كما في الآية الآتية: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ومعلومٌ أنَّ هذا من عمل الملائكة أيضًا.

﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ المطالعُ المختلفة للنجوم والكواكب، ومنها: حركة الشمس التي نراها بأعيننا كلَّ يوم، فلكلَّ يومٍ مشرقه، كما أنَّ لكلَّ يومٍ مغربه، ونصَّ على المشرق دون المغرب؛ لدلالاتها عليها باللزوم، وتنبيهًا على أهمية المشرق؛ لأنَّها بداية كلِّ يوم، وفيها الحياة والنشاط، والانبعاث للعمل.

﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ تنبيهًا إلى قيمة الجمال والزينة، وفيه إشارة لمعنى المشرق أيضًا.

﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝٧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَاِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۝٩ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ يخبر الله ﷻ أنَّ النجوم والكواكب محروسة بنظام الله وناموسه الذي لا يسمح للشيطان أن يرقى فيها لاستراق السمع، أو التشويش على الوحي، والمقصود العملي

بهذا الإخبار أَنَّ الشياطين لا يَعْلَمُونَ الغيب، وَأَنَّ مصدر الغيب الوحيد إِنَّهَا هو الوحي،
والمارد: الْمُتَمَرِّد، والوَاصِب: الدائم، والمقصود به هنا: العذاب الدائم في الآخرة.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ صورة لما يحصل في الفلك العلوي؛ حيث
تحاول الشياطين أن تَطَّلِع على شيء من ذلك العالم الغيبي، فتردعها الشهب.
وليس للعقل البشري قدرة على تكييف هذا الشيء؛ إذ إن إدراك الكيفية كما هي ليس
مطلوبًا، وقد لا يكون نافعًا أيضًا، وإِنَّمَا المقصود التيقُّن من أَنَّ الشياطين ممنوعون من الغيب،
وهذا يكفي، والثاقب: صفة للشهاب، وفيها معنى السرعة والتوهُّج.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سَلْ هؤلاء المشركين.

﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: من طِينٍ مُتَمَاسِكٍ لَزِجٍ.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أي: إِنَّكَ تَتَعَجَّبُ يَا مُحَمَّدٌ من تكذيبهم لك، وَأنت الصادقُ الأمينُ.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يُبَالِغُونَ بالسخرية والاستهزاء.

﴿أَءِذَا مَنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (١٦) أَوَّابًا وَأَنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يسألون استنكارًا واستهزاءً
بعودتهم إلى الحياة كَرَّةً ثانية بعد أن يُصْبِحُوا ترَابًا وَعِظَامًا، ثم يتساءلون عن آبائهم الأولين،
لأن إعادتهم إلى الحياة - بمنطقهم - أكثر غرابة واستحالة؛ لطول العهد، وضياع قبورهم
ورُفَاتهم.

وكلمة (أَوْ) مركبة من: همزة استفهام، وواو عطف، كأنَّهم يقولون: أئنَّا لمبعوثون وآبائونا
أيضًا، ثم قَدَّمَ الهمزة؛ تَجَنُّبًا لِثِقَلِ اللفظ، والله أعلم.

﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صَاغِرُونَ.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ هي الصيحة الثانية؛ إِذَا نَا بالبعث وعودة الحياة من
جديد.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يوم القضاء والحكم بين الخلائق.

﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم ومَن كان يُناصرُهم ويُشايِعُهم.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ هذا قولُ الأتباع للمتبوعين في ذلك الموقف العَصيب، يقولون لهم: إنكم كنتم تُزَيِّنُون لنا الباطل، وتأتوننا من الجهة التي نأمنكم فيها ولا نشكُّ بِنُصِحَتِكُمْ.

﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿ هذا ردُّ المتبوعين على أتباعهم، يَرُدُّون اللَّائِمَةَ عليهم، ويقولون لهم: إنَّه لم يكن لنا عليكم حُجَّةٌ نُلْزِمُكُمْ بها، ولكننا دعوناكم فاستجبتم لنا.

﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ﴾ لأنكم كنتم مثلنا في الكفر والطغيان.

﴿وَمَا تُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تأكيدُ لمبدأ العدل الإلهي المطلق.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنَّهم لم يدخلوا أصلاً في الخطاب المُتقدِّم:

﴿إِنَّكُمْ لَذَٰئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ وفائدة الاستثناء هنا: المقارنة بين الذين يستحقُّون العذاب الأليم، وبين عباد الله المُخْلِصِينَ الذين هم في جنَّات النعيم.

﴿بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ من عينٍ جاريةٍ لا تنقطع، والمقصود بالكأس هنا: كأس الخمر، وهي خمر الجنة الآتي وصفها.

﴿بَيْضَاءَ﴾ وصفٌ للون الخمر التي في الكأس.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ لا تذهب بالعقل، ولا تضرُّ بالصحة.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي: لا يُصرفون عنها، بمعنى أنَّها موفورة لهم متى شاءوا.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ أي: الحُور العين، ووصفهنَّ بأنَّهنَّ قاصرات الطرف

بمعنى أنَّهنَّ حيَّات فلا يُحدِّقن بوجوه أزواجهنَّ، بل ينظرن إليهم من طرفٍ حييٍّ، مع أنَّهنَّ

واسعات العيون، وهذا معنى قوله: ﴿عِينٌ﴾، وهذا أولى من تفسير من فسرها بأنَّهنَّ

قاصرات الطرف على أزواجهنَّ، فلا يتطلَّعنَ إلى غيرهم؛ فالجنةُ ليس فيها ما يستوجبُ مثلَ هذا التحرُّز، والله أعلم.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ هذا تشبيهٌ معروفٌ عند العرب، يُشبَّهون المرأةَ الحسنةَ ببياض النعام، فالنعامة تحفرُ لبيضها في الرمل، وتفرش له من ريشها الناعم، فتخرج شديدة اللَّمَعان، ناصعة البياض، مُصانة من الدَّرَن واللَّوْث، ومنهم من يُطلق البياض المكنون على اللآلئ المكنونة في الصدف.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ هؤلاء هم أهل الجنة، يتسامرون ويأنس بعضهم ببعض.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ كان لي صاحب في الدنيا.

﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ﴾ أي: بالبعث، فصاحبه كان كافرًا، وكان يُجادله في عقيدته.

﴿أَءِنَّا لَمَعِدِينَ﴾ لمحاسبون بعد الموت، يسأل سؤال المُستنكر لا المُستفهم.

﴿قَالَ هَلْ أُنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ﴾ هذا قول المؤمن لأصحابه المؤمنين، يدعوهم إلى الاطلاع على

أهل النار، والظاهر من هذا أنَّ أهل الجنة بإمكانهم الاطلاع على النار ومن فيها.

﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ أي: رأى قرينه الذي كان يُجادله في الدنيا عن البعث، رآه

وسط النار.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ﴾ يقول له: لقد قاربت أن تُهلكني معك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ أي: لولا الإيمان - وهو أعظم النعم - لكنتُ

مُخْضَرًا معك في النار.

﴿أَذَلِّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ الإشارة إلى نعيم الجنة، والنُّزْل ما يُقدَّم للضيف.

﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ وهي شجرة خبيثة أُعِدَّتْ طعامًا لأهل النار.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ والفتنة هنا بمعنى: المحنة والعذاب، وفيه أيضًا أنها سبب لفتنتهم وإعراضهم في الدنيا؛ لأنهم قاسوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، فكذبوا القرآن، وأنكروا وجود الشجر في النار؛ لأن النار ستُحرقه.

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أي: في قعر جهنم، أعادنا الله منها.

﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ شبه الغائب بالغائب، فنحن نجهل الشجرة وطلعها، ونجهل الشياطين ورؤوسهم، إلا أن المقصود واضح من هذا التشبيه، وهو حصول حالة الاشتزاز، والنفرة عن جهنم وما فيها، وهذا يكفي لمن كان له لب، فمن صدق بالخبر كما هو، وعمل بمقصوده فقد أبرأ الذمة، أما الذين يبحثون في كنه الغيب وكيفيته فقد شطوا بعيدًا عن مقصد القرآن، وأشغلوا أنفسهم فيما لا طائل منه.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا ﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا بها وبالبعث عمومًا، سيأكلون منها حتى تمتلئ بطونهم ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي: يخلطون معها شيئًا من الماء الحار.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أي: بعد شربهم من ماء الحميم، وكأن الحميم في مكان آخر، ويؤكد هذا قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٤]، والله أعلم.

﴿ إِنَّهُمْ أَفْوَءُ آبَاءٍ هُمْ ضَالِّينَ ﴾ أي: وجدوا آباءهم على الشرك.

﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ يُسارعون في الشرك؛ تعصبًا لما ورثوه عن آبائهم دون تمييز ولا وعي.

في خِصَمِّ الصراع بين الحقِّ والباطل، وبين التوحيد والشرك، والذي كانت تشهده مكة وأطرافها، يعرض القرآن لبُعدٍ آخر في هذا الصراع، إنَّه البُعد التاريخي الذي يُؤكِّد عمقَ هذه الرسالة وعمقَ حركتها الدعويَّة والإصلاحية على يد الأنبياء ﷺ وأتباعهم، في مُقابل تشابه المواقف التي تجمع هؤلاء المُعاندين على اختلاف أماكنهم، وتعاقب أجيالهم، فهما طريقان لا يلتقيان، وعلى العاقل أن يختار واحداً منهما، وأن يتحمَّل نتيجة هذا الاختيار:

أولاً: يعرض القرآن الصورة الكلية لهذا البُعد التاريخي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرَكَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ بمعنى أن كلَّ النماذج الآتية إنما هي نماذج تفصيلية تُؤكِّد هذه الصورة الكلية وترسُّخها.

ثانياً: يُلخِّص القرآن قصَّة نوح ﷺ مع قومه: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحٌ فَلِنَعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾.

ثالثاً: ثم يعرض القرآن قصَّة إبراهيم ﷺ مع تأكيد الصلة بين الرسالتين ﴿وَإِذْ مِنْ شَيْعِهِ إِِبْرَاهِيمَ﴾ أي: مَن مَشَى على نهج نوحٍ واتبَعَ أثره، وفي هذا تأكيد وحدة الطريق لكلِّ الأنبياء ﷺ.

وتبدأ قصة إبراهيم بحواراته العميقة مع أبيه وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيِفْكَاءُ إِلَهَ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلَمَّا لم يُجد الحوار نفعاً، ذهب ليُقيم عليهم الحُجَّة، ويُرِيهم بأعينهم عجزَ آلهتهم ﴿فَرَأَى إِلَآءَ إِلَهِهِمْ فَقَالَ آلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ وكان هذا كافياً لتحريك عقولهم، ولكنهم أبوا إلا العناد والمكابرة واللجوء إلى منطق القوة والانتقام ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾.

هنا قرر ﷺ بعد أن نجاه الله من نارهم أن يهاجر بعيداً عنهم، وهناك في مهجره وهب الله له على كبره غلاماً حليماً، لتبدأ قصة أخرى في التضحية وإخلاص العبودية لله ﴿٩٨﴾ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴿٩٩﴾ رب هب لي من الصالحين ﴿١٠٠﴾ فبشرناه بعلمٍ حليم ﴿١٠١﴾ فلما بلغ معه السعي قال يبنى إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى ء قال يتأتى أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴿١٠٢﴾ فلما أسلما وتله للجبين ﴿١٠٣﴾ وتدبته أن يتابرهيه ﴿١٠٤﴾ قد صدقت الرؤيا ء إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿١٠٥﴾ إنا هذا هو البتوا المبين ﴿١٠٦﴾ وتدبته بذيبح عظيم ﴿١٠٧﴾ وتركنا عليه في الآخرين ﴿١٠٨﴾ سلم على إبراهيم ﴿١٠٩﴾ كذلك نجزي المحسنين ﴿١١٠﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿١١١﴾ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴿١١٢﴾ وتركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴿١١٣﴾.

رابعاً: ثم يلخص القرآن قصة موسى وهارون ؑ، مذكراً بأهمية التوراة وأنها الكتاب المستبين، وهذه خصوصية - لا شك - في هذا النموذج الفريد ﴿١١٤﴾ ولقد منكنا على موسى وهارون ﴿١١٥﴾ ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ﴿١١٦﴾ وهديناهم الكتب المستبين ﴿١١٧﴾ وهديناهم الصراط المستقيم ﴿١١٨﴾ وتركنا عليهما في الآخرين ﴿١١٩﴾ سلم على موسى وهارون ﴿١٢٠﴾ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿١٢١﴾ إنا من عبادنا المؤمنين ﴿١٢٢﴾.

خامساً: يلخص القرآن أيضاً قصة إلياس ؑ ﴿١٢٣﴾ وإن إلياس لمن المرسلين ﴿١٢٤﴾ إذ قال لقومه ء ألا لتقون ﴿١٢٥﴾ أن دعون بعلًا وتذرون أحسن الخلقين ﴿١٢٦﴾ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿١٢٧﴾ فكذبوه فأنهم لمحضرون ﴿١٢٨﴾ إلا عباد الله المخلصين ﴿١٢٩﴾ وتركنا عليه في الآخرين ﴿١٣٠﴾ سلم على إيل ياسين ﴿١٣١﴾ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿١٣٢﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿١٣٣﴾.

سادسًا: ويُلخص أيضًا قصة لوط عليه السلام مُذَكِّرًا بموقف امرأته، في إشارة إلى أنَّ الأمر أمر عقيدة ورسالة، وتمايز بين الحق والباطل، وليس هناك مجال لاختلاط الصفوف، أو تداخل الخنادق ولو كان في الطرف الآخر القريب أو النسيب ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَيْتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾.

سابعًا: ثم يختم القرآن هذه السلسلة المباركة بقصة يونس عليه السلام الذي أرسله الله إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا به، وهذا نموذج مختلف عن كل النماذج السابقة، وهو النموذج الذي يفتح الباب للأمل العريض، وربما كان هذا مقصودًا لختم هذه السلسلة به ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْلَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي: أرسلنا في الأولين رسلاً مُنْذِرِينَ.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: عاقبة تلك الأقوام الذين كذبوا هؤلاء

الرسل، ثم شرع بتفصيل هذه الأقوام.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) وَبَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ يُثْنِي الله تبارك

وتعالى على نفسه؛ إذ استجاب لنوح عليه السلام دُعَاؤه، ونجَّاه وأهله من ذلك الطوفان الذي أهلك

الله به قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ فلم يبق من بني آدم إلا ذرية نوح؛ ولذلك يقال: إنه أبو العالم الثاني، والظاهر أن المؤمنين الذين نجّاهم الله مع نوح لم يخلّفوا ذرية، وليس معروفًا سبب ذلك، وليس معروفًا عددهم أيضًا سوى أنهم قليل ﴿وَمَا أَمْنٌ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: تركنا له ذكرًا باقيا في الأجيال المتعاقبة.

﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: ممن مضوا على نهجه وسُنته في التوحيد وفي الدعوة إليه، وفيه تأكيد لوحدة الرسالات السماوية.

﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: أقبل على ربه بقلب نقي خالٍ من الشرك والظلم.

﴿أَيْفَاكَاءِ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ تأكيد أن عبادة الأصنام ليست رأيا ولا فكرة أو نظرا، وإنما هي الكذب الذي سار الناس خلفه دون وعي أو تفكير.

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يسأل إبراهيم ﷺ قومه عن ظنهم برب العالمين؛ إذ لو كانوا يعرفونه حق معرفته، ويقدرونه حق قدره ما اتخذوا من دونه أندادا من حجارة يصنعونها بأيديهم.

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ بمعنى أنه فكّر مليّا خاليّا بنفسه، كحال من يتأمل النجوم، والعرب تُشبّه المُستغرق بتفكيره بالناظر في النجوم؛ لأنّ الذي ينظر فيها يستغرق فيها وينسى ما حوله، ولا مانع أيضا أنه ﷺ كان يتأمل في النجوم وفي سعة هذا الكون العظيم، ثم ينظر إلى هذه الأصنام الصغيرة الحقيرة، فتَهوّنُ عليه، ففكّر بإهانتها في عيون أهلها، وهكذا بدأت قصته في تحطيم الأصنام.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ تعلّل بمرضه عن الخروج مع قومه في إحدى مناسباتهم، والظاهر أنه لم يكن مريضا، وإنما هي حيلة اتخذها ليخلو بأصنامهم، وكلمة سَقِيم تحتمل المرض وتحتمل الضعف والهَمّ ونحو ذلك، فورّى بذلك تورية.

﴿فَنَوَلُّوْا عَنْهُ مُدْرِبِينَ﴾ أي: خرجوا وتركوه وحيدا.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ إِلَهِهِمْ فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ يطرح إبراهيم أسئلته هذه على الأصنام تهكمًا واستهزاء بها وبأهلها الذين يعبدونها من دون الله، ويرجون منها ما لا يرجونه من الله.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: مَالَ عَلَيْهِمْ بيمينه حتى حطَّمَهُم.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ﴾ أي: يُسِرُّعُونَ.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي: في النار التي أوقدوها لحرقه.

﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ إذ رَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ وَنَجَّاهُ مِنْ نَارِهِمْ.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ هو إسماعيل على أبيه وعليه السلام؛ حيث ساق القرآن هنا قصته

وقصة فدايته، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ أي: شَبَّ وَأَخَذَ يَمْشِي مَعَ أَبِيهِ.

﴿فَكَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ آتِيَّكَ أَذْبَحُكَ﴾ ورؤيا الأنبياء وحيٌّ، بدلالة قوله تعالى الآتي:

﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يكن هذا الأمر الإلهي مقصودًا بذاته، وإنما لتقديم نموذج

للتضحية وإخلاص الطاعة لله، والاستسلام لأمره ﷻ؛ ولذلك بعد استسلامها لهذا الأمر

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾، جاء نداء الله الكريم الرحيم: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَذَكَّرْهُ ﴿١٢﴾ قَدْ

صَدَقْتَ الرَّبَّ يَا إِبْرَاهِيمُ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُبِينُ﴾ ابتلاءٌ كبيرٌ للأب في تغليب حبِّ الله على حُبِّه لولده، وابتلاءٌ

كبيرٌ للابن في تقديم نفسه قربانًا لله وتنفيذًا لأمره.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ لم يُبَيَّن القرآن صفةَ هذا الفداء، ولا يبعد أنَّهُ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ

بأن يذبح كبشًا أو نحوه، ووصف الكبش بالعظيم ليس لذاته، وإنما لأنه كان فداءً نبيٍّ كريم،

والله أعلم.

﴿ وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي: تركنا له ذكرًا باقيًا في الأجيال المتعاقبة.

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ هو الولد الثاني لإبراهيم بعد إسماعيل، ومعلوم أن إسحاق من سارة ابنة عم إبراهيم، وأن إسماعيل من هاجر عليهم السلام أجمعين.

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أي: أنعمنا عليهما.

﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ من ظلم فرعون وتعذيبه لهم بتقتيل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ الذي فيه البيان والهدى والنور، والمقصود به التوراة.

﴿ وَتَرْكُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي: تركنا لهما ذكرًا باقيًا في الأجيال المتعاقبة.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لم يرد في القرآن تفصيل لقصته ولطبيعة قومه، والأولى الوقوف عند حد النص، والبحث في مقصود الخبر وغايته العملية والتربوية.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ وهو اسم وثني أو صنم كان قوم إلياس يعبدونه من دون الله؛ ولذلك قال: ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي: لمجموعون للحساب يوم القيامة.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ هو استثناء منقطع؛ لأن الذين كذبوا إلياس ليس فيهم عبادٌ مُخلصون، وفائدة هذا الاستثناء: المقارنة بين حال المؤمنين وحال المكذبين.

﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ ﴾ هو إلياس نفسه بدلالة السياق، ولعله اسم ثانٍ كان يُدعى به، أو أنه أُتي به جمعًا للدلالة عليه وعلى من اتبعه وناصره.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ ﴾ هي امرأة لوط، واستُثْنيت من أهل لوط الذين نجَّاهم الله مع لوط ﷺ؛ حيث كانت موالية لقومها المشركين، فعَمَّها العذاب، والتنصيب عليها في هذه الومضة من قصة لوط؛ للدلالة على أن النسب لا يُغني شيئًا من أمر الله.

﴿وَإِنَّكُمْ لَسَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْأَيْلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يعني أنكم تمرُّون على مساكن قوم لوط في ذهابكم وإيابكم، في ليلكم أو نهاركم، وكان عليكم أن تعتبروا بحالهم وما كان من شأنهم.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي: هرب ولم يصبر على دعوة قومه، وسمَّاه إياقًا؛ لأنَّه خرج من غير إذن، فكلُّ عبدٍ خرج من غير إذن سيده يقال عنه: أَبَقَ، والفلك المشحون: السفينة المملوءة بالناس أو البضائع.

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ حيث أوشكت السفينة على الغرق، فألقوا ما فيها من متاع، ثم اقترعوا لإلقاء واحدٍ من الركَّاب لينجو الآخرون، فظهرت القرعة باسم يونس ؑ، فكان من المدحضين أي: الخاسرين في القرعة، وكان لله في هذا حكمةٌ عظيمةٌ؛ حيث أرجعه الله إلى قومه فأمنوا به.

﴿فَالنَّعْمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي: مُسْتَحَقٌّ للملامة على خروجه عن غير إذنٍ من ربِّه.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٣٨﴾ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: لَبَقِيَ في بطن الحوت ولم يخرج منه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ التسييح منجاةٌ من الضيق، وقد كان دعاؤه ُ ﴿[الأنبياء: ٨٧]﴾، وهو دعاءٌ جمع بين التوحيد الخالص، وتسييحه لله تعالى بمعنى: تنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به، واعترافه بتقصيره في جناب ربِّه سبحانه؛ حيث اجتهد فخرج من قومه من غير أمرٍ ولا إذنٍ من ربِّه.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي: فألقاه الحوت بتقديرنا على وجه أرضٍ جرداء وهو عليلٌ وضعيفٌ.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴾ واليقطين: القرع، وهي شجرةٌ ذات أوراقٍ كبيرةٍ سريعة التمدُّد، ولعلَّ المقصود أنَّه استظلَّ بها، أو أنَّها التفت على جسده فسترته، وربَّما أكل من

ثمرها أيضًا، ولم يُفصّل القرآن مُدَّة مُكِنِّهِ في بطن الحوت، ولا مُدَّة مُكِنِّهِ في العراء أو تحت ظلّ هذه الشجرة، فالعبرة أعلى وأسمى من هذه التفاصيل.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ هم أهل الموصِل، والآية تُشير إلى أنّها كانت مدينة عامرة منذ ذلك التاريخ.

﴿فَتَأْمَنُوا فَمَعَّيْنَهُمُ إِلَى حَيْنٍ﴾ هذه ميزة لقوم يونس عليه السلام من بين كلّ النماذج المتقدّمة.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

من الآية

١٤٩ - ١٨٢

﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ (١١٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٢٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا لَكُمُ الْقَبُولُ ﴿١٢٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٢٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٢٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٦﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا ﴿١٢٨﴾ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٩﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٣٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣١﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٣٢﴾ مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِقَنِينٍ ﴿١٣٣﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٣٤﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٣٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٣٨﴾ لَوَ أَنَّا عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٩﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٤٠﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٢﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٤٣﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنُؤَلِّهِمْ هَاجًا حَتَّىٰ جِئَ الْبَصَرُ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَصَرُوا فَسَوْفَ يَصِيرُونَ ﴿١٤٦﴾ أَفَعِدَّاءُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤٧﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٤٨﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئَ الْبَصَرُ ﴿١٤٩﴾ وَأَنبَصَرُوا فَسَوْفَ يَصِيرُونَ ﴿١٥٠﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥١﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٣﴾

تتمة الحوار مع المشركين

بعد هذه السلسلة النورانية من النماذج والقصص النبوية، عاد القرآن مواصلاً ومجدداً حواراً مع المشركين:

أولاً: يبدأ القرآن حواراً في هذه الجولة بمسألة جزئية، لكنها تؤثر بوضوح إلى الخطأ المنهجي الذي يمضي عليه المشركون في تصوراتهم الدينية والغيبية بلا حجة ولا دليل، ولا مسكة من علم ﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ (١١٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٢٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا لَكُمُ الْقَبُولُ ﴿١٢٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٢٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٢٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٦﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٧﴾

ثم يُصَحِّحُ القرآن هذا المفهوم الخاطيء وعلى لسان الملائكة أنفسهم: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (١٣٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٣٧﴾ فالملائكة إنما يتقربون إلى الله بطاعته

وعبادته، وتسبيحه تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به.

ثانيًا: وعلى صلة بهذه المسألة، يُعرِّج القرآن على مسألة أخرى ليؤكد لهم أنهم ماضون على الطريق الخطأ، وبالمنهج الخطأ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

ثالثًا: ثم يؤكد القرآن أن هذا النهج القاصر والخطأ لا يصح أن يكون سببًا بنفسه لغواية الناس وإضلالهم؛ لافتقاره إلى الدليل والمنطق المقتنع، أما الذين يُفتنون به فإنما فتنتهم أهواؤهم وشهواتهم، وأولئك أصحاب الجحيم ﴿فَانْكُرُوا مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾.

رابعًا: ثم يُذكِّر القرآن المشركين بما كانوا يتمنونه من نزول الكتاب عليهم، كما هو شأن أهل الكتاب من يهود ونصارى ﴿وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا التذكير يُقصد به: بيان أنهم إنما يُعادون القرآن بعد أن أنزله الله عليهم؛ لحسد في أنفسهم، ومرض في قلوبهم، وليس من أجل التباس في الرؤية، أو خطأ في النظرة والفكرة.

خامسًا: يؤكد القرآن أن عاقبة الصراع ستؤول حتمًا لصالح المؤمنين، وقد حصل هذا بالفعل بعد الهجرة النبوية المباركة، ثم فتح مكة، ثم دخول الناس أفواجًا في دين الله ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِجِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

سادسًا: يُوصي الله ﷻ في ختام هذه السورة نبيه الكريم والمؤمنين من بعده بالإعراض عن هؤلاء المعاندين المخاصمين، وهو الإعراض عن استفزازاتهم ومكائدهم، وليس الإعراض عن دعوتهم والمحاورة معهم ﴿وَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَلِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فسلامٌ عليك سيدي رسول الله وعلى آل بيتك وصحابتك، ومن سارَ على نهجك وحمل
دعوتك إلى يوم الدين، وسلامٌ على إخوانك المرسلين، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربَّ
العالمين.

دقائق التفسير

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ سَلُهُمْ.

﴿إِلَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ هذا سؤالٌ مركَّب، كأنَّه يقول لهم: إن كنتم تُفضِّلون
البنين على البنات، فكيف تُخصُّون الله بالبنات بادِّعائكم أنَّ الملائكة بنات الله، وتُخصُّون
أنفسكم بالبنين؟ وهو سؤالٌ استنكاريٌّ يقصد منه دحض تصورات الجاهلية عن الله، وعن
الملائكة، وعن البنين والبنات، وميزان التفاضل في الخلق.

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ سؤالٌ يُقصد به التوبيخ، وبيان جهلهم،
وافتقار مُعتقداتهم إلى الدليل.

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ أي: ينسُبون لله الولد بادِّعائهم أنَّ الملائكة
بناتُ الله، فهذا إفكٌ وكذبٌ اخترعوه من أنفسهم ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾.

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ توبيخٌ آخر لبيان جهلهم وغفلتهم وجرأتهم على الله،
وتسفيهٌ لزعمهم أنَّ الملائكة بنات الله، وبيانٌ لتخبُّطهم وقولهم في الغيب بلا عِلْمٍ ولا دليلٍ،
ونظرتهم الدونية عن الأنثى، ثم نسبة هذا الدون إلى الله! وكأَنَّهُم بهذا يرون حالهم أفضل من
حال خالقهم؛ إذ هم لهم الأولاد البنون والبنات، بينما ينسبون له سبحانه البنات خاصَّة!

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ حُجَّةٌ واضحة على دعواكم.

﴿ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بمعنى أنَّ قولهم بأنَّ الملائكة بنات الله لا يحتمل الاجتهاد
والنظر العقلي؛ إذ هو إخبارٌ عن الغيب، وهذا الإخبار بحاجةٍ إلى الوحي والكتاب المُنزَّل من

السماء، فإذا لم يأتوا بالكتاب فإنهم الكاذبون.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾ هذا تخبُّط آخر من تخبُّطات الجاهلية؛ حيث جعل المشركون بين الله - تعالى عن قولهم - وبين الجنِّ قرابة ومصاهرة، وربما أخذوا هذا من بعض العقائد المجوسية التي كانت قريباً منهم في ناحية العراق وفارس؛ حيث قامت هذه العقائد على وجود إله للخير وإله للشر، وهناك غبش وارتباك في تصوُّر العلاقة بين الإلهين!

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: مجموعون للحساب؛ لأنهم مُكَلَّفُونَ بالشرائع، ومُتَحَنُونَ بالعبادة مثل البشر ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تنزه الله وتقدّس عن هذه الصفات التي يدعّونها لله إفكاً وبُهتاناً.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وفائدته هنا: المُقارنة؛ بمعنى أن أولئك الكاذبين المكذِّبين يصفون الله بما لا ينبغي، أمّا عباد الله المُخْلَصُونَ فيصفونه بصفاته اللائقة به والثابتة له عن طريق الوحي.

﴿فَأَنذَرُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١١١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَعَيْنٍ ﴿أي: أنتم وأصنامكم لا تقدرون أن تردّوا أحداً عن دينه، ثم استثنى من هو على شاكلتهم فقال: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ بمعنى أنهم لا يقدرّون على غواية أحدٍ إلّا مَنْ كان مُستعدّاً للغواية، لاهثاً وراءها.

﴿وَمَا مِمَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ التّفاتة في الخطاب تحكي موقف الملائكة مما نسبته المشركون إليهم، فهم عبادُ الله وقافون عند أمره ونهيه، وكلُّ منهم له مقامٌ لا يتعدّاه، وكلُّ مقاماتهم داخلة في مقام العبوديّة، فليس المُتقدّم أو المتأخّر منهم إلّا عبداً لله.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّونَ﴾ تأكيد لما ورد في صدر السورة: ﴿وَالصّٰفّٰتِ صَفًّا﴾ بمعنى أنهم يقفون صفوفاً بانتظام كما يأمرهم خالقهم، وفي هذا تعبيرٌ عن الأُهبة والاستعداد الكامل مع الانتظام المُتقن الدقيق.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الذين يسبحون الله كثيرًا، ويُزّهونه عن كلّ ما لا يليق به.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿٣٧﴾ لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ هذه التّفاتة أخرى، وتحوّل في الخطاب إلى المشركين الذين كانوا يتمنّون أن ينزل عليهم كتابٌ كما أنزل على جيرانهم من اليهود والنصارى، وكانوا يُمنّون أنفسهم أن لو كانوا أهل كتابٍ، لكانوا مُخلصين لإيمانهم، عاملين بشريعتهم، فلما جاءهم الكتاب كفروا به ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ فسوف يعلمون ﴿وما ذاك إلا لكبرهم وحسدهم.

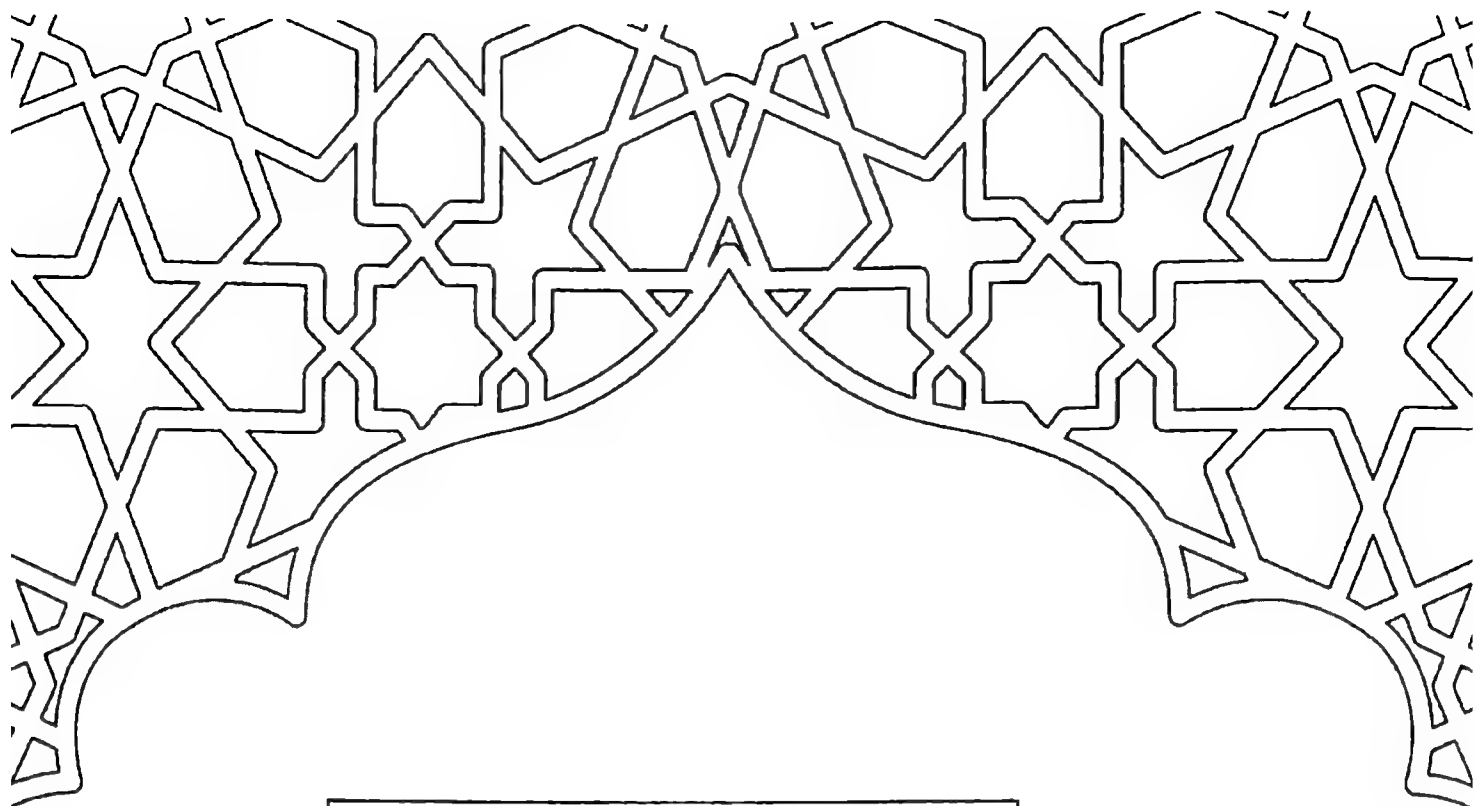
﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْيَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ هذا جانبٌ من تفسير الوعيد السابق: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بمعنى أن المشركين سيعلّمون ما يحلُّ بهم على يد الرسول ﷺ وصحابته الأبرار الذين هم جندُ الله، وقد جاء الوعيد مسوقًا مساقَ السنّة الثابتة، فرُسل الله لا تُخذل، وجندُ الله لا تُغلب، وقد تحقّق هذا الوعيد بفتح مكة وما حولها ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: أعرض عنهم، ولا تُبالِ بما يقولون.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ لوعيده تعالى المتحقّق بالمشركين، وأبصرهم أي: انظر وارتقب مصيرهم، فسوف يبصرون أي: فسوف يرون بأعينهم ما توعدناهم به.

﴿أَفِيعَادَانَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِثِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ مُتكرّرٌ لوعيد الله لهم وما سوف يَحِقُّ بهم.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي: تنزه الله عن كلّ صفة نقصٍ، وهو سبحانه العزيز ذو القوّة والقدرة والمنّة، فليس بحاجة إلى شريك، ولا إلى ولد.



سورة القصص

المجلس الأول بعد المائتين: عناد المشركين

المجلس الثاني بعد المائتين: ومضات من قصص النبيين

المجلس الثالث بعد المائتين: نهاية الحياة والمصير المحتوم

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ شِقَاقٌ﴾ ٢ ﴿كَرَّ أَهْلُكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حُجْنَ مَنَّاسٍ﴾ ٣ ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ ٤ ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ ٥ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ٦ ﴿وَانْطَلَقْنَا لَمَّا مِنْهُمْ أَنْ آسَوْا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِ الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ٧ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْإِمْلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ﴾ ٨ ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ ٩ ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ ١٠ ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ١١ ﴿جُنُدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ١٢ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾ ١٣ ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ الْأَحْزَابِ﴾ ١٤ ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبِ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ١٥ ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ ١٦ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قُلُوبَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ١٧ ﴿

عناد المشركين

موضوع هذه السورة المباركة هو الدعوة الإسلامية في عهدنا المكي، ومُعاناته ﷺ مع قومه، وفي هذه الآيات وصف لحال المشركين وحركتهم التي لا تهدأ للصد عن سبيل الله، ومحاصرة الدعوة في مهدها، وكما يأتي:

أولاً: استهلَّت السورة ببيان الغاية الكلية للقرآن الكريم: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ بمعنى أنه إنما جاء ليُذكِّر الناس بما هم عنه غافلون.

ثانياً: لخصت السورة موقف المشركين من هذه الرسالة وهذه الدعوة ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ شِقَاقٌ﴾ والعزَّة معناها هنا: اعتزازهم بما هم عليه من الكفر والضلال، والشقاق معناه: العداوة والبغضاء للحق وأهله.

ثالثاً: أشارت السورة إلى الحسد الذي توقد في نفوسهم، فدفعهم لهذا العناد، ولهذه العداوة البغيضة ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وقال الكافرون هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿،﴾ ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

رابعًا: تنقل السورة حركة الملائكة الدائبة، وتحريضهم وتواصيهم بالثبات على ما أُلْفُوهُ من دين الآباء والأجداد ﴿وَأَنْطَلِقُ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ إِلَهِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿

والملائكة في كل قوم هم الذين يُجَارِبُونَ الإصلاح والتغيير؛ لأنهم يظنون أن هذا يُفْقِدُهُمْ مكانتهم وموقعهم المُتصدر في قومهم.

خامسًا: ردَّ القرآن على المشركين مُؤكِّدًا أن الأمر لله، وليس لغيره الخيرة في اختيار الرسل، وفي هذا تنبيه آخر على الدافع الأساس لإنكارهم وعنادهم، ألا وهو الحسد ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خِرَافٌ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (١) أَمْلَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿

سادسًا: ربط القرآن بين موقف المشركين هذا ومواقف الأقسام السابقة المكذِّبين لأنبيائهم، مُذكِّرا بهلاكهم وعاقبة أمرهم ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿ (١٣) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿ ثم وجَّه الخطاب لمُشركي قريش مُنذِرًا ومُتوعِّدًا ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿

دقائق التفسير

﴿صَّ﴾ من الحروف المُقطَّعة، وقد فصلنا القول فيها أول سورة البقرة.

﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ يُقَسِّمُ الله بكتابه المجيد مُبَيِّنًا غَايَتَهُ الْكِبْرَى في تذكير الناس بما هم غافلون عنه من حقيقة الحياة والموت، والحساب والجزاء.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾ (بل) تفيد الإضراب، ومعناها هنا: إبطال ما قد يتوهمه القارئ أو السامع من استفادة أهل مكة من هذا الذكر وقد نزل بين ظهرائهم، فهم بعيدون عن ذلك؛ بسبب اعتزازهم بكفرهم، وعداوتهم لنبِيِّهم.

﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وليس الوقت وقت مَهْرَبٍ حيثُ حَلَّ الهلاك بهم.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ هو تعجُّب بمعنى الإنكار والاستغراب؛ حسدًا من عند أنفسهم وتكبرًا.

﴿عَجَابٌ﴾ غايةٌ في العجب والغرابة.

﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ هم أشراف قريش.

﴿أَنْ أَمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ﴾ فيها معنى العناد والمطاوله والمُضَيِّ في طريق الشرك ومحاربة الوحي.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾ أي: إِنَّ هذه الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ لَشَيْءٌ يُرَادُّ منه أمرٌ آخر، وهو انقيادنا إليه، وخضوعنا لحُكمه ومُلْكِهِ، بمعنى أَنَّهُمْ يُشَكِّكون في غاية النبي ﷺ ودعوته.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: الذي يقوله محمد ﷺ.

﴿فِي آيَةِ الْآخِرَةِ﴾ في آخر ما عهدناه من الدين، ويقصدون به هنا الدين الموروث عن آبائهم.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلَقٌ﴾ أي: ما هذا إلا كَذِبٌ.

﴿بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ بمعنى أَنَّهُمْ يتناولون كُلَّ هذا التطاول؛ لأنَّهُمْ يظنون أَنَّهُمْ في سَعَةٍ من أمرهم، ولا يعلمون أَنَّ العذاب بانتظارهم، و﴿لَمَّا﴾ تُفِيدُ نفي الماضي مع توقع حصول ما نفته، كأنه يقول: إنَّهُمْ لم يذوقوا العذاب بعد، لكنَّهُمْ سيدوقونه.

﴿أَمْرٍ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ سؤال استنكاري، بمعنى: هل هُم مَن يملك خزائن رحمة الله لكي يُقَرِّروا مَن يختارونه للنبوَّة وَمَن يستبعدون؟

﴿فَلَا يَرْشُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: فليصعدوا في السماء إذا كانوا يملكون من أمرها شيئًا.

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: ليس هؤلاء المُكذِّبون سوى جُنْدٍ مُجْتَمِعِينَ

لنصرة الباطل، كالأحزاب الذين كانوا من قبلهم مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وأنهم مهزومون كما هُزم من قبلهم، وهذه بشارة بهزيمة المشركين، وقد تحققت في بدر إلى فتح مكة.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ تفصيل لمعنى الأحزاب الواردة في الآية السابقة، وتشبيه لمشركي قريش بهذه الأقوام.

﴿وَمَا يَنْظُرُهُمْ ظُلُمْلَاءٌ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ مَا لَهُم مِّنْ فَوَاقٍ﴾ الصيحة: نوع من العذاب الماحق الذي نزل على بعض الأحزاب، وتخويف قريش به جارٍ على مجرى الاستحقاق، بمعنى أنهم يستحقون مثل هذه الصيحة، وليس هذا إخباراً من الله؛ لأن خبر الوحي لا يتخلف. ويحتمل أنه تذكير بالساعة ونفخة الصور التي ستُنهي هذه الحياة، كأنه بعد أن توعدّهم بالهزيمة في بدر وما بعدها، أخذ يُذكّرهم بالعذاب الأكبر.

والفَوَاق: وقتٌ محددٌ يعرفه العرب، وهو ما بين حَلْبَتِي الناقة، والمقصود أن العذاب إذا نزل بالمشرّكين فليس فيه مُهلة للتأخير ولا لتدارك الأمر.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي تُهدّدنا به، والظاهر أنهم يقولون ذلك استهزاءً وتكديباً وتحدياً؛ ولذلك جاء التوجيه القرآني عقب قولتهم هذه: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسِيحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ١٨ وَالطَّيْرَ تَحْشُرُهُ كُلُّ لَهُ ١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ٢٠ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا إِلَى الْحَرَابِ ٢١ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ٢٢ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِيَ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُوَالُ نَجْمِكَ إِلَيَّ يَأْجِيهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْخِلَاطِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ٢٥ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ٢٦ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ٢٧ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ٢٨ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَسْتَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ٢٩ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِجَادُ ٣١ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٣٨ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٩ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ٤٠ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ٤١ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ٤٤ وَاذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٤٥ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ٤٧ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ٤٨ ﴿

ومضات من قصص النبيين

يأتي التذكير بنماذج من القصص النبوي في هذا السياق؛ تسلياً للنبي الكريم ﷺ الذي يواجه في مكة ما واجهه الأنبياء السابقون مع أقوامهم، وفي النماذج أيضاً توسعة لدائرة الخبرة لدى المؤمنين، وفتح آفاق جديدة واحتمالات متعددة لطبيعة الصراع ومآلاته، وكما يأتي:

أولاً: بدأ القرآن بقصة داود عليه السلام، مُستهلًا القصة ببيان كَلِّ للحكمة من هذا القصص: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

وجمع له هنا صفتين عظيمتين: الأيد، وهي القوة، والأوَّاب، وأصلها كثير الرجوع، ومعناها: كثير الرجوع إلى الحق والتمسك به، ومحاسبة النفس وإلزامها بطاعة الله، وهما صفتان تكمِّل إحداهما الأخرى؛ فالقوة تحمي الحق وتمكِّنه، والحق يَهْدُبُ القوة ويضعها في مكانها الصحيح، وذكرهما في هذا السياق توجيةً للنبي الكريم ﷺ لاستحضارهما في مواجهة الباطل الذي يُحيط بدعوته في مكَّة وما حولها، بمعنى أن الأمة المسلمة ينبغي أن تعدَّ العُدَّة لهذه المواجهة ولحمل الدعوة والتمكين لها، والله أعلم.

ثم ذكر إكرام الله ﷻ له: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾.

والغاية من ذكر هذه النعم: البشارة لسيدنا محمد ﷺ ولأصحابه الأبرار رضي الله عنهم بالنصر والتمكين، والإشارة بهذه البشارة مأخوذة من صدر هذه القصة: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، والله أعلم.

ثم عرَّج القرآن على مشهدٍ مُحدِّدٍ في حكم داود عليه السلام، خلاصته: أن خصمين دخلا على داود يحتكما إليه، ففضى بينهما ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝١١ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً وَلِيَ نَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْعِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَنَا عَبْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّثَابٍ﴾.

والمشهد فيه عبرة كبيرة لمعالجة ما يطرأ بين الشركاء والأقربين من منازعات ومنافسات،

وقد أضافت بُعدًا آخر لرسالة الأنبياء ﷺ، وهو البُعد المتعلق بإدارة الجماعة المؤمنة وحلّ مشاكلها الداخلية بالقسط والعدل، وكما أنّ مُواجهة الكفر والباطل فيه اختبارٌ للمؤمنين ولصلابة إيمانهم، فكَذلك الحكم بالعدل بين المؤمنين أنفسهم فيما يختصُّمون فيه؛ ولذلك عَقَّبَ القرآن على هذا المشهد بقوله: ﴿وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾.

ولا يبعد أيضًا أن يكون في هذا المشهد تأديبٌ من الله لنبيِّه داود ﷺ في دقائق حكمه مما لم يشأ القرآن أن يُقَحِّمَنَا فيه؛ لأنَّ الحكمة أكبر من تلك التفاصيل، فينبغي الوقوف عند هذا. أمّا ما تنقله بعض كتب التفسير من قصصٍ طويلةٍ عريضةٍ، وافتراضاتٍ لها أوّل وليس لها آخر، فكلُّ هذا لم يثبت في كتابٍ ولا في سُنَّةٍ صحيحةٍ، وغالبه نُقُولٌ عن كتب اليهود وأخبارهم مما لا يصحُّ الاستدلال ولا الاستشهاد به، وبعضها مُسَيءٌ لمقام الأنبياء ﷺ مما لا يتناسب إلّا مع عقائد اليهود ونظرتهم إلى أنبيائهم التي تُجَوِّزُ فيهم ما لا يجوز على آحاد البشر وعامتهم.

ثم ختم القرآن قصّة داود ﷺ بهذا التوجيه الحاسم: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

إنّها مسؤوليّة الحاكم فيما استرعاه الله من رعيّةٍ، وفيما حمّله من أمانة، والخطاب وإن كان مُوجَّهًا إلى داود ﷺ، لكن المقصود به توجيهًا وتكليفًا كلّ من تولّى مسؤوليّة عامة، وأعطاه الله سُلطة الحكم بين الناس، والله أعلم.

ثانيًا: بعد قصة داود شرع القرآن بذكر قصة سليمان ﷺ، وهي قصّة في الحكم والمُلْك أيضًا، وكان في هذا كلّ تمهيدًا للمُلْك الذي سيمنحه الله لنبيِّه محمد ﷺ ولأُمَّته. تستهلُّ قصة سليمان ببيان أنّه من نعم الله على أبيه داود، وأنّه قد ورث عنه صفاته الحميدة كما ورث عنه الحكم ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ثم تُعرَّج القصة على مشهدين اثنين: الأول مُتعلِّق بمظهر من مظاهر القوة والملك؛ حيث عُرِضَتْ عليه خَيْلُهُ، وهي التي رُبَّمَا لَا تُحْصَى عِدْدًا، فأخذ يَمَسِّحُ بِأَعْنَاقِهَا وَسِيقَانِهَا حُبًّا لَهَا، واعتزازًا بِهَا، وهو في هذه الحال يَتَذَكَّرُ أَنَّ هذا الخير الذي عنده ينبغي أَنْ لَا يَشْغَلَهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ؛ فالموازنة بين الملك والعبادة، أو بين القوة والمحاسبة - كما مرَّ في صفة أبيه داود - شرط في الحكم الرشيد.

وقوله: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ﴿١﴾ هو من صميم صفة الأواب، بمعنى أَنَّهُ كثير الأوب إلى الله، كثير المحاسبة لنفسه.

أما ما ورد من أَنَّهُ ذبح كُلَّ هذه الخيول عقوبةً لنفسه لَأَنَّهُ كَانَ قد فَاتَهُ وقت صلاةٍ بسبب انشغاله بالخيول، فهذا لَا يستقيم في ميزان الشرع، وفي فقه الحكم والملك، فالخيول هذه لها وظيفتها في حماية البلاد التي يحكمها، وَقَتْلُهَا لغرض التفرُّغ للذكر والعبادة ليس واريءًا، والله أعلم.

أما المشهد الثاني، فقد لَخِصَّتْهُ آية: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ ﴿٢﴾ وأقرب ما ورد في هذا: أَنَّهُ ﷺ عَزَمَ على أَنْ يَأْتِيَ زَوْجَاتِهِ لِيَلِدْنَ لَهُ أولادًا يُعِينُونَهُ في الملك، وَيُمَاتِلُون في سبيل الله، فشاء الله غير ذلك، فلم يكن له إِلَّا سَقَطُ ليس فيه رُوح، وفي هذا تأكيدٌ لوحدانية الله في الخلق، وَأَنَّ العبد مهما بَلَغَ من المنزلة عند الله، ومهما أعطاه الله من الملك والقوة فَإِنَّ الملك الحقَّ لله وحده.

وقد أخرج البخاري حديثًا في هذا، وإن لم يأت في معرض تفسير هذه الآية، لكنَّهُ الأَقْرَبُ في تفسيرها^(١)، والله أعلم.

(١) نفس الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ ﷺ: لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ - أَوْ نِسَةٍ وَنِسَمَيْنِ - كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِقَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنَّ شَاءَ اللَّهِ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ شَاءَ اللَّهِ، فَلَمْ يُجَاهِدْ بِتَنْهَنُ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرَسَاتًا أَجْمَعُونَ».

بعد هذا الدرس العميق في التوحيد، لجأ سليمان ﷺ إلى ربه يسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وهو سؤال العبد الأواب المتواضع لربه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ فأعطاه الله الملك الواسع، وسخر له الكائنات التي لم تُسخر لسواه ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَقَابٍ﴾. وهنا إشارة عظيمة وعميقة أيضاً: أن إخلاص العبودية لله لا يُعارضه طلب الملك، على خلاف ما يتوهمه بعض المتدينين في مفهوم العبادة والزهادة.

ثالثاً: انتقل السياق إلى نموذج آخر مختلف تماماً عن النموذجين السابقين، إنه النبي الذي لم يُبتَل بالحكم والملك، وإنما ابتلي بالمرض والفقر ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فاستجاب له ربه بكشف الضر، ومزيد العطاء: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. ثم يَسَّرَ عليه في شأن زوجته التي كانت قد أغضبته في أمر ما، فحلف أن يضربها عدداً، وكانت امرأته بارّة به، صابرة معه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ، وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وفي هذا تسليّة لرسول الله ﷺ، وبشارة برفع الضر عن المستضعفين من المؤمنين في مكة.

رابعاً: ثم ذكر القرآن بعدد من الأنبياء ﷺ يتقدمهم سيدنا إبراهيم؛ لما له من خصوصية في هويّة الأئمة المسلمة، إضافة لمكانته الدينية والتاريخية بين الأنبياء جميعاً: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ

والحديث مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، يُنظَرُ: صحيح البخاري (٣/ ١٠٣٨) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-
 ١٩٨٧م)، وروى هذا الحديث في عدة مواضع من الصحيح، وصحيح مسلم (٥/ ٨٨) دار الجيل - مصورة من الطبعة
 القرطبية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

وَأَسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ ﴿١٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿١٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٨﴾.

دقائق التفسير

﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ صاحب القوة، والأيد من الفعل آدَ وآيَدَ، ومنه التأيد، ولا يمنع أيضًا أن يكون جمع يد بحذف الياء، وهو جمع مجازي بمعنى القوة الكثيرة، ويُعَضَّدُ هذا قوله عن الأنبياء الآتين ﷺ: ﴿أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ، يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴿١٩﴾ في تسخيرهما معنى مضاف غير التسبيح؛ إذ التسبيح كائن قبل داود ﷺ وبعده، ولعلَّ خصوصيته كانت بسماحه لهذا التسبيح، واستثناسه به، ولا يمنع أيضًا أنها سُخِّرَتَا له لتحصيل منافعهما، وكان هذا مُقْتَرِنًا بتسبيحهما وخضوعهما لناموس الله الذي وضعه فيهما.

والعشي: آخر النهار، والإشراق: أوله، وقوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ أي: مجموعة له.

﴿كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مُسَخَّرٌ معه وراجع إليه.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قَوَيْنَاهُ وَثَبَّنَاهُ.

﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ قُوَّةَ الْحُجَّةِ وَبِرَاعَةَ الْأَسْلُوبِ.

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْحَرَابَ﴾ دخلوا عليه في مكان عبادته دون استئذان بعد أن تسوَّروا الجدار المحيط بمحرابه، وهو سلوك غير مُعْتَاد بالنسبة للملوك، وداود كان ملكًا، من هنا مأل بعض المفسرين إلى القول بأنَّهما من الملائكة، وهذا مُشْكِلٌ أيضًا؛ لأنَّ الملائكة لا يحتاجون إلى تسوُّر الجدار، والملائكة لا شأنَ لهم بالنعاج، والاسترسال في هذا التأويل يقود إلى نفي القصة واعتبارها مثالًا افتراضيًا لا غير، وهذا خلاف الظاهر من الخبر.

والأقرب: أن داود كان في مكان عبادته وليس معه حَرَسُهُ، وربما كان هذا المكان ليس داخلًا في قصر الحكم، فتَسَنَّى لهذين الرجلين أن يدخُلَا عليه بهذه الطريقة، والله أعلم.

﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي: إلى الصراط السوي المستقيم.

﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي: ضُمَّهَا إلى غَنَمِي واجعلها في مُلْكِي، ولم يذكر هنا مُسَوِّغًا لهذا الطلب، ربما لأنَّ المقصود: إظهار حالة الطمَع لدى بعض الشركاء، دون النظر في التفاصيل.

﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غَلَبَنِي واستضعفني.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَى نَعَايِهِ﴾ حَكَمَ بينهما بما أراه الله، وبما هو الظاهر من حالهما، والقرآن هنا لم ينقل البيِّنة وطريقة الإثبات، وداود عليه السلام لا يمكن أن يحكم من غير بيِّنة، ولكنه الإيجاز القرآني الذي لا يَسْتَرِسلُ بنقل الأحداث كاملة كما هو شأن التاريخ، وإنما يكتفي بنقل موضع الشاهد، والله أعلم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ تنبيهٌ لذوي العلاقات الماليَّة والتجاريَّة بالتزَّه عن البغي والظلم.

﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ واستغفار الأنبياء لا يلزم منه الوقوع في المعصية، وإنَّما هم في استغفارٍ دائمٍ، وهذا من جميل أدبهم مع الله، وهذا دأب الصالحين أيضًا؛ استِشعار التقصير بسببٍ وبدون سبب، خاصَّةً فيمَن يلي ولايةً عامَّةً فيها حقوق الخلق، وهو إنَّما يحكم بظاهر الأمر، من هنا كان الاستغفار أُوْلَى، وكان الشعور بأنَّ هذا المُلك إنما هو اختبار وامتحان ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ وهذا من تمام أدبه وتعبُّده لله تعالى.

ولا يمنع أيضًا أنه فهمَ من قصة الرجلين المُختصمين شيئًا يتعلَّق بحكمه وإدارة مُلكه، يستوجبُ المراجعة، يُعَضِّدُ هذا قوله تعالى في الآية التالية: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ وهذا من تمام وصف الله له بأنه: ﴿أَوَّابٌ﴾.

أما ما تتناقله بعض كتب التفسير من تفسير النعاج بالنساء، واتهام سيدنا داود بها لا يليق بأحاد الخلق، فهو من أباطيل القصص الإسرائيلية التي لا تثبت سندًا، ولا تصحُّ عقلاً.

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خليفة الله في إنفاذ حكمه تعالى في الخلق بإبطال الباطل، وإحقاق الحق، والاستقامة على الصراط السوي ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فالحكم في الإسلام إنما هو لله، وما الحاكم إلا منفذ لحكم الله وليس مُشرِّعًا، وبهذا يتنزه نظام الحكم في الإسلام عن الهوى والتعصب وتغليب المصالح الشخصية أو الحزبية، وهذا كله مرتبط أيضًا بفلسفة الخلق الكلية ومقاصده الكبرى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فالإنسان مُكلف بإدارة الأرض على منهاج خالقها ومُبدعها من العدم سبحانه، ومالك مقاديرها وأقواتها وأرزاقها وكل من فيها وما فيها.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نفْي لنظرية العبث في تفسير الخلق، وهي نظرية قديمة جديدة، تتخذ في كل عصر لونا مختلفًا، ويجمعها القول بنفي وجود القصد والغاية في هذا الخلق، وإحالة كل هذا النظام الكوني البديع إلى عشوائية الصدفة، وعبثية الطبيعة الصماء البكماء، وقد جاء هذا الردُّ في سياق الحديث عن خلافة الله في الأرض؛ لتأكيد أن مقاصد الخلق إنما تتحقَّق بهذا الاستخلاف.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ بمعنى أن الذين يُنفذون حكم الله، ويسيرونها في الأرض على منهج الله هم الذين يُصلِحونها ويُعمِّرونها، بخلاف أولئك الذين يظنون أن الحياة عبثٌ، وأن وجود الإنسان صدفة.

﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ﴾ تنبيهٌ إلى ضرورة التدبُّر، وأن هذا القرآن إنما أنزل ليفهمه الناس حق فهمه، لا ليتبركوا بتلاوته من غير علم ولا فهم، والسياق يُشير إلى

أَنَّ فَهْمَ الْقُرْآنِ شَرْطٌ فِي تَحْقِيقِ الْاِسْتِخْلَافِ الْحَقِّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

﴿الصَّافِنَتُ﴾ صورة للخيل وهي تقف على ثلاثٍ وطرف حافر الرابعة، كأنها تتأهب للانطلاق، وهي صورةٌ جماليةٌ تُحبَّبُ الخيولَ إلى أصحابها، خاصَّةً إذا كانت مجتمعة ومتوجَّهةً وجهةً واحدةً، وهو معنى آخر للصافينات.

﴿الْجِيَادُ﴾ جمع جواد، وهو الفرس ذو الجودة في شكله وبراعته.

﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني: أَحْبَبْتُ هَذِهِ الْخَيْوَلِ الْجِيَادَ، وَانْشَغَلْتُ بِهَا عَنْ ذِكْرِ رَبِّي.

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي: اخْتَفَتْ الشَّمْسُ وَرَاءَ الْأَفْقِ، هُوَ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى الْعِشِيِّ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي عُرِضَتْ فِيهِ الْخَيْلُ لِسُلَيْمَانَ ﷺ.

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ يُخَاطَبُ سَاسَةُ الْخَيْلِ أَنْ يُرْجِعُوْهَا إِلَيْهِ.

﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَغْنَاكِ﴾ كَعَادَةِ صَاحِبِ الْخَيْلِ الْمُحِبِّ لَخَيْلِهِ وَالْمُعْتَنِ بِهَا، وَالسُّوقُ: جَمْعُ سَاقٍ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ اخْتَبَرْنَاهُ.

﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ سِقْطًا بِلَا رُوحٍ، وَكَانَ قَدْ تَمَنَّى أَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ بَعْدَ مِنْ الْأَبْنَاءِ الْأَشْدَاءِ بَعْدَ أَنْ طَافَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى عَدَدٍ مِنْ نِسَائِهِ.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أَيْقَنَ أَنَّ الْخَلْقَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ لَا يُغْنِي عَنْ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَاللَّجْوَاءِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ وَلَيْسَ اسْتِغْفَارُ الْأَنْبِيَاءِ يَسْتَلْزِمُ وَقُوعَ ذَنْبٍ مِنْهُمْ، بَلْ هُوَ مِنْ أَدَبِهِمْ مَعَ اللَّهِ ﷻ.

﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَلَا زَمَ دُعَاؤُهُ أَنْ لَا يَكُونُ مَعَهُ فِي حَيَاتِهِ أَيْضًا مِنْ يُنَازِعُهُ الْمُلْكَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَعْنِ بِالْمُلْكِ مَا هُوَ مَعْهُودٌ مِنْ أَمْرٍ

الدنيا؛ إذ هذا مخترق بكثير من الملوك الذين ملكوا بعده، فكان ملكهم أوسع من ملكه، وما هو مُشاهدٌ اليوم أيضًا من اعتِضاد الملك بأنواع السلاح المتطور، والصناعات الحديثة، والعلوم المختلفة التي لم تكن على عهد سليمان.

والأقرب أنه يعني نوع الملك؛ حيث كان ملكًا مبنياً على خوارق العادة، وتسخير الجن لخدمته، وهذا على خلاف سنة الله في الكون، ومن ثمَّ كان هذا الدعاء بمثابة الاستثناء المؤقت لغاية يعلمها الله، ثم يعود الملك إلى ما هو معهود في عالم السنن والأسباب والنواميس الكونية.

ويُعضد هذا الفهم ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ عِفْرِينَا مِنَ الْجِنِّ تَقَلَّتْ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فَرَدَّ اللَّهُ خَاسِتًا»^(٢).

بينما وردت أحاديث أخرى تُبشِّرُ بانتشار الإسلام وخضوع الأرض لحكمه بما هو أوسع من ملك سليمان، ولكن بالسنن الكونية وليس بالخوارق والمعجزات، من ذلك حديث مسلم: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»^(٣).

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: تُطيعه حيثما أراد.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ يعملون له في البر والبحر.

﴿وَبَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: مُقيدين بالسلاسل.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٣ / ١٢٦٠ / دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧ م).

(٣) رواه مسلم عن ثوبان رضي الله عنه، ينظر: صحيح مسلم (٨ / ١٧١ / دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح محمد بن عبد الله من المحققين).

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ أي: الملك الذي خصَّ الله به سليمان، وهو - كما ترى - مُلكٌ يقوم على الخوارق؛ من تسخير للريح، وتسخير للجنِّ، فهذا هو الذي لا يكون لأحدٍ من بعده، والله أعلم.

﴿فَأَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بمعنى أن هذا الملك مُسَخَّرٌ لك تتصرَّف فيه عطاءً ومنعاً، بتحويلٍ من الله من غير تحديد أو تقييد.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ لقُرْبَى من الله.

﴿وَحُسْنِ مَتَابٍ﴾ حُسن العاقبة، وهي الجنة.

﴿إِنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ معلومٌ أن بلاء أيوب عليه السلام كان في جسده وفي أهله وماله، ونسب ذلك إلى الشيطان؛ تأدباً مع الله، وإلا فإنَّ كلَّ ما وقع عليه إنما هو ابتلاءٌ من الله تعالى، والله يبتلي عباده بما يشاء، كما قال في سورة الأنبياء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، والنسبة إلى الشيطان فيها تواضعٌ مع الله، واتِّهامٌ للنفس، كأنه يقول: إنَّ ما أصابني كان بسبب ذنبي الذي أوقعني فيه الشيطان.

أما توهُم أنَّ الشيطان قادرٌ على إحداث كلِّ هذا البلاء، فضلاً عن أن يكون هذا في نبيٍّ من الأنبياء، فهو توهُمٌ باطلٌ لا شكَّ في بطلانه.

﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ قُمْ واضرب الأرض برجلك، وفيه الإشارةُ إلى الأخذ بالأسباب، وتجديد الهمة والعزيمة.

﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حيث أجرى الله له نبعاً من الأرض بضربته هذه؛ ليغتسلَ به، ويشربَ منه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ ردَّ عليه أهله بعد أن اعتزلوه لمَرْضِهِ، ثم بارَكَ فيهم وكثَّرهم.

﴿ وَخَذَ بِيَدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرَبَ بِهِ، وَلَا تَحْتَثُّ ﴾ الظاهر أنه ﷺ كان قد حَلَفَ أن يضرب امرأته عددًا من الضربات على أمرٍ أغضبته فيه وهو في مرضه، وكانت امرأته صابرةً معه في محنته، فرجَّه الله - رُخصةً له، ورحمةً بامرأته - إلى أن يأخذ حزمةً من الأعواد الرقيقة بعددِ حلِفِه فيضربُ بها؛ ليبرَّ بيمينه دون أن يؤذي امرأته.

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ إشارة إلى علاقة الصبر بالفرج وتنفيس الكرب، مع ما في الآية من عظيم المدح لأيوب ﷺ، وكأن الله اختاره ليكون مثالًا يُحتذى في الصبر لكل مُبتلى.

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ أراد بالأيدي: القوة، وبالأبصار: العلم والبصيرة، وهما صفتان تُكمل إحداها الأخرى؛ إذ القوة من غير علم تحبُّط وقسوة وظلم، والعلم من غير قوَّة ضعف وتشتت وضياع.

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ يعني أن الله منحهم الإخلاص والتجرُّد لعمل الآخرة، واستحضارها في كلِّ شأنٍ من شؤونهم، وعملٍ من أعمالهم.

﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ ﴾ أي: لمن المُختارين الذين اختارهم الله، فكانوا من صفوة عباده.

﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ وإسماعيل هو ابن إبراهيم الذي فداه الله بذبحٍ عظيم، وأما اليسع وذو الكفل فهما من الأنبياء بدلالة السياق، غير أن القرآن لم يُفصِّل لنا أخبارهما، فينبغي الوقوفُ عند هذا، والله أعلم.

وفائدة ذكر هؤلاء الأنبياء: تأكيد الصِّلة بين كلِّ هذه الرسالات؛ لأنها من مصدرٍ واحدٍ، ولغايةٍ واحدةٍ.

نهاية الحياة والمصير المحتوم

أولاً: يبدأ القرآن بالصورة المُشرِقة والمستبشرة لعباد الله المؤمنين الذين اجتازوا هذا الامتحان الكبير، وفازوا بمرضاة الله تعالى ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآثٍ ﴾ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿ ٥٠ ﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿ ٥١ ﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ

أَنزَابُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾.

ثانيًا: يعرض القرآن الصورة الأخرى؛ الصورة المظلمة القائمة لأولئك الطغاة المعاندين ﴿٥٥﴾ هَذَا وَابْتَكَ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنسِفُهَا فَتًى ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾.

وفي هذه الصورة يعرض القرآن حوار الطغاة فيما بينهم وتلاؤمهم ﴿٥٩﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَاءَ بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَاءَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنسِفُ الْقَرَارُ ﴿٦١﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴿٦٣﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ﴿٦٤﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضِعُ أَهْلُ النَّارِ ﴿٦٥﴾.

ثالثًا: يؤكد القرآن الغاية من بعثة الرسل، وأتهم إنما يُبلِّغون رسالة الله، ويُذكرون الناس بما هم عنه غافلون، يُذكرونهم بأجلهم المختوم ومصيرهم المحتوم ﴿٦٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٧﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٨﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٩﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٧٠﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧١﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٢﴾.

ثم يؤكد نزاهة الرسول ﷺ عن أي غرض دنيوي، وإنما هي الأمانة والحرص على هدايتهم، وجلب الخير لهم، وإقامة الحجة عليهم ﴿٧٣﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٧٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٧٦﴾.

رابعًا: يذكر القرآن بقصة الخلق الأولى، وبعداوة إبليس المبكرة لآدم وذريته، وتعهده بالعمل على غواية البشر وحرفهم عن الصراط المستقيم ﴿٧٧﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٨٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ قَالَ يَتَابِلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ؟ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٢﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٨٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

دقائق التفسير

﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أي: هذا الذي يُتلى عليكم من القرآن فيه ذِكْرُكُمْ وتذكيرُكم.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ الْحَقُّ الْمُتَّقِينَ بالأنبياء في حُسْنِ العاقبة - وهي الجنة -؛ جزاءً لاتباعهم لهم وحُسن تَأْسِيهِمْ بهم.

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ ﴾ تفسيرُ حُسْنِ الْمَآبِ.

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنْزَابٌ ﴾ الْحُورُ الْعِين، وقاصِرَاتُ الطَّرْفِ أي: من الحياء، والأُنْزَاب: الأقران من سنٍّ واحدة، فليس فيهنَّ الصغيرة التي لا تعقل، ولا العجوز التي لا تُرْغَب.

﴿ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُمِنْ نَفَادٍ ﴾ أي: ما لَهُ مِنْ انقطاع.

﴿ هَذَا وَابٌّ لِلطَّاغِينَ لَشَرِّ مَآبٍ ﴾ شَرُّ مَرَجِع، والمقصود به: النار وسوء القرار.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ تفسيرُ لَشَرِّ مَآبِ.

﴿ فَيَنسِلُ لِمِهَادٍ ﴾ شَبَّةُ النَّارِ التي تَلْفَهُمْ بالفراش الذي يَحْتَضِنُ النَّائِم.

﴿ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ الْحَمِيم: الماء الحار، والغَسَاق: سَائِلٌ كَرِيهٌ، قيل: إِنَّهُ يَتَجَمَّعُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿ وَآخَرِينَ شَكْلِهِمْ أَنْزَجُ ﴾ أي: وعذاب آخر بأصناف عديدة.

﴿ مَذَاقُجٌ مُنْتَجِمٌ مَعَكُمْ ﴾ أي: داخل جهنم معكم، والاقْتِحَامُ فِيهِ مَعْنَى الزَّحَامِ وَالشَّدَّةِ.

﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أي: غير مُرْحَبٍ بِهِمْ، وَأَصْلُ الرَّحْبِ: السَّعَة، وهذا قولُ أَهْلِ النَّارِ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ وَلِذَلِكَ رَدُّوا عَلَيْهِمْ: ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾.

﴿أَنْتُمْ قَدْ مَشُوهُوا لَنَا﴾ هذا قول الأتباع لقادتهم؛ لأنهم كانوا السبب في غوايتهم وإيرادهم هذا المورد الأليم.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾
هذا مشهد آخر يُضيف إلى مشاهد الحسرة والعذاب لونا مُختلفا؛ فهناك عندما كانوا في الدنيا كانوا يسخرون من المؤمنين ويعادونهم، ويظنون أنهم أشرار وفُجَّار بحسب مقاييسهم المعوجَّة، ثم هم لا يرونهم اليوم في هذا العذاب!

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: القرآن وما فيه من وعدٍ ووعدٍ.

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تأكيدُ لربَّانيَّة الإسلام، وأنه وحيٌ خالصٌ من الله، وأنَّ كلَّ ما جاء في القرآن الكريم من أخبارٍ غيبيةٍ فإنَّ النبي ﷺ لا شأن له بها سوى تبليغها عن الله كما أُوحيت إليه.

والاختصاص المذكور في الملاء الأعلى جاء تمهيدا لقصة آدم الآتية؛ حيث كان هناك حوارٌ بين الله تعالى وملائكته، وكانت هنالك خصومة من إبليس برفضه السجود لآدم ﷺ.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، أَتَمَّمْتُ خَلْقَهُ.

﴿وَفَقَحْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ الروح هنا مُضافة إلى الله من باب إضافة الصَّنعة إلى صانعها؛ فالروح مخلوقة لله، كما نقول: أرض الله، وسماء الله، وليست هي صفة قائمة في ذات الله ولا جزءا منه، تنزه الله عن مُشابهة خلقه، وتعالى علواً كبيراً.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٢﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ بيان أنَّ التكبر هو سبب المعصية التي هلك بها إبليس، وفي هذا درسٌ للمتكبرين، و﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنَّه ليس من جنس الملائكة، بل هو من الجنِّ، وإن كان مشمولاً معهم بالسجود.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ مع أنَّه لا يُنكر وجود الله ولا ربوبيَّته وألوهيَّته، لكنه أعلنَ مُحالفته لأمره لا عن غفلةٍ ونسيانٍ، بل عن تكبرٍ وطغيانٍ، وهذا درسٌ آخر للذين يؤمنون بوجود الله

ثم يرفضون الاحتكام إلى شريعته.

﴿ قَالَ يَبْنَيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي ۖ ﴾ أي: من غير واسطة ولا سبب ظاهر، بخلاف ذريته التي خلقها من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغه، ومثل هذا قوله تعالى في خلق الأنعام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]، ولا يبعد عن هذا قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وفي سياق خلق آدم إضافة معنى التشریف والتكريم؛ إذ جاء هذا في مقام تأنيب الله لإبليس، كأنه يقول له: كيف لا تسجد لمن خلقته بيدي، وقد أمرتك بالسجود له؟ ولا شك أن هذا المقام مقام مدح لآدم ﷺ.

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ هذه وقاحة وحمافة من إبليس؛ فهو من ناحية يُقر بأن الله هو الذي خلقه وخلق آدم، ومن ناحية أخرى كأنه يريد أن يعلم الله بموازن التفاضل بين العباد!

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: أخرني إلى يوم القيامة.

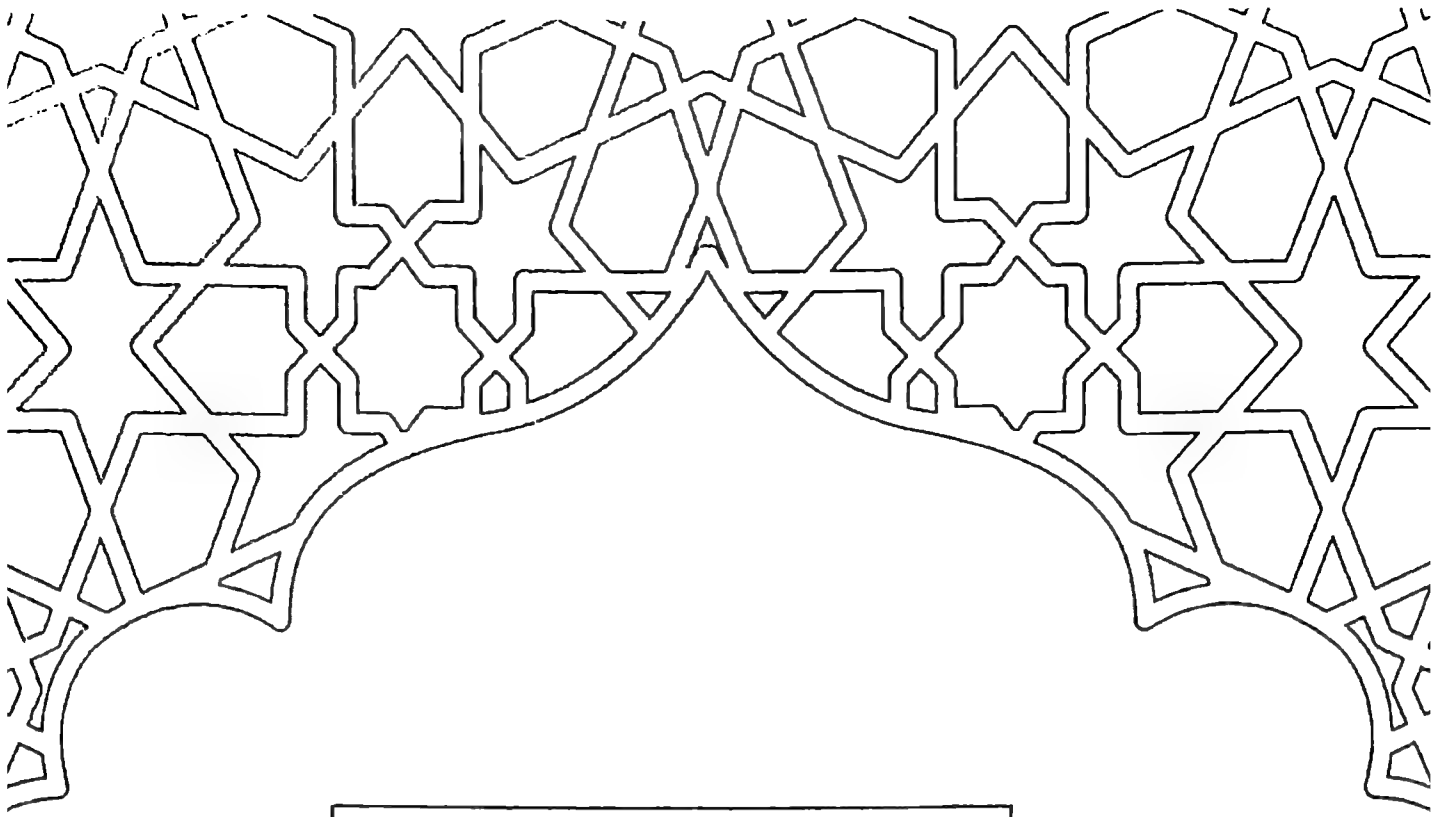
﴿ قَالَ فِعِزَّنِكَ لَأَعْوَبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هذه وقاحة أخرى؛ إذ أقسم بعزة الله أن يغوي عباد الله

عن طاعة الله!

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي: الذين اصطفاهم الله وحصنهم من الشيطان.

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ لأن دعوته ﷺ دعوة ربانية خالصة، لا مطمع فيها سوى رضا الله والجنة، فهو لا يطلب أجراً من الناس، ولا يتكلف أشياء من نفسه فيضيفها إلى رسالة ربه، بل هو الوحي الخالص، والأمانة النقية التي يؤدّيها ﷺ كما تلقاها عن ربه ﷻ.

﴿ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ تأكيد لوعده ووعيده، فيوم الحساب آتٍ لا محالة؛ فمنهم إلى جنّة ورضوان، ومنهم إلى نارٍ وخسران.



سُورَةُ الزُّمَرِ

المجلس الرابع بعد المائتين: الدين الخالص

المجلس الخامس بعد المائتين: التمايز بين الحق والباطل

المجلس السادس بعد المائتين: أصحاب الجنة وأصحاب النار

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ أَلْيَدًا عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ عَلَى الْأَلْبَنَىٰ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ أَشْجَارِهِ زُطْرُفًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) إِنْ كَفَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) آمَنَ هُوَ قَتِيلٌ أَنَاءَ أَلْيَدٍ سَاجِدًا وَقَاسِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسَكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ (١٤) أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا نَذِيرٌ قُلْ لِيُخَوِّفَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٥) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٦) الَّذِينَ يَسْمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٧) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٨) لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْهُمْ لَمْ يُعْرِفُوا مِنْ قَوْمِهَا عُرْفٌ مُبِينَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ (١٩) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ خُثْلًا بِئِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢٠) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلنَّفْسِ فَتُؤْمِنُ مِنْ ذِكْرِ أَمْرٍ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢١) اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا فَنَشِعُرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٢) أَفَمَنْ يَلْقَىٰ يَوْجَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٣) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَالْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٤) فَإِذَا فَهِمُ اللَّهُ الْحَقْرَىٰ وَجَاءَ النَّبِيُّ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٥) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٦) قُرْآنًا عَرَبِيًّا عَزَازًا ذِي جَوَارِحٍ لَعَلَّهُمْ يَلْقَوْنَ (٢٧) شَرِبَ اللَّهُ مِثْلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

١٤٩

إخلاص الدين لله هو موضوع هذه السورة بشكلٍ عام، وقد تناولته هذه السورة من جوانب مختلفة، غير أنه في هذا المقطع جاء بطريقة مباشرة وصریحة، وبألفاظ مُتقاربة: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾، و﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، و﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾، و﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾.

وهذا الأصل العظيم لا يتحقق إلا بمنظومة إيمانية معرفية تربوية يُمكن استخلاصها من هذه الآيات، وكما يأتي:

أولاً: تأكيد مصدرية الدين الحق ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿ فالقرآن هو مصدر هذا الدين، وهو الذي يحمل دلائل صدقه في داخله، في بيانه وإعجازه، وقوة حجته، ودقة أحكامه وتشريعاته ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقْشَعُرْمِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وكل دين لا يستند إلى مصدر موثوق فهو دين مغشوش، تختلط فيه الأوهام بالحقائق، والعبادات بالمبتدعات، والأخلاق بالأمزجة والانفعالات، كما هو محسوس اليوم ومُشاهد في أنواع التدين المغشوش والمُحرّف.

ثانياً: التنبيه إلى مداخل الشرك والذي هو مناقض للدين الخالص ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿.

ففتنة المشركين لم تكن في إنكار الخالق، وإنما باتخاذهم الوسطاء والشفعاء من غير علم ولا إذن من الله، ثم عبدوا هؤلاء الوسطاء والشفعاء، ومنحوهم بعضاً من صفات الربوبية والألوهية، ومنهم من شطَّ بعيداً فنسب وسطاءه أبناء الله؛ كقول المشركين في الملائكة، وقول النصارى في عيسى عليه السلام؛ ولذلك ردَّ الله عليهم فريتهم هذه: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

ثالثاً: التنبيه إلى دلائل التوحيد الخالص وآياته تعالى الماثلة في هذا الكون ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً ۚ أَزْوَاجٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَرَّغَهُ مُّصْفًى ۚ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝

رابعاً: التنبيه إلى فطرة الإنسان المكنونة في داخله، والتي تشهد بالتوحيد الخالص كلما انقشعت غشاوة الظلمة، وانخلعت قشرة الغفلة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ۝

ومن هنا كان التحذير من قساوة القلب وكثافة الحُجب التي يصنعها الإنسان لنفسه فيُغطي بها فطرته ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝

خامساً: التذكير بأهمية العلم وفتح منافذ المعرفة لسماع الكلمة الطيبة، والموعظة النافعة، فإنما الجاهل من أخذَه الغرورُ حتى أغلق عليه سمعه وبصره ﴿أَمَنَ هُوَ قَنِيتٌ ۖ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤُا

الْأَلْبَبِ ﴿١٤﴾، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَبِ﴾.

سادساً: تقريب الصورة لهم بضرب المثل المحسوس والمناسب لإدراكهم، ولمجرى حياتهم ومعيشتهم ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

سابعاً: تأكيد أن الله غني عن العالمين، فهو لا ينفعه دين خالص، ولا يضره دين مغشوش، وإنما القضية قضيتنا، والحاجة حاجتنا ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ثامناً: التذكير بالعاقبة التي تنتظر الجميع، وكل بحسب ما عمل وما قدم، فأما الذين أخلصوا دينهم لله من غير شرك ولا غش ﴿قُلْ يَبْعَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمَّا عُرِفَ مِن فَوْقِهَا عُرْفٌ مُّبِينَةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

وأما الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى، وغشوا أنفسهم بالتدين الباطل، وبالتعبد المغشوش ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٥﴾ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده، يعباد فائثون ﴿أَفَمَنْ يَلْتَمِ يَوْجِهَهُ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٦﴾ كذب الذين من قبلهم فأنزلهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿١٧﴾ فأذاقهم الله الحزى في الآخرة الدنيا والعذاب الآخرة أكبر أوقا كانوا يعلمون ﴿١٨﴾.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ إعلان لوحداية الله ﷻ في الأمر والنهي، والعبادة والطاعة بحكم وحدانيته تعالى في الخلق والملك.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هم المشركون الذين اتخذوا أوثانهم آلهة مع الله بغير علم ولا إذن.

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ مقول لفعل محذوف تقديره: يقولون، والزُلْفَى: المنزلة القريبة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المؤمنين والمشركون.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي، فالكاذب الذي لا يصدق مع نفسه ولا مع ربه لن يهتدي إلى الحق، ولو كان صادقاً لاهتدى.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هذه الآية جاءت في مقام المحاجة، بمعنى أن الله لو أراد أن يتخذ ولداً، لاختار هو من خلقه ما يشاء لا ما تنسبونه أنتم له، وإنما أراد بهذه المحاجة مطالبتهم بالدليل على صحة ما نسبوه إليه سبحانه، فإذا لم يأتوا بالدليل فإنهم هم الكاذبون.

﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ تأكيد لوحدايته تعالى، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولد وإلى غير الولد.

﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ التكوير من الكورة، وهي الشكل الدائري، ومعناه: لف الشيء، كما تقول: كوّرت العمامة على رأسي، ومنه كور الغزل، وهو تشبيه دقيق لالتفاف الليل والنهار على الأرض، وهذا الالتفاف لا يكون إلا إذا كانت الأرض على شكل الكرة.

ولا شك أن هذا مما لم يكن معروفاً عند الناس، فهو من دلائل الصدق الجلية؛ حيث لا

يختلف اثنان اليوم من أهل الاختصاص على كُروية الأرض، وأن الليل والنهار يلفَّانها دائماً بحركة دائرية التفاضلية لا تتوقف.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذلَّلهما في هذا النظام الكوني البديع لغاية تناسب مع حياة الناس على هذه الأرض.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: كل هذه الأفلاك تسير في حركة دائمة، وكل في مداره الذي لا يختلط بمدار الآخر، حتى يأذن الله بانتهاء الحياة، وذلك هو الأجل المسمى.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي نفس أبينا آدم ﷺ، فكلنا لآدم، وآدم من تراب.

﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خلق أمتنا حواء من جسد آدم، وقد ورد في الحديث أنها خلقت من ضلع^(١)، وبهذا يكون جميع البشر الذكور والإناث ومن طرفي الأب والأم يرجعون إلى أصل واحد، ونفس واحدة، وهذا أساس لمبدأ المساواة في الإسلام، بخلاف الفلسفات والنظريات الأخرى التي تؤسس للتمييز العنصري ثقافة وسياسة.

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ زَوْجٍ﴾ هي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ثَمِينَةَ زَوْجٍ^ط

مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَحْنُوهُنَّ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤] والقرآن يُفسر بعضه بعضاً.

﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ مفسرة بآية الحج: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ

مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥].

(١) نص الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استَوْصُوا بِالنِّسَاءِ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَهْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقْبِمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»، ينظر: صحيح البخاري (٣/١٢١٢) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧ م).

﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظُلْمَةُ الْمَشِيمَةِ، وَتُحِيطُ بِهَا ظُلْمَةُ الرَّحِمِ، وَتُحِيطُ بِالرَّحِمِ ظُلْمَةُ الْبَطْنِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، وَأَصْدَقُ الْقَائِلِينَ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أَي: لَا تَحْمِلُ حَامِلَةٌ حِمْلَ غَيْرِهَا، وَالْمَقْصُودُ لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ إِمَامَ غَيْرِهَا.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوْلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى الْإِسْتِخْلَافِ، فَالْنِعْمَةُ الَّتِي بِيَدِ الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ مَلَكَهَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَئِنَّمَا هِيَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِخْلَافِ وَالتَّخْوِيلِ وَالِاخْتِبَارِ.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: نَسِيَ الضَّرَّ الَّذِي أَصَابَهُ وَكَانَ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى لِكَشْفِهِ. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أَي: تَمَتَّعْ بِمَا بَقِيَ مِنْ عُمرِكَ وَأَنْتَ مُلَازِمٌ لِلْكَفْرِ، وَالسِّيَاقُ لِلتَّهْدِيدِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ السِّيَاقُ لِلْمُقَارَنَةِ، بِمَعْنَى: أَذَاكَ الْكَافِرِ الْمُعَانِدِ خَيْرٌ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ لَهُ يَدْعُوهُ فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ؟ وَذَكَرُ اللَّيْلِ يُوحِي بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ وَالبُعْدِ عَنْ شَائِبَةِ الرِّيَاءِ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى الْمُقَارَنَةِ، وَفِيهِ تَفْضِيلُ الْعُلَمَاءِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَأَنَّ الْعِلْمَ طَرِيقٌ لِلْهُدَايَةِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ أَوْلَى بِالقُنُوتِ لِلَّهِ وَالْخُشُوعِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَكَّدَ كُلَّ هَذِهِ الْمَعَانِي بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَي: أَصْحَابُ الْعُقُولِ.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أَي: جَزَاءُ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ، وَالْجَزَاءُ بِالْحَسَنَةِ مُطْلَقٌ يَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛ فَفِي الدُّنْيَا: السَّكِينَةُ وَطَمَائِينَةُ الْقَلْبِ، وَأُخُوَّةُ الدِّينِ، وَالتَّمَكُّنُ فِي الْأَرْضِ بِشُرُوطِهِ الْمَعْلُومَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ: الْجَنَّةُ، وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ.

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً﴾ تَلْمِيحٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي مَكَّةَ بِالْهَجْرَةِ، وَذَكَرَ الصَّبْرَ بَعْدَهَا إِشَارَةً إِلَى يَلَاقُونَهُ مِنْ أَدْنَى عَلَى يَدِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمَّا سَيَّحَمَّلُونَهُ فِي الْهَجْرَةِ مِنْ غُرْبَةٍ وَبُعْدٍ عَنِ الْأَوْطَانِ.

﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بيان لمنزلة الصبر وعظيم جزائه عند الله، والسياق جاء في الصبر على الدعوة وتحمل أعبائها، وفضل الله أوسع وأعظم.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فرسول الله ﷺ هو الأول على طريق هذه الدعوة، من حيث السبق، ومن حيث الفضل، ومن حيث كونه الأسوة الحسنة، والمثل الأعلى لكل مسلم.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وحاشا لرسول الله ﷺ أن يعصي ربه، وإنما المقصود: تبيس المشركين من أي مطمع باستمالة ﷺ، وفيه تحذير للمؤمنين عن الفتنة ونكث العهد ولو في أمر من أمور الدنيا.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ تهديد للمشركين، وتأكيده لتحمل الإنسان مسؤولية خياره.
﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ بمعنى أن النار تُحيط بهم من كل جانب، وأصل الظلل: السحب.

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي: ذكر هذا العذاب إنما هو لغاية حمل الناس على الطريق الصحيح الذي فيه خيرهم دنيا وأخرى؛ ولذلك قال بعدها: ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي: إن هذا التخويف يُورث التقوى ويدفعُ باتجاهها.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الطاغوت من الطغيان، وأصله: مجاوزة الحد، والمقصود به هنا: كل معبود من دون الله.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ منهجية قرآنية نفيسة في التعامل مع المعلومات والأخبار وكل ما يتصل به الإنسان من معارف، وهذه المنهجية تُنمي حس النقذ والتحقيق والتمييز، وتحرر العقول من أغلال التقليد، وطرائق التضليل؛ ولذلك وصف الله هؤلاء بالعقل والهداية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾.

﴿لَمْ يَكُنْ مِنْ فَوْقِهَا حُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وصفت لغرفات الجنة التي أعدها الله للمتقين، والوصف يوحى بالأنس والجمال والحركة اللطيفة، وهذا الإيحاء يكفي؛ إذ لا مجال في العقل لإدراك كنه تلك الغرفات، أو تشكيل صورة مناسبة لها.

﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ﴾ أي: الذين تقشرو قلوبهم عند سماعهم القرآن؛ وذلك لفطرت تكبرهم وحسدتهم وكراهيتهم للحق الذي جاء به.

﴿كَتَبْنَا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ هو القرآن الكريم، يشبه بعضه بعضاً في تناسقه وتكامله وإعجازه وبيانه، ولتشابه آياته وتناسقها تجد المعاني فيها تُثنى وتكرَّر.

﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وهي حال من أحوال المؤمن الذي يقرأ القرآن أو يُصغي له؛ حيث يشعر بجلال الله وبيبة القرآن، ووقعه القوي في نفسه ووجدانه حتى يقشعر جلدُه خوفاً من الله، وتعظيماً لكلامه.

﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هذه حال أخرى؛ حيث يتحوّل القلب المستمر على تدبر القرآن من حال الرهبة إلى حال الأنس، ومن حال الخوف إلى حال الرجاء.

﴿أَفَمَنْ يَبْقَى وَجْهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يُواجهه مواجهة فلا يستطيع أن يدفعه عن نفسه إلا بوجهه، وهذا غاية العجز؛ إذ العادة أن الإنسان يحمي وجهه بيديه أو بيا تيسر عنده، لكن ذلك الشقي غلّت يداه، فلم يبق عنده ما يدفع به عن وجهه.

﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي، فإنما يحصد الحاصد ما زرع، ويأكل الجاني مما كسب.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ القرآن كلام الله نزل بلغة العرب، وهم حملته إلى العالمين، ولأنه كلام الله، فهو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الطريق السوي الذي لا عِوَج فيه، ولا غموض، ولا اضطراب.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ﴿ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لتوضيح الفارق بين المُوَحَّد والمُشْرِك؛ فالمُشْرِك يعبد آلهةً مُتعددة لا يجمعها جامع، ولا يربطها رابط، فهناك إلهٌ للخير، وهناك إلهٌ للشرِّ، وهناك إلهٌ للحرب، وهناك إلهٌ للجمال، وهناك أربابٌ بعضها فوق بعض، وبعضها أكبر من بعض، وهناك أوهامٌ متضاربة، وتصوراتٌ متناقضة عن الملائكة والجنِّ والنجوم والكواكب، والمُشْرِكُ غارقٌ في هذه الفوضى لا يدري من أين يأتيه الخير، ولا من أين يأتيه الشر.

بينما المؤمن المُوَحَّد لا يعبدُ إلا إلهًا واحدًا، مُعتقدًا على سبيل اليقين الجازم أنَّ الله سبحانه هو الذي خلقه، وهو الذي رزقه، وهو الذي خلق هذا الكون كله بلا مُعاونٍ أو مُعاضِدٍ، وهناك طريقةٌ واحدةٌ للتقرب من الله وعبادته.

فكان مَثَلُ المُشْرِكِ مثل الذي يخدم أسيادًا عدة يُرضي هذا فيغضب هذا، بل لا يدري أصلًا ماذا يُريد هذا، وماذا يُريد ذاك! أمَّا المؤمن فمَثَلُهُ مثل الذي لا يخدم إلا سيِّدًا واحدًا، وهو عارفٌ به وبأمره ونهيهِ، وسبيل مرضاته.

بعد بيان الدين الخالص، شرع القرآن في بيان حال الناس وانقسامهم تجاه هذا الدين، وما ينبنى على هذا الانقسام من اختلاف في المشارب والمناهج، وما يتبعه من خصومة وصراع، وكل هذا من سنن الله في هذا الخلق؛ ليميز الله الحق عن الباطل، والهدى عن الضلال، وطريق السعادة عن طريق الشقاء:

أولاً: يُذَكِّرُ القرآن الكريم الخلق جميعاً بأنهم سيلاقون يومهم الموعود - مؤمنهم وكافرهم -، فلا يُسْتَنَى من الموت أحدٌ، وإنما العبرة بما بعد الموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّمُونَ ﴿، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فما بعد الموت من افتراق وتباين إنما كان نتيجة لافتراقهم وتباينهم في الدنيا.

ثانياً: يضع القرآن الصدق قيمةً عُلِّيا، ومعياراً رئيساً لافتراق الطريقين: طريق الهدى، وطريق الضلال ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ فصدق الإنسان مع نفسه هو الذي يقوده للنظر الهادف والبحث الجاد، أما حينما يكذب على نفسه فأتى له الهداية؟

ثالثاً: وبسياقٍ مُّتَّصِلٍ يذكر القرآن شواهد من الكذب الذي يقود صاحبه إلى الهاوية، ويدعه مُتَنَاقِضاً في مواقفه، مُضْطَرَباً في سلوكه، مُتَرَدِّداً مُتَلَفِّتاً بحسب مصلحته الآنيّة، وليس بحسب ما يراه من حق أو باطل ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهٗ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي ۗ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فهؤلاء وقت الاضطراب يُوحِّدون الله، ووقت الرخاء يكفرون به، ويؤمنون بالشيء ونقيضه، وأصل هذه الأمراض إنما هو الكذب، الكذب على النفس قبل كل شيء، وحالة العبث التي ترافق مثل هذا الكذب في العادة.

رابعًا: يؤكد القرآن أن الله قد أقام الحجّة على الناس كافة بهذا القرآن الذي أبان طريق الحق من طريق الباطل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۖ﴾.

ومن ثم فإن الله هو الذي يحكم بينهم ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ﴾ وأنداك لا عذر لمعتذر، ولا حجة لمحتج ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٥﴾ أن تقول نفس بحسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السّخّرين ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٦﴾ أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرامة فأكون من المحسنين ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تَكَءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾.

خامسًا: يؤكد القرآن أن التوحيد الحق - والذي يستلزم إخلاص الدين لله وحده - هو الفاصل بين الطريقين؛ إذ كل ما بعد التوحيد مبني عليه ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۖ﴾ ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ٦١﴾ ولقد أوجى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخسرين ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۖ﴾.

فكل عملٍ مهما بدا للناس صلاحه إن لم يكن مبنياً على التوحيد فإنه باطل، بل قد يكون وسيلةً وأداةً لتزيين الشرك والوثنية، كما نراه من أعمالٍ خيرية تقوم بها مؤسسات تنصيرية تُزيّن للناس عقيدة التلث، وأما إن كان العامل صادقاً في نيته، مُحبّاً للخير في طبيعته فإن

هذا مؤشّر في الغالب على أوبته وهدايته، وحُسن خاتمته؛ إذ الصدق مع النفس مفتاح الهداية، والخطوة الأولى في الافتراق عن سُبُل الغواية.

سادسًا: يزبح القرآن مخاوف الناس بانتقاص الأمن أو انتقاص الرزق إن هم اتبعوا الهدى، وهذا ما يُلَوِّح به الباطل في كلِّ عصر ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سابعًا: يدعو القرآن جميع الناس إلى التوبة والإنابة؛ فرحمة الله أوسع من أن تضيق بأحدٍ منها بلغت معصيته، ومهما كان إسرافه على نفسه وتقصيره بحق ربه ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿.

فلا يأس مع الإيمان، والله لا تنفعه طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، وإنما هو الامتحان والاختبار؛ فمن صحَّ موقفه قبل منه تصحيحه، ومن اعترف بذنبه قبل منه اعترافه، ومن تاب قبلت منه توبته، فباب الله لا يُغلق أمام أحدٍ مهما طغى وبغى، وشنق وخنق، وكفر وفجر.

دقائق التفسير

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فكل ابن آدم ميّت طال عمره أم قصر، وإنما ذكره؛ تمهيدًا لبيان حال الفريقين بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّصُونَ﴾.

﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ نسب إليه ما لا يليق به من الشريك والولد وكلِّ صفة نقص، ويدخل فيه: كل من أفتى عن الله بغير علم، وحلّل أو حرّم على عباد الله ما لم يأذن به الله.

﴿وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي: كذّب بالقرآن.

﴿مَثْوًى﴾ منزل يستقر فيه.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو سيدنا ونبيُّنا محمدٌ ﷺ، وكذلك كلُّ نبيٍّ بعثه الله.

﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ كلُّ مؤمنٍ صدَّق برسول الله وآمنَ به وبرسالته.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ وأسوأ الأعمال الكفر؛ فمن آمنَ كفر الله عنه ما كان منه قبل ذلك، وتكفيرُ ما دون الكفر أولى.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأحسنُ العمل: الإيمان، وكلُّ عملٍ صالحٍ إنما هو تابعٌ له، فمن قبلَ الله إيمانه قبلَ له سائر عمله، مع الإشارة إلى مُضاعفة الأجر وقبول الأعمال بأعلى درجةٍ من القبول، والله أعلم.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ تأكيدٌ لطمأنينة المؤمن الموحِّد الذي لا يعبدُ إلا إلهًا واحدًا، فالله يكفيه عن اللُّجوء إلى غيره؛ إذ هو الذي بيده مقاليدُ كلِّ شيء.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من تلك الآلهة المصنوعة التي لا تملك لأنفسها شيئًا، فضلًا عن أن تملك لغيرها ضرًّا أو نفعًا.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴿ بمعنى أن الله يضلُّ مَنْ طلب الضلالة وسعى لها، ويهدي مَنْ طلب الهداية وسعى لها، فهذه سُنَّةُ الله العادلة في عباده، ولن يستطيع أحدٌ أن يخرق هذه السُنَّةَ الإلهية.

﴿قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَى مَكَانَيْكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ﴾ فيه تأكيد التمايز بين الفريقين، وفيه أنَّ عملَ الباطل لا بُدَّ أن يُقابَلَ بعملِ الحقِّ وإلا خَلَّت الساحة للباطل، وفيه تهديدٌ لأهل الباطل؛ ولذلك قال بعدها: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿ والعذابُ المقيم هو: العذابُ الدائم.

﴿فَمَنْ أَهْتَكَدَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي،

وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّتَهُ دُونَ جَبْرِ أَوْ إِكْرَاهٍ، وَفِي هَذَا تَفْسِيرٌ أَيْضًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى الْمُتَقَدِّمُ: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۖ﴾.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يَقْبِضُهَا بَعْدَ أَنْ يُوفِّيَهَا أَجَلَهَا الْمُسَمَّى لَهَا، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ التَّوَفَّى بِمَعْنَى الْمَوْتَ نَفْسَهُ لِمَكَانِ التَّلَازُمِ بَيْنَهُمَا.

﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ شَبَّهَ النَّائِمَ بِالْمَيِّتِ؛ لِفَقْدِهِ الْإِدْرَاكَ وَالْإِرَادَةَ كَالْمَيِّتِ، مَعَ أَنَّ النَّائِمَ حَيٌّ وَدَاخِلٌ فِي أَحْكَامِ الْأَحْيَاءِ بِلَا خِلَافٍ، لَكِنَّهُ تَنْبِيهُ إِلَى ضَعْفِ هَذَا الْإِنْسَانِ وَاسْتِسْلَامِهِ لِمَا يُشَبِّهُ حَالَ الْمَيِّتِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا.

﴿فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمَيِّتِ وَالنَّائِمِ؛ فَالْمَيِّتُ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ رُوحُهُ وَلَا وَعِيهِ وَلَا حَرَكَتُهُ، بِخِلَافِ النَّائِمِ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تَمَيِّزٌ لِلْمُفَكِّرِينَ عَنْ غَيْرِهِمْ فِي إِدْرَاكِ الظَّوَاهِرِ وَتَحْلِيلِهَا، وَاسْتِنْبَاطِ النَّاتِجِ وَالْدُرُوسِ مِنْهَا.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ فَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَسْتُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَخْتَارُونَ لَهُ الشَّفَعَاءَ.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وَصَفُ لِحَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي نَفَرَتِهِمْ عَنِ التَّوْحِيدِ مَعَ أَنَّهُ الْحَقُّ الْأَبْلَجُ، وَأُنْسِهِمْ بِأَهْلَتِهِمْ مَعَ ظُلْمَتِهَا وَعَجْزِهَا وَقَلَّةِ حِيلَتِهَا، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا أَيْضًا كُلُّ مَنْ يَأْنَسُ بِأَحْكَامِ الْبَشَرِ وَتَصَوُّرَاتِهِمْ وَأَرَائِهِمْ، وَيُقَدِّمُهَا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَهَدْيِهِ وَشَرِيعَتِهِ، كَمَا نَرَاهُ الْيَوْمَ مِنْ بَعْضِ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْإِسْلَامِ.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هَذَا الدُّعَاءُ الْمُبَارَكُ يَمْلَأُ الْقَلْبَ ثِقَةً وَطَمَآنِينَةً، فَلَا يَدْعُو بِهِ إِلَّا الْمُطْمَئِنُّ عَلَى عَقِيدَتِهِ وَدِينِهِ.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ نَزَلَ وَأَحَاطَ بِهِمْ.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً﴾ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا؛ كَالْمَالِ وَالْمَنْصَبِ وَالْجَاهِ.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أَي: يَنْسَى اللَّهُ فِيهَا وَلَا يَنْسَبُ النِّعْمَةَ إِلَيْهِ، بَلْ يَنْسِبُهَا إِلَى عِلْمِهِ وَجَهْدِهِ وَكِفَائِهِ.

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ إِذْ هَذِهِ النِّعَمُ كُلُّهَا اخْتِبَارٌ وَامْتِحَانٌ، وَالْعَاقِبَةُ لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ فِيهَا وَسَخَّرَهَا فِي طَرِيقِ الْخَيْرِ.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: قَالَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؛ كَفِرْعَوْنَ وَقَارُونَ.

﴿وَبَسَّطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَي: يُوسِّعُ لَهُمُ بِالرِّزْقِ اخْتِبَارًا لَهُمْ.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أَي: يُضَيِّقُ بِالرِّزْقِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ اخْتِبَارًا لَهُمْ أَيْضًا.

﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي: أَكْثَرُوا مِنَ الْمَعَاصِي وَتَمَادَوْا فِيهَا.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ نِدَاءٌ جَمِيلٌ وَوَدُودٌ يَقْذِفُ فِي النَّفْسِ رُوحَ الْخَيْرِ وَالْأَمَلِ، وَالِاسْتِعْدَادَ لِلتَّغْيِيرِ نَحْوَ الْأَفْضَلِ وَالْأَصْلَحِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا تَضُرُّهُ ذُنُوبُنَا، وَرَحْمَتُهُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ تُضَيَّقَ

بِنَادِمٍ أَوْ مُسْتَغْفِرٍ ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ فَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنَ الْعَبْدِ إِذَا وَقَعَ فِي الذَّنْبِ تَذَكَّرَ وَاسْتَغْفَرَ، وَإِذَا ابْتَعَدَ فِي الْغَفْلَةِ رَجَعَ وَأَنَابَ.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي: الْقُرْآنَ، فَهُوَ الْكِتَابُ الْمُهَيْمِنُ عَلَى كُلِّ

الْكِتَابِ السَّابِقَةِ، وَهُوَ رِسَالَةُ اللَّهِ الْأَخِيرَةُ الَّتِي تَعْهَدُ اللَّهُ بِحِفْظِهَا، فَلَا تُشَوِّبُهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، بِخِلَافِ الْكِتَابِ الْأُخْرَى.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ هَذِهِ غَايَةُ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ؛ أَنْ يَرَى

الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ أَمَامَ اللَّهِ ضَائِعًا عَابَثًا فَرَّطَ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ بِلَا شَيْءٍ إِلَّا

الذنب والغفلة والإعراض، ومعنى ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: على ما قصرتُ بحقِّ الله ﷻ.

﴿لَوَأْنِي لِي كَرَّةٌ﴾ أي: عودة ثانية إلى الحياة الدنيا.

﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تَكَءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ الاستكبار أصلٌ في كلِّ ضلالة.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بالفوز الذي نالوه، وهو هنا الجنة.

﴿لَهُ، مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له مُلْكُهَا وخزائنها.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وحاشاه ﷺ من الشرك، وإنما الخطاب من خلاله للناس كافة، وتوجيه الخطاب له ﷺ فيه من تعظيم الأمر والتنبيه إلى خطره ما لا يخفى، وفيه أيضًا تبييس المشركين من استمالته ﷺ مهما بذلوا ومكروا.

﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ تنبيهٌ إلى صلة التوحيد بالشكر، فمن شكر الله على نعمائه قاده هذا الشكرُ إلى إخلاص الدين لله، ومن آمنَ بالله حقَّ الإيمان دفعه هذا الإيمان لتحقيق الشكر أيضًا.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
 ﴿٦٧﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَصُيِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ
 الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ
 أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
 يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ
 جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كَفَرْتُمْ مَنَوِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا
 وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ
 الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيزَاتٍ مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

أصحاب الجنة وأصحاب النار

بعد تمييز الحق عن الباطل وبيان العلامات الفارقة بينهما، شرع القرآن في بيان عاقبة

الفريقين:

أولاً: يُنبئ القرآن الكريم هذه العقول إلى عظمة الخالق، وأنه الله الذي بيده ملكوت
 السماوات والأرض، فلا يُعجزه سبحانه شيء، ولا يَغيبُ عن علمه شيء، ولا يشغله شيء
 عن شيء، وكما كان بيده أصل النشأة والبداية، فبيده أيضاً الخاتمة والنهاية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
 قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى
 عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثانياً: يؤكد القرآن أن هذه الحياة بكل من فيها وما فيها ستنتهي في ساعة واحدة، ثم إذا

أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى تَعُودَ كَرَّةً ثَانِيَةً ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُرُونَ﴾.

ثالثًا: آنذاك يوضع الميزان الحق؛ ليأخذ كل ذي حق حقه، ويحصد كل زارع ما زرع، وكل عامل ما عمل، في محكمة العدل الإلهية؛ حيث يقضي الله سبحانه، ويشهد النبيون ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

رابعًا: يرسم القرآن صورةً قائمةً مُظْلَمَةً لأولئك المجرمين المُفْسِدِينَ وهم يواجهون مصيرهم المحتوم ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِيَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَتٍ مِّنْهُمْ فِي سُوَرٍ مُّتَكَثِرِينَ﴾.

خامسًا: ثم يرسم القرآن في مقابل تلك الصورة صورة أخرى، صورة المؤمنين وهم يدخلون الجنة زُمَرًا زُمَرًا ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

سادسًا: ثم يختم القرآن بالصورة الثالثة، وهي صورة الملائكة الحافين بعرش الرحمن والمُسَبِّحِينَ بحمده؛ ليزداد أهل الإيمان أُنْسًا وَجُورًا، ويزداد أهل الباطل حَسْرَةً وَثُجُورًا ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه؛ وذلك لفرط جهلهم وغفلتهم واستكبارهم.

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ فلا مُلك إلا مُلكه، ولا سلطان إلا سُلطانه، أما حقيقة ما سيجري في ذلك وما أضافه الله تعالى لنفسه، فعَلينا الإيـمان به جملةً كما أخبر سبحانه، مع اعترافنا بعجزنا عن الإحاطة بحقيقته وكنهه، فليس لعقولنا تصوُّر الغيب على صورته، ولا سبيل لها إلى ذلك، وليس مطلوباً منها ذلك؛ إذ الأخبار الغيبية لها غاياتها العملية في حياة الإنسان وسلوكه وما هو مُكَلَّف به، فإذا تحقَّق ذلك فهذا كافٍ له حتى يلقي الله عليه.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذه هي النفخة الأولى التي تُعلن انتهاء الحياة الدنيا بكلِّ مَنْ فيها وما فيها.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَبْطِطُون﴾ هذه هي النفخة الثانية؛ حيث تعود الأرواح لأجسادها لتبدأ الحياة الثانية، وهي الحياة المُستقرَّة الخالدة.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ هي أرض المحشر بدلالة السياق، ونور ربِّها يحتمل المعنى المادي، أي: تشرق الأرض هناك بنور يجعله الله فيها فلا تخفى خافية حتى تنكشف الخلائق لبعضها دون حاجز أو ظلمة، ويحتمل أنه نور الحق والعدل؛ حيث زالت شبهات المشركين وسطوة الطغاة المفسدين، ولا مانع من إرادة المعنيتين، والله أعلم.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ وهو اسمُ جنسٍ للكتاب الذي يلقاه كلُّ مُكَلَّفٍ هناك، فلكلِّ مُكَلَّفٍ كتابه.

﴿وَجِئْنَا بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ تصويرٌ للمشهد العظيم، ولجديَّة الأمر في الحساب والجزاء، وعطفت الشهاداء على النبيين عطفت للعام على الخاص، فالأنبياء يشهدون، ثم يشهد كلُّ

صالح للشهادة، وهذه الأُمة تشهدُ على من سَبَقَها، وتشهدُ للأنبياء السابقين بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

﴿وُوفِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ تأكيدٌ متكررٌ لعقيدة العدل الإلهي، فلكلِّ عاملٍ ما عمل.
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جماعات مكتظة ومحشورة في طريقها إلى جهنم.
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وفي هذا التعبير من الهول والصدمة المريعة ما فيه.
﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ وهم زبانية جهنم وحُرَّاسها.
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي: جماعات مُتعدِّدة، يأنس المؤمن بهم، وهؤلاء هم وفودُ الرحمن، وأهلُ الخير والجنان.
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أضاف الواو هنا للتنبيه أنَّها كانت مُفتحة لهم قبل وصولهم إكرامًا لهم، كما يفعل صاحب الدار الكريم مع ضيوفه، وهؤلاء هم ضيوف الله وأحبابه، جعلنا الله منهم.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة.
﴿نَتَّبِعُكَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: ننزل فيها حيث نشاء ونختار.
﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ تأكيدٌ آخر لعقيدة العدل الإلهي، فهؤلاء المُكْرَمُونَ إنما استحقُّوا هذه المنازل بأعمالهم، لا بأنسابهم ولا بأموالهم.
﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: مُحِيطِينَ به من كلِّ جانب.
﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الباء للمصاحبة، بمعنى أنَّهم يُسَبِّحُونَ الله مُستصحبين حمده.
والحمد لله رب العالمين دائمًا وأبدًا، وفي كلِّ حين.

سُورَةُ غَافِرٍ

المجلس السابع بعد المائتين: الذين آمنوا والذين كفروا

المجلس الثامن بعد المائتين: مؤمن آل فرعون

المجلس التاسع بعد المائتين: الذين يُجادلون في آيات الله

المجلس العاشر بعد المائتين: فاصبر إن وعد الله حق

سُورَةُ غَافِرٍ

من الآية

﴿٢٢﴾

﴿حَمْدٌ﴾ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ مَّسِيرُ (٣) مَا يُجَدَّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا أُنْتَيْنِ وَآخِيَّتَنَا أَتَيْنَا فَاغْفِرْ فَاغْفِرْنَا يَدُوكِ أَرْبَعُ فَنَدْعُكَ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ سَبِيلِ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ عَاقِبَتُهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُوعٌ لَا تَخُنُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ نُخَزِّي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْءٌ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا

سورة غافر سورة مكيةٌ تُعالجُ حالة الصراع بين الإيمان والكفر، والتي بدأت مع بواكير الدعوة الإسلامية المباركة في مكة، وكان القرآن يُتابعُ هذا الصراع من زوايا مختلفة، بدءًا

بتوصيف حالة الفريقين، والأسس التي يفترون عليها، والمعالم الواضحة التي تميز كل فريق عن الآخر، وكما يأتي:

أولاً: بيان الأصول التي افرق عليها الناس؛ حيث تستهل السورة بتأكيد نزول الوحي بهذا القرآن، فهو كلام الله العزيز العليم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝﴾.

ولأن القرآن رسالة عملية هادفة تسعى لتصحيح عقائد الناس وتصوراتهم، وإصلاح حياتهم وعلاقاتهم، فتح الله باب التوبة لكل مُخطئٍ وعاصٍ مهما كان، مُحذراً في الوقت ذاته من التماذي في الخطأ، والإصرار على المعصية ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝﴾.

ثم نبّه العقول إلى دلائل الإيمان المبثوثة في هذا الكون فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ۝﴾.

ثم نبّه إلى ما في التاريخ من دروسٍ وعبرٍ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۝﴾ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رُسُلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قويٌ شديدُ العقابِ ﴿مؤكدًا في ثنايا ذلك أصول الدين القائمة على توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان برسالة النبي ﷺ، وأنه هو المبلغ عن الله ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝﴾ رفيعُ الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده. لينذر يوم النفاق ۝﴾ يوم هم يبرزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ۝﴾ اليوم نجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ۝﴾ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كظلمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ۝﴾ يعلم خائنة

الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنْ
اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾.

ثانيًا: بيان حال الذين كفروا وأتهم أهل جدالٍ وعنادٍ ﴿٢١﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ﴿٢٢﴾ مُذَكِّرًا بِهِ الظاهرة البشرية الممتدة في عمق التاريخ
﴿٢٣﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا
بِالْبَطْلِ لِيُذْخِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢٤﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٢٥﴾.

وبعد هذا الأخذ والعقاب الأليم في الدنيا، يذكرهم القرآن بالمصير الأقسى والعذاب
الأكبر ﴿٢٦﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى
الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آتْنَيْنِ وَأُحْيِتَنَا آتْنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُورِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ
مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ
الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٢٩﴾.

ثالثًا: بيان حال الذين آمنوا واستجابوا لهذا الدين، فكانوا في انسجامٍ مع فطرتهم ومع
هذا الخلق الواسع الذي أبدعه الله سبحانه ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا
وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٣١﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ
السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٣﴾.

وهذا الدعاء الودود اللطيف الذي تدعو به الملائكة لهؤلاء المؤمنين ولمن صلح من آبائهم
وأزواجهم وذرياتهم قائم مقام التحقيق؛ لأنَّ الله تعالى امتدَّح الملائكة به، وساقه مساق
الامتنان على أهل الإيمان.

وفيه كذلك شعورٌ بالرابطة الإيمانيَّة الجميلة التي تربط المؤمن بعالم الملائكة، ذلك العالم الأجل والأطهر والأنقى، وهذا الشعور يرفع هذا الإنسان عن ضيق الدنيا وهمومها ومستواها المادّي الثقيل لِيَسْبَحَ في عالمٍ من النور والأفق الواسع الرحيب.

دقائق التفسير

﴿حَمَّ﴾ تقدّم الحديث عن الحروف المقطّعة في أوّل سورة البقرة.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ هذه الصفات الجليلة تجمع في تأثيرها العملي السلوكي بين الرجاء والخوف؛ فالذي يُقْبَلُ على الله يقبله الله، والذي يتهاذى في غيّه وإعراضه له العقاب الشديد.

﴿ذِي الطُّولِ﴾ أصل الطول: السَّعة، ومعناه هنا: سعة قُدرته سبحانه، وعظيم فضله وإنعامه.

﴿مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الجدال هنا: الجدال الباطل، وهو التكذيب بآيات الله عنادًا واستكبارًا.

﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْأَلْبَدِ﴾ فلا يغررك ما معهم من جاهٍ ومالٍ وقدرتهم على التصرّف في مكة، والتحكم في شؤونها، وذلك هو تقلّبهم فيها، وأصل التقلّب: التردّد ذهابًا ومجيئًا.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد قوم نوح؛ كعادٍ، وثمود. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: ليقتلوه.

﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ليبطلوا.

﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ فأهلكتهم، ويلحظ هنا مناسبة هذه العقوبة لما تقدّم من جُرمهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ هم الملائكة، وحملهم للعرش من الأحوال الغيبية التي تُوحى بالجلال والعظمة، ولا سبيل للعقل أن يدرك ذلك الغيب على حقيقته وكيفيته، وإنما الواجب التسليم بصدق الخبر، ثم البحث عن مقصوده العملي السلوكي، وهو قريبٌ ويسيرٌ على من يسره الله عليه.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الباء للمصاحبة، بمعنى أنهم يُسَبِّحُونَ الله مُسْتَصْحِبِينَ حمده بِحَمْدِهِ. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يتجدد فيهم معنى الإيمان كلما سَبَّحُوهُ وَحَمِدُوهُ، وفيه إشارة إلى أن الذكر يُعزِّزُ الإيمان ويُقويه.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يدعون لهم بالمغفرة، وهذا الاستغفار يُقوي من صلة المؤمن بملائكة الله واستشعار وجودهم ومودتهم، ومن ثمَّ الحياء منهم، وكلُّ هذا الشعور مؤثِّرٌ في النفس مُعزِّزٌ لمعاني الخير، والله أعلم.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ. ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: احملهم وادفع عنهم كلَّ ما يسوؤهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي: مَنْ حَمَيْتَهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - وهو يوم القيامة - فقد رَحِمْتَهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ تُناديهم الملائكة، وذلك يوم القيامة. ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بمعنى أن بُغْضَ الله لكم ولما قَدَّمْتُمُوهُ لأنفسكم أَشَدُّ مِنْ بُغْضِكُمْ لأنفسكم؛ ذاك أن الكافرين هناك سيَبْغِضُونَ أنفسهم ويتمنون أن لو كانوا عَدَمًا.

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَا أَتْنَيْنِ وَأَخْيَيْنَا أَتْنَيْنِ﴾ هذه الآية مُفسَّرة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فسمَّى العدم قبل الخلق موتًا؛ إذ هو بحكمه، والله أعلم.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: المطر الذي هو سبب الرزق، فذكر السبب وأراد

النتيجة.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ وصفٌ لله تعالى يستلزم العلوَّ المطلق، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ

رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، والعلوُّ صفةٌ ثابتةٌ لله بالنص، ولا قدرة للعقل في إدراك معناها كما

هي في الغيب، لكنها تُوحى بالعظمة والقدرة المطلقة، وهذا هو المقصود العملي من هذا

الإخبار، ولا يبعد أيضًا أن يكون المعنى أنه تعالى يرفع درجات المؤمنين، إلا أن ذكر العرش

بعدها يُرجِّح الأول، والله أعلم.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالق العرش ومالكه.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يُنَزِّلُ الوحيَ على مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَنْبِيَائِهِ

ورُسُلِهِ.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي: لِيُنذِرَ النَّبِيُّ النَّاسَ وَيُحَذِّرَهُمْ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَمَّاهُ يَوْمَ التَّلَاقِ

لأنَّ الخلائق تلتقي فيه أوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ.

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الْمُلْكُ لله وحده دائمًا وأبدًا في هذا اليوم وفي ذاك اليوم،

وإنما خصَّ ذلك اليوم لأهميته وخطورته، ولأنَّ الذين توهَّموا أنَّهم يشاركون الله في مُلكه

لغفلتهم وضعف بصيرتهم أدركوا هناك الحقيقة، وأدركوا أنَّ كُلَّ المتاع الذي كان بأيديهم إنما

كان على سبيل التحويل والاستخلاف والاختبار.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، ونفيٌ

صريحٌ لأيِّ شبهةٍ قد تطرأ بسبب سوء فهمٍ لعقيدة القدر، أو نصٍّ من نصوص الهداية

والضلال؛ فالله إنما يضل من يطلب الضلالة، ويهدي من يطلب الهداية وفق سُنَنِ كَوْنِيَّةٍ

عادلة، كمن يموت بسبب شرب السمِّ، ومن يبرأ بسبب أخذ الدواء.

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾ هو يوم القيامة، والآزفة أي: القريبة، والتذكير بقربها يشد الانتباه لها، وأخذ الحيلة قبل وقوعها.

﴿وَإِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ﴾ بمعنى أن القلوب تضطرب من شدة الخوف حتى كأنها تتحول من أماكنها، وتصعد إلى الحناجر، والحناجر جمع حنجرة، وكاظمين أي: كاتمين أنفاسهم من شدة الخوف والترقب.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ﴾ من قريب ينفعهم.

﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ أي: وما لهم من شافع يشفع فتقبل شفاعته.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أي: يعلم اختلاسات الأعين الخفية، بمعنى أن الله يعلم كل ذنب ارتكبه العبد ولو كان دقيقاً خفياً، وقد أكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ أي: تلك الأوثان التي عبدوها من دون الله لا تقضي لهم بحق ولا بباطل، فهي أعجز من ذلك، فهي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تقدر على شيء، وقد عرّض القرآن بهذا في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

﴿وَأَنذَرْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ تدل على قوتهم وتمكنهم في الأرض.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أهلكهم بسبب ذنوبهم، وفيه أن الذنب يُطلق على الكفر، ولا يقتصر على المعصية العملية.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي: ما كان لهم من دون الله مدافع يحميهم ويدفع عنهم العذاب.

سُورَةُ غَافِرٍ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقَرَّبُوا سَاحِرًا كَذَّابًا (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ آبَائِهِمْ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ (٣٢) يَوْمَ تُنْفَخُ أُنْفُوسُكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَمِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ قَدْ رَلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَقُولُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبَى السَّرِيفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَتَذَكَّرْتُمْ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَاجَّرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ أَلْصَقْتُمْ عَلَى اللَّهِ أَسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرًا لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤)﴾

الاستشهادُ بقصة موسى ﷺ ظاهرة قرآنية مُتكررة، وقد تقدّم الحديث عنها وعن غاياتها المنهجية والعملية، غير أنّ هذه السورة تناولت القصة ببعْدٍ آخر؛ حيث ركّزت على نموذج الرجل المؤمن الذي يكتُم إيمانه وهو يعيش في وسط الكافرين وكأَنَّهُ واحدٌ منهم، ولا شكّ أنّ هذا النموذج يسوقه القرآن للفت أنظار المؤمنين وتوعيتهم بإمكانية وجود مثل هذا الصّنف في ملأ قريش، وفي أي ملأٍ آخر، وقد حصل هذا بالفعل مع سيدنا العباس عمّ النبيّ ﷺ؛ لوجود قرائن كثيرة على أنّه كان يكتُم إيمانه، وأوضح من هذا قصّة نُعيم بن مسعود في معركة الأحزاب.

ويمكن تلخيص ما ورد في هذه الآيات حول هذا النموذج بما يأتي:

أولاً: قدّم القرآن خلاصةً لدعوة موسى ﷺ وما واجهه هو والمؤمنون معه على يد فرعون وملئه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنَ وَقَرُوتَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۝٢٥ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝٢٦﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۝٢٧ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝٢٨﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝٢٩﴾.

ثانياً: بعد تلك المُقدمة يبدأ القرآن بتسليط الضوء على قصة الرجل المؤمن وطريقته في الدفاع عن موسى وقومه ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۝٣٠﴾.

فهو هنا يقف موقفَ الناصح؛ لئلا يرتكب قومه جريمةً بحقّ رجلٍ بريء لم يأت بها يستوجبُ القتل، بل جاء بها عجز عنه السحرة، ثم استدرك كأنه يخشى من تنبّه قومه له: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۝٣١ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۝٣٢ إِنَّ اللَّهَ لَا

يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿﴾ فهنا أبعاد نفسه عن دائرة التهمة، وأظهر مزيداً من الحرص على مصلحة قومه، واضعاً أمامهم الاحتمالين المنطقيين؛ فإن كان موسى - حاشاه - كاذباً فلن يضرهم كذبه، وإن كان صادقاً أصابهم الخير الذي يعدّهم به.

ثالثاً: بعد ذلك النصح وما فيه من منطقي مقنع، أخذ يُمهّد القلوب لسماع كلمة الحق ومن مدخل النصح نفسه ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهَرِينَ﴾ يُذَكِّرهم بما هم فيه من نعمة ومُلك وسلطان، ثم يخوّفهم من إمكانية تحوّل هذه النعمة وزوالها ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾.

هنا تدخل فرعون نفسه ليحسب الأمر على طريقته: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ كأنه يُطمئنهم على مُلكهم وما هم عليه من النعمة، وأنه هو وحده الأعلم والأقدر على حماية هذا المُلك، وإدامة هذه النعمة.

رابعاً: لم يياس الرجل المؤمن من دعوته لقومه فراح يكلمهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٢٢﴾ يَوْمَ تُكُونُ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

ثم أخذ يُذَكِّرهم بيوسف ﷺ وما كان له من فضلٍ على أهل مصر، كأنه يُشبهُ دعوة موسى بدعوة يوسف، ولا شك أن هذا أوقع في نفوسهم، وأدعى لفتح العقول والقلوب لهذه الدعوة الجديدة ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

والأظهر أن هذا لم يكن في مجلسٍ واحدٍ، بل في مكانٍ آخر وفي مناسباتٍ أخرى، وربّما بغياب فرعون أيضًا؛ إذ يصعب تصوّر مُواصلة الحديث في ذلك المجلس بعد أن حسمه فرعون وأنهى فيه كلّ رأيٍ أو قولٍ يُخالف قوله.

خامسًا: ينتقل السياق إلى فرعون وما يُدبّر لمواجهة هذه الدعوة المباركة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۖ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا ۚ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ۖ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۚ﴾.

وتعليل بناء فرعون لهذا الصرح تعليلٌ تافهٌ قد ينمُّ عن حماقة فرعون وجهله، وليس هذا بعيدًا عن كلّ من حجّبه غاشية التكبر عن التفكير والتعلّم والتدبّر؛ إذ التكبر قرينُ الجهل. ولا يبعد أيضًا أنه إنما أراد بذلك أن ينشغل الناس بأخبار البناء والعمران وما فيه من بهرج وزخرفٍ عن التفكير في أصل القضية، وهي دعوة النبيّ موسى ﷺ، على عادة الفراعنة في إشغال شعوبهم بكلّ ما ليس فيه مساسٌ بعروشهم، حتى إذا اكتمل الصرح، راح ليخدع العامة المساكين بأنه صعد إلى السماء فلم يجد فيها إله موسى! والعامة إن غاب عنها وغيها أصبحت أسيرة للخداع وللإشاعات والأخبار الغريبة، خاصّة إذا كانت تتعلّق بالقصر وما حوله.

سادسًا: يعود القرآن إلى الرجل المؤمن وهو يُواصلُ دعوته في كلّ مجلسٍ ومحفليٍ ناصحًا ومُحذّرًا، ومُنذرًا ومُبشّرًا ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۖ (٣٨) يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۖ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ (٤٠) وَيَنْقُومِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمُ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۖ مَا لِيَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمُ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ ۖ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ

هُم أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾.

وواضح من هذا السياق أنه قد بلغ بالتدرج إلى حد الإعلان عن هويته وعقيدته، والإجهار بالدعوة إلى نبذ عبادة الشرك بكل صورها، وإخلاص العبودية لله وحده. سابعاً: يذكر القرآن عاقبة هذا المؤمن العزيز وعناية الله به وحمايته له، وفي كل هذا إشارات لا تخفى للمؤمنين المستضعفين في مكة ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

ثامناً: يذكر القرآن أيضاً عاقبة أولئك الطغاة العتاة بإشارات لا تخفى أيضاً، تحمل التهديد والوعيد لطغاة مكة وعُتاتها ﴿وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾.

تاسعاً: ينقل القرآن صورة من داخل جهنم يتحاور فيها الأتباع والمتبوعون، والضعفاء والمستكبرون تحاور الحسرة والندم، والشعور بالغبن والخسران ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾.

عاشراً: ينقل القرآن حواراً آخر يدور بين أهل النار وبين خزنة جهنم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتٍ قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دَعَوْا إِلَّا كُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ وهو حوار يزيدهم حسرة على حسرتهم، وندامة على ندامتهم، وعذاباً فوق عذابهم.

حادي عشر: ثم يؤكد القرآن وعد الله الحق بنصر الأنبياء المرسلين ومن تمسك بهديهم من المؤمنين ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾.

ثاني عشر: ثم يَخْتِمُ القرآنُ القصةَ بما استهلَّت به، بتأكيد أن قصَّةَ هذا الرجل المؤمن من آل فرعون ليست سوى حدثٍ جزئيٍّ في قصَّةِ موسى ﷺ ودعوته الكبيرة على هذه الأرض ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ۖ هُدًى وَذِكْرَى لِلْأُولَى ۖ﴾

دقائق التفسير

﴿وَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ وبرهانٌ ظاهرٌ.

﴿وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ لا تقتلوهنَّ لبقين في الخدمة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ ولم يكن هناك من يجروء على منعه، وإنما هو أسلوب يقصد به الإعلان عن الرغبة في الفعل والتوجه إليه، ويقرب من هذا قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ﴾ [المدثر: ١١، ١٢]، بمعنى: كل أمره لي.

﴿وَلِيدَعُ رَبَّهُ﴾ يقولها على سبيل السخرية والتحدي.

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ هو اعترافٌ ضمنيٌّ بقُدرةِ موسى ﷺ على التأثير في الناس وتغيير آرائهم، وهو اعترافٌ ضمنيٌّ أيضًا بعدمِ صدِّقه في ادِّعائه الألوهية، فكيف يكون إلهًا ويخاف من موسى أن يُغيِّرَ عليه قومه.

والحقيقة أن فرعون كان يخاف على عرشه أكثر من خوفه على قومه، لكنَّها لغة الطواغيت دائما في التلبيس على الناس واستدراار عطفهم وتأيدهم.

﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهذه فرعونيةٌ أخرى، فهو لا يرى في ادِّعائه الربوبية فسادًا ولا بتقتيل الناس واستعبادهم، ولا بتفريقهم إلى شيع وأحزاب مُتنافرة مُتخاصمة، ولا ذلك العبث بثروات البلاد وتسخيرها في شهواته وملذَّاته، وإنما الفساد في كل دعوة تُخالِفُه، هكذا هو أيضًا منطق الفراعنة في كل زمان ومكان.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: إني أحتمي بالله وألوذ به من كيد فرعون، وكان هذا هو ردّ موسى على تهديد فرعون وقوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وفيه أن التكبر والغفلة عن الآخرة من أقوى أسباب ارتكاب الجرائم وانتهاك الحرمات.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ لم يُسمّه لنا القرآن، ولم يرد اسمه في سنة صحيحة، فالأولى التوقّف عند النص، وعدم إضاعة الجهد فيما لا طائل من ورائه، والذي يبدو من خلال القصة أنه كان من أعيان مجلس فرعون ومن المقرّبين إليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ يعني أن الله لن يدع من بلغت به الجرأة أن يكذب على الله مُدّعياً أنه رسولٌ منه، والإسراف هنا: مجاوزة الحد المعهود في الكذب. ومُجمل المعنى أنه يقول لقومه: إنّ موسى إن كان صادقاً عن الله فإنه سيُصيّبكم بسببه خيرٌ كثير، وإن كان مُسرفاً في كذبه على الله فإن الله سيأخذه بعقاب، أو يفضحه أمام الناس فلا يهديه إلى ما يُريد من مطمع أو منصب.

﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ عالين فيها بملككم وسلطانكم.

﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: لا أسمح لكم أن تروا رأياً غير رأيي، فأنا الذي أريكُم ما أشاء.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ دليلٌ على أن أهل مصر كانوا على دراية بتلك الأقوام وما أصابها، والله أعلم. وقوله: ﴿يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أراد جنس اليوم وليس يوماً محدّداً؛ إذ إنهم لم يهلكوا بيوم واحد، بل بأيام مختلفة.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي؛ فالله سبحانه مُنزهٌ عن الظلم، وإنما المكلف هو من يظلم نفسه.

﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ يوم القيامة، سُمِّيَ بذلك؛ لأن الخلائق تتنادى فيه، فمن مُستشفِع، ومن لائم، ومن مُستغِيث، وفيه مُناداة المؤمنين للكافرين توبيخًا وتقريعًا، ومُناداة الكافرين للمؤمنين، ومُناداة المؤمنين بعضهم بعضًا، ومُناداة الكافرين بعضهم بعضًا، ومُناداة الملائكة لهؤلاء وهؤلاء كُلٌّ بما يُناسبه، والله أعلم.

﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مِمَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي: يوم القيامة؛ حيث تُحاولون الفرار، لكن الفرار لا ينفعكم، فجهنم مُحِيطَةٌ بالكافرين، أعادنا الله والمسلمين منها.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مُفسَّرٌ بقوله تعالى المُتَقَدِّم: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فالله سبحانه إنما يُضِلُّ من يطلب الضلالة ويسعى لها، ويهدي كذلك من يطلب الهداية ويسعى لها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى، وهذا تذكيرٌ حكيمٌ لطيفٌ، ففضل يوسف على أهل مصر لم يُنسَ بعد.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين.

﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ بمعنى أن آباءكم كانوا على شك من دين يوسف رغم فضله عليهم والبيِّنات التي جاءهم بها، لكنهم حينما توفاه الله بالغوا في مدحه، وقالوا: لن يبعث الله رسولًا بعده، كأنهم يَعْنُونَ أنه لن يكون في الأرض مثله، وهذه عادةٌ بشريةٌ معروفةٌ؛ فحينما يكون المرء حيًّا بينهم يتتابهم شعور الحسد والقلق على بعض مصالحهم، فإذا مات ظهر ما كانوا يُخفُّونه من إعجابٍ به واعترافٍ بفضله؛ ولذلك ترى الجنائز في كثير من الأحيان موسماً للمديح حتى ممن كان مُخالفًا للميت أو مُخاصمًا له.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ بغير علم ولا برهان.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ تأكيد أن التكبر سبب أساس للضلالة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ إِنِ اتَّخَذْتَنِ ابْنًا فَإِنِّي لَمَكِيدٌ﴾ وهامان كان وزيرًا لفرعون، والصَّريحُ: البناء العالي.

﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴿أي: لعله يصل إلى أبواب السماوات وطرقها فيطلع إلى إله موسى! وهذه حماقة ما بعدها حماقة، وجهالة ما بعدها جهالة، إلا إذا كان يقصد بذلك إلهاء الناس وإشغالهم عن التفكير بدعوة موسى ﷺ، وهذا أمر مُعتاد عند الطواغيت.

﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ أي تمتعون فيها على قدر آجالكم ثم ترحلون عنها إلى دار القرار.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ هذا بعدله سبحانه.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا من فضله ورحمته وسعة جوده وكرمه؛ إذ جعل جزاء العمل الصالح من غير حساب، أي: من غير حد ولا عد.

ونص هنا على الأتني مع الذكر - مع أنها داخلة أصلاً في كل خطاب -؛ دفعاً لتوهم حرمانها من هذا الفضل، وتعريضاً بالظلم الواقع عليها من قبل المشركين.

﴿لَا جَرَمَ﴾ لا محالة، وهي صيغة من صيغ التوكيد.

﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: ليس لاهتكم المزيفة دعوة مُستجابة تتفعون بها لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّكْرُوءًا﴾ لم يذكر نوع المكر الذي مكروه به، لكن الظاهر أن الله نجاه منهم ومن كفرهم، ومن العذاب الذي حاق بهم.

﴿وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: نزل العذاب عليهم وأحاط بهم.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: يرون مقاعدهم من النار صباحاً ومساءً وهم في عالم البرزخ قبل البعث، فإذا قامت الساعة أُدخِلُوا في النار، وهذا دليل على الحياة البرزخية التي هي بين الموت والبعث، وهي من الأخبار الغيبية التي نقف فيها مع النص، ولا مجال لإدراك كنهها وحقيقتها، والقصد من

الإخبار بها معلوم، وهو قصد عملي يدفع المؤمن للحيلة والحذر، ومراقبة الله في الصغيرة والكبيرة.

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَتُكَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْ نَصِيبٍ مِّنَ النَّارِ﴾ وهي مُحاجة لغرض التلاوم؛ إذ لا ينبي عليها شيء، والضمير يعودُ إلى أقرب مذكور، وهم آل فرعون، لكن التلاوم هذا ليس خاصًا بهم، بل هو عامٌ بين المستضعفين والمستكبرين من أهل النار، والعياذ بالله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ هذا غاية اليأس؛ إذ يستشفعون بملائكة العذاب لعل الله يخفف عنهم يومًا واحدًا من العذاب، فلم يعودوا يطمعون بأكثر من هذا.

﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هذا ردُّ خزنة النار على استشفاع الكافرين بهم، بمعنى أن استشفاعهم هذا باطل ولا ينفعهم بشيء.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ هذا وعدٌ إلهي، أما نصرهم في الآخرة - وهو اليوم الذي يقوم فيه الأشهاد - فظاهرٌ، وأما نصرُ الرسل ﷺ في الدنيا فظاهرٌ أيضًا بنجاتهم، وإهلاك أعدائهم، أما المؤمنون فالوعدُ بنصرهم الدنيوي قائمٌ على شروطٍ، كمثل قوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا فَنَفْسُلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦]، فإذا قصَّر المؤمنون في هذه الشروط، تخلفَ عنهم النصرُ، وربما يكون ثباتهم على أصل الإيمان وحفظهم من الفتنة نوعًا من النصر أيضًا، والله أعلم.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة.

﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ربط بين الوحي والعقل، على خلافٍ من يتوهم

الانفصال بينهما.

أولاً: أكد القرآن أهمية التحلي بالصبر، واللجوء إلى الله بالنسبة للداعية الذي يواجهه هذا النوع من الناس، وقد جاء الخطاب موجهاً للرسول ﷺ ثم من خلاله لكل الدعاة في كل زمان ومكان ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾.

ثانياً: شخّص القرآن بواعث هذا العناد والتكذيب المستمر، والمجادلة بغير علم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ فالكبر هو رأس الخطايا وأساس البلايا، ولقد ردّ القرآن على المشركين كبرهم هذا، مبيناً لهم حجمهم الصغير أمام هذا الخلق العظيم الذي لا يملكون فيه نصيباً، ولا يعلمون عنه إلا قليلاً ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثالثاً: نبّه القرآن إلى أهمية فتح منافذ المعرفة، والتأمل في هذا الكون وما فيه من آيات ودلائل لا تخفى إلا على من عميت بصيرته، وكلت قريحته ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١١) ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَى تَوْفَكُونَ﴾ (١٢) ﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (١٣) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧) ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

رابعاً: بيّن القرآن أن دعوة الإسلام إنما هي دعوة التوحيد الخالص وعبادة الله وحده دون شريك ولا وسيط ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَذْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴿هُوَ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

خامساً: حذر القرآن أولئك المشركين مما ينتظرهم في آخرتهم؛ حيث لا ينفع التلاؤم، ولا يجدي الندم ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَصْرِفُونَهَا ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنْ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلَّسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

دقائق التفسير

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ لإظهار العبودية الكاملة لله، واتهام النفس أمام الله من كمال العبودية، ثم إنه ﷺ هو الأسوة لأُمَّته، ومنه يتعلمون التوبة والاستغفار كما يتعلمون الشريعة والدين كله.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الباء للمصاحبة، أي: سبِّح ربك مُستصبحاً مع التسبيح الحمد.

﴿بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ عند غروب الشمس وشروقها.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمْ﴾ بغير علم ولا دليل.

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي: ليس في قلوبهم سوى الكبر، وهو الذي يدفعهم إلى

هذه المجادلة والمعاينة.

﴿مَا هُمْ بِكَافِرِينَ﴾ أي: لا يقدرُونَ على بلوغ ما يدفعُهُم إليه كِبَرُهُم، بمعنى أن الله سيقهرُهُم ويُذلَّهُم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فيه ردُّ على مُنْكَرِي البعث، بمعنى أن إعادة خلق الناس ليست بأكبر من خلق السماوات والأرض، والتي يُقَرُّ المشركون بأن الله تعالى هو الذي خلقها، وفيه أيضًا توبيخٌ لهؤلاء المُتَكَبِّرِينَ المُتَطَاوِلِينَ على الحق وهم لا يُعدُّون شيئًا أمام سعة هذا الكون وعظمته.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ الدعاء هنا معناه: العبادة بدلالة السياق، أي: اعبدوني أقبَل منكم وأُثْبِككم على عبادتكم.

وأما الدعاء بمعنى السؤال، فلا شك أنه من العبادة؛ لما فيه من معنى التذلل والخضوع، إلا أن استجابة الدعاء ينبغي أن تُفهم بمعناها الصحيح، وهو أن الله يتقبَّل هذا الدعاء ويُثيب عليه، وليس شرطًا أن تأتي الاستجابة على وفق رغبة السائل؛ لأن هذا من شأنه أن يعطل نواميس الكون، فلكل إنسان أمنيته التي لو تحقَّقت له ولكل سائلٍ مثله لتغيَّر هذا العالم، فلا يبقى فيه فقيرٌ، ولا مريضٌ، ولا مُبْتَلًى، فضلًا عن رهبة الإنسان من الموت ورغبته في الخلود، ودعاء الناس بعضهم على بعض، فالله ﷻ يستجيب لعباده الصالحين بميزان حكمته ورحمته لا بميزان البشر ورغباتهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين مقهورين.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضِيًّا صَالِحًا لِلْإِبْصَارِ وَالْحَرَكَةِ وَالْعَمَلِ.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصَرَّفون عن الحق؟

﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: فاعبُدوه وحده ولا تشركوا به أحدًا.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ لأنه تعالى خلق آدم من تراب وهو أبو البشر، ولأن جسد الإنسان إنما يتغذى وينمو بالنبات الذي يخرج من التراب، وبلحوم الحيوانات ومُنتجاتها، والحيوان إنما يتغذى من النبات كذلك، فأصل النشأة وسر استمرارها إنما هو التراب.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ تقدم الحديث عن هذا في أوائل سورة الحج.

﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ بمعنى أن الله لا يحتاج إلى الوسائل والوسائط، ولا إلى المعامل والهندسة الصناعية، وإنما إذا أراد شيئاً أو قضى أمراً فيكون كما قضى وأراد.

﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يَسْجُرُونَ﴾ أي: يحرقون، فيكونون لجهنم كأنهم وقودها وحطبها.

﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ احتراز عن الفرح بنعمة الله وفضله، فإنما المذموم إنما هو فرح الطغاة بطغيانهم، والمتكبرين بتكبرهم.

﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ والمرح هو اللعب أيضاً، وثنى به تنويعاً للخطاب، وتوسيعاً لما هم فيه من معنى الفرح الباطل والغفلة عن الحق.

﴿فَيَلْسَنُ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فيلسن المقام مقامهم.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فَمَا تَرْيَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آغَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

فاصبر إن وعد الله حق

في خواتيم هذه السورة جاءت التوجيهات الربانية إلى الرسول الخاتم ﷺ ثم لكل المؤمنين معه بالصبر على مشاق الدعوة، وانتظار الوعد الإلهي الذي لا يتخلف لا في الدنيا ولا في الآخرة، فعاقبة المؤمنين إلى خير طال الزمان أم قصر، وعاقبة المشركين إلى سوء مهما تمتعوا في هذه الحياة وطغوا وبغوا:

أولاً: يؤكد القرآن مرة أخرى أهمية التحلي بالصبر، لكنه صبرٌ مقرونٌ بالثقة المطلقة بوعد الله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فَمَا تَرْيَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾.

ثانياً: يربط القرآن بين هذه الدعوة المحمدية وبين الدعوات السابقة والسنن الإلهية الحاكمة لخط الدعوة في كل مراحلها الزمنية المختلفة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ثالثًا: يذكر القرآن بعظمة الخالق وآياته المنتشرة في هذا الكون ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُريكم آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾.

رابعًا: يذكر القرآن أيضًا بأحوال الأمم السابقة وتاريخ البشرية الطويل مع هذه الدعوة على اختلاف مراحلها ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾.

وفيه تأكيد لوعده الله الذي لا يتخلف، وتأكيد لسنة الله الماضية والتي لا تتغير ولا تبدل ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَكَيْفَ تَأْخِذُكَ بِعُضِّ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ من عذاب الدنيا، وقد حصل لهم ذلك في بدر وغيرها. ﴿أَوْ تَوْفِينَاكَ فَإِنَّا بَارِئُونَ﴾ أي لو توفيناك قبل أن ترى عذابهم - والخطاب للنبي ﷺ -، فالجواب أنهم سيرجعون إلى الله، وسترى عذابهم الأكبر، وليس معنى هذا أنهم لا يُعذبون في الدنيا بعد وفاته ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فيه جوابٌ ضمنى لمن يسأل عن سر وجود الأنبياء كلهم في هذه المنطقة ما بين الفرات إلى النيل؛ إذ إن من الأنبياء من لم يُذكر في القرآن الكريم، ولم تُذكر أرض بعثته، وفيه أيضًا تنبيه لنا ألا نتناول أحدًا من المصلحين والمؤثرين في العالم بسوء؛ لأنه قد يكون من هؤلاء النبيين الذين لم

يقصصهم الله علينا وإن حُرِّفَتْ رسالاتهم، فتحريفُ الرسالة الصحيحة واردة، كما حُرِّفَتْ رسالة موسى وعيسى ﷺ، فالتوقُّفُ عن القول بنبوَّتهم أو إنكارها أولى، والله أعلم.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ كِتَابًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والآية هنا: الخارقة التي يطلبها المشركون على سبيل التحدي؛ فالرسول ليس هو الذي يصنع المعجزات، وإنما الله هو الذي يُجريها على يديه تأييداً له، والله سبحانه هو الذي يختار المعجزة المناسبة لكل نبيٍّ وليس لمخلوق في هذا شأن.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ غير الأكل من لحومها، والركوب على ظهورها، ففي جلودها منافع أيضاً، وفي أوبارها وأصوافها وأشعارها، وغير ذلك.

﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أن الأمم السابقة التي أهلكها الله كانوا أكثر من قريش وأقوى وأكثر عمراناً في الأرض، وفي هذا تهديدٌ للمشركين وتخويفٌ لهم، ودفعهم إلى التفكير بما يُنجيهم من هذا الهلاك.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: فرحوا بما عندهم فرح المغرور المتكبر حتى أعماهم هذا الفرح عن تلك البيّنات.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا يُنكرونها ويستهزئون به.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ وهو البأس الذي حاق بالأمم السابقة؛ كالصيحة، والرجفة، ونزول هذا النوع من العذاب بعد تقدُّم الوعيد به يُلجئ الناس إلى الإيمان اضطراراً، وهو إيمان لا ينفع أصحابه؛ ولذلك ردَّ القرآن عليهم إيمانهم هذا: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

المجلس الحادي عشر بعد المائتين: فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ

المجلس الثاني عشر بعد المائتين: الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

سُورَةُ فَصَّلَتْ

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَتَبْتُ فَصَّلَتْ ءَابِتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرَةِ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَادَانَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَبَلِّغِ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۚ قُلْ أَبِئْتَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۚ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ يَدْعُوهُمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝١٤ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٧ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝١٨ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِمَ جُلِدْنَا لِمَ شَهِدْنَا عَلَىٰنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِي تَرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣ فَإِنْ يَصِيرُوا قَالَتِ النَّارُ مَتَوَىٰ لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَيْنِ ۝٢٤ وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْءَانَهُ فَرَانُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۝٢٥ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْقَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٦ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَتَوْا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخَالِدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِي أَصْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ بِجَعْلِهِمَا نَحْتِ أَقْدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ۝٢٩﴾

سورة فَصَّلَتْ جاءت لتحمل بشارة ونذارة، هذا هو موضوعها الأساس ﴿كَتَبَ فَصَّلَتْ عَائِيَّتُهُ، قُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ٢ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أما البشارة فإنما هي للذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، وهي موضوع الشطر الثاني من هذه السورة، وأما النذارة فهي لأعداء الله، وهي موضوعنا في هذا المجلس، وكما يأتي:

أولاً: أكد القرآن أنه كتابٌ مُنَزَّلٌ من الله الرحمن الرحيم، وأنه كتابٌ بشارية ونذارة ﴿حَرَّمْ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٢ ﴿كَتَبَ فَصَّلَتْ عَائِيَّتُهُ، قُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ٢ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

والتذكير بأسماء الله تعالى الدالة على الرحمة في سياق البشارة والنذارة يعني: ارتباط هذه المعاني بعضها ببعض؛ فمن رحمة الله تعالى بهذا الخلق أنزل هذه الرسالة المباركة لتُنذِرَ الناس، وتكفهم عن أسباب هلاكهم، ولترشدَهم إلى طريق هدايتهم وسعادتهم. وهذا أصلٌ عظيمٌ في فهم هذه الرسالة وخصائصها وما تهدف إليه، فالإسلام لا يدعو إلى التدين الذي يعذب فيه الإنسان نفسه، ولا يدعو إلى غرس الكراهية بين البشر، بل هو الرحمة في أوله ومُنتهاها، وأصله وفرعه، وعقيدته وشريعته ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثانياً: بين القرآن موقفَ المشركين في مكة من هذه الرسالة الكريمة ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ١ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾.

وهكذا يُصِرُّ هؤلاء الأشقياء الرافضون لنعمة الله عليهم ولرحمته بهم على أن يُعطّلوا كل أسباب المعرفة، فلا آذانهم تسمع، ولا قلوبهم تعي، بل كانوا يتواصون مع قرنائهم وشركائهم بهذا الصدود وهذا الإعراض ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلَفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾

ثالثًا: بين القرآن طبيعة الرسول ﷺ، وأنه بشرٌ مثلهم معروفٌ حسبه ونسبه بينهم، إلا أنه تميَّز عنهم بهذا الوحي ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وقد جاء هذا البيان في سياق تجريد التوحيد مما قد يعلق به من تأليه البشر ورفعهم إلى مقام الألوهية، كما فعل النصارى بنبِيِّهم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

رابعًا: نبَّه القرآن هؤلاء المشركين إلى دلائل الإيمان وبراهين التوحيد المبثوثة في هذا الكون الفسيح ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) وجعل فيها رُوسًا من فوقها وبرك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسَّالِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزِينَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿

خامسًا: ذكَّر القرآن هؤلاء المشركين بما أصاب أسلافهم من الأمم السابقة، وقد اختار لهم مثلين من القبائل التي كانت معروفة لهم بحُكم قُرب مساكنهم، وتشابهِهم في أعرافهم وتقاليدهم، وطبيعة تفكيرهم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (١٣) إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَابٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿

سادسًا: وبعد هذا التحذير من مصير كمصير عادٍ وثمود وما لاقوه من عذابٍ وهلاكٍ في

هذه الدنيا، عاد ليُحذّرهم من العذاب الأكبر والأدوم ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدَتْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٦﴾

وهناك يكون التلاوم فيما بينهم، ويتبرأ بعضهم من بعض بعد أن كانوا يتناصرون في هذه الدنيا ويتنادون لمحاربة الحق وأهله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾.

سابعاً: يُشير القرآن إشارة سريعة إلى علاقة العقائد الفاسدة بالسلوك الفاسد، والتقصير في حقوق الناس، والإعراض عن مُساعدة الفقراء والمحتاجين ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾.

ثامناً: وفي ثنايا هذه الآيات جاء التأكيد بنجاة المؤمنين وتمييزهم عن هؤلاء المجرمين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾، ﴿ وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ حم ﴾ تقدم الكلام في الحروف المقطعة أول سورة البقرة.

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ﴾ هو القرآن الذي جاءت آياته كلها واضحة المعنى مُبيّنة لأحكام

الله في العقيدة والشرعية، ومُفصلة لقصص النبيين وما فيها من دروس وعبر، فليس في

القرآن أُلْغِزَ وأُحَاجِيَ، ولا مُبْهَمَاتٍ وَطَلَا سِمَ، بل هو الهدى والنور في كُلِّ آيَةٍ من آياته، وكُلِّ كلمةٍ من كلماته.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بُلْغَتُهُ وَبَيَانُهُ، وإِلا فالقرآن ربانيُّ المصدر، عالميُّ الرسالة.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تَأْكِيدٌ لِلصَّلَةِ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْءَ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ هذا هو العِنَادُ الَّذِي يُعْمِي وَيُصِمُّ، وهو الَّذِي يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ طَرِيقِ الْهُدَايَةِ، فَقُلُوبُهُمْ لَا تَفْقَهُ؛ لِأَنَّهَا مَغْلَقَةٌ بِالْأَكِنَّةِ؛ وَهِيَ الْأَغْطِيَةُ الَّتِي تَحْجُبُهَا عَنِ التَّفَكُّيرِ، وَهِيَ أَغْطِيَةُ الْكِبَرِ وَالْغُرُورِ، وَأَذَانُهُمْ لَا تَسْمَعُ؛ لِأَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ بِالْوَقْرِ؛ وَهُوَ ثِقَلُ الْغُلِّ وَالْحَسَدِ، وَعَيُونُهُمْ لَا تَرَى؛ لِأَنَّ أَمَامَهَا حِجَابًا سَمِيكًا مِنْ صُنْعِ أَنْفُسِهِمْ، وَهَكَذَا يَكُونُونَ قَدْ اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ قَدْ أَغْلَقُوا بِأَيْدِيهِمْ كُلَّ مَنَافَذِ الْمَعْرِفَةِ فَأَقَامُوا بِذَلِكَ الْحِجَّةَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ تَعْرِيفٌ دَقِيقٌ لِلنَّبَوَّةِ، فَإِنَّمَا النَّبِيُّ بَشَرٌ يُوحَى إِلَيْهِ؛ فَمَنْ أَخْرَجَهُ عَنِ بَشَرِيَّتِهِ فَقَدْ ضَلَّ، وَكَذَلِكَ مَنْ ادَّعَى الْوَحْيَ بِأَيِّ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّهُ نَسَبَ النَّبَوَّةَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ سَمَّاها بِاسْمٍ آخَرَ، كَمَا يَفْعَلُ غُلَاةُ الشَّيْعَةِ بِبَعْضِ الْأَئِمَّةِ مِنْ آلِ الْبَيْتِ، وَآلِ الْبَيْتِ مِنْ ذَلِكَ بَرَاءً.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غَيْرُ مُقَطَّوعٍ وَلَا مُنْقُوصٍ.

﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ كَأَيَّامِنَا؛ لِأَنَّ يَوْمَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ نَاتِجٌ عَنْ دَوْرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا أَمَامَ الشَّمْسِ، فَيَوْمُهَا مُتَأَخِّرٌ عَنْ وُجُودِهَا بِالضَّرُورَةِ.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جِبَالًا.

﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾ فَالْأَرْضُ مَحَلٌّ لِبَرَكََةِ اللَّهِ وَخَيْرِهِ وَفَضْلِهِ، وَعِلَاقَةُ الْمُؤْمِنِ بِهَذِهِ الْأَرْضِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْوَدُودِ وَاللَّطِيفِ.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ ثَرَوَاتُهَا وَكُلَّ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ فِيهَا وَفَقَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ، وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ

أن يصنع الطمأنينة في نفوس الناس، ويزيح عنهم الشعور بالقلق والخوف من نفاد الرزق.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ هذا من الأخبار الغيبية التي لا قدرة للعقل على الإحاطة بها، أو تصوورها على حقيقتها كما هي في عالم الغيب، والمقصود منها واضح، وهو تنبيه العقل إلى عظمة هذا الخلق ودقته، ووضع العقل أيضًا في مكانه الصحيح، فهو يتدبر ويتأمل، ولا يتجاوز ذلك إلى القول على الله وعلى خلقه بغير علم.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: توجَّهت إرادة الله إليهما بأن يكونا فكانتا، وقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ معناه: الحتم الذي لا تردُّد فيه، وليس معناه نسبة الاختيار إليهما، فالسما والارض لا تملكان الإرادة ولا الاختيار، وقوله: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: كانتا كما أراد الله.

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أتم خلقهنَّ.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: شأنها، فلكل سماء وظيفة في هذا الكون، فالله لم يخلق هذه السماوات عبثًا، والوحي هنا معناه: التكوين الخلقى، كما قال في النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أي: كوَّنها وجعل فيها هذه الغريزة.

﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أي: زين السماء بالنجوم والكواكب، وفي هذا تنبيه لقيمة الجمال والتزيين.

﴿وَحَفَظْنَا﴾ هذه وظيفة أخرى للنجوم أن يحفظ الله بها السماء، وهذا خبر غيبي يؤمن به كما ورد، والمقصود به: تأكيد حفظ الوحي النازل من السماء عن أي شائبة من وساوس الشياطين وتحرُّصاتهم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: فإن استمرَّ أهل مكة في إعراضهم.

﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ تذكير لقريش بما أصاب أسلافهم من مُشركي الأمم السابقة.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كناية عن أن هؤلاء الرسل ﷺ قد سلكوا كل الشبل، واتخذوا كل الأسباب لدعوة أقوامهم.

﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ حُجَّة تُرَدُّهَا هذه الأقوام؛ لتشابه في طريقة التفكير عندهم، فهم لا يُريدون أن يُكرِّم الله إنساناً من بينهم بهذه الرسالة، بدوافع نفسية لا تحفى، وربما يقصدون أيضاً التعجيز أو التهكم.

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ﴾ هذا مبعثُ غرورهم واستعلائهم الباطل.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ هذا هو القياس الذي يُهذَّب النفوس، ويُلجم نزوات الأقوياء ليتواضعوا، فهم خُلِقُوا من لا شيء، وما كانوا يملكون من شيء، حتى الطعام والشراب وقضاء الحاجة لا يستقلُّون بها دون مساعدة الآخرين، فكيف يغترُّون اليوم بقوتهم وهم على علم بأنها زائلة لا محالة.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفة شديدة الصوت، والصرصرة: صوت الدوي والصفير الذي يصحب الريح إذا كانت مُسرعة.

﴿فِي أَيَّامٍ مَجْشَاتٍ﴾ في أيام مشؤوماتٍ نكداتٍ.

﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾ فأرشدناهم لطريق الهداية وعلمناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ رفضوا الهداية وآثروا الضلال.

﴿الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ العذاب الذي يُبينهم ويُذلُّ كبرياءهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي وأن الإنسان إنما يحصد ما زرع.

﴿فَهُمْ يوزَعُونَ﴾ يُجمَعُونَ في مكانٍ واحدٍ.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ شهادة اللوم والتوبيخ؛ لأن هذه الخواص كانت

تتصل بدعوة النبيين فيكفها أصحابها، ولو عقلوا لانتفعوا بها ونجوا مما أوقعوا أنفسهم فيه.

﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهو يُنطقُ لا نعلمُ كيفيته، لكنه ثابتٌ بالنصر ولا مانع منه في العقل، فالله الذي أنطق اللسان قادرٌ على أن يُنطق غيره.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بمعنى أنكم لم تكونوا تحذرون من هذه الشهادة؛ لأنكم كنتم تشكون بقدرة الله عليكم، ويعلمه بأحوالكم، ولم تكونوا تؤمنون بالبعث والحساب.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ بِهِ أَي: هذا الشكُّ الباطل، وتلك الأفكار الخاطئة هي التي أهلكتكم وقادتكم إلى هذا المصير البائس.

﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ماوى ومترل لهم.

﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْجِبِينَ﴾ أي: إن يعتذروا لا يقبل منهم عذرهم، وأصل العُتْبَى: الرجوع إلى ما يُرْضِي العاتِب.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ هيأنا لهم نظراء على شاكلتهم، وهذا من جنائتهم على أنفسهم وليس بظلم الله لهم - حاشاه -؛ إذ الذي يسير على درب الباطل لن يجد معه إلا قرناء الباطل، وهذه سنة من سُنن الحياة.

﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: زين لهم قرنائهم ما هم فيه من الباطل، حتى أحاط الباطل بهم من كل جنب، وفي هذا إشارة إلى تأثير البيئة في أخلاق الشخص وتصوراتهِ المختلفة.

﴿وَحَقَّقَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: حق عليهم الوعيدُ الإلهي بإهلاكهم وتعذيبهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا هو ديدنُ الباطل في مواجهة الحق، إنه يستخدم التضليل والتشويش والإشغال ولو باللغو الذي لا معنى له؛ إذ هو أعجز من أن يواجه الحق بالحجة.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ هذه حسرةُ الأتباع وهم يَجْنُونَ ثَمَارَ اتِّبَاعِهِمْ لَشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فليس لديهم سِوَى الْأَمَانِيِّ، والشعور بالغبن، والتشفي برؤية متبوعيهم في هذا العذاب المُهِين، وتحت أسفل السافلين؛ وجاء بصيغة التثنية للدلالة على المضللين من فريقَي الإنس والجن.

سُورَةُ فَصَّلَتْ

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَحْزَنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْلِيَّكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢٠٧﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٢٠٨﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظٍ عَظِيمٍ ﴿٢١١﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢١٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢١٣﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢١٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُيْلَقِي فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِنَافِثَةٍ أَوْ مَنَافِثَةٍ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٢١٧﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢١٨﴾ مَا يَقُولُكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١٩﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصِلُ آيَاتِهِ وَأَعْجِزُ وَعَرِيفٌ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٢٢٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٢٢١﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٢٢﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٢٢٣﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيسٍ ﴿٢٢٤﴾ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٢٢٥﴾ وَلَئِنْ أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُدِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٢٦﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٢٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٢٢٨﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢٢٩﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ ﴿٢٣٠﴾

الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

في الشطر الثاني من هذه السورة يتناول القرآن الأمة المؤمنة التي تحمل هذه الدعوة باستقامة وثبات، وما تتميز به من خلال صفاتٍ في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها، وما أعدّه الله لها من مؤيّداتٍ ومُبشّراتٍ، وكما يأتي:

أولاً: تستهلّ هذه الآيات ببيان هويّة هؤلاء الناس الذين يستحقّون هذه البشارة وهذا التأيد من الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَزُولُ مِنْ عَذْرٍ رَجِيمٍ﴾.

ثانياً: يُشخّص القرآن خصائص هذه الأمة المؤمنة في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهي أمة الدعوة إلى الله، وأمة العمل الصالح، وأمة الخلق الحسن، وأمة الصبر والحلم، والأمة التي تعتزّ بانتمائها الإسلامي، وبُعدّها عن سُبُل الغواية وطُرُق الضلال.

ثالثاً: يُنبّه القرآن إلى دلائل الإيمان والتوحيد في هذا الخلق، مُشيرًا إلى افتراق سبيل المؤمنين الموحدّين عن طريق الكافرين المشركين ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وهنا إشارة أخرى تربط بين هذه الأمة المؤمنة وبين أولئك المسبّحين لله في العوالم العلوية، وبهذا تنفتح الآفاق التي لا حدود لها أمام المؤمنين؛ لتمنحهم الثقة والطمأنينة وهم يواجهون مكر هؤلاء المشركين المعاندين.

رابعاً: ثم يُنبّه القرآن الكريم إلى عقيدة اليوم الآخر وثبوتها بالدليل الحسي الملموس، وافتراق المؤمنين عن الكافرين هناك تبعاً لافتراقهم هنا في هذه الحياة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُيْلَقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠.

خامساً: ثم يؤكد القرآن أنه الكتاب الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه الهدى والشفاء للمؤمنين ولكل من يفتح له قلبه وسمعه وبصره، أمّا أولئك المعاندون المكذبون فسيخسرون أنفسهم، ويخسرون كل شيء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ٤٣ وَلَوْ جَعَلْتَهُ قُرْآنًا آعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِي وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٤٤.

ثم يدعوهم إلى التفكير في مصيرهم وعاقبة أمرهم وهم يُجَارِفُونَ بإنكار رسالة الله الأخيرة إلى هذه الأرض دون علم ولا بينة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٤٥﴾.

سادساً: وكما ربط القرآن هناك بين مشركي قريش وبين عادٍ وثمود، ربط هنا بين المؤمنين بهذه الرسالة - رسالة محمد ﷺ - والمؤمنين بالرسالة السابقة؛ رسالة موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي

شَكَ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٦﴾

سابعًا: يؤكد القرآن في هذا السياق عِلْمَ الله الشامل الذي لا يغيب عنه شيء ﴿١٥﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿١٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجٍّ ﴿١٨﴾

ومناسبة هذا التأكيد: تأكيد أن كل ما ورد في هذه الآيات إنما هو الحق والصدق؛ لأنه صادر عن علام الغيوب سبحانه، وأيضًا لتأكيد الجزاء العادل الذي لا تشوبه شائبة، فالله يعلم كل حسنة وكل سيئة، ويعلم المصلح من المفسد، وفي هذا زيادة في تبشير المؤمنين، كما هو زيادة في إنذار المشركين.

ثامنًا: يُشَخِّصُ القرآن طبيعة البشر ودوافعهم الداخلية، ونزوعهم نحو العاجل من أمرهم، وكأنه يُنبِّه الكافرين والمُعاندين إلى الجانب النفسي العميق الذي يدفعهم إلى مثل هذا السلوك ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ﴿١٩﴾ وَلَئِنْ أَدْقَنْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٢١﴾

تاسعًا: بعد هذا الدخول إلى أعماق النفس البشرية، يأخذ القرآن هؤلاء الناس إلى تلك الآفاق الرَّخبة التي تمتدُّ المتأملين والصادقين مع أنفسهم بكلِّ دلائل الإيمان، ودلائل صدق هذا القرآن حتى تقوم الحُجَّةُ الكاملة، وتستبين السبيل بلا شُبْهة ولا غشاوة؛ ليهتدي من يهتدي عن بينة، ويهلك من يهلك عن بينة ﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٢٣﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ربط بين الإيمان والعمل مع تقديم الإيمان؛ لأنه الأصل، وما العمل إلا ثمرة منه، وفيه التوجيه بأهمية الاستقامة، فهذه قيمة ومعيار من معايير الصلاح.

﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ليس في الآية تحديد لوقت هذا التزل وهذا التبشير، لكنه من الواضح أنه قبل دخولهم الجنة، فيحتمل أن يكون ذلك عند الموت، ويحتمل أن يكون عند البعث، ولا مانع من الجمع بينهما.

وفي نزول الملائكة معنى مضاف من التكريم لهؤلاء المؤمنين المستقيمين؛ حيث تنزل ملائكة الرحمن من أجلهم لتبشّرهم وتهدئ من روعهم.

﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فالملائكة لا تؤمن بهم إيماناً غيبياً مجرداً، بل هم أحببنا الذين نودّهم ويودّوننا، ولا شك أن استشعار المسلم لهذا المعنى الجميل يغرس فيه روح الثقة والأمل الواسع، والشعور بالأنس والطمأنينة.

﴿تُزَلَّلُ مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ أصل النزّل: ما يُقدّم للضيف إكراماً له.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ثلاث صفات لهؤلاء الصفوة: دعوة إلى الهدى والخير، وعمل نافع صالح، وانتماء لهذه الأمة؛ أمة التوحيد والقرآن.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: ادفع السيئة بما هو أحسن منها، وهو بمعنى الإحسان إلى المسيء، وهذا أصل أخلاقي عظيم لا يقوى عليه إلا الصفوة من عباد الله.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ تأكيد لتأثير الأخلاق حتى في مواقف الأعداء؛ فالخصم الذي يرى منك الحلم والعفو والإحسان سيغيّر موقفه منك، هذا منطق

الفطرة، فمن ردَّ الإحسان بالإساءة فقد انتكست فطرته، وخرج عن طبيعة الأدميين.

﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: تلك الخصلة العظيمة لا

يتحلَّى بها، ولا يسعى إليها إلا المصابِرُ المثابِرُ صاحب المنزلة الرفيعة، والشأن العظيم.

﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: إن أصابك وسواسٌ من الشيطان؛ من

تشكيكٍ بالحقِّ، أو تزوينٍ للباطلِ فاحتمِ بالله، واطلب المددَ والعونَ منه.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَهُ﴾ أي: لا يملُّون.

﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ ساكنة يابسة لا نبات فيها ولا حركة.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: اهتزَّت بحركة الماء فيها، ونمَتْ بالنبات الخارج

منها.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ تشبيهٌ حسيٍّ؛ فإحياءُ البذرة الكامنة في التربة بعد سُكونِ

طويلٍ يُقَرِّبُ إلى العقل صورةَ إحياءِ الناس بعد أن يسكنُوا طويلاً في تربة الأرض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ الإلحاد هنا معناه: الإعراض عن آيات الله

الكونية، وعن آياته القرآنية، فلا يتدبَّرون هذه، ولا يُفكِّرون في تلك، حتى قادهم هذا

الإعراض إلى الكفر، فهؤلاء يتوعَّدهم الله هذا الوعيد: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ثم أكَّد مضمون

هذا الوعيد بقوله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وبلغ الوعيد مداه

بقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذه التأكيدات تدفعُ العاقلَ ليعيد النظر في

موقفه، وتنبُّه الغافل ليستيقظ من غفلته.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس فيه ثغرة في أيِّ جانبٍ من جوانبه، أو

حُكْمٍ من أحكامه تحتل الشكَّ، أو تلتبس بالباطل.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هذا الإخبار فيه تسليَةٌ لرسول الله ﷺ وهو

يواجه كلَّ هذا الصدود والإعراض، وفيه تأكيد العمق التاريخي لهذا الصراع بين جبهة الحقِّ

وجبهة الباطل.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: لقال المشركون مُعترضين: هَلَّا بُيِّنَتْ آياته بالعربية لفهمها.

﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ هذا القول من تيمّة اعتراضهم، يقولون: كيف يكون الكتاب أعجمياً، والمخاطب به عربياً؟

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ بمعنى أن هؤلاء المشركين لا يستفعون بهذا القرآن الذي نزل بلغتهم، ليس لغموضه وإبهامه فقد جاء مفصّلاً مبيناً، ولكنه الوقر الذي سدّ آذانهم، والعمى الذي غشى عيونهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا الأجل المُسمّى الذي حدّده الله لهم لقضى عليهم بالهلاك، ولكنه يُمهّلهم حتى انتهاء أجلهم.

﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يعلم الساعة إلا الله.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: كلُّ ثمرة تخرج من غشائها المحيط بها فالله أعلم بها.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ وهنا تشبيه لطيف بين الطفل الذي يكون في بطن أمّه ثم يخرج إلى هذه الحياة، وبين الثمرة التي تستر في غشائها وهي في شجرتها حتى تنضج فتخرج، وفي التشبيه إشارة إلى وحدة هذا النظام الكوني البديع الذي يشهد بوحدانيّة الخالق سبحانه.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنْنا مِنْ شَهِيدٍ﴾ هذا سؤال من الله يوبّخ به هؤلاء المشركين، فيُجيبونه بالندم والحسرة أنهم يعترفون له بأنه ليس فيهم شاهد يشهد اليوم بأن الله شريكاً.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ ما لهم من مَهْرَب.

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي: لا يَمَلُّ من طَلَبِ الرزق.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوُسْ قَنُوطٌ﴾ أي: وإن مَسَّهُ الفقرُ ونحوه فهو شديدُ اليأس، شديدُ القنوط، وهذه طبيعةٌ بشريةٌ إلا للمؤمن الواثق بربه، المُطمئن إلى رحمته، العارف بسرِّ هذه الحياة وأنها تقوم أساسًا على الاختبار وليس الاستقرار، واليأس والقنوط بمعنى متقارب.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ وهذه طبيعةٌ بشريةٌ أخرى، وهي بالمشرَكين الصَّق والأَلَيَق؛ حيث إنَّهم إذا أصَابَتْ أحدهم النعمة بعد الكرب والشدة نسَبَهَا لنفسه، كأنه يفخر بقدراته ومهاراته أن حوَّلَ النعمة إلى نعمة، والشدة إلى يُسر.

ثم يصل به هذا الغرور إلى حدِّ نسيان الآخرة أو الكفر بها: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ثم يتمادى أكثر ليقول: ﴿وَلَيْنَ تُرْجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ لأنه يرى نفسه أهلاً لكل خير، ولا يبعد أيضًا أن يقول هذا على سبيل الاستهزاء والسخرية من المؤمنين.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ وهذه طبيعةٌ ثالثة؛ فالإنسان في حال النعمة يطغى وينسى، ويعرض عن الحقِّ تكبرًا وغرورًا، فإن انتكس وافتقر وأصابه الضرُّ أكثر من الدعاء والسؤال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الخطاب فيه استدراج بالحوار للمشرَكين، فهم لم ينظروا تمام النظر في هذا القرآن، وإنَّما أعرضوا عنه استعلاءً واستكبارًا، فهو يقول لهم: ماذا لو كان هذا القرآن من عند الله؟ وهذا مُحتمل بالنسبة لهم وإن كان مُتيقَّنًا في حقيقة الأمر، والقصد من هذا الاستدراج: تشجيعهم على النظر والتفكير الجاد.

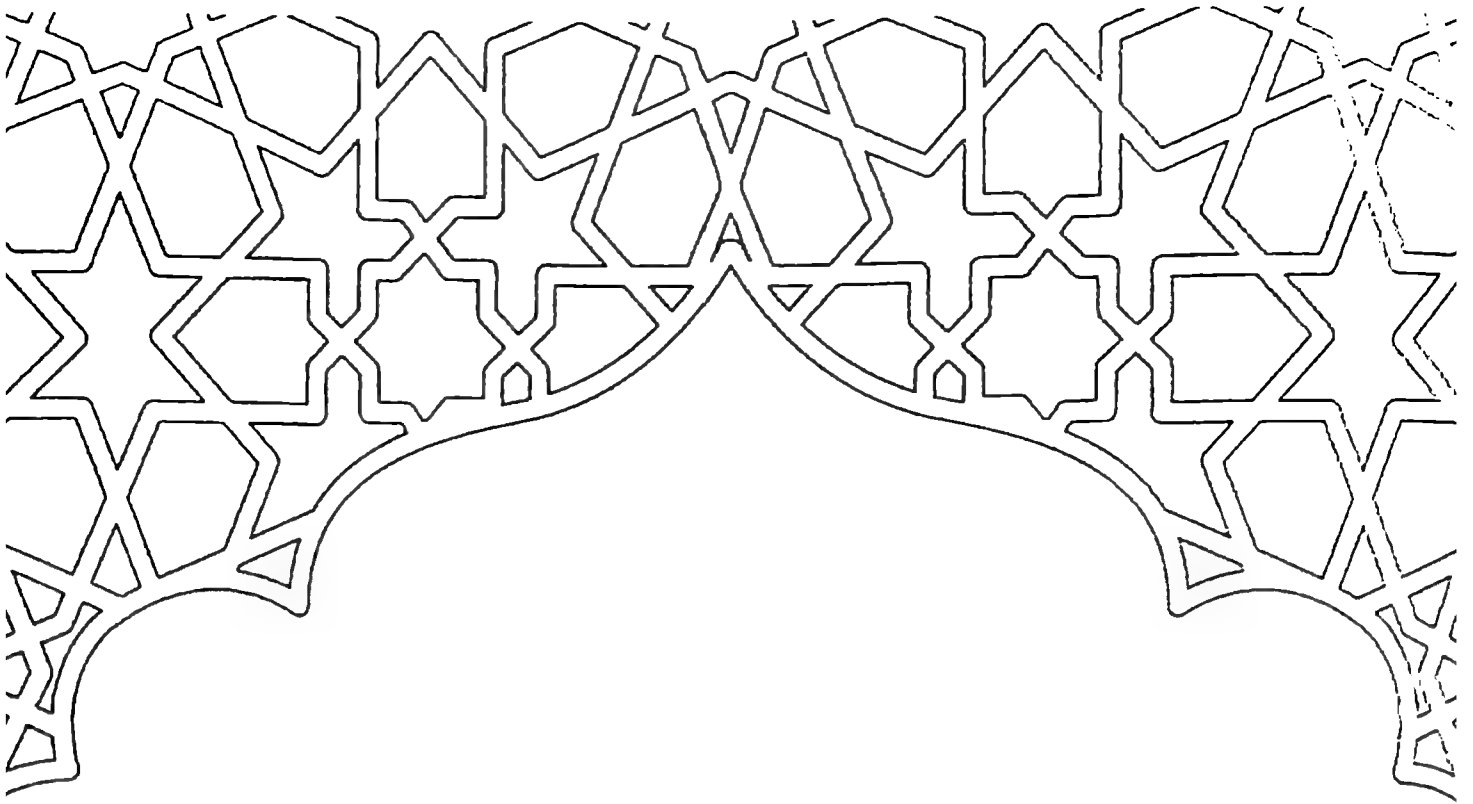
﴿سَرِيهِمْ أَيْنَتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ هذا وعدٌ إلهيٌّ بآته سبحانه سيؤيِّد هذا القرآن بالدلائل القاطعة في آفاق الكون، وفي حياة الإنسان وأسرار تكوينه، فكلُّها تقدَّم العلم وتوسَّعت الكشوفات الكونية والعلمية، ظهرت دلائل القرآن وأدلة صدقه.

وفي الآية أيضًا إشارة لقريش يتوعدّهم بظهور آياته فيهم، كما حصل لهم في بدر، ثمّ في فتح مكّة، وأنداك ظهر لكلّ متشكّك فيهم أنّ هذا القرآن إنّما هو الحقّ، فدخلوا في دين الله أفواجًا.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالمٌ بها في القرآن؛ لأنّه كلامه، وبها في الكون؛ لأنّه خلقه.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ﴾ في شكّ.

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ إي: إنّهُ سبحانه مُهيمنٌ على هذا الكون بعلمه وقدرته، فلا يغيّب عنه شيءٌ، ولا يُعجزه شيءٌ.



سُورَةُ الشُّورَى

المجلس الثالث عشر بعد المائتين: الوحي الإلهي لمحمد وللأنبياء السابقين ﷺ

المجلس الرابع عشر بعد المائتين: الذين يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ وَيَكْفُرُونَ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ

المجلس الخامس عشر بعد المائتين: الذين استجابوا لربهم وآمنوا بهذا الوحي

سُورَةُ الشُّورَى

﴿حَمْدٌ (١) عَسَى (٢) كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ سَاجِدُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَتَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا أَخْلَقْنَاهُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَيْفِيهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يُكَلِّمُ شَيْءٌ عَلَىٰ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تُلَيعَ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَكُمْ أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾

الوحي الإلهي لحمد وللاُنبياء السابقين

يُمثل الوحي الموضوع الأساس لهذه السورة؛ حيث استهلّت السورة بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ (١) عَسَى (٢) كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ثم ثلث بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ثم ثلث بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، وأخيراً راحت السورة تختتم بما استهلّت به مفصلةً للوحي وأنواعه ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ (١٥)﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾.

في الآيات الأول: جاء الحديث عن الوحي وامتداده التاريخي في سلسلة الأنبياء السابقين حتى كمل على عهد النبي الخاتم سيدنا محمد صلى الله وسلم عليه وعلى إخوانه النبيين أجمعين، ثم جاء الحديث بعدها مُركِّزاً في الذين كفروا بهذا الوحي، وجادلوا فيه بغير حق، ثم اختتمت السورة بأهل الإيمان وصفاتهم وأحوالهم، أولئك الذين استجابوا لهذا الوحي واهتدوا بهُداة، فهداهم الله لكل خير.

أولاً: أكد القرآن أن مصدر الوحي للأنبياء السابقين وللنبي الخاتم ﷺ إنما هو الله وحده ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا يقتضي وحدة الدين، فليس هناك أديان مختلفة كما يتوهم المتوهمون، وقد أكد القرآن نفسه هذه النتيجة الحتمية ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

وفي هذا السياق ينبغي أن نفهم طبيعة الرسالة الإسلامية، فهي رسالة عالمية ممتدة على مساحة الأرض كلها، وموصولة بالعمق التاريخي لكل الرسالات السماوية حتى وإن بدأت بمكة وكانت على لسانهم ولغتهم ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

فمكة مُنطلق الرسالة وليست الرسالة حكرًا عليها، والعربية لغة القرآن وليس القرآن حكرًا للعرب، فهذا كله منقوض بالسياق، ومنقوض بصريح قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثانيًا: أكد القرآن أن الدعوة الحق إنما هي الدعوة لهذا الدين بمفهومه العالمي الشامل، وبامتداداته التي تشمل الوحي الإلهي كله، والرسالات السماوية كلها ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ثالثًا: أكد القرآن أن الله سبحانه الذي أنزل هذا الوحي، وشرع هذا الدين هو الذي خلق هذا الخلق

وأبدعه، وبالتالي فهو الأعلَمُ بما يصلحُ له، بخلاف الأهواء التي تُحاول أن تُنازع الله في خلقه وملكه وأمره ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لِيَافِئَكُمْ فِيهِ فَتُزَوِّجَهُمْ بَيْنَهُمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وتأكيد الترابط بين وحدانيته سبحانه في الخلق، ووحدانيته في الملك، ووحدانيته في الحكم والتشريع منهج قرآني واضح ومكرر في كثير من سور القرآن، وهو ترابط منطقي أيضًا؛ فالذي يخلق هو الذي يملك، والذي يملك هو الذي يتصرف في ملكه كيف شاء.

رابعًا: ندّد القرآن بموقف المشركين الرافضين للوحي، والهائمين حول آلهتهم المزيّفة التي لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

خامسًا: ثم ندّد القرآن بأولئك الذين آتاهم الله العلم - والإشارة هنا إلى أهل الكتاب - لكنهم حَرَفُوا رسالات الله، وفرّقوا دينه، وأثاروا الفتنة بين عباده ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿حَمْدٌ (١) عَسَى﴾ تقدّم الحديث عن الحروف المقطّعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة.

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فمصدر الوحي لكلّ الأنبياء واحد وهو الله تعالى، وذكّر العزيز الحكيم شعير أن هذا الوحي فيه العزة والحكمة، وهما قوام الأمر.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَلَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يتشققن من أعلاهِنَّ، أو يتشقّقن من فوق الأرضين؛ لما فيها من شرك وظلم، و(تكاد) تُفيد استِعظام الأمر حتى كأنه يُوشِكُ أن يقع، لكنّه لم يقع، وهذا نظير

فوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْعَلْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٠].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الإخبار باستغفار الملائكة لمن في الأرض يشعر بالود والصدقة بين المؤمنين وبين ملائكة الله المقربين، وهذا الشعور له آثاره العملية الجميلة في حياة الناس.

﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ عليهم يُحصي أعمالهم ويُجازيهم بها.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: ما أنت بموكلٍ بهم ولا بمسؤولٍ عن صُدودهم وإعراضهم.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغته وفصاحته، وهذا لا ينفي عالميته.

﴿أُمُّ الْقُرَى﴾ مكة؛ سُميت بذلك لأنها سيّدة القرى.

﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة؛ سُمي بذلك لاجتماع الخلائق فيه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كما جعل الملائكة موحدّين على طاعة الله، ليس فيهم عاصٍ أو مُكذّب.

﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ هذا الاستدراك قُصد به بيان خصوصيّة هذا الإنسان؛ فهو مُكلّفٌ مُختارٌ، وهو يتحمّل مسؤوليّة اختياره، وليس مجبورًا أو مُجبرًا بطبيعة خلقته على فعل الخير أو الشر.

﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ بحكم أنّه سبحانه هو خالق الخلق، وهو أعلم بما يصلحهم، ومن ثمّ أنزل لهم هذا الوحي، وأقام عليهم الحجّة به.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ منشئها من العدم، وخالقها لا على مثالٍ سابق.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أصلٌ من أصول العقيدة الإسلامية، وركنٌ من أركان التوحيد فيها، فالله

ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له مُلكُها وخزائنها.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يُوسّع على من يشاء في الرزق.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيق على من يشاء.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فذلك البسط وهذا التقدير إنما يجريان بعلم الله وحكمته تعالى في خلقه.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أي: سنَّ لكم وأوضح وبين.

﴿أَنَّ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ إقامة الدين الحق تنفي الفرقة؛ لأنها تجمع القلوب على غاية واحدة، وطريقة واحدة.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شقَّ عليهم اتباع الحق الذي تدعوهم إليه.

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يختار الأنبياء من بين الناس ليحملوا الدين ويبلغوا الرسالات.

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: يوفق للدخول في هذا الدين من يطلب الهداية ويسعى لها.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ بيان لسبب تفرق أهل الكتاب مع وجود الوحي

بينهم، والسبب هو البغي، بمعنى أن سبب تفرقهم لم يكن عن اجتهاد في فهم الدين، وإنما اتباع الهوى والمنافسة في الباطل.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا أن الله حكَمَ بتأخير العذاب عنهم إلى الأجل المحدد بعلم الله وقدرته لتَمَّ الفصل بينهم والحكم عليهم.

﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم أحفاد أهل الكتاب الذين ورثوا الكتاب عن أجدادهم ثم عاصروا البعثة المحمدية.

﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي: لفي شك من هذا القرآن.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعُ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ﴾ ربط بين قيمة الصلاح والإصلاح؛ فالدعوة إلى الحق قيمة، والاستقامة على الحق قيمة أخرى.

﴿وَلَا تَبْغِ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إشارة إلى أن الضد من الصلاح والإصلاح إنما هو الهوى.

﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أمر بالإيمان بكل الكتب السماوية؛ تأكيداً لوحدة الدين،

وقد أكد هذا المعنى بقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ تأكيد لقيمة العدل، وقد أكد هذا بقوله: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ فتلخصت في هذه الآية أربع قيم رئيسة: الصلاح، والإصلاح، والوحدة، والعدل.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا مُحَاجَجة، بمعنى أنه إن تحققت هذه القيم فلا خصومة بيننا ولا مُزَاعة؛ لأن المُحَاجَجة لا تكون إلا بين خصمين مُتخِلِفِينَ.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة فيَجْزِي كُلَّ عاملٍ بما عمل.

سُورَةُ الشُّورَى

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ، حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١١) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٢﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَإِنْ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٣﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٥﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِنْ مَا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ آخِرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقِرْ بِحَسَنَةِ نَزْدِهِ، فَمِنْهَا حَسَنًا إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّقُ الْحَقَّ يَكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَاسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَزَيِّدْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢١﴾ وَلَوْ سَظَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٥﴾ وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٧﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٨﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعَفُّ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٩﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٠﴾

الذين يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ وَيَكْفُرُونَ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ

في هذه الآيات يعرِّض القرآن حال أولئك المكذِّبين بالوحي الذين يجادلون في الله بغير علم، بحوار ومقارنات تكشف جهلهم وتحذِّرهم ذلك المصير البائس:

أولاً: أكَّد القرآن أن هؤلاء المكذِّبين ليس لهم حُجَّة تدفعهم إلى هذا التكذيب ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ، حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّقُ الْحَقَّ يَكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ثانيًا: وَبَخَّ الْقُرْآنُ أَوْلَئِكَ الْمَكْذِبِينَ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ الَّذِي لَا يَسْتَنْدُ إِلَّا عَلَى خُرَافَةٍ فَاسِدَةٍ تُقَدِّسُ الْأَحْجَارَ
مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلَا فِكْرٍ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثالثًا: نَبَّهَ الْقُرْآنُ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ مِنْ أَسْبَابِ التَّكْذِيبِ وَالتَّيِّهِ وَالضَّلَالِ، وَهُوَ التَّشْكِيكُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ
وَالْجَزَاءِ، وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَدْفَعَ الْإِنْسَانَ نَحْوَ الظُّلْمِ وَالْعَبْثِ وَالْبَحْثِ عَنِ الْمَتَاعِ الزَّائِلِ ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

رابعًا: نَبَّهَ الْقُرْآنُ هَذِهِ الْعُقُولَ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ الْمُبْتَوِّةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ، وَالتِّي تَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ ﷻ
وَتَفَاهَةِ هَذِهِ الْآلِهَةِ الْمُزَيَّفَةِ وَحَقَارَتِهَا أَمَامَ هَذَا الْكَوْنِ الْكَبِيرِ ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ
وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ
الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِعْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾.

خامسًا: حَذَّرَ الْقُرْآنُ أَوْلَئِكَ الْمَكْذِبِينَ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُمْ جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ
وَعِنَادِهِمْ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُسْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ﴾.

سادسًا: فَتَحَ الْقُرْآنُ بَابَ التَّوْبَةِ الْوَاسِعِ، مُؤَكِّدًا وَعَدَ اللَّهِ الْأَكِيدَ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ مُقْبِلٍ عَلَى اللَّهِ،
صَادِقٍ فِي أَوْبَتِهِ وَتَوْبَتِهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿وَمَا
أَصْبَحَ كُفْرًا مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، ﴿أَوْ يُوقِعْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾.

سابعًا: يُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ عَقِيدَةَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ، وَأَنَّ كُلَّ عَامِلٍ إِنَّمَا يُجْزَى بِعَمَلِهِ؛ فَطَالِبُ الدُّنْيَا يُعْطِيهِ اللَّهُ مِنَ
الدُّنْيَا مَا يَشَاءُ، وَطَالِبُ الْآخِرَةِ يُعْطِيهِ اللَّهُ الْآخِرَةَ، وَاللَّهُ يَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ مَا يَشَاءُ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ

حَرَتْ الْأَخِرَةَ نَزَدَ لَهُ، فِي حَرِّهِ، وَمَنْ كَانَتْ تُرِيدُ حَرَّ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ، وَمِنَّا وَمَا لَهٗ، فِي الْأَخِرَةِ مِنْ أَصْدٍ، ﴿١٠٠﴾
يَقْتَرِفُ حَسَنَةً نَزَدَ لَهُ، فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٠١﴾، ﴿وَمَا أَسْتَبْهِكُم مِّنْ مُّصِيبَةٍ لَّيْسَ بِهَا كَسَبَتْ إِثْمًا، يَأْتِيهِ
وَيَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.

ثامناً: عرّض القرآن مقارنةً بين مصير أولئك البائسين الخاسرين وبين الوعد الإلهي المودود والبشري
الطيبة لعباد الله المؤمنين المتقين ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُتَشَفِّعِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بَيْنَهُمُ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ
(٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

تاسعاً: أكّد القرآن نزاهة الرسول ﷺ - وهو المبلّغ للوحي - عن أيّ مطمع أو غرضٍ آخر لا يتصل
بالوحي ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: إنّما أدعوكم لله ولا أبتغي بذلك أجراً غير
الحرص على إيصال الخير لكم؛ لأنكم أهلي وعشيرتي، فادعوكم لأن تصلّوا هذه القرابة ولا تقطعوا هذه
الرحم التي بيني وبينكم.

دقائق التفسير

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادلون في توحيده وإخلاص العبوديّة له.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: من بعد ما استجاب له المؤمنون الموحّدون، فأمنوا به وصدّقوا بنبّيه،
وظهر الحقّ، وقامت الحجّة.

﴿مُجْتَنِّهِمْ نَاحِضَةً﴾ باطلة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ الحقّ يعني: الصدق والصواب والثبات، بخلاف الكذب
والباطل والتذبذب، والميزان يعني: العدل والتوازن، فليس فيه ثغرة للظلم، ولا انحياز لجانبٍ على
جانبٍ، وهذه جملةٌ من القيم الرئيسة اختصّرتها هاتان الكلمتان الشريقتان.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: وما يُعلمُك، والعبارة تأتي عادةً لتهيئة المُخاطَب إلى الكلام الذي بعدهما إشعارًا بأهميته، وقريبٌ أي: قريب زمانها، والمعنى هذا شائع الاستعمال في قريبٍ وبعيدٍ ونحوهما، والله أعلم.

﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ على سبيل التحدي والاستهزاء.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون وجلون؛ لأنَّ فيها الحساب، والمؤمن مهما بلغ من الطاعة يبقى خائفًا وجلًا من ذلك اليوم، وهذا من علامات الإيمان، وهو الذي يدفعه لمحاسبة نفسه ومراقبة أعماله، وتلك حقيقة التقوى.

﴿يُمَارَوْنَ فِي السَّاعَةِ﴾ يجادلون في وقوعها.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أصلُ الحرث: تهيئة الأرض لزراعتها، ثم استعمل في الزرع نفسه وما يكسبه الناس نتيجة جُهدهم وعملهم، فيكون المعنى أنه مَنْ عمل للآخرة أعطاه الله أكثر مما يرجو.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: ومن عملٍ للدنيا أعطاه الله من الدنيا بحسب جهده، والله لا يظلم أحدًا، أما الآخرة فليس له نصيبٌ منها؛ لأنه لم يؤمن بها ولم يعمل لها.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ تأكيدٌ لحقِّه ﷻ وحده في التشريع؛ فكل حكمٍ لا يؤخذ من الوحي، أو يُستنبط منه، أو يُقصد به تحقيق مبادئ الوحي ومقاصده فهو حكمٌ باطلٌ مُتجاوزٌ على هذا الحقِّ الثابت لله، بحكم أنه لا خالق لهذا الكون غيره، ولا مالك له سواه.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا حكم الله السابق بتأخير الحساب إلى أجله المعلوم لحكم الله عليهم اليوم بما يستحقُّون.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: تراهم يوم القيامة خائفين مما كانوا قد اقترفوه في الدنيا من كفرٍ وظلمٍ.

﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: الجزاء الذي يستحقونه.

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ هذا استثناء منقطع؛ فالرسول لا يأخذ أجرًا على الدعوة أبدًا، وإنما دعاهم لصلة الرحم والحفاظ على مودة القربى التي تجمعهم ﷺ بهم، وهذا من حسن التلطف بهم، وجميل التواصل معهم.

﴿وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: ومن يكسب حسنة، والاقتراف: الاكتساب، وهو مُستعملٌ في الخير والشر.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بمعنى أن الله لا يُقرُّ من يكذب عليه، فلو كان ما يقولونه صحيحًا لَحُتَمَ الله على قلبك وسلبك الإدراك، وأنساك كل ما تقول.

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّطُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ هذا كلامٌ مستأنفٌ قُصِدَ به تأكيدُ سنَّةِ الله في إبطاله الباطل وإحقاقه الحق، وإنما يعرف الحق بكلمات الله ووحيه الثابت لأنبيائه ﷺ، والفعل (يَمْحُ) حَقُّه الرفع، وإنما حُذِفَ الواو تخفيفًا؛ إذ لا يصح عطفه على جواب الشرط؛ لأن المعنى سيكون: فإن يشأ الله يَمْحُ الباطل، كما أن رفع الفعل (يُخَيِّطُ) المعطوف على (يَمْحُ) دليلٌ آخر على الرفع.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يستجيب الله لهم ما يرجونه ويزيدهم فوق ذلك، هذا بدلالة السياق؛ لأن الفعل (يَسْتَجِيبُ) جاء بين أفعال كلها مُسندة إلى الله تعالى، فقبله جاء: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وبعده جاء: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ والله أعلم.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ بيان لسنَّة من سُنَنَ الله في الخلق؛ أنه سبحانه لا يُنْزِلُ الرزق إلا بقدرٍ معلوم، وفي هذا القدر يتفاوت الناس ليعخدم بعضهم بعضًا، ولتتنوع المِهَن والأعمال وأسباب الرزق، أما لو فتح الله لهم الرزق ووسَّع عليهم جميعًا، فإن الحياة ستوقف لتوقف كثير من الأعمال والحرف، ثم إن الترف مع كونه مدعاةً للكسل والإحجام عن كثير من الأعمال، فهو كذلك مظنة البطر والظلم، والله أعلم.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يُشَاءُ ﴾ ﴿ بيان لُسُنَّةٍ من سُنَنِ الله في الخلق؛ أنه سبحانه لا يُنْزِلُ الرزقَ إلا بِقَدَرٍ معلوم، وفي هذا القَدَرِ يتفاوتُ الناسُ لِيُخدمَ بعضهم بعضًا، ولتَنوِّعِ المِهَنَ والأَعْمَالِ وأسبابِ الرزقِ، أما لو فتحَ اللهُ لهم الرزقَ ووسَّعَ عليهم جميعًا، فإنَّ الحياةَ ستوقَّفُ لتوقُّفِ كثيرٍ من الأعمالِ والحرفِ، ثم إنَّ الترفَّ مع كونه مدعاةً للكسل والإحجام عن كثيرٍ من الأعمالِ، فهو كذلك مظنةُ البطر والظلم، والله أعلم.

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ تأكيدٌ لتحملُ الإنسانِ مسؤوليَّته؛ فمَنْ كَسَبَ خيرًا نالَ خيرًا، ومَنْ كَسَبَ شرًّا نالَ شرًّا، والمصيبةُ هنا: ما يُصِيبُ الناسَ في حياتهم الدنيا من قَحْطٍ ووباءٍ، وفتنٍ وحروبٍ، فهذه قد تكون نتيجةً لعملِ الشرِّ نفسِهِ، وقد تكون عقوبة إلهيَّة عاجلة لردع الظالم وتنبية الغافل.

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الخطاب للمشرِّكين بمعنى أنكم لا تجدون لكم مخرجًا أو مهربًا من عذابِ الله وقدرته عليكم، لا في الأرض ولا في السماء.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ شَبَّهَ السفنَ الكبيرةَ وأشرعتها العاليةَ بالجبالِ، مُنبِّهًا إلى قدرةِ الله في حملِ الناسِ وأمتعتهم على سطحِ الماءِ وفق توازنٍ كونيٍّ دقيقٍ، فتبارك اللهُ أحسن الخالقين.

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ تنبيهٌ إلى التوازنِ والتكاملِ بين ماء البحر وحركة الرياحِ وهذه السفنُ العائمةُ، فلو سكنتِ الرياحُ لتوقفتِ السفنُ، وهذا هو المعهودُ في تلك السفنِ الشراعيَّة التي لم تكن لها طاقة تُسيِّرُها سوى حركة الرِّيح.

﴿ صَبَّارٍ ﴾ كثير الصبر.

﴿ شَكُورٍ ﴾ كثير الشكر.

﴿ أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي: إنَّ الله قادرٌ على أن يغرقَهُمْ، ويُهْلِكَ مَنْ فِيهِمْ عقوبة لهم على شركهم وظلمهم، ومن رحمته سبحانه حتى بهؤلاء أن عَقِبَ على هذا بقوله: ﴿ وَنَعَفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾.

﴿ وَنَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالباطل تكذيبًا واستهزاءً.

﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَحْيِرٍ ﴾ ما لهم من مفرٍّ ولا مهربٍ.

عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ إِلَٰهٌ إِلَٰهٌ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝

ثالثًا: بيان أن الشورى هي الأساس الثاني بعد الوحي، والذي يقوم عليه هذا المجتمع المؤمن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ فكل ما لا نص فيه من الأمور العامة؛ كالسياسة، والإدارة، والعلاقات العامة، ومجالات السلم والحرب، وتعيين الولاة والقضاة، وسياسات التعليم، والاقتصاد والتدابير، والتعازير، ومواجهة التحديات، وحل المشكلات، كل ذلك لا بُدَّ أن يستند إلى الشورى بعد الاهتداء بنور الوحي، والشورى مسئوليَّة تتطلب العلم والأمانة في القول والشهادة، وليست هي حقًا مجرَّدًا.

رابعًا: بيان أن هذه الشورى مُتصلة بعقيدة الأُمة وهويَّتها، ومُنبثقة عن معنى العبوديَّة الخالصة لله، ومقرونة بإرادة الخير والتعاون والتكافل بين المسلمين ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

خامسًا: بيان أن هذا المجتمع المؤمن بالله والمصدق بوحي الله مجتمعٌ نظيفٌ وحليمٌ، إنه مجتمع الأخلاق والقيم والآداب الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرَ إِلَّاثِمٍ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

سادسًا: بيان أن هذا المجتمع مجتمعٌ قويٌّ وشجاعٌ، وقادرٌ على حماية نفسه بالحق والعدل دون تعسف ولا عدوان ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾، ثم بين القرآن قانون العدل في هذا، مرغَّبًا في الوقت نفسه بالصفح والعفو، فهذا من خلق المؤمنين الشجعان ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَلَمَنِ اتَّصَرَ بِعَدُوِّهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

سابعًا: بيان مُفترق الطريق بين هؤلاء المؤمنين الصادقين وبين أولئك الكاذبين المكذِّبين ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ ۚ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿وَتَرَنَّهُمْ يُفْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٌ مِّنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿١٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٦﴾

ثامناً: توجيه الدعوة لهؤلاء المكذبين وللناس كافة أن يستجيبوا لرَّبِّهم كما استجاب هؤلاء المؤمنون، وهي دعوة مقرونة بالتحذير من مغبة الإعراض والعناد ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ﴿١٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿١٨﴾

تاسعاً: تأكيد أن الله وحده مالك هذا الملك، وهو الذي يخلق ما يشاء، ويرزق من يشاء، ويمنع من يشاء بعلمه سبحانه الشامل لكل شيء، وقدرته التي لا يُعجزها شيء ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ ﴿١٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

عاشرًا: بيان أنواع الوحي الإلهي، وأنه سبحانه كما يخلق ما يشاء ويرزق من يشاء، يُوحى لمن يشاء، وبالطريقة التي يشاء، فله سبحانه الخلق والأمر، وليس لأحد سواه ﴿وَمَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ وهكذا تكون السورة قد ابتدأت بالوحي واختتمت به، والله الهادي سواء السبيل.

دقائق التفسير

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: ما أعطاكم الله من رزق فإنكم تتمتعون به مُدَّة حياتكم في الدنيا ثم يزول.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: ما أعدَّه الله في الآخرة لعباده المؤمنين خيرٌ من هذا المتاع وأدوم.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يكظمون غيظهم، ويتجاوزون عمن أساء إليهم.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ الشورى: تبادل المعلومات والآراء والنصائح للوصول إلى الرأي الأصوب فيها لا نص فيه من الشرع.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ والبغي هو: العدوان ومجاوزة الحق، وهذه الآية تهيئة للمسلمين أن يستعدوا لدفع الضر عنهم، وكانتا مقدمة لفقه القتال الذي نزل بعد ذلك في المدينة، ومعنى ﴿يَنْتَصِرُونَ﴾ هنا أنهم يردون البغي وينتفضون عليه.

والجمع بين هذه الآية والتي قبلها: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أن موجبات الغضب أوسع من البغي، وليس كل موجب للغضب يستدعي الرد، إلا إذا وصل إلى حد البغي ومجاوزة الحق والحد، كالعدوان الذي يستهدف الدين ووجود المسلمين، فهنا الانتفاض واجب بالقدر الذي يرد العدوان، والله أعلم.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ هذا ضابط في رد العدوان؛ أن يكون الرد بقدر العدوان فلا يزيد عليه ولا يتوسع به، وسمى الرد المشروع ﴿سَيِّئَةً﴾ على طريقة المشاكلة؛ لأنه رد لسيئة البغي.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عود على بدء في الترغيب بكظم الغيظ إذا لم يكن فيه خطر على الدين نفسه.

﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ما عليهم من إثم ولا حرج.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي: إنما الإثم على هؤلاء الظالمين، وليس على من رد الظلم عن نفسه.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ترغيب آخر في الصبر وكظم الغيظ، والقرآن يؤكد هذا؛ لما فيه من خلق نبيل، ولما فيه من مصلحة أيضا للمؤمنين وهم يعيشون تحت سطوة المشركين في مكة؛ لأن الرد على كل إساءة منهم قد يفتح بابا من الفتنة لا يتحمّله المسلمون في ذلك الوقت؛ ولذلك وصف هذا الصبر والكظم أنه من عزم الأمور؛ لأنه صبر عن وعي وحكمة وسداد رأي.

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: لما رأوا عذاب الآخرة صاروا يتمنون الرجوع إلى الدنيا.

﴿وَتَرَنَّهُمْ يُخَرِّضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار.

﴿سُتَبْرُوتُكَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يُسَارِقُونَ النَّظَرَ إِلَى النَّارِ خَوْفًا مِنْهَا وَكَرَاهِيَةً هَا.
 ﴿إِلَّا إِنْ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقَسَّرٍ﴾ أي: عَذَابٌ دَائِمٌ.

﴿وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إِلَى الْهُدَايَةِ وَلَا إِلَى النِّجَاةِ، وَإِضْلَالُ اللَّهِ لَهُمْ إِنَّمَا كَانَ عَلَى سُنَّتِهِ الْعَادَةِ
 سَبْحَانَهُ، فَهِيَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، وَلَا يُجْبِرُ أَحَدًا عَلَى الضَّلَالِ، وَإِنَّمَا مِنْ طَلَبِ الضَّلَالَةِ ضَلٌّ، كَمَا أَنَّهُ مِنْ طَلَبِ
 الْهُدَايَةِ هُدًى، فَلَوْ كَانُوا لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْهُدَايَةِ بِإِكْرَاهِ اللَّهِ لَهُمْ لَمَا اسْتَحَقُّوا الْمَلَامَةَ، وَلَمَا بَعَثَ اللَّهُ لَهُمُ
 الْأَنْبِيَاءَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ ذَكْرِ﴾ أي: لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تُنْكِرُوا شَيْئًا مِمَّا اقْتَرَفْتُمُوهُ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلَّا يَكْفُرُوا﴾ فَهَذِهِ وَظِيفَةُ الرِّسَالَةِ أَنْ يُبَلِّغُوا وَحْيَ اللَّهِ
 إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَلَيْسُوا مُؤَكَّلِينَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى إِرَادَةِ النَّاسِ وَهُدَايَتِهِمْ.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّجَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
 كَفُورٌ﴾ هَذِهِ طَبِيعَةُ بَشَرِيَّةٍ عَامَّةٌ؛ فَالْإِنْسَانُ يَفْرَحُ بِالنِّعَةِ، وَيَقْنَطُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ، وَقَدْ يُوصِلُهُ الْقَنُوطُ هَذَا
 إِلَى السُّخْطِ وَالْكَفْرِ، إِلَّا مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِنُورِ الْوَحْيِ، وَهَذَّبَهَا بِأَخْلَاقِ الْمُتَّقِينَ، وَقَدْ وَرَدَ قَرِيبًا مِنْ هَذَا فِي
 سُورَةِ الْمَعَارِجِ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿[المعارج: ١٩ - ٢٢].

﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتًا﴾ أي: يَهْبُ لَهُ الْإِنَاثُ دُونَ الذَّكَورِ.

﴿وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورُ﴾ أي: يَهْبُ لَهُ الذَّكَورُ دُونَ الْإِنَاثِ.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتًا﴾ أي: يَجْمَعُ لَهُ الذَّكَورَ وَالْإِنَاثَ.

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ فَلَا يُولَدُ لَهُ، فَهَذِهِ قِسْمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ، وَقَدْ عَقَّبَ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ
 عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ بِمَعْنَى أَنَّ هَذَا كُلَّهُ كَائِنٌ بِعِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ يُقَسِّمُ الْأَرْزَاقَ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ
 لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا هُوَ سَبْحَانَهُ.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ هَذِهِ ثَلَاثُ طَرَائِقٍ لِبَلُوغِ

وحي الله إلى أنبياء الله:

أولاًها: الإلهام، بأن يقذف الله في قلب النبي الوحي على سبيل اليقين والجزم، فذلك قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾.

وثانيتها: أن يسمع النبي كلام الله من وراء حجاب، كما حصل لموسى عليه السلام، وذلك قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾.

وثالثتها: أن يأتي ملك الوحي - وهو جبريل عليه السلام - فيبلغ النبي ما أمره الله به، والقرآن كله نزل بهذه الطريقة بدلالة قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]. وقد بقيت طريقة الرؤيا، وهي طريقة ثابتة من طرق الوحي بالنسبة للأنبياء، بدلالة قول إبراهيم لابنه إسماعيل عليه السلام: ﴿رَبُّنِيَ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۖ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فأجابه الابن: ﴿يَتَّبِعْ أَفْعَلَ مَا تُمُرُّ ۖ﴾، والأظهر أن هذا من جنس الطريقة الأولى وهي الإلهام، والله أعلم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: كما أوحينا إلى الأنبياء السابقين، أوحينا إليك هذه الرسالة الخاتمة، وقد سمّاها روحاً؛ تشبيهاً لها بالروح التي لا تكون الحياة إلا بها.

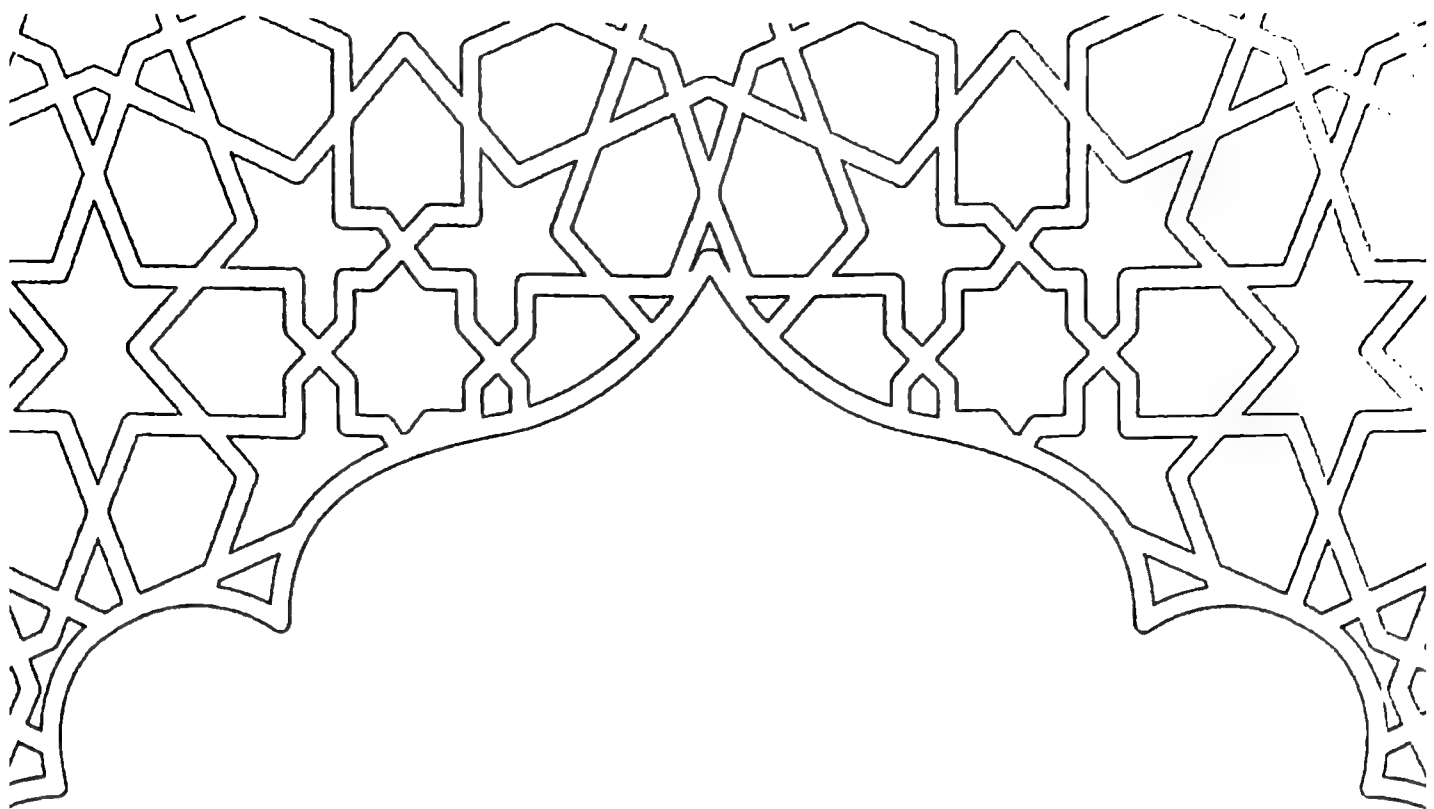
﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ أي: ما كنت تدري عن القرآن شيئاً قبل أن تُوحى إليه، ومع ما في هذا من المنّة، إلا أن المقصود الأكبر به: تأكيد أن هذا القرآن إنما هو من عند الله، فلم يكن النبي ﷺ عالماً به، ولا مُتَشَوِّفاً له.

﴿وَلَا إِلِيمَنُ﴾ وما كنت تعلم عن العقائد الغيبية؛ كأسماء الله وصفاته، وأحوال الآخرة وأهوالها، وكذلك أسماء النبيين وقصصهم، فهذا كله إنما علمه النبي ﷺ عن طريق الوحي، أما معرفة الخالق فهي فطرة مغروسة في الإنسان، ولقد كان ﷺ يتعبّد في حراء قبل البعثة، وكان موحّداً لله مُبرّئاً من الشرك، لكن معنى الإيمان أوسع من كل ذلك، والله أعلم.

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الوحي.

﴿نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهي المشيئة المتصلة بأسماء الله الحسنى، والتي تؤكد أن الله مُنَزَّهٌ سبحانه عن الظلم، فهو يهدي من يطلب الهداية، وَيُضِلُّ من يطلب الضلال، تمامًا كَمَنْ يشرب الدواء فيبرأ، أو يشرب السم فيموت.

﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والهداية من الرسول إنما هي الدعوة والإرشاد.
﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ فكلّ أمور الخلائق إنما ترجع إليه سبحانه وحده في الدنيا والآخرة.



سُورَةُ الْاِنْشِرَافِ

المجلس السادس عشر بعد المائتين: إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون

المجلس السابع عشر بعد المائتين: وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم

المجلس الثامن عشر بعد المائتين: واسأل من أرسلنا قبلك من رُسُلنا

المجلس التاسع عشر بعد المائتين: هل ينظرون إلا الساعة

سُورَةُ الرَّحْرِفِ

من الآية
١٥ - ٢٠

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبِيَاءِ لَكُنْزٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ فَاهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ تُمْ زَكَرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُسْقِلُونَ ۝١٤ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۝١٥ أَمْ أَخَذْنَا مِنْهُ بِنَاتٍ وَأَصْفَانَا يَأْتِيَنِ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْغَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِطَ كُتُبُهُمْ شَهِدَتْهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝١٩ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ أَنْتُمْ كَتِبْنَا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُثَبَّدُونَ ۝٢٢ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُثَبَّدُونَ ۝٢٣ قُلْ أُولَؤُوحِشْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝٢٤ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاظْطَرَّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ۝٢٩ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۝٣٠﴾

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

إذا كان الموضوع الأساس في سورة الشورى هو الوحي، فإن الموضوع الأساس لهذه السورة هو القرآن، ومن هنا تكون هذه السورة كأنها امتداد لسورة الشورى.

في هذه الآيات جاء الحديث عن القرآن في إطار الصراع المستمر مع الوثنية وأعرافها وتقاليدها، والتي كانت تُهيمن بشكلٍ شبه مُطلق على مكة وما حولها، بل وغالب جزيرة

نعرب، ويمكن تلخيص النقاط التي وردت في هذا الإطار بالآتي:

أولاً: بيان رسالة القرآن الخالدة في هذه الحياة، والتنويه ببيانه وعلو شأنه وحكمته ﴿حَمَّ
﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.

ثانياً: بيان أن موقف المشركين في مكة لا يختلف عن موقف المشركين السابقين في الأمم
الغابرة ممن كذبوا بأنبيائهم، واستهزؤوا برسالاتهم ﴿أَفَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن
كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾.

ثالثاً: بيان أن السبب الذي دفع هؤلاء المشركين وأسلافهم إلى هذا الموقف المعادي
لِلرسالة الإلهية إنما هو التقليد الأعمى لموروث الآباء والأجداد ﴿أَمْ أَنبِئْتُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ
فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٨﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ
﴿٩﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ
آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَاهِلُونَ مَا يَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ﴿١١﴾.

وقد تَضَمَّنَت هذه الآيات الإشارة إلى سبب آخر من أسباب هذا العداء، ألا وهو الترف؛
فالمترفون هم الذين يُبدون حرصاً أكثر من غيرهم على الموروث؛ لأنهم يخشون التغيير الذي
يرون فيه تهديداً لمكاسبهم التي ورثوها في ظل هذه الأعراف والتقاليد، والنظام الاجتماعي
القائم.

رابعاً: تنبيه العقول إلى آيات الله المبثوثة في هذا الكون، لعلها تستعلي على الواقع الصغير
والمُتخَلَّف الذي يُقدِّسُ الحجارة، ويخاف منها، ويُقدِّمُ القرابين لها، رغم اعترافه بأن هذه
الحجارة ليست هي التي خلقت هذا الكون ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لَتَسْتَوْا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾، فالذي خلق كل هذه النعم في البر والبحر والسماء، وجعل فيها هذا النظام الدقيق الذي لا تقوم الحياة بغيره هو الجدير بالشكر والعبادة، وليس تلك الآلهة الصماء البكماء.

خامسًا: التنديد بالتصورات الجاهلية الظالمة والآثمة بحق الله، والتي اعتادت الجرأة على مقام الألوهية بغير علم ولا دليل ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ أَمْ أَمَّا تَأْخُذُ بِمَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾.

فهم يُشْرِكُونَ مع الله آلهة أخرى، ثم لم يكتفوا بذلك، بل راحوا ينسبون إلى الله البنات، زاعمين أن الملائكة إنَّها هم بنات الله، وهم في الوقت ذاته يكرهون البنات ويحتقرونهنَّ إلى الحد الذي يبقى أحدهم مُسْوَدَّ الوجه حزينًا كثيرًا لو رزقه الله بنت، وهم بهذا قد ارتكبوا جريمتين: احتقار المرأة من ناحية، ثم نسبة هذا المُحتقر - بزعمهم - إلى الله!

سادسًا: تأكيدُ المفاصلة التامة بين طريق التوحيد وطريق الشرك، والتأكيد أيضًا للبعد التاريخي لهذه المفاصلة، بمعنى أنَّ هذا الافتراق لم ينشأ الآن، بل هو عميقٌ عمق الرسالات السماوية واختلاف الناس عليها ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢١﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾.

والتذكير بقصة إبراهيم ﷺ في هذا السياق إنما جاء لتأكيد الهوية الإسلامية وعمقها التاريخي، وكشف الانحراف الذي شطَّ بالمشرِّكين بعيداً عن الإبراهيمية السمحة التي لا زالوا يتشبَّثون ببعض شعائرها وآثارها.

سابعاً: التحذير من العاقبة الأليمة التي تنتظر المشرِّكين إن هم أصروا على شركهم وكفرهم ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾، ﴿فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿حَمَّ﴾ تقدَّم الحديث عن الحروف المقطعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تأكيدٌ للصلة بين الوحي والعقل؛ إذ إنَّ مُنْزَلَ الوحي وخالقَ العقل واحد، وهو الله ﷻ، فلو تنزَّه العقل عن أدْران التعصُّب والهوى والتقليد لاهتدى لنور الوحي بالضرورة.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ أي: إنَّ هذا القرآن موصوفٌ بالعلوِّ والحكمة في أصل الكتاب ومصدر الوحي، وهو اللوح المحفوظ، واللوح من الأمور الغيبية فلا نعلم كنهه ولا صورته، لكن المعنى العام له مرتبطٌ بعلم الله تعالى الأزلي، فيكون المعنى الإجمالي أنَّ هذا القرآن عندنا وفي علمنا الأزلي عليَّ حَكِيمٌ، والله أعلم.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أفنقطع عنكم الوحي ونمنع نزول القرآن إعراضاً عنكم بسبب إسرافكم في التكذيب والعناد والمكابرة، وهو سؤال قَصِدَ منه أنَّ الوحي ماضٍ ولن ينقطع بسبب جهلهم وسفههم، وأنَّ القرآن باقٍ في الأرض ما بقي الليل والنهار.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿بمعنى أنَّ فعلهم هذا ليس جديداً؛ لأنَّ دوافعه موجودة من القِدَم، فالتكبر والغرور والحسد موجودة

في طبع الإنسان، وهي كفيلاً بأن تجعله يُعرض عن الحقِّ إلا مَنْ زكَّى نفسه وحملها على الطريق الصحيح، وفي هذا تسليّة أيضاً لرسول الله ﷺ.

﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضى في القرآن ذكر الأمثلة من أولئك الأقوام المكدّبة وما جرى لهم.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مُهَدَّة لمعاشكم وسكنكم واستقراركم، فلا يوجد كوكب آخر - بحسب المعلوم إلى الآن - يصلح لحياة البشر كهذا الكوكب الذي أودع الله فيه كلّ مقومات الحياة.

﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ أي: فأحيينا بهاء المطر الأرض التي كانت ميتة وخالية من النبات، وجاء بوصف المذكر لموصوف مؤنث؛ للدلالة على معنى المصدر الذي هو أبلغ في الوصف، مع أن تأنيث البلدة مجازي، يصح فيه ما لا يصح في التأنيث الحقيقي.

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾ تشبيه لبعث الناس من جديد بإعادة الحياة للأرض الميتة بعد نزول المطر.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: خلق أصناف الموجودات وأنواعها، وذكرها وأنثاها.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: لتركبوا على وسائط النقل هذه في البر والبحر.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ لأنه سبحانه هو الذي خلقها ويسرها.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي: ذلك وطوّعه لنا، ومعلوم أن قدرة الإنسان البدنية لا تقوى على ترويض الخيول والجمال مثلاً، لولا أن الله تعالى أودع فيها القابلية على الترويض، وهذا التسخير في الحقيقة إنّما هو جزء يسير من ظاهرة التسخير على مستوى الكون؛ فالشمس والقمر، والبر والبحر، والشجر والثمر، والأنعام، كلّها تسير بنظام دقيق يؤدّي إلى خدمة هذا الإنسان، وسدّ حاجاته الكلية والجزئية، حتى التحسيني والتكميلي منها؛ كادوات التزيّن، والتطيّب، والتفكّه.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: وما كنا قادرين عليه لولا أن الله سخره وذلكه لنا.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: وإنا إلى ربنا لراجعون.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي: وجعلوا بعض خلقه جزءاً منه - تعالى ربنا عن ذلك -؛ كقولهم في الملائكة أنهم بنات الله، والولد جزءٌ من أبيه، فكأنهم بقولهم هذا جعلوا الملائكة جزءاً منه سبحانه.

﴿أَمْ أَمْتًا خَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بَالِغِينَ﴾ أي: كيف خصكم الله بالبني واختار لنفسه البنات؟ وهذا تنزلٌ لمستوى عقولهم، وإلا فنسبةُ البنين إليه سبحانه كنسبةُ البنات، فهو سبحانه الغني عن البنين وعن البنات، لكنهم - وهذا من عظيم جهلهم وسفاهتهم - يكرهون البنات ويحتقرونهنَّ، بدلالة قوله تعالى الآتي: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧) ﴿أَوْ مِنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

فهم لا يرون المرأة إلا متاعاً مُبتدلاً يُحسن التزيّن لهم، ولا يُحسن البيان ولا التخاصم والتقاتل، ثم بعد كلّ هذا يُخصّصون أنفسهم بالبنين، ويخصّصون الله بالبنات، فجمعوا بين القبحين: قبح نظرهم إلى المرأة واحتقارها، وقبح نسبة هذا المُحتقر عندهم إلى الله خالقهم.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ هذا استفهامٌ إنكاريٌّ قُصِدَ منه بيانُ جهلهم وجُرأتهم على الله بغير علم.

﴿سَتُكْنَبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ شديدٌ، وفيه تعظيمٌ لمسؤوليّة الكلمة التي ربّما لا يُلقِي لها صاحبُها بالاً، ولا يُعِيرُ لها شأنًا؛ فكثيرٌ من التصوّرات الجاهلة الظالمة تتسلّل إلى عقول البشر حتى تكون جزءاً من ثقافتهم، ثم يتحرّزون لها ويوالون فيها وكأنّها عقائد ثابتة بالوحي، وما هي كذلك.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ هذا نوعٌ من الاحتجاج بالقدر، وإلقاء اللوم على المشيئة الإلهيّة، وهذا هو الجهل بعينه، والظلم بعينه، فحاشا لله أن يُجِيرَ أحداً على شيءٍ ثم

يُعاقبه عليه، وإنّما هي مساحة الاختبار التي خصّ الله بها هذا الإنسان ليتحرك فيها بإرادته الحرّة، ثم هو يتحمّل مسؤوليّة خياره وقراره؛ ولذلك نسب الله هؤلاء المحتجّين بالقدر إلى الجهل والتخوّص ﴿مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يقولون قولاً بغير علم ولا بيّنة.

﴿أَمْ أَنْتُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ سؤال قصّد به توبيخهم على عنادهم وإعراضهم عن القرآن الكريم، وتأكيد أنّ قولهم في الملائكة لا يستند إلى علم، ولا إلى خبر صحيح.

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ على ملّة.

﴿قُلْ أُولَٰئِجِثُّكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ سارّعوا في الإنكار على النذير الذي بعثه الله إليهم دون تفكير، ولا سؤال، ولا حوار، وهذه علامة أنّ كفرهم لم يكن عن نظرٍ واستدلال، بل عن كبرٍ وسفهٍ وعنادٍ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: بريء من أوثانكم وأصنامكم، وبدأ الخطاب بأبيه؛ تأكيداً أنّ المفاصلة بين التوحيد والوثنيّة لا تحتمل المجاملة ولو كان المقابل أباً، فضلاً عن دونه.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: جعل إبراهيم ﷺ كلمة التوحيد باقية في ذرّيته، بمعنى أنّه ربّاهم عليها، ووصّاهم بها لتبقى محفوظة فيهم جيلاً بعد جيل.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَقّاً جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ يُخبر الله سبحانه أنّه أبقى هؤلاء المشركين ولم يستأصلهم رغم انحرافهم عن كلمة التوحيد، حتى يشهدوا الحقّ والرسول الخاتم الذي يُجدّد في الناس دعوة جدّه إبراهيم ﷺ.

سُورَةُ الزُّحْرِ

من الآيات

﴿٣١﴾ ٤٤

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) وَلِیُثْبِتَ أَفْئِدَهُمْ أَنُوبًا وَسُرًّا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ (٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥) وَمَنْ يَعْمُرْ عَنَّكَ الرَّحْمَنُ يُقِضْ لَهُ شَيْئًا لَّا يَحْصِيهِ قَرِينٌ﴾ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرِينُ﴾ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُتَسَرِّكُونَ﴾ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠) فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِضُونَ﴾ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢) فَاسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّا كُنَّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤)

وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم

ينتقل الحوار في هذه الآيات إلى اعتراض تلوُّكه ألسنة المشركين؛ حيث يقترحون على الله أن يختار لرسالته بدلاً عن محمد ﷺ واحداً من اثنين ممن يرضون عنهم بحسب مقاييسهم! فيكون هذا مدخلاً مناسباً لبسط موقف المشركين من القرآن، ودوافع هذا الموقف والفلسفة الكلية التي ينطلقون منها، ويتحرَّكون في داخلها، وكما يأتي:

أولاً: يُسجِّل القرآن اقتراح المشركين هذا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فيرد القرآن عليهم: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فالله ﷻ هو خالق الخلق، وهو مالك الملك، وهو الذي يتصرف في ملكه كيف يشاء، وكما

أن الرزق يقسمه الله بينهم ويقدره بحكمته ووفق الناموس الذي يُنظم حركة الخلق، ويضبط فيه التوازن المطلوب، فكذلك الوحي، بل هو من باب أولى؛ لأن مسؤولية الوحي أكبر من مسؤولية المال.

ثانيًا: يتوسّع القرآن في شرح المبدأ الكلي الذي يقوم عليه هذا التفاوت بين الناس ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٢) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣١) وَزُخْرَفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾.

فالله لا ينقص من ملكه أن يُعطي كل سائل ما أراد، وأن يمد هؤلاء المشركين بسُقْفِ الفضة وأبواب الزخرف، فكل هذا متاع زائل، لكن هذا يُخل بموازين الأرض، ويؤثر في حياة الناس ونظرتهم للحق والباطل، وربما يكون فتنة لبعضهم، وسببًا في انحرافهم واضطراب تصوراتهم وتصرفاتهم.

ثالثًا: يُحذّر القرآن هؤلاء المشركين المكذّبين بالقرآن والمعرضين عنه أنهم إنَّما يتبعون خطوات الشيطان، وأتَّهم سيشترون معه في مصير واحد؛ حيث الحسرة والندم، والعذاب الأليم ﴿وَمَن يَعْمَلْ عِثْرًا غَيْرَ طَيِّبٍ سَنَجْزِيهِ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٤) وَمَن يَعْمَلْ عِثْرًا غَيْرَ طَيِّبٍ سَنَجْزِيهِ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٥) وَمَن يَعْمَلْ عِثْرًا غَيْرَ طَيِّبٍ سَنَجْزِيهِ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٦) وَمَن يَعْمَلْ عِثْرًا غَيْرَ طَيِّبٍ سَنَجْزِيهِ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَمَن يَعْمَلْ عِثْرًا غَيْرَ طَيِّبٍ سَنَجْزِيهِ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾.

رابعًا: يبيّن القرآن أن سبب ضلالة هؤلاء إنَّما هو تعطيلهم لأسباب المعرفة وغلغلةهم لمنافذها، فلا هم يسمعون، ولا هم يبصرون ﴿أَفَأَن تَسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

خامسًا: يتوجّه القرآن بخطابه إلى النبيِّ الكريم ﷺ مؤكّدًا قدرة الله على هؤلاء المعاندين، وأن مصيرهم العذاب والهلاك، سواء كان ذلك في حياته ﷺ أو بعد وفاته، فالأمر لله وحده

من قبل ومن بعد ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (١١) أَوْ نُزِيلَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿١٢﴾.

ثم يُوصيه - والخطاب لأُمَّته من بعده أيضًا - بالتمسُّك بهذا القرآن؛ فهو الصراط المستقيم، وهو الذكر المبارك، والرفعة والشرف لكلِّ مَنْ استنار بنوره، واهتدى بهُداه، وهو كذلك محلُّ التكليف والاختبار، وتحمل المسؤولية ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١٤﴾.

دقائق التفسير

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ هذا قول المشركين يعترضون به على الله أن اختارَ لهم محمدًا ﷺ، وأرادوا بالقريتين: مكَّة والطائف؛ لأنَّهما أكبر قرى تهامة، وما بين القريتين من الصَّلات أقوى من صلتها أو إحداها يثرب وغيرها، ولم يسمَّ القرآن الرجلين، ورُبَّما لم يُصرَّح المشركون باسمهما أيضًا؛ لأنَّهم إنَّما أرادوا أن يختارَ الله واحدًا من عظماء مكَّة، أو من عظماء الطائف، فالهم عندهم أن يكون عظيمًا في ماله وجاهه وجبروته، وأن يكون من هاتين القريتين، أمَّا العلم والصدق والأمانة ومحبة الخير للناس فهذه معايير مؤخِّرة عندهم.

هذا وقد ورد في كتب التفسير روايات مختلفة في تعيين الرجلين، ولا مانع من بحثها وترجيح إحداها، لكنَّه مبحث لا يُغيِّر من دلالة الآية شيئًا ولا من مغزاها ومعناها.

﴿أَهْمَرِ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذا سؤال استنكاري يُنكر على المشركين جرأتهم على الله؛ إذ يقترحون عليه سبحانه الرسول الذي ينبغي أن يُرسله إليهم.

﴿لَيْسَ خِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ بيانٌ لحكمة الله في تفاوت الرزق، وتفاوت أسباب القوة والملك كذلك، فلولا هذا التفاوت لما توزَّع الناس على كلِّ المهن شريفها ووضيعها، وسهلها

وشاقَّها، فبهذا يُسخرُ الله النَّاسَ بعضهم لبعضٍ؛ لتكامل الحياة دون خللٍ أو اضطرابٍ.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بمعنى أنه لولا أن يفتتن الناس وينحازوا إلى الكفر فيكونوا مع الكافرين أُمَّةً واحدة، وجواب (لولا) ما بعدها أي: لأعطينا الدنيا بزينتها وزخرفها لهؤلاء المشركين؛ لأنَّ الدنيا ليست هي المقياس، فهي حياةٌ زائلةٌ فانيةٌ، وإنَّما العبرة بدار الخلود.

وفي هذا إشارةٌ إلى سببٍ من أسباب الفتنة، وهو تملُّك أهل الباطل لمقاليد الحياة الدنيا، والإشارة فيها جانبٌ عمليٌّ تكليفيٌّ؛ إذ واجب المسلمين أن يسدُّوا باب الفتنة هذا بحرصهم على العلوم والفنون، وأدوات التمكُّن والقوة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً.

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ مصاعد عليها يصعدون ويعتَلُّون.

﴿وَسُرُورًا﴾ جمع سرير.

﴿وَزُخْرَفًا﴾ الزخرف: الزينة؛ وأخرها لأنَّها تكميلٌ وتحسينٌ لكلِّ ما تقدَّم من سُقْفٍ ومعارجٍ وأبوابٍ وسررٍ.

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من يُعرض عن القرآن، وهذا من باب التمثيل؛ فالذي يُعرض عن الشيء كأنَّه يعشو عنه فلا يراه، والأعشى: ضعيف البصر.

﴿نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ وهذه نتيجة طبيعية ومنطقية؛ فمن أعرض عن الحقِّ تلقَّفه الباطل، فالشيطان يبتعد عن الذاكرين المتيقِّظين، ويقترَّب من الضالِّين الغافلين.

والتقيض: التهيئة، ومعناه هنا أنَّ الله جعل الغفلة عن القرآن سبباً لوجود قرناء الشرِّ من شياطين الإنس والجن.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين القرناء وأصدقاء السوء، وهذه أخطر أنواع الضلالة؛ لأنَّ الغارق فيها لا يرى أنَّه يرتكب ما يستوجب الرجوع والتوبة.

﴿يَنَاقِتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يتمنى أن لو كان بينه وبين قرنائه هؤلاء بُعد ما بين

المشرق والمغرب، وقد غلبَ لفظ المشرق على المغرب، وهذا شائعٌ في اللغة كما يُطلقون القمرين على الشمس والقمر، والله أعلم.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: نقبضك إلينا بانتهاء أجلِكَ في هذه الحياة قبل نزول العذاب بهؤلاء الذين آذوك وكذبوا رسالتك.

﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ جوابٌ للشرط المتقدم، أي: إن الله سينتقم منهم بعدك.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أي: نُبيِّك حتى ترى عذابهم.

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي: فَإِنَّا مُّقْتَدِرُونَ على إهلاكهم في الوقت الذي نشاء.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي: تمسك بالقرآن ولا تلتفت إلى هؤلاء المكذِّبين الضالِّين.

﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والصراط المستقيم: هو الطريقُ الحقُّ الجامعُ لكلِّ معاني الخير والعدل والفضيلة، والموصل في النهاية إلى رضا الله والجنة.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: وإنَّ هذا القرآن هو الشرف والرَّفْعَةُ لك ولكلِّ من اتَّبَعَكَ.

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عن قيامكم بحقِّ هذا القرآن.

سُورَةُ الزُّحْرِ

وَنُفِّلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٢٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفِرُوا آلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٢٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْفَقْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا صُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا يَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا صَرُّوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٢٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ ﴿٣٥﴾

واسال من أرسلنا قبلك من رسلنا

بعد هذه المحاورات والمواجهات العقديّة والفكريّة مع هؤلاء المشركين، ينتقل السياق إلى التخصّص النبوي، مُستشهدًا بالرسالات السابقة وما فيها من دروسٍ وعبرٍ، وإشاراتٍ ودلالاتٍ، ويتأكّد أنّ هذه الرسالة المحمديّة إنّما هي امتدادٌ لتلك الرسالات وإتمامٌ لها، وكما يأتي:

أولاً: يستشهد القرآن الكريم بالرسالات السابقة في إبطال الوثنيّة، وقد جاء هذا الاستشهاد بصيغة التوجيه المباشر للنبيّ الكريم ﷺ أن يسأل الرسل الذين من قبله، والمتصوّد النظر في قصصهم، واستقراء أحوالهم في دعوتهم واختلافهم مع أقوامهم، ثم

استنطاق المنتسبين إليهم إن كان أحد يعلم أن نبيًا من الأنبياء قد أقرّ قومه على الشرك وعبادة الأصنام ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ﴾.

ثانيًا: وفي هذا السياق أورد القرآن قصة موسى ﷺ مع فرعون، وهي نموذج للصراع الصارخ بين التوحيد والوثنية، وبين دعوة الحق ودعوة الباطل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ حيث كان موسى ﷺ يأتهم بالبيئات والآيات الظاهرات، فلا يواجهونه إلا بالكذب والافتهام بالسحر ونحوه، فلما أخذهم العذاب الأدنى وضاقوا به ذرعًا، أخذوا بالمرأوخة، وما علموا أنهم بذلك إنما يُجادعون الله، وهم في الحقيقة لا يخذعون إلا أنفسهم، وهذا كله إنما يصدر عن تصورات مُظلمة ومُرتبكة عن الإله الذي خلقهم من العدم، وخلق لهم هذا الكون الكبير من حولهم.

ثالثًا: وفي هذه القصة يأخذ القرآن مشهدًا من مشاهد الجاهلية وغرورها بقوتها والمتاع الزائل الذي عندها، وهذا لا شك سبب رئيس من أسباب العناد والمكابرة، والإعراض عن الحق مهما تجلّى بآياته ودلائله ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومِ الْيَسَّرُ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾.

والترابط هنا واضح بين فسق المجتمع وتحلُّله، ثم استخفاف الطغاة به، ثم خضوعه لهم وطاعته إياهم على ما هم فيه بلا رأي ولا روية، فالشعوب النقية المحترمة لا يستخف بها الطغاة، ولو حاولوا الاستخفاف بها لما وجدوا منهم السمع ولا الطاعة، لكنها المجتمعات

اللاهثة وراء الفئات ولو كان الثمن حريتها وكرامتها، أولئك هم الذين يُغرون الطغاة بهم، بل هم الذين يصنعون طغاتهم بأيديهم، كما يصنع المشرك صنمه من تمره الذي يقتات به. رابعًا: وفي نهاية القصة يعرض القرآن لتلك الخاتمة البائسة التي أحاطت بفرعون ومن معه ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾.

خامسًا: ثم انتقل السياق إلى قصة أخرى: قصة عيسى عليه السلام، جاعلاً المدخل إليها مُجادلة أثارها قريش حول هذا النبي الكريم ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾. ولم يفصل القرآن في فحوى هذه المُجادلة، لكن السياق يُشير إلى صلة الموضوع بتأليه النصارى لعيسى عليه السلام، ورُبَّما أخذه المُشركون حجةً للتشكيك في استشهاد القرآن بالرسالات السابقة، والذي تقدّم في صدر هذه الآيات، وكأنتهم بذلك يرون أن عقيدة النصارى أقرب إلى عقيدتهم؛ ولذلك قالوا: ﴿ ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ على سبيل المقايسة والمُشابهة، وما ورد في كتب التفسير لا يبعد بجملته عن هذا، والله أعلم.

سادسًا: وفي هذه القصة بيّن القرآن حقيقة عيسى عليه السلام ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ وفي هذا ردٌّ على تلك المُقايَسة، فعيسى عليه السلام بريءٌ من عبادة الناس له، وإنما هو التحريفُ الظاهرُ البين.

سابعًا: ثم بيّن القرآن حقيقة الدعوة التي جاء بها عيسى عليه السلام، وأنها لا تختلف عن دعوات الأنبياء الآخرين ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٣﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴾ فالاختلاف إنما جاء من الأحزاب الظالمة الأثمة التي حرّفت رسالته وأدخلت فيها ما ليس منها، فهؤلاء في

حقيقة الأمر ما عبدوا عيسى، وإنما عبدوا أهواءهم، وعبدوا الشيطان الذي زين لهم أعمالهم؛ ولذلك صدر القرآن هذا البيان بهذه الآية: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ أي: انظر في الرسائل السابقة، واستقرئ أخبارها وما ورد فيها، فهل تجد فيها ما يُثبت دعوة هؤلاء المشركين.

﴿وَمَا نُزِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: التي قبلها، والآية هنا: المعجزة القاهرة، وفيه أن هذا النوع من الطغاة لا تنفع معهم المواعظ، ولا الأدلة، ولا المعجزات، فما في نفوسهم من كبر وحسد كفيلاً بأن يُعمي قلوبهم وعيونهم.

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ يقولون عنه ساحر، وهم يطلبون منه أن يدعو ربه لعله يكشف العذاب عنهم، صحيح أنهم كانوا يُعظمون السحر، لكن مخاطبة النبي الذي جاءهم بكل تلك الآيات والمعجزات التي أبطلت سحرهم دليل على صلفهم وسفاههم.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ وهذه من أغرب الأحوال، فقد رأوا بأم أعينهم أن الله قد استجاب لنيي موسى ما طلبوه منه، فرفع عنهم العذاب الذي لم يستطع فرعون أن يُحرّك ساكناً فيه، ثم بعد كل هذا يرجعون إلى فرعون، ويكفرون بموسى وبرب موسى، وكأنهم هنا يتعاملون مع الله كما يتفاوضون مع ملوك الأرض بالخداع والمراوغة، وهو مظهر من مظاهر السياسة في الدول التي تقوم على أساس الظلم والخلق الفاسد.

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ هذا مقياس الفضل عند الفراعنة، فموسى لا يستحق النبوة في نظر فرعون؛ لأنه لا يملك الذهب، ومثل هذا قول المشركين عن محمد ﷺ

واقترحهم على الله أن يختار رجلاً من القريتين عظيم.

﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقْتَرِينَ﴾ وكأن ما جاء به موسى من الآيات والمعجزات لا يكفي لإقناع فرعون، إنه يريد المعجزة التي يختارها هو، أمّا المعجزة التي يختارها الله لنبيه فهي مرفوضة في منطق فرعون ولو كانت أكبر في الإعجاز، وأظهر في الدلالة.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ لم يُقم لهم وزناً؛ بل عاملهم معاملة العبيد والحوّل والخدم.

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ مع استخفافه بهم، وهذه خصلة خطيرة في الشعوب التي تستمرّ القهر والإذلال.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ وأصل الفسوق: الخروج، ولعلّ المراد هنا خروجهم عن الفطرة الإنسانية، فالإنسان مفطور على حبّ العزة والكرامة، ولو كان فيهما تلفّ نفسه وماله، لكنّ هؤلاء اللاهثين خلف فتات فرعون قد انتكست فطرتهم، وانقلبت إنسانيتهم.

﴿فَلَمَّا أَصَفُونَا﴾ فلما أغضبونا.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أي: عبرة سابقة لكلّ من يأتي بعدهم.

﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ مثلاً في مصير الظالمين لكلّ ناظرٍ ومتأملٍ.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ على قدرة الله؛ حيث خلقه الله من غير أب، كما خلق آدم من قبل بلا أب ولا أم.

﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: يضجّون بالنكير.

﴿وَقَالُوا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ مقارنةً خاطئةً ومقايضةً ظالمةً؛ فاشترك آلهتهم مع عيسى

ﷺ في أن الناس اتخذوهم آلهة لا يُسوَّغ هذا القياس، فعيسى نبيّ وله رسالة، وله سيرة ومنهج إصلاحٍ في هذه الأرض، وهو متبرئٌ تماماً من هذه العقائد الفاسدة، بخلاف هذه الأصنام التي لا ترى ولا تسمع، وليس لها ما تُعبّرُ به عن نفسها.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: شديدو الخصومة.

﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: جعلناه آية دالة على قدرة الله.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ أي: لو نشاء لأهلكناكم وجعلنا الملائكة في الأرض بدلًا عنكم، والمقصود أن الله إنما خلق الناس لغاية أخرى، وهي الاختبار وتمييز المصلح عن المفسد، ولو أراد سبحانه منع الباطل أصلًا لما خلق آدم وذريته، ولا كتفى بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ اختلف المفسرون في عود الضمير على قولين مشهورين:

الأول: أنه عائد إلى عيسى عليه السلام؛ لتقدم الحديث عنه، بمعنى أن نزوله في آخر الزمان - وهو الثابت في الصّحاح - سيكون علامة على قرب وقوع الساعة.

والثاني: أنه يعود إلى القرآن؛ إذ هو موضوع السورة الأساس، ومعناه أن في القرآن أخبار الساعة وأحوالها، والترهيب منها، والترغيب بالاستعداد لها.

ويُعْضدُ هذا تعقيب القرآن مباشرة: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ﴾ ولو كان قصد به نزول ابن مريم لقال: ولا تَمْتَرُنَّ به؛ لأنه إخبارٌ بمسألة غيبية خارجة عن معهود الناس، تستدعي بطبيعتها الريب والشك، خاصة أنها لم تُذكر إلا في هذا الموضع، بخلاف الحديث عن الساعة، فقد تكرر في أغلب سور القرآن.

ثم إن الأولى في المعطوف أن يُناسب لفظ المعطوف عليه، فقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أنسب أن تُعطف على: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ حتى لو طال الفصل، بخلاف عطفها على: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، والله أعلم.

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن التمسك بهذا القرآن، وعن الاستعداد للساعة.

﴿وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلُقُونَ فِيهِ﴾ الخطاب لبني إسرائيل؛ حيث اختلفوا كثيرًا في

التوراة، فبعث الله تعالى إليهم عيسى بن مريم ﷺ ليُبين لهم ما اختلفوا فيه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: زادَ خلافُ بني إسرائيل فيما بينهم، فبعد أن كانوا مُختلفين في شريعة موسى وتفاصيل أخبارها وأحكامها، صاروا يختلفون في نبوة عيسى، وفي براءة أمّه مريم.

سُورَةُ الشَّحْرِفِ

من الآية

٦٦ - ٨٩

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٦) الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾
 يَبْعَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
 تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾
 وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾
 لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
 جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَمْرُؤَا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾
 قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْزَنُونَ وَيَلْعَبُوا
 حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شِئَ بِالْحَقِّ وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنْتُمْ يُوقِنُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ
 فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

هل ينظرون إلا الساعة

في خواتيم هذه السورة جاء الحديث عن خاتمة هذه الحياة وما يعقبها من حساب وجزاء، وانقسام الناس هناك بحسب أعمالهم التي قدموها هنا؛ فمنهم الشقي، ومنهم السعيد، وتأکید القرآن لهذه العقيدة بعد كل حوار مع المشركين إنما يهدف إلى تكوين الدافع الذاتي في نفوسهم، لحملهم على استشعار جدية الأمر، لعلهم يتفكرون فيرجعون.

أولاً: حذر القرآن هؤلاء الغافلين من ذلك اليوم الذي سيغتتهم وهم لا يشعرون ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، ﴿ فَذَرَهُمْ يَحْزَنُونَ وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ مؤكداً أن علم الساعة إنما هو لله وحده، رب السماوات والأرض

وَمُنْشِئُهَا مِنَ الْعَدَمِ، وَمُقَدَّرُ آجَالِهَا وَمَالِكُ الْمُلْكِ فِيهَا ﷻ ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثانيًا: عرض القرآن المصيرَ البائس الذي ينتظر هؤلاء المكذبين؛ حيث سيكفر بعضهم ببعض، ويخاصم بعضهم بعضًا، وينسَوْنَ ما كان بينهم من صلواتٍ وقراباتٍ ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فالمتقون هم المستثنون من هذا العذاب، ثم يُرمى بأولئك المشركين المتخاصمين في نار جهنم؛ حيث لا يُفترَّ عنهم العذاب ولا هم يُرحمون ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ (٧٤) لَا يُفترَّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وهناك يستغيثون بخزنة النار فلا يردون عليهم إلا بما يُجزئهم ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِهِمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ (٧٥) قَالَ إِنَّكُمْ مَعَكُونَ﴾.

ثالثًا: أكَّدَ القرآن مبدأ العدل الإلهي؛ فهؤلاء المُجْرِمُونَ إنما أودى بهم جُرْمُهُمْ وظُلْمُهُمْ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ فقد كانت أفعالهم تُدَوِّنُ عليهم، حتى وهم يتناجون في السرِّ، ويمكُرُونَ في الخفاء ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

رابعًا: وقد كَشَفَ القرآن جانبًا من تناقضاتهم ليبين أن ما ذهبوا إليه من الشرك والوثنية لم يكن عن اجتهادٍ ونظير عقليٍّ، بل هو الهوى والعناد والمكابرة ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

خامسًا: قطع القرآن عليهم طريق الشفاعة تلك التي كانوا يرجونها من أصنامهم جهلاً وغروراً ومكابرة ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

سادسًا: في مُقابل تلك الصورة المظلمة القائمة، يعرِض القرآن صورة المؤمنين المتقين وهم ينعمون برضا الله تعالى والجنة التي كانوا يسعون لها، ويعملون من أجلها ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

دقائق التفسير

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي: هل ينتظرون إلا وقوع الساعة، والتعبير بـ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ مُشعرٌ بقربها وخطرها أكثر.

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة وهم غافلون عنها.

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أولئك الأخلاء الذين اجتمعوا على الباطل، سينقلبون يوم القيامة أعداء، وسيتبرأ بعضهم من بعض، أما المتقون فيزدادون ألفةً ومحبةً.

﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسْرُونَ.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ فالصِّحَاف للطعام، والأكواب للشراب، فأهل الجنة لا يُعَدُّون لأنفسهم طعامًا ولا شرابًا، وإنما يُطَاف عليهم به.

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ فهذه نعمة متكاملة تجتمع فيها اللذة الباطنة باللذة الظاهرة، وطيب المخبر بحسن المظهر.

﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ بمعنى: أُعْطِيتُمُوهَا خالصةً لكم، كما يُعطى الورثة ما يستحقونه من

الإرث.

﴿يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء أعمالكم الصالحة، وفيه تأكيد للعدل الإلهي؛ فهو لاء المتقون إنما ورثوا الجنة بتقواهم ويعملهم الصالح، وليس بأنسابهم وأحسابهم، ولا بجاههم وأموالهم.

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون، والحديث هنا عن أهل النار، فلا أمل لهم بانتهائه ولا بالخروج منه.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيد للعدل الإلهي، فالله سبحانه لا يظلم أحداً، وإنما هو حصاد ما زرعه لأنفسهم.

﴿وَنَادَوْا بِمَلِكِكَ﴾ يستشفعون بمالك، وهو خازن النار.

﴿لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ والقضاء هنا معناه: الإماتة، كما قال في قصة موسى ﷺ: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، فهو لاء الأشقياء يستشفعون بمالك إلى مولاه لعله يميئتهم ويخلصهم من هذا العذاب.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَعَكُوثُونَ﴾ أي: باقون ومُحَلَّدون، فيزيدهم هذا عذاباً أكبر مما هم فيه من العذاب.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ مع أن الفطرة تقتضي قبول الحق، إلا أن هؤلاء لا يرون في الحق إلا سلباً لمكاسبهم، ومنعاً لشهواتهم، وتكديراً للهوهم وعبيئهم، ومن ثم فهم يكرهونه كل هذا الكره.

﴿آمَأْتَرُمُوآمَرَ﴾ أي: هل أحكموا خطة للنيل من محمد ﷺ ودعوته وصحابته؟

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي: فإننا سنقابل كيدهم هذا بما يناسبه، وفي هذا تهديد لا يخفى.

﴿بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُوبُونَ﴾ أي: بلى نحن نسمع سرهم ونجواهم، ولدينا الملائكة الموكلون بحفظ كل صغيرة وكبيرة من أجل إقامة الحجّة عليهم.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ هذا على سبيل المُحَاجَّة، بمعنى أنه لو جازَ على قولكم أن يكون لله ولد ثم أثبتتم ذلك بالبرهان، لكنت أول المطيعين له، ولما ترفَّعت عن عبادته كما تترفعون أنتم عن عبادة الله مع إيمانكم بوجوده، وأنه هو الذي خلقكم وخلق السماوات والأرض، واستدراج النصارى ومن يقول بنبوة الملائكة لله إلى هذه المحاجة إنما قُصد به تعريتهم وإبطال حُجَّتهم.

﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ هذا التأكيد لتوحيد الله وتنزيهه بعد تلك المُحَاجَّة قصد به دفع توهم أن ذلك الافتراض الوارد في المُحَاجَّة قد يكون مُحتملاً أو له حظٌّ من النظر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: ليخوضوا ويلعبوا، على سبيل التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وفيه أن ما هم فيه ليس ديناً، ولا اجتهاداً أو نظراً محترماً، بل هو الخوض في الباطل واللعب، لا غير.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: هو النافذُ أمره في السماء والأرض، والمُستحقُّ للعبادة وحده من أهل السماء وأهل الأرض، ولا يمكن أن تكون السماء والأرض ظرفاً لله - تعالى الله عن ذلك -، فالله أجَلُّ من ذلك وأعظم.

وما السماء بما فيها والأرض بما فيها إلا خلقٌ من خلقه، وكلُّ خلقه محتاجٌ إليه، وليس هو سبحانه بحاجةٍ إلى أحدٍ من خلقه، والمقصود بالآية: نفي الشريك عن الله في الأرض كما يزعم المشركون بأصنامهم، ونفي الشريك عن الله في السماء كما يزعمون بالملائكة.

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يعلم وقت وقوعها غيره ﷻ.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ نفي للشفاعة التي يتوهمها المشركون في أصنامهم، والتي هي مبعثُ عبادتهم لها.

﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ استثناء للملائكة وبعض النبيين الذين عُبدوا من دون الله جهلاً وظلماً، فهؤلاء يشهدون لله بالحق، ويشفعون، لكنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى.

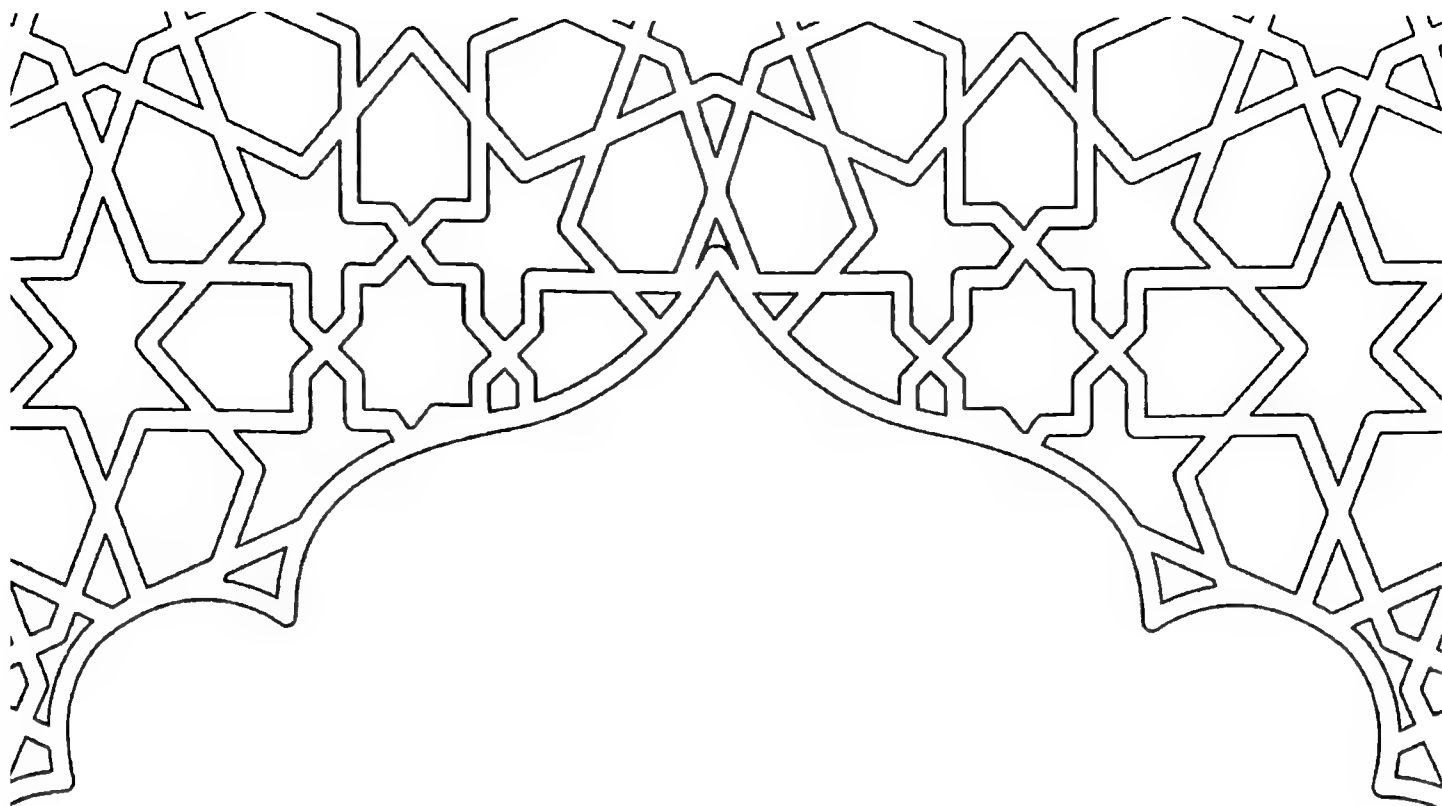
﴿فَأَنِّي يُؤَفِّكُونَ﴾ فَأَنِّي يُصَرِّفُونَ عَنْ هَذَا الْحَقِّ.

﴿وَقِيلَ يَرْبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو قول محمد ﷺ مُفَوَّضاً أَمْرَ هَؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ إِلَى رَبِّهِ، شَاكِياً لَهُ صُدُودَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ، وَيَجُوزُ فِي (قِيلَ) أَنْ يَكُونَ مُصَدِّراً لِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، أَي: وَقَالَ قِيلَ، أَوْ يَكُونَ مَفْعُولاً بِهِ بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَيَسْمَعُ قِيلَهُ، وَالْمَعْنَى بِكِلَا التَّقْدِيرَيْنِ وَاحِدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أَي: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَلَا تَشْغَلْ بِهِمْ، وَالْكَلَامُ عَنِ النَّفَرِ الْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا، وَلَيْسَ عَنْ كُلِّ الْكَافِرِينَ، فَفِي الْأَرْضِ مُتَّسِعٌ كَبِيرٌ لِهَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُبَارَكَةُ.

﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أَي: نُسَالِمُكُمْ فَلَا نُجَادِلُكُمْ، وَلَا نُخَاصِمُكُمْ، وَهِيَ كَلِمَةٌ جَمِيلَةٌ حَتَّى مَعَ أَوْلَئِكَ الْمُعَانِدِينَ؛ تَلِينًا لِقُلُوبِهِمْ، وَاتِّقَاءً لِسَرِّهِمْ.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مَا يَنْتَظِرُهُمْ نَتِيجَةُ تَكْذِيبِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.



سُورَةُ الدُّخَانِ

المجلس العشرون بعد المائتين: بل هم في شك يلعبون

المجلس الحادي والعشرون بعد المائتين: ولقد فتننا قبلهم قوم فرعون

المجلس الثاني والعشرون بعد المائتين: إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين

﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ رَبَّنَا أَكْرِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ الْمَجْتُونِ ١٤ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ١٦﴾

بل هم في شك يلعبون

على صلة بسورة الزخرف وموضوعها الأساس - وهو القرآن الكريم - تستهل هذه السورة بالحديث عن القرآن أيضًا، ثم تشرع بالحديث عن المشركين وشكوكهم ووساوسهم وتخبطاتهم، ثم ينتقل السياق إلى التاريخ لالتقاط العبرة من قوم آخرين تشابه موقفهم مع موقف هؤلاء المشركين، ثم تختتم السورة بالمصير المحتوم الذي ينتظر الجميع ولن يستثنى منه أحد.

أما الحديث عن القرآن ومواقف المشركين المُتَشَكِّكة والمُضْطربة فيمكن تلخيصها في الآتي:

أولاً: تأكيد أن هذا القرآن كتاب الله المبين الذي أنزله الله في الليلة المباركة، وهي الليلة التي يُفْرَقُ فيها كل أمر حكيم ﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤.

ثانياً: تأكيد أن الغاية الكبرى من هذا القرآن إنما هي الرحمة، رحمة الله السميع العليم بهذا الخلق، فهو سبحانه أعلم بخلقهم، وأعلم بما يصلحهم ويحقق الرحمة لهم ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا

كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

ثالثاً: تشخيص موقف المشركين أنه موقف لا يتسم بالجدية ولا الشعور بالمسؤولية، بل هو موقف لاعيٍ عابث ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ والشك وحده كان ممكناً أن يكون علامة على النظر والتفكير، والبحث عن الحقيقة، لكن اقترانه باللعب أبان عن معنى آخر، إنه الشك العابث الذي يكون مبعثه الحسد والكبر، وقلة المبالاة.

رابعاً: تحذير هؤلاء العابثين اللاعبين بما ينتظرهم في هذه الدار قبل يوم الحساب ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آنذاك سيقول هؤلاء المشركون كما جرت عادة بعض من تقدّمهم في هذا التكذيب والتشكيك: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ هكذا قال فرعون وقومه لموسى ﷺ: ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وهنا يؤكّد القرآن سنة الله في هذا الصنف من الناس ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ هكذا أيضاً كان موقف فرعون وقومه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠].

خامساً: وبعد كلّ هذا اللعب والمراوغات اللاهية العابثة، يأتي القرار الحاسم الذي يليق بهؤلاء، وفيه التحذير والعبرة الكافية لكلّ ناظرٍ وسامعٍ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿حَمَّ﴾ تقدّم الحديث عن الحروف المقطّعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يُقسم الله تعالى بكتابه العزيز؛ تعظيماً له، وتنبيهاً إلى ما فيه من هدى ونور.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ هي ليلة القدر، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ومعلوم أنها في رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذا النزول غيبي نتوقف فيه مع النص، أما نزول القرآن على محمد ﷺ فمن المقطوع به أنه لم يكن في ليلة واحدة، ولا في سنة واحدة، بل كان مفرقاً ومنجّماً ما بين بعثته الشريفة إلى وفاته ﷺ، ولا يمنع أنه قد ابتداء نزوله هذا في ليلة القدر.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ إشارة إلى كون القرآن نذيراً للعالمين.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: فيها يُقضى ويُفصل كل أمر مُحْكَم من الأمور التي يُقدِّرها الله لخلقه.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمداً ﷺ بهذا القرآن.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فالرسول رحمة، ورسالته رحمة، وليس في هذا الدين إلا الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، لكنّها رحمة لمن يقبلها لا لمن ياباها ويحاربها. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ والحديث عن المشركين الذين كفروا بهذا القرآن وشكّوا بما فيه من خيرٍ ووعيد، تشكيك الغافلين اللاعبين، وليس تشكيك الناظرين المفكرين.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الدخان معروف، وهو المنبعث من الحرق والنار، وقد وصفه الله تعالى بأنه مُبِينٌ بمعنى: ظاهرٌ للعيان لا يختلف فيه اثنان، وأنه عامٌ يغشى الناس، بمعنى أنه يعلوهم ويغطيهم، وهذا من علامات الساعة الثابتة، جاء في «صحيح مسلم»: «إِنَّهَا - أي: الساعة - لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ ..»، فَذَكَرَ: «الدُّخَانُ، وَالذَّجَالُ، وَالْدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

.. الحديث»^(١).

أما ما ورد من أن النبي ﷺ قد دعا على قريش بالسنين، فأصابهم القحط حتى كان أحدهم يرى مثل الدخان من شدة الجوع، فهذه وإن كانت أحاديث ثابتة وصحيحة، لكن يبعد تفسير الآية بها؛ لأن الذي رآه قريش لم يكن دخاناً مبیناً، ولم يكن يغشى الناس؛ ولذلك استبعده غير واحد من المفسرين بينهم ابن كثير، مع أن ابن مسعود فسّر الآية به، كما في رواية البخاري وغيره^(٢).

(١) رواه مسلم في «صحيحه» من طريقين كلاهما عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، الأول بلفظ: قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «مَا تَذَكَّرُونَ؟»، قالوا: نذكر الساعة، قال: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرُونَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ..»، فذكر: «الدُّخَانُ، والدَّجَالُ، والدَّابَّةُ، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وبأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك: نارٌ تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم» ينظر: صحيح مسلم (٨/ ١٧٨) - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

والطريق الثاني قريب منه، ولفظه: قال: كان النبي ﷺ في غرة ونحن أسفل منه، فاطلع إلينا، فقال: «مَا تَذَكَّرُونَ؟»، قلنا: الساعة، قال: «إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: خَسْفٌ بِالشَّرْقِ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالدُّخَانُ، والدَّجَالُ، ودَابَّةُ الْأَرْضِ، وَأَجُوجُ وَمَأُجُوجُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تُرْحَلُ النَّاسُ» ينظر: صحيح مسلم (٨/ ١٧٩).

والحديث رواه الترمذي عن حذيفة بن أسيد أيضاً، وقال عنه: (حسن صحيح)، ينظر: سنن الترمذي (٤/ ٤٧٧) - دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر، ورواه غيرهما.

(٢) نص الحديث في «صحيح البخاري» أنه روى عن مسروق قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس! من علم شيئاً فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَجَرٍ وَلَا آتِينَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وسأحدثكم عن الدخان، إن رسول الله ﷺ دعا قريشاً إلى الإسلام فأبطؤوا عليه، فقال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبَعِ يُوسُفَ». فأخذتهم سنة فحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْمِيتَةَ وَالْجُلُودَ، حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ دُخَانًا مِنَ الْجُوعِ. قال الله ﷻ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۖ يَغْشَى النَّاسَ ۚ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: فدعروا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْذِكْرَىٰ وَفَدَّجَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُنَا ۚ نَحْنُ كَافِرُونَ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿. أفُكْشِفُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قال: فكُشِفَ ثُمَّ عَادُوا فِي كُفْرِهِمْ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْظِمُونَ﴾ ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٨٠٩) - دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م).

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿ هذا دَيْدَنُ كَثِيرٍ مِنَ الْغَافِلِينَ اللَّاعِبِينَ، وهو أَنَّهُمْ حينَمَا يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَوْ مُقَدِّمَاتِهِ يَلْجَأُونَ بِالضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ، لَكِنَّهَا ضَرَاعَةٌ أَشْبَهَ بِحَالَةِ الْمُرَاوَعَةِ وَاللَّعِبِ أَيْضًا؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ عَائِدُونَ إِلَى اللَّجَاجَةِ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ تَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ ﴾ ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ ﴿ هَكَذَا فَعَلَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ كَمَا مَرَّ آنَفًا.

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ هَذَا تَوْبِيخٌ لَهُمْ؛ إِذْ كَانَ الْأُخْرَى بِهِمْ أَنْ يَتَفَكَّرُوا وَيَتَذَكَّرُوا لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالْآيَاتِ الْمُعْجَزَاتِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّعِظُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعَذَابُ.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ﴿ الْأَظْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَهَذَا هُوَ الْوَعْدُ الَّذِي مَا فَوْقَهُ وَعِيدٌ، وَذِكْرُ آيَةِ الدِّخَانِ قَرِينَةٌ أَيْضًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سُورَةُ الدُّخَانِ

من الآية

١٧ - ٣٧

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِنْ لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ آتَاكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تَرْجُمُوهُ فَلْيُرَاجُوا لِي فَأَعِزُّوهُ ﴿٢٠﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢١﴾ فَاسْرِعْ بَعَادِي لِئَلَّا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٢﴾ وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٣﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٤﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكِيهِينَ ﴿٢٦﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٩﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ وَهَآؤُنْتُمْ مِنْ آيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٣﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَنَّا إِنَّا بَنَاءِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٥﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون

في هذه الآيات يختار القرآن مثلاً لهؤلاء المشركين المعاندين، مثل فرعون وقومه، وموقفهم من رسالة موسى ﷺ ثم ما حصل لهم من عذاب وخراب:

أولاً: ذكر القرآن برسالة موسى ﷺ إلى فرعون وقومه؛ حيث دعاهم إلى إطلاق القوم المضطهدين - وهم بنو إسرائيل - وتحريرهم من نير العبودية الفرعونية، ثم دعا الفراعنة أنفسهم لطاعة الله، وترك التعالي والتكبر على الحق، وإلا فليتركوه وشأنه ولا يتعرّضوا له ولدعوته بالأذى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِنْ لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ آتَاكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تَرْجُمُوهُ فَلْيُرَاجُوا لِي فَأَعِزُّوهُ ﴿٢٠﴾﴾

ثانياً: أصرّ الفراعنة على موقفهم الظالم الآثم، ولحقوا بموسى والمؤمنين معه بعد أن تركوا لهم أرضهم وسلطانهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢١﴾ فَاسْرِعْ بَعَادِي لِئَلَّا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ

﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فَكِكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾

وهكذا انتهت قصة الصراع بين الفئة المؤمنة على استضعافها وفقرها وقلة حيلتها، وبين الفئة الطاغية المتجبرة؛ حيث أغرقهم الله جميعاً، فكانوا عبرة لكل مُعتبر.

ثالثاً: اصطفى الله تلك الثلثة التي آمنت بموسى ورسالته واختارهم على علمٍ على العالمين، وفي هذا إشارة مبشرة للثلثة التي آمنت بمحمد ﷺ أَنَّ الله سيصطفيهم وسيُمكن لهم دينهم ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

رابعاً: قارَنَ القرآن بين هؤلاء المشركين وما ينتظرهم جزاء ظلمهم وتكذيبهم وبين أسلافهم من المشركين ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنُؤَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ فهذه الأقوام التي أهلكها الله إنما أهلكهم لأنهم كانوا يقولون بما يقوله هؤلاء المشركون اليوم من تشكيكهم بالوحي، وتكذيبهم بيوم الحساب.

دقائق التفسير

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اختبرنا قوم فرعون قبل هؤلاء المشركين، والتذكير بفرعون في هذا السياق تنبيهٌ إلى التشابه بينهم في العناد والمكابرة والمراوغة.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ هذا قول موسى ﷺ يطلبُ فيه من فرعون أن يُسلمه بني إسرائيل ويسمح لهم بدخول مصر.

﴿يُسَاطِنِ ثَبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة.

﴿ فَاسْرِ يَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ هذا توجيهُ الله تعالى لموسى ﷺ أن يخرج بقومه ليلاً حتى لا يعلم بهم فرعون؛ لأنهم خارجون عنه بغير إذنٍ منه، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجُنده.

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهَوًا ۖ ﴾ أي: مفتوحًا؛ حيث الفجوة التي أحدثها الله وسط البحر بضربة موسى ﷺ والتي عبرَ منها موسى وقومه.

﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ حيث سيلتَم البحر عليهم، وقد كان ذلك كما أخبر ربُّنا سبحانه، فغرق في هذه الفجوة فرعون وجنده.

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي: كم تركَ فرعون وقومه في أرض مصر من بساتين وعيون كثيرة، إشارة إلى النعيم الذي كانوا يتمتعون به.

﴿ كَذَلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أي: أورثنا مصرَ لملوك آخرين بعد غرق فرعون، وهؤلاء الملوك هم من مصر أيضًا وليسوا من بني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل لم يعودوا ثانية إلى مصر بعد أن خرجوا منها، والله أعلم.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ هذا على سبيل التحقير لهم، بمعنى أنهم هلكوا كما هلك من قبلهم، فلم تحزن عليهم السماء، ولم تحزن عليهم الأرض، بل استمرت الحياة كما كانت ولم تتغير.

﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ أي: وما كانوا مؤخرين عن هذا الهلاك الذي جاءهم بالأجل الذي قدره الله لهم.

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ بخروجهم من مصر، وبهلاك فرعون الذي كان يسومهم سوء العذاب.

﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي: اصطفيناهم وفضلناهم على العالمين بعلمٍ منا، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ومن أين يختار لها حملتها، والمقصود بالعالمين هنا: الذين

كانوا في زمانهم، أمّا بعد البعثة المحمديّة فإن الله اختار هذه الأمة، واختار من هذه الأمة أولئك الصحابة الأبرار رضي الله عنهم وأرضاهم.

﴿وَأَيُّنَهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ البلاء هنا معناه: التمحيص والتطهير والتزكية؛ إذ البلاء يكون في الخير كما يكون في الشر ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَشَرِّينَ﴾ أي: وما نحن بمبعوثين للحساب.

﴿فَاتُّوا بِآيَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذه حجة المشركين في إنكارهم للبعث، بمعنى أنهم لا يريدون أن يؤمنوا بالبعث إلّا بعد أن يروه عياناً، وهذا من سقيم الرأي؛ فالعقول السليمة تبني المقدمات، وتستخرج النتائج الصادقة، ولا تتوقف عن القياس والاستنتاج إذا غاب الشيء عن الحواس، فالذي يرى بناءً أثرياً يجزم بوجود بناء بناءه وإن كان لا يراه.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ هذا تخويف آخر لمُشركي العرب أن مصيرهم لن يكون بأفضل من مصير الأمم المكذبة السابقة إن هم استمروا في عنادهم وتكذيبهم، وتُبَّع هو ملك اليمن، كما أن فرعون هو ملك مصر، وقد عُرِفَ قَوْمُ تُبَّعَ بالقوّة، وهذا معنى خيرتّهم، فـ ﴿خَيْرٌ﴾ هنا لمقارنة قوة قريش بقوة تُبَّع، كأنه يقول: أهُم أقوى أم قوم تُبَّع؟

سُورَةُ الدُّخَانِ

من الآية

٣٨ - ٥٩

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ۖ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۚ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُورِ طَعَامُ الْأَثِيرِ ۚ ﴿٤٣﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۚ ﴿٤٤﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ۚ ﴿٤٥﴾ خَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۚ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۚ ﴿٤٧﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۚ ﴿٤٨﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۚ ﴿٤٩﴾ إِنَّ السُّقَيْنَ فِي مَقَارِ أَمِينٍ ۚ ﴿٥٠﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُوتٍ ۚ ﴿٥١﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ۚ ﴿٥٢﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۚ ﴿٥٣﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ ءَامِينٍ ۚ ﴿٥٤﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۚ ﴿٥٥﴾ فَضَلَّامِينَ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۚ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْتَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۚ ﴿٥٧﴾ فَأَرْقُبْ إِنَّهُمْ مُرْقَبُونَ ۚ ﴿٥٨﴾﴾

إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين

بعد ذكر اختلاف الناس قديماً وحديثاً في هذا الوحي ورسالات الله المتتابعة إلى أنبيائه، وما جرى ويجري لكل فئة وفرقة، جاءت الآيات هذه لتختتم المشاهد كلها بمشهد واحد؛ حيث يقوم الناس لرب العالمين فيقضي بينهم بحكمه العادل الذي لا يظلم أحداً، ولا ينحاز إلى أحد؛

أولاً: تأكيد أن الله ﷻ لم يخلق هذا الكون عبثاً، كما يتوهم العابثون اللاعبون ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾. ثانياً: تأكيد أن يوم الفصل بين الناس والحكم عليهم بما يستحقه كل فريق منهم آتٍ لا محالة ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾.

ثالثًا: بيان عاقبة هؤلاء الظالمين الآثمين ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ٤٣ طَعَامُ الْآثِمِ ٤٤﴾
 كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٤٥ كَغَلِي الْحَمِيمِ ٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صُبُّوا
 فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ
 تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

رابعًا: بيان عاقبة المؤمنين المتقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٢
 يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ٥٣ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا
 بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ٥٥ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَتْهُمْ عَذَابَ
 الْجَحِيمِ ٥٦ فَضَلَّامِينَ رَبَّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفُورُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾

خامسًا: اختتمت هذه السورة المباركة بما استهلّت به، فعاد الحديث عن القرآن ورسالته
 في هذه الحياة: ﴿فَاتِمَّا يَسِرَّنْهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾ فَأَرْقَبُ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

دقائق التفسير

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيشَةٍ﴾ فيه ردٌّ على مُنْكَرِي البعث؛ إذ لو انتهت
 الدنيا عند هذا الحدِّ، يموت الظالم ويموت المظلوم دون أن يُنصف لهذا من ذاك، ويموت
 العالم والعامل، والكريم وصاحب المروءة كما يموت السفهاء والمجرمون والعابثون، بلا
 تمييز ولا ثوابٍ ولا عقابٍ، لو كانت الحياة كذلك فإنها ستكون مسرحًا هزليًا، ولعبًا لا قيمة
 له، ولا جدوى منه، وفيه تعريض أيضًا بنهج المشركين ونمط حياتهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
 يَلْعَبُونَ﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَعْسِلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْوَدُ﴾ أي: إن يوم القضاء العادل بين هذه الخلائق كلها
 هو موعدهم المحدّد الذي سيجمعهم جميعًا ولا يستثنى منهم أحدًا.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ والمولى هو المناصر من قريب أو صديق أو حليف، فلا تغني كل هذه الأواصر؛ لأن الميزان هناك إنما هو ميزان العمل.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ هذا استثناء للمؤمنين الذين اجتمعوا وتناصروا على حب الله وطاعته، فلا شك أن هذه الصلة تنفع يوم القيامة؛ لأنها جزء من العمل الصالح، فمحنة النبي ﷺ هي عمل صالح ينال به المحب الثواب من الله، والشفاعة من النبي، وهكذا محبة الصحابة الأبرار، وأهل البيت الأطهار، وكل الصالحين الأخيار.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿١٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ وهي شجرة خبيثة أعدت طعامًا لأهل النار، والأثيم: كثير الإثم المستوجب للنار.

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٤﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ والمهل يُطلق على المعدن المذاب كالقطران ونحوه، ويُطلق أيضًا على عكر الزيت المتبقي منه بعد تصفية الزيت منه، ومعناها متقارب، والله أعلم.

والحميم: الماء المغلي، والمعنى أن ثمرة هذه الشجرة الخبيثة تتحول في بطونهم إلى ما يُشبه القطران المغلي، والعياذ بالله.

﴿خَذُوهُ فاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: خذوا هذا المجرم وادفعوه إلى وسط الجحيم، والخطاب للملائكة العذاب.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ تقول له الملائكة ذلك على سبيل التهكم والازدراء، كما كان يتهكم بعباد الله ويزدرهم يوم أن كان مغرورًا بجاهه وماله.

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: هذا العذاب الذي تصلونَه اليوم هو الذي كنتم تشكون به وتجادلون فيه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ جاءت الإشارة هنا إلى الأمن؛ لأن الصور المُتقدِّمة كانت تخلع القلوب، فاحتاج المتقون إلى ما يُطمئنهم ويؤمنهم.

﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ تفسيرٌ للمقام الأمين.

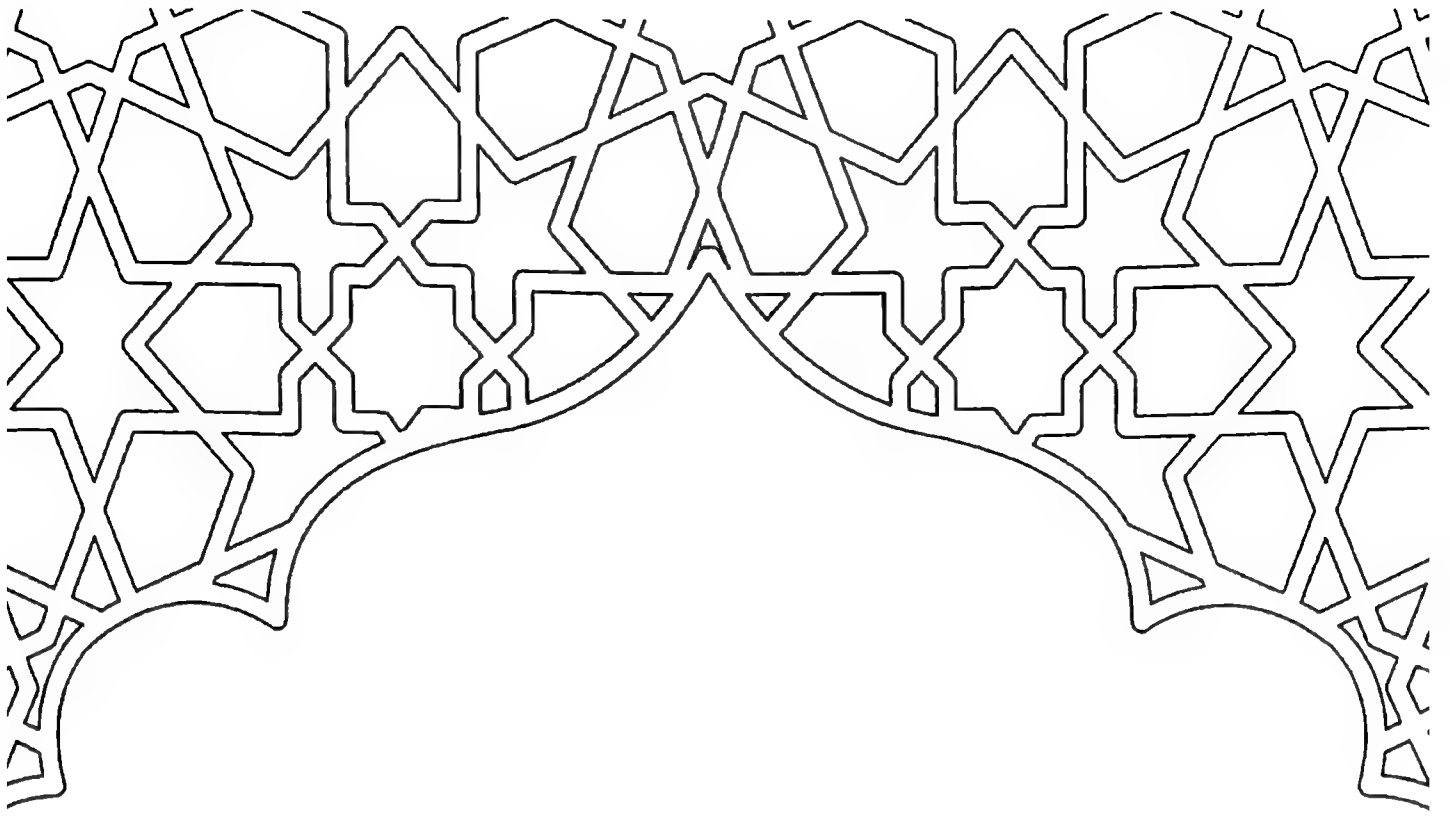
﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾ والسندُسُ: رقيقُ الحرير.

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ غليظُ الحرير.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ لأنَّ الله يجزي بالحسنات أضعافًا، ولأنَّ أصل جزائه إنَّها هو تفضُّلٌ منه، فهو سبحانه لا ينتفع بأعمالنا الصالحة، كما لا تُضُرُّه أعمالنا الطالحة، لكن هكذا قضت مشيئته أن يُميِّز بين المحسِن والمُسيء، وبين الصالح والطالح.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يسرنا تلاوة القرآن وفهمه على أكمل وجه، وأوضح صورة، وبلغتِكَ يا محمد ولُغة قومك لعلَّهم يتفكرون فيه، ويتدبَّرون آياته، فتستكين له قلوبهم، وتخضع له جوارحهم.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ إشعارٌ بجديَّة الأمر، وفيه الوعدُ والبُشرى لكلِّ مؤمنٍ يرتقبُ لقاء الله، والوعيدُ الشديدُ لكلِّ غافلٍ لا يخشى الله، ولا يرتقبُ إلَّا الموتَ الذي يراهُ نهايةَ الحياة.



سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

المجلس الثالث والعشرون بعد المائتين: هذا بصائر للناس وهدى ورحمة

المجلس الرابع والعشرون بعد المائتين: هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

﴿حَمْدٌ ۝١ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَلَيُخْلِفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَالْحَاجَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَضْرِبُ الرِّيحَ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا بَشِرَ فِيمَا يَحْدِيثُ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَبِئْرُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَتَمَعُ ءَايَاتُ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَيْهِ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٩ مِنْ رَأْيِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلْتُهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ۝١٥ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَوَّجْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَسْتَبِ مِنْ الْأَمْرِ فَمَا تَخَلَّفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٩ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن جَعَلْنَاهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخْيَاهُمْ وَمَمَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾

هذا بصائر للناس وهدى ورحمة

في هذه السور المتتالية يتتابع حديث القرآن عن القرآن؛ ففي الشورى كان الحديث عاماً في الدحي ومعناه وصوره، فاستهلت بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[الشورى: ١ - ٣]، وكأنها ثمهد لما تناولته سورة الزخرف التي استهلت بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿[الزخرف: ١ - ٣]، ولما تناولته سورة الدخان: ﴿حَمْدٌ ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ ﴿[الدخان: ١ - ٣]، ثم جاءت هذه السورة في السياق ذاته:

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿وواضحٌ من هذه الاستهلاطات أنَّ الموضوع الأساس لهذه السور واحد، لكن كل سورة تتناولُه من جانبٍ.﴾

في هذه الآيات من فواتح سورة الجاثية يأتي حديث القرآن عن القرآن ليتناول مسائل مما تستدعيه طبيعة الصراع في العهد المكي، وكما يأتي:

أولاً: تأكيد أنَّ هذا القرآن تنزيلٌ من الله العزيز الحكيم ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿وذكرُ هاتين الصفتين الكريمتين مُشعراً بتجلّيهما في القرآن الكريم، ففي القرآن العزّة والحكمة، وهما صفتان مُتكاملتان، والإشارة أيضاً إلى أثر القرآن في الأُمّة التي تؤمن به وتربّي أجيالها عليه أنها ستكون أمة عزيزة حكيمة.﴾

ثانياً: تأكيد الصلة بين آيات الله في الكتاب، وآياته في الخلق؛ فالكتاب كتابه، والخلق خلقه، فلا يمكن أن يتعارضَا أو يتناقضَا، وهما من مصدرٍ واحدٍ ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٣﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفَاكٌ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾

ثالثاً: تأكيد أنَّ هذا القرآن إنّما هو الحقُّ والهدى، والرحمة والبصائر التي تُبصّرُ الناسَ في شؤون دينهم ودنياهم، ومبتدئهم ومنتهاهم ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ٥﴾، ﴿هَذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ٦﴾، ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٧﴾

رابعاً: بيان أنَّ الذين يكذبون بهذا القرآن إنّما يكذبون به لكبرٍ في نفوسهم، فهم يكذبون على أنفسهم، ويستهزئون بالحق الذي جاءهم قبل أن يصغوا إليه أو يتفكروا فيه ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦﴾ وَرَبُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَشِيمٌ ٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى

عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مَن رَّآيَهُم جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾.

خامسًا: وصية المؤمنين بالحلم والصفح عن أولئك المكذبين المعاندين بعد أن استبانت لهم طريق الحق من طريق الباطل، وبلغتهم الدعوة بصورتها الصحيحة الناصعة، فلم يبق إلا أن يتحمل كل إنسان مسؤولية خياره وقراره، ولا يظلم ربك أحدًا ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾.

سادسًا: التذكير بالرسالة السابقة؛ رسالة موسى ﷺ الذي أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة، وبعثه في بني إسرائيل ليحملوا معه هذه الأمانة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وكيف أنهم اختلفوا مع كل هذا عن هديهِ ﷺ ونور الكتاب الذي كان معه ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَبِغْتُهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

سابعًا: وصية الرسول ﷺ وأُمَّته من بعده بالتمسك بشريعة الله الخاتمة التي نسخَ الله بها شريعة موسى ﷺ وكلَّ الشرائع السابقة، والابتعاد عن أهواء الذين لا يعلمون ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾.

دقائق التفسير

﴿رَحِمَ﴾ تقدّم الحديث عن الحروف المقطعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة. ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيدٌ للعلاقة بين العلم والإيمان، فالنظر في الكون يدعو للإيمان، والإيمان بالله يدعو للنظر في هذا الكون.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ باختلاف وجهتها وحركتها.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفَّاك: الكذاب كثير الكذب، والأثِيم: كثير الإثم.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ تعليل لاستحقاقه العذاب بأنه قد بلغته الدعوة، وأقيمت عليه الحجة.

﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على الكفر بها.

﴿مُستَكْبِرًا﴾ بيان للدافع الذي يدفعه لإنكار هذه الآيات بعد سماعها.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ فهو لم يسمع فقط، وإنما علم، وفي هذا تأكيد لبلوغ الدعوة له، وإقامة الحجة عليه.

﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من بعد حياتهم هذه.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ في حياتهم هذه من مالٍ وجاهٍ.

﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تُغني عنهم أصنامهم التي عبدوها من دون الله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تأكيد للعلاقة بين الدين والفكر، والإيمان والعلم، بخلاف ما يتوهمه الجاهلون.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: قل لهم أن يصفحوا ويُعرضوا عن هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم من المستكبرين المعاندين الذي لا يحسبون حساب الآخرة، ولا يؤمنون بها، فالانشغال بهم مضيعة للوقت والجهد، وتعطيل للدعوة أن تصل إلى غيرهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي، وتأكيد أيضًا

لغنى الله تعالى عن عمل العاملين وعبادة المتعبدين.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بحمل رسالة الله وإقامة خلافته في الأرض، وهو تفضيل

مقترن بالمسؤولية التكليفية، فلما حادوا عن الطريق ذهبَت الأفضلية عنهم.

﴿وَهَآئِنتَنَّهُمْ بِبِئْسَ مِنَ الْآمِرِ﴾ الأمر هنا: الشأن المطلوب تبيينه وتشريع الأحكام له،

وهو كلُّ ما يتعلق بنظام الحياة وتحقيق مصالح العباد.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بمعنى أن اختلافهم لا عُذر لهم فيه، والسياق يُوحى بالتعجب من فعلهم تعجباً ممزوجاً باللوم والتوبيخ؛ إذ ما كان لهم أن يختلفوا بعد كل تلك البيّنات، ثم كشف عن مبعث اختلافهم فقال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فالبغي إذن هو الباعث وليس العلم، وهذه طائفة من طوائم أهل العلم؛ إذ لو تناقشوا على الصدارة والوجاهة والمتاع الزائل فسيكونون أقوى في تفريق الأمة وتمزيقها ممّا يكيد لها عدوها.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ وهي الإسلام الكامل الشامل، وأشار هنا بـ ﴿ثُمَّ﴾ إلى سلب الأفضليّة عن بني إسرائيل والأمانة التي كُلفوا بحملها، وتحويلها إلى أمة أخرى هي أمة الإسلام التي تراث الرسالات السابقة وتؤمّن عليها، وتقيم الإسلام الكامل الشامل في هذه الحياة.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والله ناصر هذه الأمة التي آمنت بالله وبرسوله، وحملت هذه الأمانة من جديد.

﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾ هذا أي: القرآن، والبصائر: جمع بصيرة، وهي إدراك الشيء على حقيقته، والمقصود أن القرآن يُعلّم الناس حقائق الأمور التي يحتاجون إلى فهمها في شؤون دينهم وعلاقاتهم وقوام حياتهم.

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يؤمنون عن علمٍ ويقين، لا عن جهلٍ وتقليدٍ.

سُورَةُ الْحَاشِيَةِ

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَسِرُونَ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا أَتَابِينَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحِبُّكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنْكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِضُ بِخَسْفٍ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ (٣٢) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَفْسِفُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا قَالِیَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق

بعد بيان هذه البصائر للناس وكيف اختلفوا فيها كما اختلف الذين من قبلهم، جاء الشطر الثاني من هذه السورة لبيان عاقبة الفريقين: المؤمنين والمكذبين؛ فكلٌ سيجد ما قدّم لنفسه في كتاب لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة، إنه الكتاب الذي يملؤه المرء بنفسه إن خيراً، وإن شراً:

أولاً: بيان القانون العدل الذي يُقضى به بين الناس ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

فالميزان إنما هو ميزان العمل، وليس هناك شيء آخر، والعمل ميدان مفتوح للتنافس، ويتميز فيه الناس بحسب جهدهم وما يُقدّمونه لأنفسهم، بخلاف الموازين الأخرى؛ كالجنس، واللون، والقومية، والقبيلة؛ والتي لا يقدرُ الناس على تغييرها ولا تعديلها.

ثانيًا: بيان أن هذا القانون متسق مع سنن الله الكونية القائمة على العلم والحكمة والنظام الدقيق ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ثالثًا: بيان حال الكافرين المكذبين وهم يعبدون أهواءهم، ويُخلقون أسماهم وأبصارهم عن كلمة الحق ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم يعرض شبهة من الشبهات التي يتمسكون بها وهم يناون عن الوحي ويصدون عنه ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

رابعًا: تأكيد الوعد الحق بقيام الساعة واستعداد الخلائق كلها ليوم الحساب ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وفي هذا ردٌّ على تلك الشبهة البائسة، فالله الذي خلق الحياة من العدم أقدر على إعادتها مرة ثانية، هذا هو منطق العقل لو كانوا يعلمون.

خامسًا: تأكيد أن عمل الناس كله محفوظ وموثق، وعليه يكون الحساب، وبه تقوم الحجة ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنبِئُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

سادسًا: تأكيد أن الفائزين هناك إنما هم أولئك الذين استعدوا لذلك اليوم، وأخذوا له أهبة ﴿فَأَمَّا الْآيَةُ ۖ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

سابعًا: أما الخاسرون فلأنما هم أولئك المستكبرون المستهزئون الذين أعماهم تكبرهم عن

سماع كلمة الحق، وغرَّهم المتاع الزائل في هذه الحياة الدنيا عن مصيرهم الذي ينتظرهم في حياتهم الأخرى، هناك تتجلى لهم الحقيقة كاملة، وتظهر لهم سيئات أعمالهم، ويندمون حيث لا ينفع الندم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٢١) وإذا قيل إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ (٢٢) وبدأ لهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَا وَدَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّصِيرِينَ﴾ (٢٤) ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرَّكم الحيوة الدنيا فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعَبُونَ﴾.

ثامناً: وفي ختام السورة يُمجَّدُ الله نفسه، فهو سبحانه المستحقُّ للحمد في السماوات والأرض وله الكبرياء فيهما، وهو العزيز الحكيم ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ اكتسبوا السيئات بفعلهم وإرادتهم.

﴿سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ سؤال استنكاري، يقصد به إنكار أن تكون حياة المؤمنين كحياة الكافرين؛ فحياة المؤمنين هادئة ثابتة مطمئنة، وحياة الكافرين آثمة عابثة ظالمة مضطربة، وإذا كان هذا في الحياة فما بعد الممات أشد افتراقاً وتفاوتاً.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي وأنه سبحانه ليس بظلامٍ للعبيد.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ هذا هو الصنم الخفي الذي يعبدُه هؤلاء المشركون، إنه الهوى الذي يصدُّهم عن الحق ولو نزلت به الآيات، وقامت عليه البيِّنات، والهوى درجات أو دركات، ولا تكاد تخلو منه نفس، وإنَّما العبرة بغلبة الحال، والقدرة على الأوبة بعد الحوبة

من عَدَمِهَا، والمؤمنُ إلى خيرٍ ما نازَعَ في الحقِّ هواه ولو زلَّ وأخطأ، والله أعلم وأرحم.

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: أضله الله مع ما هو عليه من العلم، والله سبحانه لا يُضِلُّ إلَّا من طلب الضلالة وسعى لها، والعلمُ سبيلٌ للهداية، لكنّه مع غلبة الهوى واشتعال نار الحسد لا ينفع صاحبه بشيء.

﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ، وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ هذا من لوازم التكبر والمكابرة، ونسبة الختم إلى الله إنّما كان بحكم إرادة الله المطلقة التي لا تنفصل عن عدله وحكمته، والله لا يظلم أحدًا، لكنها الأسباب والسُنن التي وضعها الله في هذا الكون، فمن طلب الهدى هداه الله، ومن تكبر أضله الله، تمامًا كالذي يأخذ الدواء فيشفى، ويأخذ السمّ فيردى، وقد ذكر السمع والقلب والبصر؛ تأكيدًا أنّ هؤلاء قد عطّلوا كلّ منافذ المعرفة لديهم.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ليست الحياة إلَّا هذه الحياة الدنيا، أي: أنّهم يُنكرون الآخرة.

﴿وَمَا يُمِلُّكُمْ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: ليس الموت سوى انقضاء الأيام والليالي، والأيام لا تعود، وهذا كلّ تنوع في عباراتهم التي تدلُّ على كفرهم بالحياة الآخرة.

﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُونَا بِبَآئِنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تقدّم مثل قولهم هذا في سورة الدخان، وقلنا هناك: إنّ هذه حُجّة المشركين في إنكارهم للبعث، بمعنى أنّهم لا يريدون أن يؤمنوا بالبعث إلا بعد أن يروه عيانًا، وهذا من سقيم الرأي، فالعقول السليمة تبني المُقدّمات، وتستخرج النتائج الصادقة، ولا تتوقف عن القياس والاستنتاج إذا غاب الشيء عن الحواس، فالذي يرى بناءً أثرًا يجزم بوجود بناءٍ بناه وإن كان لا يراه.

﴿وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَائِئَةٌ﴾ كلّ مجموعة من الناس باركة على الرُّكب تنتظر حكم الله فيها.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: إلى أعمالها المحفوظة في كتاب كلّ فردٍ من أفرادها، والذي يظهر من هذه الآية أنّ الحساب وإن كان فرديًّا أي: لكلِّ فردٍ كتابه، وعلى كلّ فردٍ حسابه، إلَّا

أنهم يُجمعون جمعًا على حسب الملة التي ينتسبون إليها، والله أعلم.

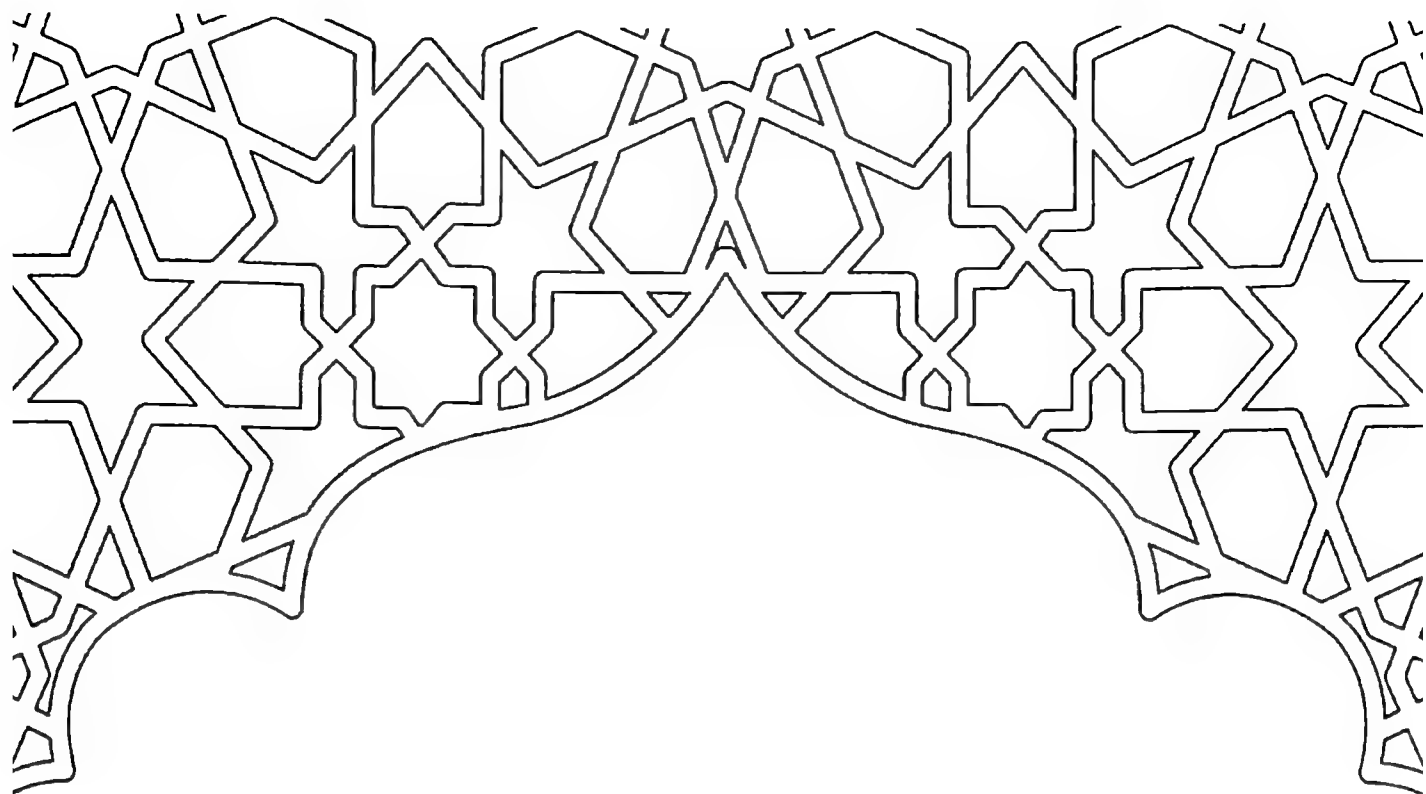
﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ والكتاب هنا جنس الكتاب، أي: بمعنى الكتب؛ إذ لكل فرد كتابه، و﴿يَنْطِقُ﴾ مجاز قصد به تشبيه الكتاب بالكلام المنطوق؛ لشدة ظهوره، وقوة حجته.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نحفظ لكم أعمالكم في كتاب ظاهر بين، ولم يذكر القرآن طريقة الحفظ هذه، ولا مانع من حفظ صورة الأعمال خاصة بعد أن تمكن البشر من حفظ الأعمال والحركات كما هي، ولا شك أن حفظ صورة العمل كما هي أقوى في الحجة من تدوينها كتابةً، ولا مانع أيضًا من إطلاق اسم الكتاب على هذه المدونة من الوثائق والمستنسخات، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فجملة (يُقال لهم) مقدرة بمقتضى السياق.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَخُ مَا نَسَخْنَا كَمَا نَسَخْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ النسيان صفة نقص منفية عن الله جزمًا، وإنما هذا على سبيل المشاكلة، بمعنى أن الله يتركهم في العذاب، وسمى الترك نسيانًا؛ لأنه يُناسب جريمتهم في نسيان الآخرة وعدم الإيمان بها، أو الاستعداد لها.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُطلب منهم الاعتذار في مقابل الرضا والعفو عنهم.



سُورَةُ الْحَقَّافِ

المجلس الخامس والعشرون بعد المائتين: أم يقولون افتراه!

المجلس السادس والعشرون بعد المائتين: الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

المجلس السابع والعشرون بعد المائتين: واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف

المجلس الثامن والعشرون بعد المائتين: يا قومنا اجيبوا داعي الله

سُورَةُ الْحَقَّافِ

من الآية

١٢ - ١٤

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفِئُونِ بَكُتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِنْ عَلِيمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٦ وَإِذَا نُنْفِئُ عَنْهُمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِهَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٨ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ أَنْ أُنْبِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ مَنْ أَصْكَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ فَاكٌ قَدِيمٌ ١١ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشَرِّىَ لِلْمُحْسِنِينَ ١٢﴾

أم يقولون افتراء!

على صِلَةِ بالسور المتقدمة، يتتابع حديث القرآن عن القرآن في هذه السورة أيضًا؛ حيث تستهل السورة بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿ثم يدخل القرآن في حوار مفصل مع المكذِّبين بالقرآن، وكما يأتي:

أولاً: تأكيد أن هذا القرآن تنزيلٌ من الله العزيز الحكيم ﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿وذكر هاتين الصفتين الكريمتين مُشْعِرٌ بتجليهما في القرآن الكريم؛ ففي القرآن: العزة والحكمة، وهما صفتان متكاملتان، والإشارة أيضًا إلى أثر القرآن في الأمة التي تؤمن به وتربي أجيالها عليه أنها ستكون أمة عزيزة حكيمة.

ثانياً: تأكيد الصلة بين آيات الله في الكتاب وآياته في الخلق، فالكتاب كتابه، والخلق خلقه، وكلاهما من مصدر واحد فلا يتعارضان ولا يتناقضان أبداً ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا يَنْتَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَاجِلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٥٠﴾

ثالثًا: دعوة المشركين للتفكير في آلهتهم المزيفة التي يعبدونها عن غير دليل لا من كتاب سابق، ولا من أثارة من علم، ولا من أثر لها في هذه الحياة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُؤْتِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ثم تحذيرهم من أن هذه الأصنام لن تستجيب لهم في الدنيا، ولن تنفعهم في الآخرة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

رابعًا: بيان حال المكذبين بالقرآن وتخبطهم واثامهم للنبي الكريم ﷺ بشتى النقائص، فيتهمونه بالسحر أولاً ﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ أَئِنَّا بَيْنَتٌ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ثم يتهمونه بالكذب والافتراء ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّ قُلُوبُهُمْ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ثم يتهمون القرآن بالنقص والدونية، ويجعلون المقياس في ذلك ما هم عليه من الاغترار بجاههم وما لهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾.

خامسًا: بعد ذلك يبدأ القرآن بالرد على تحريضاتهم واثاماتهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وفحوى هذا الرد: أنه يُخاطبهم في داخل أنفسهم، فهو لاء يعرفون محمدًا ﷺ وتاريخه فيهم، وهم الذين كانوا يُسمونه الصادق الأمين، ولا زالوا إلى آخر يوم من هجرته الشريفة يستأمنونه على أموالهم، وهم كذلك يعلمون أن هذا القرآن ليس بسحر، وأنه لو كان كذلك فإمكانهم أن يأتوا بساحرٍ يُعارضه، بل هم أعلم من غيرهم بحقيقة هذا القرآن؛ لأنهم هم أهل الفصاحة والبيان.

سادسًا: ثم يستشهد عليهم بشهادة من أهل الكتاب، مؤكِّدًا بهذه الشهادة أن الذي يمنع

قريشاً من الإيمان إنما هو الكبر والظلم ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءُ شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَمَأْمَنَ وَاسْتَكَبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فَإِنَّ مَا بَيْنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالتَّوْرَةِ مِنَ التَّمَاثُلِ شَاهِدٌ عَلَى وَحْدَةِ الْمَصْدَرِ، وَأَنَّهُ ﷺ لَيْسَ بِدَعَاً مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا رِسَالَتِهِ بِدَعَاً مِنَ الرِّسَالَاتِ، كَمَا سَيَأْتِي تَأْكِيدُهُ وَبَيَانُهُ.

سابعاً: في معرضِ هذا الرد أيضاً يُؤكِّد القرآن صلةَ هذه الرسالة بالرسالات السابقة؛ فمحمَّد ﷺ إنما هو واحدٌ من هؤلاء النبيين، وليس بدعاً منهم، بل هو شاهدٌ لهم ومُتَمِّمٌ لرسالتهم ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْمُرُ إِنِّي أُنَبِّئُكُم بِمَا آتَاكُمْ بِهِ رُبِّي وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وفي هذا السياق يأتي التذكيرُ برسالة موسى ﷺ وما بينها وبين الرسالة المحمَّديَّة من ترابطٍ وتشابهٍ ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿حَمَّ﴾ تقدَّم الحديث عن الحروف المقطَّعة والرأي الراجح فيها أول سورة البقرة.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ سؤالٌ على معنى الإنكار والتوبيخ، فهذه الأصنام التي لم تخلق شيئاً من الأرض، ولم تخلق شيئاً في السماء كيف تكون آلهة تُعبد وتمجَّد من دون الله؟

﴿أَثَرَقَ مِنَ عِلْمٍ﴾ أثر باقٍ عندكم من العلم.

﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ يعني: الأصنام التي لا تقدر على استجابة الدعاء أبداً، مهما طال بها الأمد.

﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ بمعنى أنها ليست فقط عاجزة عن إجابة الدعاء، بل هي غير قادرة على فهمه؛ لأنها جهادات لا تعي، ولا تعقل.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إن الله أعلم بما تَحُوضُونَ فيه من تكذيبٍ واستهزاء بهذا القرآن.

﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو الله الذي يعلم حالي ويعلم حالكم، وكفى به شاهداً وحكماً بيننا، والعبارة فيها تهديدٌ ووعدٌ لا يخفى.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أعقب ذاك الوعيد بهاتين الصفتين الكريمتين لله؛ ترغيباً لهم بالتوبة والإنابة.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لم أكن أنا أوّل رسولٍ في الأرض، بمعنى أنّه يستنكر عليهم استغرابهم، وكأنهم لم يسمعوا برسولٍ بُعث إلى الناس من قبل.

﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ لأنّ الرسول بشرٌ لا يعلم إلا ما علّمه الله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: ماذا تقولون إن تبين لكم هناك أنّ هذا القرآن من عند الله، وقد جئتم إلى الله وأنتم كافرون به.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي: وشهدَ شاهدٌ من بني إسرائيل على مثل ما ورد في القرآن، مما يؤكّد صلة هذه الرسالة المحمّدية بالرسالات السابقة؛ لأنّها جميعاً من مصدرٍ واحدٍ.

وقصد بهذه المحاجة أنّكم تستبعدون أن يرسل الله رسولاً منكم، وتعلمون أنّه سبحانه قد أرسل رُسلاً سابقين في غيركم، وتستغربون القرآن وما فيه من قصصٍ وأحكامٍ وأنتم ترون بني إسرائيل يُقَصُّون عليكم مثل ما هو موجودٌ في القرآن، فما وجه إنكاركم واستغرابكم؟

﴿فَتَأْمَنَ وَاسْتَغْبَرْتُكُمْ﴾ أي: الذين يشهدون على مثل ما في القرآن من بني إسرائيل مؤمنون

بما عندهم، بخلافكم أنتم الذين تكفرون بما أوحى الله به إليكم، وقد وهّم من قال بأنّ الشاهد هنا والذي آمن بالقرآن هو عبد الله بن سلام؛ لأنّ إسلام عبد الله بن سلام كان بعد

الهجرة الشريفة، والآيات هذه مكّية، والخطاب موجّه لأهل مكّة كما هو بيّن من السياق، إلّا إذا كان ذلك على معنى الإخبار المستقبلي، بمعنى: ماذا تقولون لو شهد شاهد من بني إسرائيل على صحة هذا القرآن فأمن به، فتكون هذه إشارة بإسلام عبد الله بن سلام ﷺ، وفيها تعجيزٌ وتقريعٌ لقريش، والله أعلم.

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ يقول ذلك المشركون من قريش تكبراً وتعالياً على فقراء المؤمنين، بمعنى أنهم يقولون: لو كان القرآن خيراً لما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّحُوا بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: يقولون عن القرآن أنه كذبٌ معهودٌ من القدم، ولا يقصدون أنّ القرآن نفسه قديم، والربط بين قولهم هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ فيه تفسيرٌ نفسي عميقٌ لموقفهم هذا؛ فالمرء الذي يُعادي الحقَّ لغاية في نفسه من كِبَرٍ وحسدٍ ونحوهما يضطرّ لخداع ضميره بتشويه هذا الحق، حتى يخفّف على نفسه من وطأة الضمير وصوت الفطرة الناطق في داخله.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ أي: هذا القرآن مُصَدِّقٌ لكتاب موسى الذي هو التوراة.

﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلسانٍ عربيٍّ، وتأكيد العريّة في هذا السياق مقصودٌ ومُناسبٌ للمُخاطَبين في مكّة؛ تقريعاً لهم، وإقامةً للحُجّة عليهم.

سُورَةُ الْحَقَّافِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمَا أَنْعَدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

في هذه الآيات يعرض القرآن حال المؤمنين المصدقين بهذا القرآن، وما يتصفون به من سجايا ومزايا، وما ينتظرهم جزاء صبرهم واستقامتهم، كل هذا أيضًا بمقارنة مع أولئك المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وهوان، وكما يأتي:

أولاً: امتدح القرآن أولئك المؤمنين الذين قالوا: ربُّنا الله، ثم وفوا بهذه الكلمة وأعطوها حقَّها، واستقاموا عليها، مُبَشِّرًا إياهم بالنعيم الدائم الذي لا يشوبه خوف ولا حزن ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثانياً: استكمل لا لتلك السجايا الطيبة والأعمال الصالحة، ركَّز القرآن حديثه عن سجيّة من هذه السجايا، وعملٍ صالحٍ من تلك الأعمال متَّصل ببناء الأسرة الصالحة الكريمة، وبناء

المجتمع الأمثل الذي فيه أبناءٌ يبرُّون آباءهم، وآباءٌ يحرصون على تربية أبنائهم ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ اأَشُدَّهُ وَبَلَغَ اأَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ اأَوْزِعْنِي أَن اأَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي اأَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَاأَلَدَيَّ وَأَن اأَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ اأَلْمُسْلِمِينَ﴾.

ويلحظ هنا أيضًا أن هؤلاء لم يكتفوا بإعلان ولائهم لله ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اأَلَّهُ﴾، بل أعلنوا ولائهم للمسلمين والدخول في هذه الأمة المؤمنة الموحدة ﴿وَإِنِّي مِنَ اأَلْمُسْلِمِينَ﴾ وهكذا تتكامل الصورة المشرقة: إيمان بالله، واستقامة على دينه، ومبرة بالآباء والأبناء، وإعلان الولاء للمؤمنين.

ثالثًا: ولكي لا يظنَّ ظانُّ أن هؤلاء الأخيار مع كلِّ ما ذكره الله لهم من مزايا وسجايا مُبرِّؤون من الذنب أو الخطأ، إنهم يبقون في دائرة الطبيعة البشرية، ولم يتحوَّلوا إلى ملائكة، ومن ثمَّ فهم بحاجة إلى التوبة والعفو والمغفرة ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ اأَلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ اأَلْجَنَّةِ وَعَدَ اأَلْصِّدِّقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

رابعًا: في مُقابل هذه الصورة المشرقة، ينقل القرآن صورةً أخرى، صورة مظلمة قاتمة: صورة الإنسان المُتمرّد على الله، والمُتمرّد على الفطرة، المُتأفّف القَلْبُ الذي لا يَرعى الله ذمّة، ولا للرحم حُرمة ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا اأَتَعِدَانِي أَن اأُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ اأَلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اأَلَّهَ وَيَلِكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعَدَ اأَلَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا اأَلْأَسْطِيرُ اأَلْأَوَّلِينَ﴾.

خامسًا: يتوعّد القرآن هذا الصنف من الناس بما يستحقّونه من عذاب ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ اأَلْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ اأَلْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ اأَذْهَبْتُمْ طِبِّيتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿١٠﴾

دقائق التفسير

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ جمع بين القول والعمل، وفيه معنى إظهار الإيمان؛ فالإيمان القلبي لا يكفي ما لم يقترن بالإعلان؛ لأن الإعلان هنا هو إعلان الهوية والانتها، والاستقامة فيها معنى مضاف على العمل، بمعنى أنه العمل الدائم غير المنقطع، والعمل المستقيم العدل غير المشوّه بالغلو والإسراف.

﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي، وفيه إعلاء من قيمة العمل.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي: حملته بمشقة، فالحمل بطبيعته شاق على الأمهات.

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: ووضعت به مشقة، وهي مشقة الطلق.

﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ بمعنى أن هذا هو المعتاد، وليس فيه تحديد شرعي لمدة الحمل أو للفصال، وهو الفطام. وذكر هذه المشاق فيه تعليل لوصية الله ببرّ الوالدين، والأم بشكل خاص؛ لأنها هي التي تتحمل هذه المشاق، ولحاجتها في العادة للبرّ أكثر من الأب.

﴿قَالَ رَبِّ آوِزْ عَنِّي﴾ أي: ألهمني ووفقني.

﴿إِنِّي أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي﴾ والنعمة هنا عامة في كلّ النعم الدينية

والدنيوية.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: الطاعات.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ أَنْ أَعِدَّانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ هذا نموذج

للوالد الطالح من أبرّين صالحين، فهو يُسيء إلى ربّه بالكفر وإنكار الآخرة، ويُسيء لوالديه بالتأفّف وإظهار التضجّر لهما.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ هذه رحمةُ الوالد بولده، رحمةُ الفطرة التي يُعزِّزُها الوحي، وهي رحمةٌ واعيةٌ، فهما يدعُوانه إلى الإيمان بحرصٍ شديدٍ، وضراعةٍ إلى الله، بخلاف أولئك الذين لا همَّ لهم إلا دفع أولادهم لكسب المزيد من المتاع الدنيوي مآلاً وجأهاً وسُمةً.

﴿أَسْطِيرُ﴾ أي: أباطيل، وأصله: ما سَطَّرَه الأقدمون بغير عِلْمٍ، كأقاصيص الخرافة والخيال.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الوعيد الذي توعدهم الله به.

﴿فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي: مع أُممٍ قد مضت من الجنِّ والإنسِ، وذكر الجنِّ هنا كأنه تمهيدٌ لما جاء في ختام السورة، من استماع الجنِّ لتلاوته ﷺ بالقرآن وما بُنيَ على ذلك.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تأكيدٌ للعدل الإلهي الذي لن يُضَيِّع حقَّ أحدٍ، فلكلِّ عاملٍ درجته من الثواب أو العقاب بحسب درجة عمله.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ ليس التوبخ على تمتعهم بالطيبات، فالله خلق لنا الطيبات وامتنَّ بها علينا لتمتَّع بها، لكن المقصود أن الطيبات التي خلقها لهم الله تمتعوا بها في الدنيا، أمَّا طيبات الآخرة فهذه لن تكون لأحدٍ إلا إذا قدَّم من العمل ما يستحقها به، ومن هذا العمل شُكْرُ الله تعالى على تلك الطيبات الدنيويَّة، والاعتراف لله بفضلِهِ في خلقها وتيسيرها، وأداء الحقوق المترتبة عليها؛ كالزكاة، والنفقة، وغيرهما.

﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: عذاب الهوان.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فالجزاء بالهوان مُناسِبٌ لجريمة التكبر والتعالي على الخلق.

سُورَةُ الْحَقَّافِ

﴿وَأَذْكُرْ لَنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١)
 قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢) قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ (٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا آلَاتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨)﴾

واذكر أبا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف

في سياق الوعيد الذي توعد الله به أولئك المكذبين بالقرآن، يأتي هذا التذكير بعاد، وهم قوم هود عليه السلام، وما جرى لهم جرأ كفرهم وعنادهم وتكذيبهم بنبيهم:

أولاً: يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يذكر هودًا وكيف أنه أنذر قومه كما أنذر النبيون السابقون أقرامهم ﴿وَأَذْكُرْ لَنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفي هذا تأكيد لوحدة الرسالات السماوية، وفيه أيضًا أهمية النظر في التاريخ لأخذ العبرة والدرس، وفيه كذلك تسلية لرسول الله ﷺ.

ثانياً: يذكر القرآن أن عادًا كذبوا رسولهم وتحذوه أن يأتيهم بما توعدهم به ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فما كان رده عليهم إلا قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ وفي هذا بيان لوظيفة الرسول أنه المبلغ عن الله، أما الغيب وما يتقدره الله لهذه الأقسام فإنما هو الله وحده.

ثالثاً: فلما أذن الله بهلاكهم، رأوا في السماء عارضاً كالسحاب الثقيل، فظنوا أنه مُغيثهم بالمطر، فكان فيه هلاكهم وتدميرهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

رابعاً: ثم ينتقل السياق لِيُخاطب أهل مكة عليهم يأخذون العبرة من قوم عاد، ومن تلك الأقوام التي أهلكهم الله بظلمهم وتكذيبهم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَفِئْدَةً مِّمَّا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفِئْدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلَآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فأولئك الهالكون كانوا مُمكنين في الأرض أكثر من قريش، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، وكان باستطاعتهم أن يفتحوا منافذ المعرفة ليهتدوا بسماع الكلمة الطيبة ورؤية الدلائل الظاهرة، لكنه الحسد والكبر والسخرية التي حالت بينهم وبين ذلك.

خامساً: يُحاجج القرآن هؤلاء المشركين بأن الآلهة المزيّفة لو كانت تنفع شيئاً لنفعت أولئك الهالكين الذين أفنوا أعمارهم بعبادتها وتقديم القرابين لها ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ كَرَّأَخَاعَادٍ﴾ هو هود عليه السلام، وسمّاه أخا عاد؛ لأنه من عاد، كما تقول: يا أخا العرب، أي: من العرب.

﴿وَإِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ الأحقاف منطقة بين عُمان وحضرموت كانت تسكنها قبيلة عاد، وأصل الأحقاف: كُتبان الرمل.

﴿لَتَأْفِكَنَّا﴾ لتصرفنا.

﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعْدُنَا﴾ أي: من العذاب.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ أي: فلما رأوا العذاب مُستعرِضًا في الأفق كأنه السحاب.

﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: عَارِضٌ يَحْمِلُ إلينا المطر.

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أي: هلكوا جميعًا، وبقيت مساكنهم دالة عليهم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّكُمْ فِيهِ﴾ أي: مكنا عَادًا بها لم نُمكِّنكم فيه يا كفار مكَّة، وهذا

تخويفٌ لهم، فإذا كانت عادُ القويَّة لم تتمكَّن من أن تدفع عن نفسها من عذابِ الله من شيء، فكيف بمن هم أضعف منها؟

﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ بيَّناها بكلِّ السُّبُل والأساليب الواضحة.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً﴾ أي: هَلَّا نَصَرْتَهُم آلَهُتُهُم التي كانوا

يعبُدونها ويتقرَّبون بها إلى الله.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عنهم، ولم يتمكَّنوا من نُصرتِهِم.

﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ فعبادةُ الأصنام لم تكن سوى كذبة كبيرة صدَّقها

الناس؛ لأنَّ فيها ما يروِّق لهم من دينٍ بلا تكاليف، ولا حسابٍ، ولا عقابٍ، ولبعضهم جاءه ومكانةٌ، ومصالِحٌ على حساب الطبقات المحرومة والمنبوذة؛ كالعبيد ونحوهم.

سُورَةُ الْحَقَّافِ

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَهَ امْنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْعَذَابِ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّطَ الْمَوْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فُهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يا قومنا أجبوا داعي الله

بعد هذا التطواف في أجواء الدعوة المكيّة وما توجّاهه من صدود وإعراض، والحديث عن الرسالات السابقة والأقوام الماضية، شرّع القرآن في خواتيم هذه السورة يفتح أفقا آخر ومن عالم آخر، عالم لا نعرف عنه إلّا ما يردّنا عنه من خلال الوحي، وكما يأتي:

أولاً: يخبر الله نبيّه ﷺ أنّه أرسل له وهو يقرأ القرآن في مكّة نفراً من الجنّ، فاستمعوا القرآن ووعوه فآمنوا به، ثم ذهبوا دُعاةً هُداةً إلى قومهم ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾.

ثانياً: وصف هؤلاء نفر لقومهم القرآن الذي سمعوه بأنّه كتاب هداية وعدل واستقامة، وأنّه الكتاب الذي أنزل من بعد موسى، وفي هذا إشارة إلى أنّهم كانوا على علم بكتاب موسى، وبالصّلة الوثيقة بينه وبين القرآن ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ثالثاً: تبنى هؤلاء النفر الدعوة إلى هذا القرآن ترغيباً وترهيباً، ويظهر من حديثهم أنهم أصحاب علم وفقه بطبيعة هذا الدين ﴿يَقُومُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

رابعاً: عاد القرآن إلى مناقشة المشركين في إنكارهم للبعث بعد أن ختم حديثه عن الجن بما ثبت أنهم كانوا مؤمنين بالآخرة وما فيها من حسابٍ وثوابٍ وعقابٍ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله الذي خلق هذا الكون العظيم ولم يُصبه ما يصيب العاملين عادةً من تعبٍ ونصبٍ، لا شك أنه قادرٌ على إعادة خلق الإنسان وبالقياس الأولى.

خامساً: أكد القرآن أيضاً تهديده ووعيده للمشركين ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

سادساً: ختم القرآن هذه السورة الشريفة بالوصية الجامعة التي تؤكد صلة هذه الرسالة المحمدية بالرسالات السابقة، وحاجة الدعاة دائماً إلى الصبر والحلم وهم يواجهون مثل هؤلاء الفاسقين عن أمر الله وعن مقتضى الفطرة ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِغْ فَعَلَ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أرسلناهم إليك وأنت تقرأ القرآن، والخطاب لرسول الله ﷺ.

وهنا مسألة: أن الآية لا تشير إلى أنه ﷺ كان على علم بهم، ولا أنه كان يقرأ لسميعهم.

قال ابن كثير عن الحسن البصري: (إنه ﷺ ما شعرَ بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم)^(١).

والوقوف في هذه الأخبار الغيبية على مورد النص أسلم وأحكم؛ إذ لا تعلق لها بأعمال المكلفين سوى وجوب تصديقها، وأخذ العبرة العامة منها، أمّا ما يتناقله الناس عن أخبار الجنّ وأحوالهم وقدراتهم وتأثيراتهم، فغالبه من القصص التي يرويها الدجالون والمُشعوذون وبعض الرُّقاة بلا نصّ ولا دليل، وهذه كلّها لا تُعدّ من الدين حتى لو صحّت بنفسها، فليس كلّ خبر صحيح ديناً، مع أنّ إثبات صحّتها دونه خرطُ القتاد، أمّا امتحانُ الناس بها فهذا من أبطل الباطل، فكيف يُمتحن دين الناس بشيء ليس من دينهم؟

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ وهذه إشارة إلى أدب المتعلّم.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ وهذا واجب المتعلّم بعد أن يقضي تعلّمه أن ينطلق لنفع من حوله؛ فكتمان العلم لا يجوز، وفيه منع للخير عمّن هو بحاجة إليه.

﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي: من بعد كتاب موسى، وهو التوراة، وذكر موسى ولم يذكر داود وعيسى ﷺ؛ لأنّ التوراة هي الكتاب الشامل الذي فيه تفصيل كلّ شيء، بخلاف الزبور والإنجيل فإنّهما مُتمّمان للتوراة، هذا بحسب ما نعلّمه نحن البشر، أمّا بالنسبة للجنّ فلا ندري أكانوا على علم بالزبور والإنجيل أم لا، فهذا من الغيب الذي لا يصحّ القول فيه بلا دليل.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: القرآن جاء مُصدّقاً لما في التوراة.

﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي: أجيبوا دعوة محمّد ﷺ وادخلوا في دينه.

﴿وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: يحميكم ويمنع العذاب عنكم.

(١) ينظر: «تفسير القرآن العظيم» للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤) (٧/ ٢٩٠) دار طيبة، ط. ٢، ١٤٢٠-١٩٩٩م، تح سامي بن محمد السلامة.

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا ينجو من عذاب الله، ولن يجد له مفرًا في الأرض.

﴿وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ﴾ أي: لم يُصِبْهُ ﷻ ما يُصِيبُ العامل في ما هو دون ذلك الأمر من تعب ونصب وكلفة في التهيئة والإعداد.

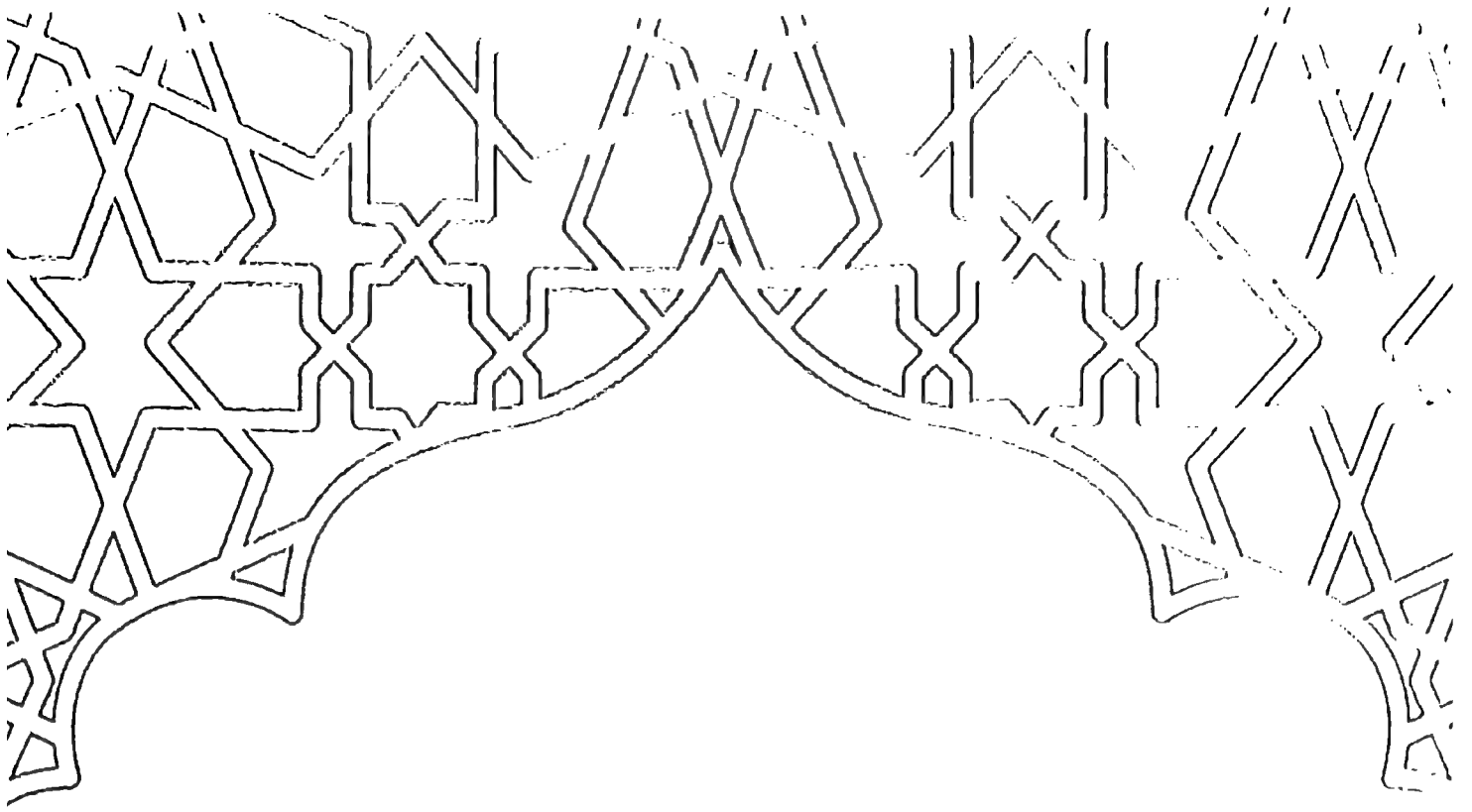
﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يُقال لهم حينها يرون النار: أليس هذا بالحق؟ وهو سؤال قُصِدَ به اللوم والتوبيخ.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: اصبر على طريق الدعوة كما صبر هؤلاء الصفوة من الرسل، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ثم خُتِمُوا بمحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ العذاب وحلول العقوبة فيهم.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ بمعنى أن هذه الدنيا قصيرة مهما طالت، وفي ذلك اليوم سينظر إليها هؤلاء الأشقياء كأنها لم تكن بطولها سوى ساعة من نهار، ونسبية الزمن مسألة علمية معروفة، والدنيا بحسابها الدقيق أمام الآخرة لا تُساوي شيئاً؛ لأن نسبة المحدود إلى غير المحدود لا يمكن قياسها، وتبدو ضئيلة جداً ولا قيمة لها.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يستحقُّ الهلاك في الآخرة إلا القوم الفاسقون.



سُورَةُ مُحَمَّدٍ

المجلس التاسع والعشرون بعد المائتين: إن تنصروا الله ينصركم

المجلس الثلاثون بعد المائتين: الذين في قلوبهم مرض

المجلس الحادي والثلاثون بعد المائتين: ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين

سُورَةُ الْحَمِّدِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخَسَّمُوهُمْ فَتُدُّوا أَلْوَانَكُمَا فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِئَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۝ (٤) وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝ (٥) سَيَجْزِيهِمْ وَصْلُكُمُ بِهِمْ ۝ (٦) وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَهُمْ ۝ (٧) بِتَأْيِيدِ اللَّهِ ۝ (٨) إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ۝ (١٠) وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ۝ (١٢) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۝ (١٣) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۝ (١٤) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۝ (١٥) وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قُرَيْبِكَ أَلَيْسَ أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝ (١٦) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ رُبِنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ۝ (١٧) وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۝ (١٨) مَثَلُ الْجَنَّةِ أَلَيْسَ وَعْدَ الْمُنْفِقِينَ فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۝ (١٩)﴾

إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ

سورة محمد هي سورة القتال، نزلت لبيان فقه القتال، ووضع أُسُس التربية الجهادية، والتمايز بين المعسكرين المتقابلين؛ معسكر الحق، ومعسكر الباطل، إننا هنا نقرأ ونتدبر أحكامًا وتوجيهات عسكرية، فلا ينبغي الخلط بينها وبين الأحكام والتوجيهات الواردة في دائرة الدعوة والعلاقات السياسية والاقتصادية بيننا وبين الآخرين، فلكلِّ مقام مقال، ولكلِّ مجال فقهه وقيمه وأحكامه:

أولاً: تستهلُّ السورة بتأكيد التمايز بين معسكر الإيمان، ومعسكر الكفر، أو معسكر الحق، ومعسكر الباطل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحِينَ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝

ويلحظ هنا أنه لم يذكر الكفر مُجَرَّدًا، بل قرَّنه بجريمة الصدِّ عن سبيل الله، وهو واقع المشركين في مكَّة، الذين عذبوا المؤمنين أشدَّ العذاب، وأكرهوهم على ترك مكَّة، وألبوا عليهم قبائل العرب وقبائل اليهود.

ثانيًا: يأمر القرآن الجنديَّ المسلمَ إذا حضر الميدان - ميدان المعركة - بالحزم والعزم، وأن يُبادر إلى قتل عدوِّه، وألا يمنحه فرصة للنيل منه، أو الإفلات منه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ ۝

ثالثًا: يبيِّن القرآن طريقة التعامل مع أسرى العدو ﴿حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِذَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ ۝ وَالْمَنْ أَنْ يُطْلَقَ الْإِمَامُ سَرَّاحَهُمْ مِنْ دُونِ مُقَابِلٍ، وَالْفِدَاءُ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِمُقَابِلِ كُمْبَادِلَةِ الْأَسْرَى، وَإِبْرَامُ صَفَقَاتِ الصِّلَحِ، أَوْ بِالْفِدَاءِ الْمَادِّيِّ، وَالِدَوْلَةُ تَنْظُرُ هُنَا فِي الصَّالِحِ الْعَامِ، وَلَيْسَتْ مَخِيرةً بِإِطْلَاقِ.

رابعًا: يؤكِّد القرآن هنا أنَّ هذه المواجهة بين المعسكرين هي جزءٌ من سنَّة الاختبار الحاكمة في هذه الحياة، كما قال في سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ [الملك: ٢]، فالله يبتلي بالغنَى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، ومن هذا: ابتلاء المؤمنين بالكافرين والظالمين ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۝ فالله تعالى قادرٌ على أن يهلك عدونا من غير قتال، لكن هذا يُنافي الحكمة من الابتلاء الذي هو مقصد الخلق.

خامسًا: يخصُّ القرآن الشهداءَ بمكانةٍ خاصَّة، ويَعِدُّهُمْ بِالْجَنَّةِ التي هيَّأها وطَيَّها لهم

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ۝

سادسًا: يَعِدُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بالنصر وتثبيت الأقدام، كما يتوَعَّدُ الكافرين بالضياع والتعاسة والهلاك ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُوِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾.

وهنا لا بُدَّ من وقفة؛ فهذا الوعد الإلهي بنصر المؤمنين ينبغي أن يُفهم في سياق السورة، وفي سياق السُّنَنِ الإلهِيَّةِ التي تحكم هذا الكون؛ فالسورة تتحدَّث عن مُنازلةٍ قائمة بين مُعسِّكَرَيْنِ مُستَعِدِّينَ للقتال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أما حينما يكون الباطل قد أخذ استعداداته في التدريب والتجهيز، والتمويل وصناعة السلاح، ونحن في حالة سُباتٍ، ثم نهض فجأة وندعو للجهاد دون مُقَدِّمَاتٍ ولا استعدادات، ثم نحتجَّ بهذه الآية على وعدِ الله لنا بالنصر الأكيد، فهذا احتجاجٌ في غير محله، ولو كان الأمر كذلك لما تَرَكَ المسلمون مَكَّةَ وفيها بيت الله الحرام وتجنَّبوا المواجهة، بل وحتى حينما صار للمسلمين جيشٌ في المدينة لكنَّه كان غير مُتكافٍ مع جيش المشركين في معركة الأحزاب، حَقَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الخندق وتجنَّب المواجهة، والقرآن يذكر لنا مثلاً في سورة البروج؛ حيث أُحْرِقَتْ ثَلَاثَةُ مَؤْمِنَةٍ على يد الكافرين المعتدين ولم يتدخَّل القَدَرُ الإلهي لنصرتهم.

والخلاصة: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا كَانَ لَهُمْ جَيْشٌ مُّجَهِّزٌ وَمُدْرَبٌ، وَكَانُوا عَلَى مَسْتَوًى عَالٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَقَرَّرُوا الْمُؤَامَلَةَ عَنْ عِلْمٍ وَوَعْيٍ وَكِفَايَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرَهُمْ لَا مَحَالَةَ؛ هَذَا هُوَ وَعْدُ اللَّهِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي غَالِبِ مَعَارِكِ الْمُسْلِمِينَ وَفَتْوحَاتِهِمُ الْكُبْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سابعاً: يَعِدُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ الْخَالِدِ، كَمَا يَتَوَعَّدُ الْكَافِرِينَ بِالنَّارِ وَالْعَذَابِ الدَّائِمِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمَرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

ولا شك أن هذا التوسّع في تفصيل نعيم الجنة وتفصيل عذاب النار يأتي في سياق الإعداد الإيماني للمواجهة؛ ففيه الترغيب الذي يصنع الشوق للشهادة والرغبة في القتال، وفيه الترهيب الذي يُزلزل قلوب الأعداء، ويحمي الصفّ المؤمن من أسباب الضعف والتخاذل.

دقائق التفسير

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالحديث عن فئة من الكافرين، وليس عامّاً في كلّ الكافرين، هؤلاء هم الذين حاربوا الإسلام وصدّوا عن سبيل الله.

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها ولم يُقم لها وزناً.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ أي: يُبيّن للناس أحوالهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قابلتُمُوهم في ساحات القتال، فهذه لها أحكامها الخاصّة، بخلاف اللّقياء في أي مكانٍ آخر.

﴿حَتَّى إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم فيهم القتل.

﴿فَشُدُّوا الوثَاقَ﴾ شدُّوا وثاقهم وخدوهم أسرى.

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى تتوقّف الحرب، ويضع الناس أسلحتهم وأهبتهم.

﴿فَإِمَّا مَنًّا﴾ أي: يثمنوا عليهم بإطلاقهم من غير فداء.

﴿وَمَا فِدَاءٌ﴾ أي: تُطْلَقُهُمْ مُقَابِلَ فِدَاءٍ، والفداء له صور كثيرة: كإطلاق أسرانا، أو دفع فدية مادية، أو عقد صلح لصالح المسلمين، وكل هذا إنما يُؤخذ بالشورى، وتقدير الأصلح والأوفق.

﴿لَا نَنْصَرُ مِنْهُمْ﴾ لَأَهْلِكُهُمْ بِلا قتال.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: يهديهم إلى الجنة، ويُصلح حالهم بعد حياة الكد والكدح والجهاد.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ أي: وصفها لهم في الدنيا فشوقهم إليها، وطيبها لهم في الآخرة، وأعدّها لاستقبالهم.

﴿فَتَعَسَّاهُمْ﴾ والتعسُّ يأتي بمعانٍ متقاربة؛ كالخيبة، والسقوط، والشقاء.

﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: دمرهم الله، وعدّاه بالحرف (على) بمعنى أن التدمير قد غشيهم وتمكّن منهم.

﴿وَالْكَافِرِينَ أَهْلُهَا﴾ أي: أمثال هذه العاقبة المدمّرة، وهذا تهديدٌ ظاهرٌ لكُفَّارِ مَكَّةَ ولكلِّ من يُشابههم في عداوته للمؤمنين، وصدّه عن سبيل الله.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مؤيدهم وناصرهم.

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ لأنهم إنما يعبدون الأصنام، والأصنام عاجزةٌ وغيرُ قادرةٍ على نصرهم.

﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ مقرُّ لهم.

﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ هذا من أخطر أنواع الضلال أن يرى المنكر معروفاً، والرديلة فضيلة، فهؤلاء لا يتوبون ولا يشعرون بالحاجة إلى التوبة.

﴿مِثْلَ الْجَنَّةِ﴾ أي: صفتها.

﴿مَاءٌ غَيْرَ آسِنٍ﴾ أي: غير مُتَغَيَّر الطعم أو اللون أو الرائحة بطول مُكثِّ ونحوه.

﴿وَأَنهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ لأنَّ المعهود في لبن الدنيا أنَّه سريع التغيُّر.

﴿وَأَنهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ بطعمها ورائحتها، بخلاف المعروف من خمر الدنيا أنَّه كريه

الطعم، كريه الرائحة.

﴿وَأَنهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ فلا شمع ولا شوائب فيه.

﴿مَاءٌ حَمِيمًا﴾ حارًّا شديد الحرارة.

﴿فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من شدَّة حرِّه.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٦)
 وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَنَهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾
 فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَعْفَرَ لِدِينِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ
 سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ
 لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
 وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا
 نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
 ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَبْتَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ
 يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بَیِّنَةً وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

الذين في قلوبهم مرض

يَلْتَفِتُ السِّياقُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى زَاوِيَةٍ مُظْلِمَةٍ مِنْ زَوَايَا الصِّرَاعِ؛ حَيْثُ تَقْبَعُ الْمَجَامِيعُ الْمُنَافِقَةُ، وَالَّتِي تَجِدُ مِتْنَفْسَهَا دَائِمًا فِي أَجْوَاءِ الْفِتْنَةِ وَالْاضْطِرَابِ، كَمَا تَجِدُ امْتِدَادَهَا بَيْنَ ضِعَافِ الْإِيْمَانِ وَضِعَافِ الْوَعْيِ وَالْإِرَادَةِ.

مِنْ هُنَا تَأْتِي هَذِهِ الْآيَاتُ لِتُكْشِفَ هَذِهِ الْمَجَامِيعَ وَتَضَعَهَا تَحْتَ الشَّمْسِ؛ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلَهُمْ أَهْلَامُ النَّاسِ، فَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَهْلِكُ مِنْ هَلَكٍ عَنْ بَيِّنَةٍ:

أَوَّلًا: يُوَكِّدُ الْقُرْآنُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يَعِيشُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُجَالِسُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، لَكِنَّهُمْ لَا يَلْبِثُونَ أَنْ يُبْثُوا سُمُومَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقَةٍ وَوَسِيلَةٍ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ ﴾

إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَتَقْنَأُ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ

وذمُّ القرآن لسؤالهم هذا دليلٌ على أنَّهم ما قصدوا به إلا السوء، والظاهر أنَّهم يلْمِزون النَّبِيَّ ﷺ أن كلامه ليس مفهوماً، ورُبَّما لَوُوا ألسنتهم بالسؤال على طريقة الاستخفاف والسخرية الخفية، بقصد التشكيك فيه، والتهوين منه.

ثانياً: يُبَيِّنُ القرآن أنَّ هؤلاء الذين يُصَلُّون مع المصلِّين، ويحْضِرُونَ معهم المناسبات والجلسات سيفتضح أمرهم عند نزول القتال ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذِكْرُهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ لِأَنَّ الْقِتَالَ يُمَيِّزُ بَيْنَ الصُّفُوفِ، فلا يبقى هناك مجال لمداراة هؤلاء وهؤلاء، ولا للوقوف بينهما على الحياد، كما أنَّ القتال لا يكون إلا عن عزيمة وشجاعة، والمنافق يفتقر إليهما بحكم تردده وتذبذبه وغياب الدافع الذي يدفعه للتضحية.

ثالثاً: يكشف القرآن حقيقة هؤلاء المنافقين أنَّهم لا يؤمنون بالله، ولا برسوله، ولا بكتابه، بل هم كافرون مرتدُّون ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۝٢٧ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۖ

رابعاً: يقرن القرآن فساد عقيدتهم هذه بفساد أخلاقهم وعلاقاتهم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۖ

خامساً: يُشَخِّصُ القرآن السبب الذي يدفعهم لهذا السلوك الشاذ والشائن في عقائدهم وسلوكهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۝٢٣ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿﴾ فهؤلاء قد أغلقوا كل منافذ التأمل والتفكير عندهم، فأصموا آذانهم، وأعموا أبصارهم، وأغلقوا قلوبهم، وقد نسب الله كل هذا إلى فعله فيهم؛ لأنه جارٍ على سنن الله الحاكمة العادلة؛ فمن طلب الهداية وفقه الله إليها، ومن طلب الغواية يسره الله إليها، فالله لا يجبر أحداً، ولا يجابي أحداً.

سادساً: يحذّر القرآن هؤلاء المنافقين من سوء العاقبة وعذاب الآخرة ﴿﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿﴾، ﴿﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿﴾.

سابعاً: يحذّرهم القرآن أيضاً بفضحهم وكشف أسرارهم وخبائهم للناس ﴿﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٨﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿﴾.

دقائق التفسير

﴿مَاذَا قَالَ مَا فِئًا﴾ أي: ماذا قال الآن أو في الوقت القريب.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بما اكتسبوا، ونسبته إلى الله تعالى؛ لأنه جارٍ على سننه سبحانه في أن من طلب الهداية اهتدى، ومن طلب الضلالة ضلّ.

﴿بَغْتَةً﴾ فجأة.

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: وقعت بعض علاماتها وأماراتها، ومن ذلك ختم النبوة وانقطاع الدحي به، ولا يبعد أيضاً أن يكون جاء هنا بمعنى: يجيء، لكن على معنى التحقق كأنه قد جاء بالفعل، كنوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، والله اعلم.

﴿فَإِنِّي لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: فإني لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ [الدخان: ١٣].

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ الأمر بالعلم هنا يقصد به: تجديد العلم بتجديد ذكره والمداومة عليه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم أحوالكم المختلفة في الدنيا، ويعلم مستقركم في الآخرة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اكتفى بذكر الموصوف وحذف الصفة؛ لدلالة ما بعدها عليها، أي: سورة تُسَرِّعُ للمؤمنين القتال إذ كانت قريش تعتدي عليهم وتسلب أموالهم منهم وهم ممنوعون من الرد.

﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ هذا وصف لحال المنافقين فور سماعهم لآيات القتال، أنهم يبهتون وتبقى أعينهم شاخصة متحيرة في كيفية مواجهة الأمر، وقلوبهم وجلة مضطربة وكارهة لهذا الأمر، كمن نزل به الموت وهو له كاره؛ لأنهم ليس عندهم قضية يُقاتلون من أجلها، كما أن بينهم وبين جبهات العدو صلاتٍ ووشائج.

﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ كلمة تهديد، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَكَ أَفْوَى﴾ [القيامة: ٣٤]، ويحتمل أن يكون مبتدأ خبره صدر الآية التالية: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ بمعنى أن الطاعة وقول المعروف خيرٌ لهم، وهذا المعنى مُتَّفَقٌ عليه إمَّا بهذا الربط، أو على تقديره إذا أخذنا بالتأويل الأول.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: إذا لزم القتال ووقع.

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لو صدقوا بادّعائهم الإيمان، ووفوا بمقتضيات هذا الإيمان من السمع والطاعة لكان خيرا لهم.

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي: فلعلكم - على سبيل التحذير مما يتوقع حدوثه - إن تركتم القتال.

﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ فمُعاونة العدو الخارجي مظنة شُيُوع الفساد والاضطراب، وتقطيع العلاقات، وإشاعة الفتنة، وقد كانت بين المنافقين وبين بعض الأنصار صلات قرابة وجوارٍ ورحمٍ، وهذه كلها ستقطع في حال خيانة هؤلاء المنافقين وافتضاح أمرهم.

وهذا خطاب واقعي يصلح لهذه الفئة من الناس في كل مجتمع، وفي كل جيل، إنه يعمل على إقناعهم أن هذه الخيانة ستضرهم ولن يجنوا منها شيئاً؛ لأن الأمر سيستأثر به الطرف المتغلب، أما المنافق البائع للمواقف فسيكون الطرف الأضعف على كل الاحتمالات.

﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ بمعنى أنهم أرادوا أن يغلقوا آذانهم وأعينهم عن الحق، فكان لهم ذلك، وهذه من سنن الله الماضية في هذه الحياة، ولو كان الله هو الذي أصمهم وأعمى أبصارهم دون سبب منهم لكانوا معذورين في ما هم عليه.

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أمر بتدبر القرآن؛ إذ القرآن كلامٌ يحمل معاني ودلالات، ولا جدوى معرفية أو عملية تُرتجى من سماع القرآن أو حتى تلاوته من غير فهم معانيه ودلالاته، وفيه أن تدبر القرآن من أقوى أسباب الهداية.

﴿ أَمَرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا ﴾ أم هنا بمعنى: بل، بمعنى أن هؤلاء المنافقين لا يتدبرون القرآن؛ لأن قلوبهم مُتَغَلَّة، وقفل القلوب إنما يكون بأمراضها؛ كالتكبر، والحقد والحسد، واتباع الهوى، والشهوة، ونحو ذلك، وإضافة أقفال إلى الضمير العائد على القلوب يُوجي بأن لكل قلب من تلك القلوب قفله الخاص به، ورُبما أخذ أهل السلوك والتربية الإيمانية من هذا المعنى قولهم أن لكل محجوبٍ عن الله حجاب، والله أعلم.

﴿ إِنْ الَّذِينَ ارْتَدَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ هم المنافقون بدلالة السياق، ومعنى ارتدادهم أنهم

يُعْطُونَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَنْكُثُونَ عَنْهَا، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ بِشَكْلِ عَامٍ، وَلَا يَمْنَعُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ قَدْ آمَنَ بِالْفِعْلِ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَأَخْفَى رِدَّتَهُ، كَمَا فِي سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ تَعْلِيلٌ لِرِدَّتِهِمْ وَنَكْثِهِمْ لِعُهُودِهِمْ بِأَنَّ الشَّيْطَانَ سَوَّلَ لَهُمْ، أَي: زَيَّنَ لَهُمْ طَرِيقَ النُّكُوثِ وَالرَّدَّةِ، وَأَمْلَى لَهُمْ، أَي: أَمَدَّهُمْ بِالْأَمَلِ الْعَرِيزِ، فَأَنَسَاهُمْ حَالَهُمْ وَمَالَهُمْ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وَالَّذِينَ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ هُمُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَانُوا فِي حَالِ صَدَامٍ وَقِتَالٍ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ يَمْدُّونَ مَعَهُمْ بِحَبْلِ، وَيَمْدُّونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِحَبْلِ آخَرَ، وَهَذَا لَيْسَ تَذَبُّبًا فِي الْمُعْتَقَدِ، بَلْ هُوَ مَرَاوِغَةٌ سِيَاسِيَّةٌ لَضِمَانِ الْمَكَاسِبِ مَعَ الطَّرَفَيْنِ، وَالْوُقُوفِ مَعَ الْمُتَغَلَّبِ فِي النِّهَايَةِ، وَهَذَا ذَيْدُنُ السِّيَاسَةِ الْيَوْمِ، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبُّكَ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أَي: مَا يُسْرُونَهُ وَيُخْفُونَهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أَي: فَكَيْفَ بِهِمْ، وَمَاذَا هُمْ صَانِعُونَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَقَبَضَتْ أَرْوَاحَهُمْ.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ﴾ أَي: أَحْسِبَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ أَنْ لَنْ يُظْهِرَ اللَّهُ نِفَاقَهُمْ وَعَدَاوَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، بِمَعْنَى أَنَّ هَذَا الَّذِي تَقَدَّمَ هُوَ فَضْحٌ لَهُمْ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْنَاهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِهِمْ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُمْ، وَلَوْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَكْشِفَ لِنَبِيِّهِ ذَوَاتَهُمْ لَعَرَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَسْمَائِهِمْ وَيَأْوِصَافَهُمْ، وَقَدْ كَانَ لَهُ ذَلِكَ، بَلْ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ أَطْلَعَ عَلَيْهِمْ حَزِيفَةَ بْنَ الْيَمَانَ ؓ، فَكَانَ صَاحِبَ مِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُنَافِقِينَ.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ هذا تنبيهٌ للمسلمين، ولمن يهتم أمر معرفة هذه المجاميع أن ينتبه إلى طريقة هؤلاء في الحديث والمعاني التي تحملها ألفاظهم، وهذا مستوى آخر غير مستوى تحقيق العدالة القانونيّة، فإنّ التعامل القانوني شيءٌ، وفهم كلام المقابل وأبعاده ومراميه شيءٌ آخر، وهذا له أهله ورجاله، كما للقضاء أهله ورجاله، والاكتفاء بالإجراءات القضائيّة في مثل هذه الحالات يُوقع الدولة بالطامات والمُفاجآت.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَ يَصُدُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَزِيَّكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُجِرَ أَصْفَنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰئِئِنَّهُ هَٰؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ

يختتم القرآن هذه السورة العزيزة ببيان معنى الابتلاء وأنواعه وغاياته، وافتراق الناس فيه وما ينتظر كل فريق، ويمكن تلخيص كل ذلك بما يأتي:

أولاً: بيان الحكمة والغاية من الابتلاء بشكل عام ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ فالتمايز بين الناس لا يكون من دون اختبار، هذه سُنَّةٌ من سُنَنِ اللَّهِ فِي هذه الحياة لا تتخلف.

ثانياً: بيان الحكمة من الابتلاء في مجال الإنفاق خاصة ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُجِرَ أَصْفَنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰئِئِنَّهُ هَٰؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.

فالله سبحانه إنما يأمر الناس بالنفقة اختباراً لهم أيضاً، وتمييزاً لمن يطلب الآخرة بصدق عن ذلك الذي يبخل على نفسه، فيصده بخله عن منافسة الأخيار الكرماء، فالله سبحانه

ليس محتاجًا لأحد؛ فالسماء سماءه، والأرض أرضه، والخلق خلقه، والرزق رزقه، كما أنه لا يطلب من الناس جميع أموالهم ولو على سبيل الاختبار، فهذا يشق عليهم ويُنافي فطرَتهم، بل ويُنافي وظيفة المال الذي أودعه الله عندهم.

ثالثًا: بيان المعيار الذي يُقاس فيه الفائز من الخاسر في كل مجالات الابتلاء ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

فالمُبتلى الناجح هو الذي يسأل عن حكم الله فينفذه بحسب موقعه وقدرته، فإذا كان مطلوبًا من الغني الجود والإنفاق، فالمطلوب من الفقير القناعة والتعفف، وإذا كان مطلوبًا من العامة احترام العلماء وتبجيلهم، فالمطلوب من العلماء الصدق في الفتوى، وبذل الجهد في تحريرها، وإذا كان مطلوبًا من الآحاد السمع والطاعة لولي الأمر، فالمطلوب من ولي الأمر العدل والرحمة، وهكذا يكون الناس كلهم في ابتلاء، وبعضهم مُبتلى ببعض، ولكل واحد منهم حكمه، ومعيار نجاحه من فشله.

رابعًا: تحذير المؤمنين من التولي عن ميدان الاختبار هذا بالتولي عن طاعة الله وطاعة رسوله، والتخلي عن الأمانة وتحمل المسؤولية ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾، كما تولى بنو إسرائيل عن حمل الأمانة، فاستبدل الله بهم هذه الأمة.

خامسًا: في مُقابل هذه التوجيهات المُفصَّلة للذين آمنوا، يأتي بيان حال الكافرين والمنافقين، أولئك الذين شاقوا الله ورسوله، ووقفوا الموقف المُعادي لهذا الدين بالسُّرَّ أو بالعلن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

ويلاحظ هنا تأكيد القرآن ربط الكفر بالله بجريمة الصد عن سبيل الله، في إشارة أن المواجهة إنما تكون مع هؤلاء فقط، أما الآخرون الذين لا يصدُّون عن سبيل الله، فمسلكنَا

معهم مسلك الدعوة والحوار، والعمل بالمشتركات الحياتية؛ كالصناعة، والزراعة، والتجارة، والمصالح العامة.

دقائق التفسير

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ ولنختبرنكم بأنواع الاختبارات والابتلاءات، ونبلو بعضكم ببعض حتى يظهر ما في علم الله عن أخباركم ومواقفكم، فعلم الله أزلي ثابت لا يتجدد؛ لأنه ليس علماً كسبياً، وإنما هو ظهور هذا العلم في واقع الناس وحياتهم لإقامة الحجة عليهم، ولا يظلم ربك أحداً، وفي هذه الآية إعلاء لمقام المجاهدين والصابرين.

﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾ خالفوه وكذبوه، وأظهروا عداوته.

﴿وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: يحيط ما يحيطون له من مكر وكيد برسول الله ﷺ، ويحيط أيضاً ما كان لهم من عملٍ قد يرجى ثوابه؛ كالصدقة، وإكرام الضيف؛ إذ الشرك مبطلٌ لثواب العمل ولو كان العمل بنفسه صالحاً.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فصل بينهما للتأكيد والتنبيه، وإلا فطاعة الرسول هي من طاعة الله؛ إذ هو المبلغ عن الله، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وفي هذا كفاية للاحتجاج بسنته ﷺ؛ فهي المكملة للقرآن، والمبينة له، والمفصلة لأحكامه وطريقة تطبيقها وتنزيلها في الواقع.

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالارتداد وطاعة الكافرين وموالاتهم.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ هذا توجيه للجند المقاتلين وقيادتهم ألا يطلبوا السلم من عدوهم بناء على الوهن والشعور بالضعف، وعدم الرغبة بالمقاومة.

﴿وَأَنْتُمْ أَأَعْلَوْنَ﴾ بإيمانكم واستعدادكم ووحدة صفكم.

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بتسديده وتأيده ونصره.

﴿وَلَنْ يَرْكُمَ أَعْمَالَكُمْ﴾ ولن ينقصكم من جهدكم شيئاً، ولا من جزائكم وثوابكم.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إذا تجردت من معاني الإيمان بالغيب وعمل الآخرة، فإنها تبدو حياة لاهية عابثة لا هدف لها ولا غاية، وهذه كأنها مقدمة للحديث عن الإنفاق، وطريقة تعامل المسلم مع ما عنده من مال.

﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ أي: لا يطلبها منكم جميعها؛ إذ للمال وظيفة أخرى في حياة المسلم غير القتال، والزكاة، والصدقة.

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فِخْفِكُمْ بَخَلُوا﴾ فيه مراعاة لواقع الناس وتعلقهم بأموالهم، بمعنى أن الله لو طلب منهم جميع أموالهم وألح عليهم في ذلك، فإنهم سيبخلون ويقعون في الحرج؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَنُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ﴾ أي: تظهر منكم كراهيتكم لهذا السؤال، وتضجركم منه.

والخطاب بكل تأكيد ليس عاماً لكل المؤمنين في ذلك الوقت؛ فالصديق ﷺ تصدق بكل ماله عن رضا وطيب نفس، وكان الصحابة يتنافسون في تقديم أموالهم، لكن هذا في عامة الناس ممن دخلوا في دين الله بعد الهجرة ثم بعد الفتح، والله أعلم.

﴿هَآأَنَتم هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ هذا تفريع عما تقدم، بمعنى أن الله لم يسألكم جميع أموالكم، بل سألكم بعضاً منها وهو الزكاة والنفقة على مستلزمات القتال، ومع هذا ظهر فيكم من يبخل، فكيف لو كان قد سألها جميعاً.

﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ﴾ لأنه يجرمها من ثواب الله.

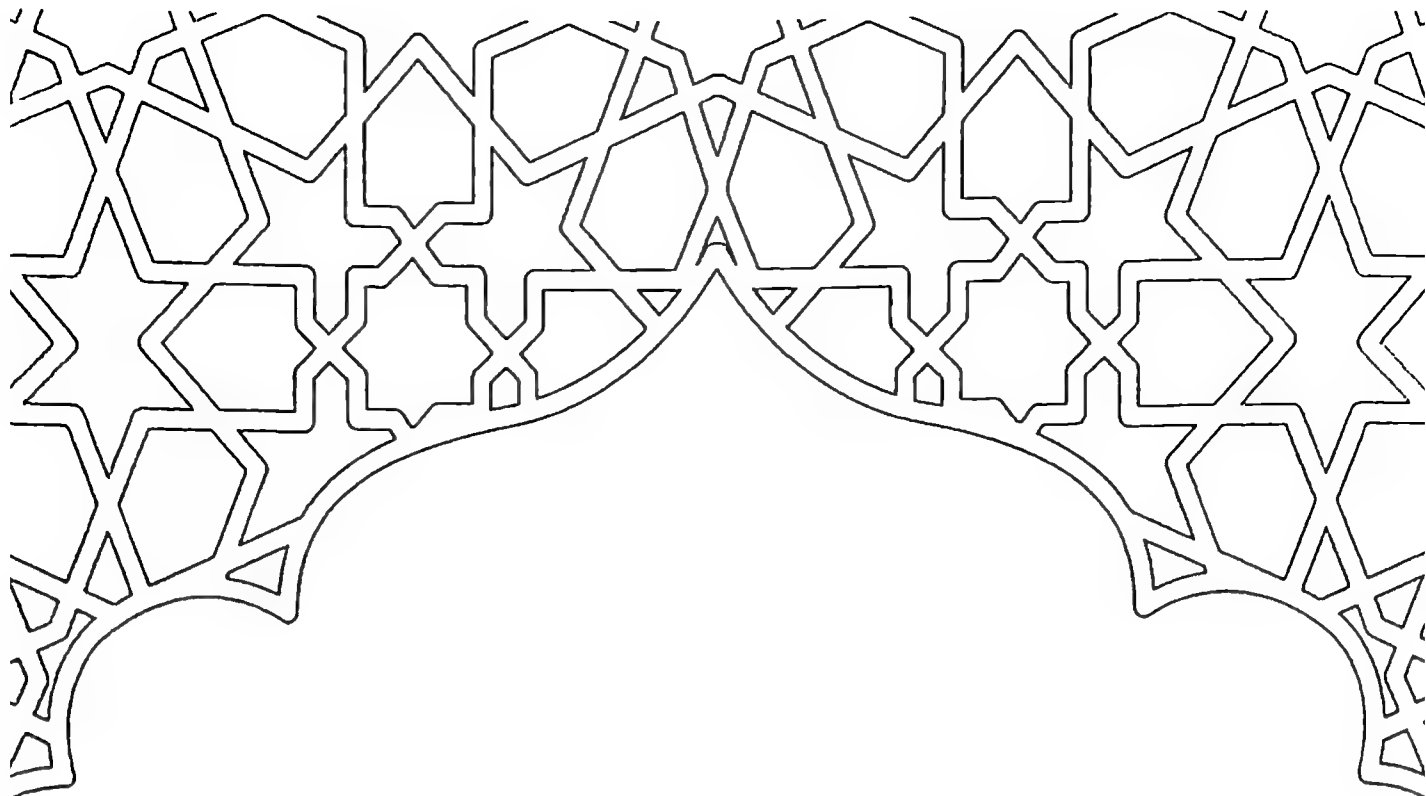
﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ هذه حقيقة إيمانية وواقعية بحكم أنه سبحانه هو خالق السماوات والأرض وما فيها من ثروات ظاهرة وباطنة، والناس إنما يأكلون من رزقه، ولو شاء لمنعه عنهم، أو لمنعه منه، وعليه فالتكليف بالإنفاق ليس سوى اختبار، كما هو الشأن

في كلِّ التكاليفات الدينيَّة.

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عن أمرِهِ، وتخرجوا عن طاعته.

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: ينزعُ الله عنكم شرفَ حمل هذه

الدعوة، ويمنحه لغيركم.



سُورَةُ الْفَتْحِ

المجلس الثاني والثلاثون بعد المائتين: إنا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا

المجلس الثالث والثلاثون بعد المائتين: إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۝٤ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٥ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٦ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۝٧ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٨ وَبِعَذَابِكَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۝٩ وَاللَّهُ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٠ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١١ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٢ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٣ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝١٤ وَتُعْزِزُوهُ وَتُقَرِّبُوهُ وَتُحْصِيَهُ بُحْرَةً وَأَصِيلًا ۝١٥ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۝١٦ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۝١٧ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٨ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۝١٩ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢٠ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝٢١ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝٢٢ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٢٣ يَقْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۝٢٤ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٢٥ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَفَازٍ ۝٢٦ لِنَأْخُذْهَا ذُرُوبًا نَنِيْعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَنِيْعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ۝٢٧ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْشُدُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٨ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرُوعُونَ ۝٢٩ إِلَيَّ قَوْمٌ أُولَىٰ بِأَمْرِ شَيْءٍ نَقْلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ ۝٣٠ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۝٣١ وَإِنْ تَنَوتُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٢ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۝٣٣ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۝٣٤ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِْبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٥﴾

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا

سورة الفتح كأنها جاءت مُتَمِّمة للسورة السابقة: سورة محمد ﷺ، فهناك كان الحديث عن القتال، وهنا جاء الحديث عن الفتح، وهل القتال إلا مُقَدِّمة أو سبب من أسباب الفتح؟ صحيح أن الفتح الذي تتحدث عنه السورة هو فتح سياسي جاء نتيجة لمفاوضات الحديبية، إلا أن قبول قريش بالمفاوضات ما كان له أن يكون لولا سلسلة من المعارك

والمواجهات العسكرية الحامية، بدءًا بمعركة بدر، وانتهاءً بالأحزاب، وحتى في الحديبية نفسها كانت المبايعة على الموت تحت الشجرة عاملاً مُساعدًا للإسراع بالحلّ السياسي، وهكذا يكون الربط بين السورتين إنّما هو في الحقيقة ربطٌ بين وجهين من أوجه الصراع الحتمي بين دولة الحقّ، ودولة الباطل: وجه القوّة العسكرية والاستعداد الدائم للقتال، ووجه القوّة السياسيّة القادرة على قطف ثمار الجهد العسكري، فإذا انفصلًا كانت القوّة عُنفًا أعمى، وخرابًا ودمارًا، وكانت السياسة استسلامًا وخنوعًا لا يليقان بالناس الكرماء.

في هذه الآيات تقويم دقيق لهذا الفتح وأبعاده وآثاره، وتقويم أيضًا لواقع المجتمع المسلم بحسناته وسيئاته في تلك المرحلة المفصليّة من تاريخ الإسلام، وكما يأتي:

أولاً: سمّى القرآن صلح الحديبية فتحاً مُبيناً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وسمّاه نصراً عزيزاً ﴿وَيُضْرَكُ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ والصلحُ كان جهداً سياسياً تفاوضياً لا قتال فيه، وهذا تنبيهٌ على أهميّة العمل السياسي، وأنّه قد يُحقّق ما لا يُحقّقه العمل العسكري بمفرده.

ثانياً: نبّه القرآن إلى أهميّة السكينة والثقة في مثل هذه المواجهة التي تتّسم في العادة بقدر كبير من المرونة، مما قد تخفى أهدافه وآثاره المتوقّعة على كثير من الناس ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثاً: أشاد القرآن بموقف الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم في التّفافهم حول رسول الله ﷺ ومبايعتهم له ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مُنبّهاً إلى أنّ هذا الموقف جاء نتيجةً لإيمانهم الراسخ بالله وبرسوله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿لَتَقُومُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

رابعاً: حدّر القرآن من المنافقين الذين يُروّجون الفتن والإشاعات المخدّلة، وربطَ بينهم وبين المشركين لاشتراكهم في الكفر وفي عداوة المؤمنين ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ

وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السَّوَاءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٠﴾

خامسًا: عرّض القرآن بشيء من التفصيل حالة لمجاميع مختلفة من الأعراب الذين لم يترسخ الإيمان في قلوبهم، وغالبهم ممن أسلموا حديثًا ولم تُتَح لهم فرصة للتربية الكافية، وهؤلاء يكونون أرضًا خصبة لتشويش المنافقين وإشاعاتهم ودعائياتهم ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنُّكَ السَّوَاءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾

فهؤلاء قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وقد كان ﷺ قد انتدبهم ليرى المشركون كثرة المسلمين فيها بهم ولا يصدّوهم عن المسجد الحرام، وكلّ هؤلاء في أعناقهم بيعة الإسلام التي تنصّ على السمع والطاعة، لكنهم نكثوا.

سادسًا: يتتقد القرآن موقف هؤلاء الأعراب، ويُقارن بين تخلفهم هذا عن رسول الله ﷺ، وبين حرصهم على الخروج معه حينما يظنون أنّ ثمة غنائم ومكاسب ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُواهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣﴾﴾

سابعًا: يفتح القرآن لهؤلاء الأعراب بابًا لتجديد إيمانهم، ولإدماجهم مع الصفّ المؤمن المجاهد، في دلالة واضحة أنّ هؤلاء الأعراب لم يكونوا من المنافقين وإن شابهوهم في بعض المواقف ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٤﴾﴾ مُبَيَّنًا من يحقّ لهم

التخلفُ من أصحاب الأعدار المقبولة ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثامناً: في ثانيا هذا الوصف والتقويم، جاء التذكير المتكرر بعقيدة الحساب والجزاء، وهي العقيدة الدافعة لمراجعة النفس، وحملها على طريق التوبة والاستقامة ﴿لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

دقائق التفسير

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ هو فتح الحديبية وإن لم يُصرح به؛ إذ هو الموضوع الأساس الذي تناولته السورة، والفتحُ أخصُّ وأعظمُ من النصر؛ إذ النصر يصدق في أدنى غلبة، والفتح لا يصدق إلا في النصر العظيم؛ كفتح مكة، وفتح العراق والشام ومصر.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فالفتح نتج عن عملٍ وجهادٍ طويل، والحسنة تمحو السيئة في حق سائر الناس، فكيف بالنبِيِّ الذي هو الأسوة لكل عاملٍ، والقدوة لكل مجاهد. وهذه المغفرة بحقه ﷺ لا تستلزم وجود الذنب منه، بل هي المقام الرفيع الذي يعني: النقاء والصفاء، وكمال العبودية دون أي شائبة، وفيه أيضاً أن الفتح الذي يريده الله إنما هو فتح العابدين الخاشعين المتواضعين لا فتح المتكبرين والمتسلطين.

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يُثَبِّتُكَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيَزِيدُكَ مِنْ فَيْضِ عِلْمِهِ وَهُدَايَتِهِ.

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ وَصِفُ هَذَا الْفَتْحُ بِالنَّصْرِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُوَ الْعِزَّةُ وَالسِّيَادَةُ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي تَحَقَّقُ الْاعْتِرَافُ بِهَا مِنْ قَبْلِ الْقُوَّةِ الرَّئِيسَةِ الْمُهِيمَةِ عَلَى قِبَائِلِ الْجَزِيرَةِ، وَهَذَا الَّذِي يُسَمَّى الْيَوْمَ بِالْاعْتِرَافِ الدَّوْلِيِّ الَّذِي هُوَ شَرْطٌ فِي قِيَامِ الدَّوْلَةِ، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ فَتَحَ لَكَ هَذَا الْفَتْحَ لِتَحَقِّقَ هَذِهِ السِّيَادَةَ، وَلَا يَمْنَعُ أَنَّهُ أَرَادَ بِالنَّصْرِ الْعَظِيمِ مَا تَحَقَّقَ مِنْ انتصاراتٍ بَعْدَ الْحُدُودِ فِي خَيْبَرٍ وَغَيْرِهَا، وَالْمَعْنَى هَذِهِ تَتَدَاخَلُ وَلَا تَتَعَارَضُ.

﴿السَّكِينَةَ﴾ الثِّقَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ.

﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أَي: لِيَزِدَادُوا يَقِينًا بِاللَّهِ بَعْدَ تَحَقُّقِ مَا وَعَدَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ انْتِشَارِ الدِّينِ وَتَمَكُّينِهِ.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَجُنُودُهُ فِي السَّمَاءِ هُنَا: الْمَلَائِكَةُ، وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْبَشَرِ، وَجَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَإِضَافَتَهُمْ إِلَى اللَّهِ فِي اسْمٍ وَاحِدٍ شَرَفٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا بَعْدَهُ شَرَفٌ.

﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوْءِ﴾ فَالْمُشْرِكُونَ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ السَّوْءَ فِي أَصْلٍ مَعْتَقَدِهِمُ الْقَائِمَ عَلَى تَوْهُمٍ وَجُودِ شَرِيكَ مَعَ اللَّهِ، وَالصَّاقِ الصِّفَاتِ النَاقِصَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا مَرَّ فِي قَوْلِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَالْمُنَافِقُونَ يَظُنُّونَ السَّوْءَ بِاللَّهِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَفِي لِلنَّبِيِّ بِمَا وَعَدَهُ بِهِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَنْ يَكْسِبُوا مِنْ مَسِيرِهِمْ إِلَى مَكَّةَ خَيْرًا؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يُخْرِجُوا مَعَهُمْ.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أَي: إِنَّ السَّوْءَ سَيَدُورُ عَلَيْهِمْ وَيَرْجِعُ عَلَى رُءُوسِهِمْ، وَالسَّوْءُ هُنَا كُلُّ مَا يُسَوِّوهُمْ مِنْ نَصْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَزِيَادَةٍ فِي رِزْقِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾ أَي: تَشْهَدُ عَلَى النَّاسِ بِالتَّبْلِيغِ أَنَّكَ بَلَّغْتَهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ كَامِلَةً، فَلَا عَذْرَ لِمُعْتَذِرٍ مِنْهُمْ.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا بيانٌ للغاية من بعثته ﷺ بهذه الرسالة، وهي الإيـانُ بالله وبرسوله، أي: وبرسالته؛ لأن كلمة الرسول تتضمَّنُها، ثم ما يستلزمُه هذا الإيـان من عِبادةٍ لله، وجِهـادٍ في سبيله، وتعظيمٍ لشعائره.

وقد اختلفَ في عودة هاء الغائب في: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وهو أشبهُ بالخلاف اللغوي اللفظي؛ فالتعزيرُ معناه: التأييد والنصرة، والتوقيرُ معناه: الإجلال والتعظيم، وكلاهما يصحُّ أن يعودَ إلى الله أو إلى نبيِّه، ولا يصحُّ الجمعُ بينهما؛ لأنه لو أرادَ الجمعَ لقال: تُعزِّرُوها وتُوقِّرُوها، لكن الفعل الثالث: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ مُتَّفَقٌ على عودته إلى الله؛ لأن التسبيحَ إنما يكون لله وحده، وهذا مُرَجَّحٌ لعودة الضميرين السابقين إلى الله تعالى أيضًا.

وأما كونه خلافًا لفظيًا؛ فلأنَّ نُصرةَ الله تستلزمُ نُصرةَ النبي ﷺ، وكذلك التعظيم والإجلال، والله أعلم.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ تسبيحٌ في بداية النهار استعدادًا للعمل، وفي نهايته استغفارًا من الزلل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ وهذه بيعة الحديبية؛ وهي بيعة خاصَّة لموقف خاص، وهي أشبه بالتعاهد على فعل معين، وهو ما أخذته بعض الجماعات الإسلامية في مشروعية البيعة لقاداتها، ولكن قد يخلطُ بعضهم بين أحكام هذه البيعة وأحكام البيعة الكبرى التي لا تكون إلا لإمام المسلمين الذي تلتقي عليه كلمتُهم، والقادر على القيام بشريعة الله فيهم.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُوكَ اللَّهَ﴾ لأن بيعة الرسول ليست لشخصه، وإنما لدينه ونصرة دعوته، وفيه تعظيمُ الله لهذه البيعة، وأنه سبحانه شاهدٌ عليها ومُواخِذُ الناس بها.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالتأييد والحفظ والعناية.

﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ نقض البيعة، ولم يعمل بمقتضاها.

﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: يرجع وبأل نقضه عليه في الدنيا والآخرة.

﴿يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى أنهم لم يكونوا صادقين بطلب الاستغفار لهم.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بمعنى أن هؤلاء الأعراب إنما تخلفوا لظنهم أن قريشًا سوف تستأصل المسلمين الخارجين إلى مكة لأداء العمرة.

﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: قومًا هالكين بذنبكم وتخلفكم وسوء ظنكم.

﴿سَيَقُولُ الْمَخْلَفُونَ﴾ هم الأعراب المتخلفون عن الحديبية.

﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَعَانِمَ لِنَأْخُذُهَا﴾ في خيبر.

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: نسير معكم إلى خيبر.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ لأن الله حكم على هؤلاء المتخلفين عن الحديبية أن لن يشتركوا في غزوة خيبر.

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ أي: في هذه الغزوة، وهذا هو حكمه ﷺ فيهم.

﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ حكم الله عليكم بعلمه السابق سبحانه.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَنَا﴾ أي: لا تريدون إشراكنا في الغنائم.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنهم ينظرون إلى هذا المنع بالمنظور المادي الدنيوي، وليس بالمنظور الإيماني والتربوي.

﴿سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: ستكون هناك معارك أخرى بعد خيبر وستدعون لها، فالمنع إنما كان في غزوة خيبر؛ تأديبًا على تخلفكم عن الحديبية.

وهذه المعارك كانت في عهد الصديق ﷺ في قضائه على حركة التمرد والردة، ثم في فتح العراق والشام، ولا شك أن هذه تزكية لسيدنا الصديق ولأن كان معه من الأصحاب رضي الله عنهم أجمعين، أما فتح مكة فلم يكن فيه قتال كما هو معلوم، والله أعلم.

﴿فَإِنْ طَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ غنيمة الدنيا وثواب الآخرة.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ أي: كما تولَّيْتُمْ في الحديبية، والخطاب لم يزل للأعراب المتخلفين عن الحديبية.

﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دليلٌ على أن القتال مع الصديق ﷺ كان قتالًا واجِبًا؛ بحيث يستحقُّ المتخلف عنه العذاب الأليم.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ ليس عليه في تخلفه إثم.

سُورَةُ الْفَتْحِ

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾
 وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ
 عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرًا ۝٢١ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ لَا أَلَدْتُمْ لَأَذَبْنَاكُمْ لَاحِدًا وَلَا يُحْدِثُ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ
 بُدِيلًا ۝٢٣ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤ هُمْ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ
 تَطُفُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥
 إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ
 التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ
 شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا ۝٢٧ هُوَ الَّذِي
 أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
 رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي
 الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾

إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

في الشطر الثاني من هذه السورة العريضة جاء الحديث عن أولئك الصفوة الذين صنعوا
 الفتح بجهدهم وجهادهم المتواصل، والتفافهم حول نبيهم وقائدهم ﷺ، إنهم النموذج
 الأمثل الذي ينبغي على المؤمنين في كل جيل أن يحذوا حذوهم، وأن يقتدوا بهم.
 لقد عنيت هذه الآيات عناية خاصة بعرض هذا النموذج وتقديمه بصفاته وخصائصه
 فمن الحركة العملية التي كان يخوضها هذا الدين:

أولاً: أعلن القرآن أن هؤلاء الصفوة قد رضي الله عنهم، وهذا خبرٌ لا يحتمل إلا التحقق والصدق المطلق ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

ثانياً: قرّن القرآن بين الفتح وبين المغانم، في إشارة إلى دور المال والتنمية الاقتصادية في تعزيز الفتح؛ ليُضيف إلى هذا الفتح بعده الثالث؛ فهو فتح سياسي عسكري اقتصادي ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، وهذه المغانم كانت إحدى ثمار الحديبية؛ حيث تفرّغ رسول الله ﷺ لمقاتلة اليهود، فكانت خيبر كلها غنيمة للمسلمين، وهي غنيمة بمعنى أوسع من المعنى المتبادر للغنيمة؛ ففتح خيبر فيه توسيعٌ لرقعة الدولة المسلمة، وامتداد نفوذها في محيط الجزيرة الأوسع، والتخلّص من آخر جيب يهودي، إضافةً إلى ما في خيبر من المزارع التي تُموّل المسلمين بشكل مستمر، وما غنمه المسلمون من مالٍ وسلاح.

ثالثاً: امتنَّ الله على المسلمين بكفّ أيدي المشركين عنهم، ونزع فتيل الاقتتال معهم، وفي هذا دليلٌ على أن قتال المشركين ليس مطلوباً لذاته؛ فإن تحقّقت الغاية بدفعهم - كما في الأحزاب -، أو بالتفاوض معهم - كما في الحديبية - فذاك أقرب لمقاصد الدعوة وأنفع للمسلمين ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾.

رابعاً: أكّد القرآن أن هذا الكفّ لم يكن بسبب ضعف المسلمين، بل المسلمون متجهّزون للقتال، ومتوكّلون على الله في كل مواجهة، وهم واثقون بنصره؛ لأنهم أصحاب حقٍّ لا طألاب دنيا ﴿وَلَوْ قَتَلْنَاكُمْ أَلَدِينَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوَ أَلَدَبَرْتُمْ لَدِبْرْتُمْ لَا يُحْذَرُونَ وَلِيَا وَلَا نَضِيرَ﴾ (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

خامسًا: بيّن القرآن سببَ كفّ القتال في مكة، أي: قبل إبرام الصلح؛ حيث وصل الفريقان إلى حدّ الاقتتال لولا أن الله أراد شيئًا آخر ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَو تَزَلَّيْنَا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فرعاية هؤلاء المستضعفين المقيمين في مكة بين ظهرائي قريش أن يُصابوا بأذى من المسلمين لاختلاطهم مع المشركين، وكذلك إصابتهم من قبل المشركين إن علموا بإسلامهم، فهذا مقصد نصّ عليه القرآن في هذه الآية، وفي هذا دلالة على خلاف ما تقوم به بعض الجماعات المقاتلة اليوم والمتشبّثة بشعار الدين؛ حيث لا يتورّعون عن قتل الأبرياء أو التسبّب في قتلهم، بحجّة عدم القدرة على تمييزهم عن العدو، بينما جعل القرآن عدم التمييز سببًا لمنع قتال المشركين ﴿لَو تَزَلَّيْنَا لَلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

سادسًا: قارن القرآن بين موقف المؤمنين في الحديبية المتّسم بالحكمة والهدوء، وبين موقف المشركين المتوتّر والمشحون بالحمية الجاهلية، والقرآن يُشير من خلال السياق أن هذا التمايز له صلة بتحقيق النصر للمؤمنين ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فكانت السكينة في مقابل الحمية، وكانت التقوى في مقابل الجاهلية.

سابعًا: أجاب القرآن عن تساؤل بعض المؤمنين حول إشارة النبي ﷺ بدخول مكة معتمرين؛ لأنّه لما كان الصلح متضمنًا لرجوع المسلمين عن عمرتهم هذه إلى العام القادم، استشكل بعض الصحابة ذلك، وأصابهم غمٌ شديد؛ إذ كانوا يظنون أن الإشارة النبوية تحدد في هذا العام، بدلالة الإحرام بها من الميقات، لكن الله ﷻ أراد لهم ما هو خير ﴿لَقَدْ

صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرَّءْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلَفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝

ثامناً: أَكَّدَ الْقُرْآنَ وَعَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِإِظْهَارِ هَذَا الدِّينِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ؛ فَالْفَتْحُ فَاتِحَةٌ لَطَرِيقِ طَوِيلٍ مِنَ التَّمَكِينِ وَانْتِشَارِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي الْعَالَمِينَ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾

تاسعاً: خَتَمَ الْقُرْآنُ هَذِهِ السُّورَةَ بِبَيَانِ صِفَاتِ أَوْلَئِكَ الصَّفْوَةِ الْأَخْيَارِ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، الْمُتَأَسِّينَ بِرَسُولِ اللَّهِ وَالْمُتَّبِعِينَ لَهُ: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَثَرُ السُّجُودِ ۚ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ۚ كَرَّجَ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَتَارَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ۚ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾

وهذه الصفات جمعت بين القوة والرحمة؛ القوة بالحق، والرحمة بالخلق، القوة على الكافرين المعتدين، والرحمة بالمؤمنين، وجمعت إلى ذلك كله إخلاص العبادة لله، حتى بدا ذلك يُقرأ في وجوههم نوراً وحياءً، وسمتاً حسناً، ثم أخبر القرآن أن صفاتهم هذه قد وردت في الكتب السابقة، مع إضافة صورة جميلة تدل على نمو هذه الفئة المباركة وثباتها ورسوخها في الأرض كما يستغلظ الزرع النامي، وأن ذلك مما يغيب الكافرين المجرمين، ثم فتح القرآن باب الأمل الواسع لكل المؤمنين المتبعين لنهج الأخيار هؤلاء: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وهم كل الصحابة الذين خرجوا معه ﷺ في الحديبية وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكانت البيعة على القتال بعدما أُشيع عن قتل المشركين لرسول الله ﷺ، وهو سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه والذي بعثه ﷺ إلى قريش للتفاوض معهم، وقوله تعالى عن هؤلاء الصفوة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خبر لا يحتمل النسخ، وفيه ردٌّ قاطعٌ على الذين يكرهون الصحابة ويكفرونهم. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق واليقين.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ بالصلح الذي سمَّاه القرآن فتحاً مبيناً.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: ووعدكم مغايرم أخرى، لا تقدرون عليها بما معكم من عددٍ وعُدَّةٍ، والإشارة هنا - والله أعلم - إلى فارس والروم، لكن الله ناصرُكم عليهم بقدرته التي تُحيطُ بهم.

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ بمعنى أن هؤلاء المشركين الذين كفَّ الله أيديهم عنكم لو قاتلوكم لنصرَكم الله عليهم، وهذا تأكيدٌ أن كفَّهم إنما كان لحكمةٍ أعلى وأسمى، وليس لضعفِ المؤمنين عن مُقاتلتهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ في نصر النبيين على أعدائهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ تأكيدٌ آخر لاستعداد المسلمين للقتال دفاعاً عن نبيهم وعن دينهم وأنفسهم، وإنما كفَّ الله الفريقين عن الاصطدام لحكمةٍ ظهرت آثارها فيما بعد بفتح خيبر، ثم مكة نفسها، ثم بدخول الناس في دين الله أفواجا.

﴿يَبْطِنُ مَكَّةَ﴾ بأسفل مكة حيث كانت الحديبية.

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث تمكن المسلمون في الحديبية من أسر بعض المتهورين

من شباب قريش الذين اتَّفَقُوا فيما بينهم على مُبَاغَةِ المسلمين فَأَمَكَنَ اللهُ مِنْهُمْ، ثم أمر النبي ﷺ بإطلاق سراحهم.

﴿وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ أي: أنهم مَنَعُوا الْهَدْيَ مِنْ وَصُولِهِ إِلَى مَحَلِّهِ فِي مَكَّةَ وَبَقِيَ مَعَكُوفًا، أي: مَحْبُوسًا، وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا التَّشْنِيعِ عَلَى قَرِيشَ بِمَنْعِهِمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ وَقد جَاءَ وَهِيَ مُعْتَمِرِينَ لَا مُقَاتِلِينَ.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّزَعَلَمُوهُمْ﴾ لَأَنَّهُمْ مُسْتَضَعِفُونَ لَا يَجْهَرُونَ بِإِسْلَامِهِمْ؛ وَلأنَّ فِي الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُونَ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضَعِفِينَ بِأَسْمَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا قَدْ أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ.

﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أَنْ تُصَيِّبُوهُمْ بِسُوءٍ.

﴿مَعَرَّةٌ﴾ التَّبِعَةُ الثَّقِيلَةُ مِنْ إِيْثِمٍ، وَلَوَمٍ، وَدِيَّةٍ.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لو خَرَجَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْتَضَعِفُونَ لَسَلَطْنَاكُمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَفِي هَذَا بَيَانٌ لِحُكْمَةِ وَفَائِدَةٍ أُخْرَى لَصُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهِيَ: حِمَاةُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضَعِفِينَ، وَبَيَانُ حُرْمَةِ الْمُسْلِمِ الْبَرِيِّ وَلَوْ كَانَ يَعِيشُ مَعَ الْعَدُوِّ.

﴿حَيَّةَ الْجَهْلِيَّةِ﴾ الْآتِفَةُ وَالْكَبَرُ وَالتَّنَاضُرُ عَلَى الْبَاطِلِ.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّيَا﴾ إِذْ رَوَّيَا الْأَنْبِيَاءَ وَحِي، وَقد كَانَ ﷺ قَدْ بَشَّرَ الْمُسْلِمِينَ بِرُؤْيَا رَأَاهَا أَنَّهُمْ سَيَدْخُلُونَ مَكَّةَ آمِنِينَ مُعْتَمِرِينَ، فَفَرِحَ الصَّحَابَةُ بِذَلِكَ وَظَنُّوهُ فِي عَامِهِمْ هَذَا الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الصِّلْحُ، فَلَمَّا صَدَّتْهُمْ قَرِيشُ أَصَابَهُمُ الْحُزْنُ، وَتَسَاءَلُوا عَنْ تِلْكَ الرُّيَا وَمَعْنَاهَا وَوَقْتُ تَحَقُّقِهَا، فَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تُطْمِئِنُّهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّيَا حَقٌّ، وَأَنَّهَا وَاقِعَةٌ لَا مُحَالَةٌ.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: عَلِمَ اللهُ مَا فِيهِ الْخَيْرُ لَكُمْ، فَجَعَلَ قَبْلَ تَحَقُّقِ الرُّيَا فَتْحًا قَرِيبًا، وَقد كَانَ ذَلِكَ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ ثُمَّ فِي خَيْبَرَ؛ حَيْثُ فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، فَعَلَى أَيِّ الْفَتْحَيْنِ حُمِلَتِ الْآيَةُ كَانَ حَمَلًا صَحِيحًا، وَلَا يَمْنَعُ

أيضاً الجمع بينهما؛ لأن الثاني كان ثمرةً للأول، والله أعلم.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليكون له العلوّ والشرف على كل دين آخر.

﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ علاماتهم الظاهرة في وجوههم؛ من السكينة، والحياء، ونور الوجه، وحُسن السَّمْت، فالسجود له أثره في نفوس الساجدين وسلوكهم، وهذا الأثر ينعكس - دون ريب - في ظاهرهم.

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي: ذلك الذي تقدّم من صفات محمد ﷺ وأصحابه قد جاء موافقاً لصفاتهم في التوراة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ أي: ووصفهم في الإنجيل.

﴿كَزَيْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: نما وتكاثر وأخرج له فروعا.

﴿فَنَازَرَهُ﴾ أي: فقواه.

﴿فَاسْتَفَلَّ﴾ أي: غلظ، والحديث عن الزرع.

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ أي: قام الزرع وكمل واعتدل، والسُّوق: جمع ساق، والمقصود

به هنا: أصول الزرع وأعواده التي يقوم عليها.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ الذين زرَعُوهُ وتعبوا فيه.

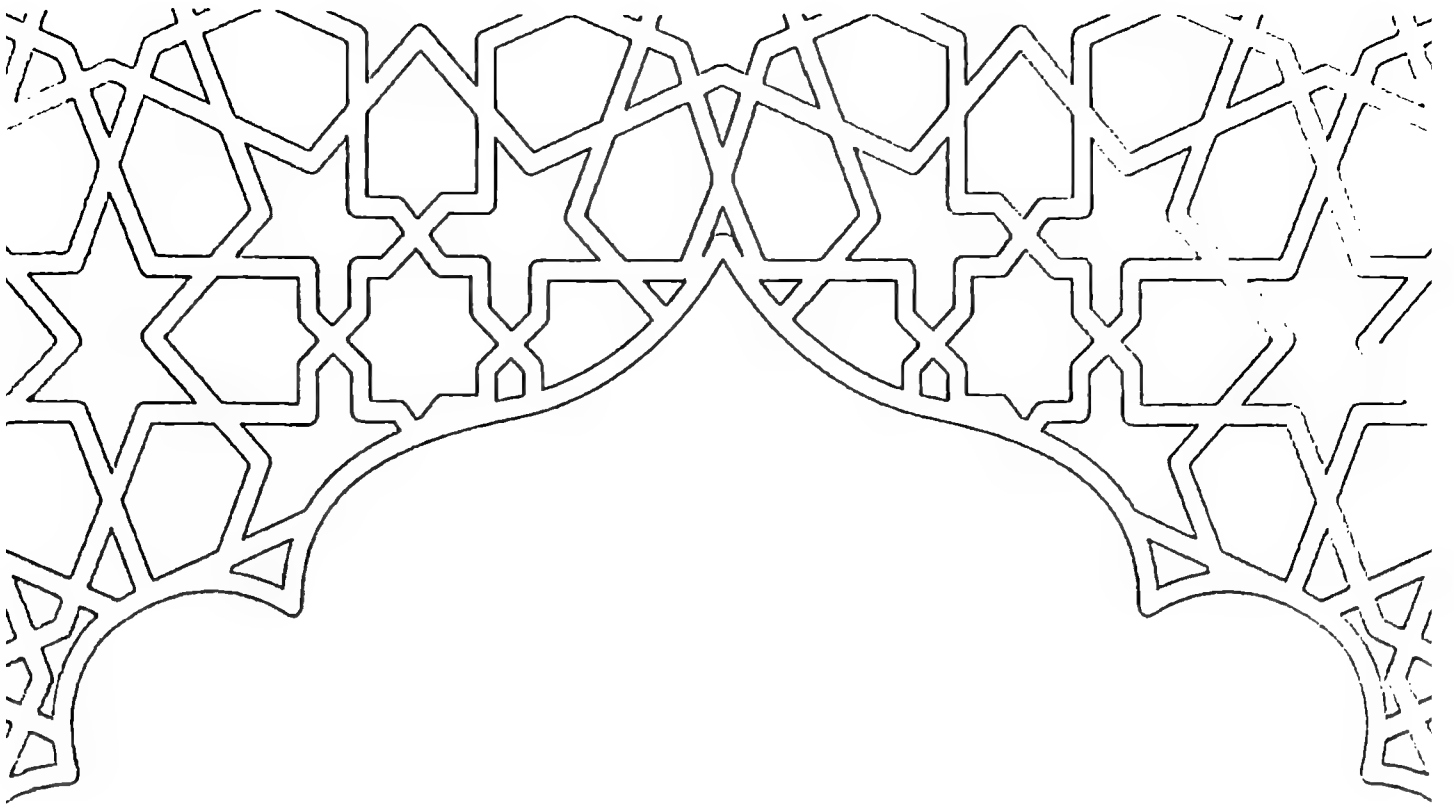
﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي: إنما قَوَّاهم وكَثَّرَهم ليقهَر بهم الكفار.

وقد وردَ عن السلف - ومنهم الإمام مالك - : أَنَّ مَنْ أَصْبَحَ فِي قَلْبِهِ غَيْظٌ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ

أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَصَابَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ^(١).

(١) ذكر ذلك عددٌ من المُفسِّرين، ينظر: تفسير السمعاني ٥ / ٢١١، وتفسير البغوي ٧ / ٣٢٨، والتحرير والتنوير لمحمد

الطاهر ابن عاشور ٢٦ / ٢١٠، وغيرها.



سُورَةُ الْجُرَاتِ

المجلس الرابع والثلاثون بعد المائتين: منظومة القيم الإسلامية

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى ۖ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦﴾ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾ فَضَلَّآ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَنَلُّوا أَلَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بَغْضَ الْظَنِّ إِنَّمَا تَبَغَضُوا بَعْضُكُم بَعْضًا ۖ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۖ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٢﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٣﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝١٤﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٥﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَن أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَن هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٧﴾

إذا كانت المنظومة العقدية - كالتوحيد، والنبوة، والمعاد - تُؤسس الدين والملة، فإن المنظومة القيمية تُؤسس المجتمع والأمة، من هنا كان الترابط المتين بين المنظومتين من بداية نزول الوحي، حتى كاتهما منظومة واحدة.

فالقرآن المكّي يدمج بين الإيمان بالله وبين احترام الإنسان ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْتِمَ ﴿٢﴾ [الماعون: ١، ٢]، ويجعل تحرير العبيد ومساعدة المساكين طريقاً للفوز وتجاوز العقبة ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَبْسُماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ [البلد: ١١ - ١٦]، ويتوعد بالويل لمن يأكل حقوق الآخرين ﴿وَبِلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ [المطففين: ١ - ٣]، ويُندد باضطهاد الأنثى ﴿وَإِذَا أَلْمُوءَدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ [التكوير: ٨، ٩]، ويُنبه إلى مُراعاة المُعاقين ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ [عبس: ١، ٢]، وغير ذلك كثير، وهذا كله في القرآن المكّي، وبذلك تسقط نظرية أن القرآن المكّي جاء لتأصيل العقيدة حصراً، فبناء الإنسان لا يقل أهمية وضرورة عن بناء الإيمان، وهل يحمل الإيمان إلا الإنسان.

وقد مرّت معنا سورٌ مكيّة عيّنت أشدّ العناية بموضوع القيم، مثل: سورة الأنعام، وسورة النحل، وسورة الإسراء.

هذه السورة تكاد تكون مُحَصَّصة بالكامل لموضوع القيم، خاصّة تلك التي تُسمّى اليوم بـ (القيم العلائقية)، وهي المعايير التي تحكم علاقة الناس بعضهم ببعض، ويمكن تلخيص هذه القيم وما يتّصل بها في النقاط الآتية:

أولاً: الأدب مع الوحي، وعدم التقدّم عليه برأي أو هوى نفسٍ وما إلى ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ﴾؛ إذ الإسلام إنما هو الاستسلام

لأمر الله ونهيه، وتلك حقيقة التقوى، فمن قَدَّم عليها ما يراه هو من تصوُّرات وأفكار وآراء فقد أساء الأدب مع الله، وخالف نهج المتقين.

ثانيًا: الأدب مع رسول الله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥﴾.

وقد جاء التحذير شديدًا بحق مَنْ يرفع صوته بحضرة النبي الكريم ﷺ إلى حدِّ التهديد بإبطال العمل، وهذا لم يرد في القرآن إلا بحق الكافرين المشركين، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥].

ثالثًا: التبيين من الأخبار وعدم التسرع في تصديقها، خاصة تلك التي تنبئ عليها مواقف وتصرفات قد يندم عليها صاحبها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ٧﴾.

رابعًا: الإصلاح بين الناس ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ٨﴾.

خامسًا: ردُّ الباغي المعتدي، ونصرة المظلوم المعتدى عليه ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ٩﴾.

سادسًا: الحكم بالعدل بين المختصمين ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ١١﴾.

سابعًا: ترسيخ معاني الأخوة الإيمانية، وتساوي المؤمنين جميعًا في ذلك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثامنًا: وجوب احترام الإنسان وعدم السخرية منه، أو لمزه، أو نبزه بما يُسيء إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَائِهِمْ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

تاسعًا: حُسن الظنِّ بالمسلمين، وتجنب إساءة الظن؛ فالأصل في المؤمن الخير، والأصل في الإنسان براءة الذمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

عاشرًا: تحريم التجسس ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولا يأتي التجسس إلا بعد إساءة الظنِّ، فيكون المتجسس قد ارتكب إثمين في آنٍ واحد.

حادي عشر: تحريم الغيبة ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ والغيبة: ذكرك أخاك بما يكره وإن كنت صادقًا.
ثاني عشر: اعتقاد المساواة بين الناس في أصل الخلقة؛ فكل الناس خُلِقوا من أبٍ واحد وأمٍّ واحدة، بمعنى أن البشرية كلها إنما هم أسرة أو قبيلة واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾.

ثالث عشر: التعارف بين الناس وعدم الانعزال أو التقاطع ﴿لِتَعَارَفُوا﴾.

رابع عشر: وضع الميزان العدل للتنافس والتفاضل بين الناس ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرَّكُمْ﴾ والتقوى مجال يقبل التنافس، فبإمكان أي شخص أن يتقدم فيه أو يتأخر، بخلاف الجنس واللون والنوع.

خامس عشر: التواضع والطموح نحو الأفضل، والتنافس في مدارج الإيمان والطاعة، والاعتراف لأهل السبق بسبقهم، ولأهل الفضل بفضلهم ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ

تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦٤﴾.

سادس عشر: اليقين والإيمان الصادق الذي لا تشوبه شائبة الشك والتردد، ولا يعقبه النكوث والنكوص ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.

سابع عشر: الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس عن عقيدة وصدق ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

ثامن عشر: ضبط مصدر التلقي؛ فالدين لا يُؤخذ بالأهواء ولا الآراء المجردة، وإنما يُؤخذ من الوحي، وأما الاجتهاد فإنما هو طريق لفهم الوحي وتنزيله على الواقع، وإدراك غاياته وقواعده ومقاصده ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تاسع عشر: الإخلاص في النية وصدق التوجه باعتقاد حاجة الإنسان إلى التدئين، لمعرفة طريق نجاته وسعادته في الدنيا والآخرة ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ فإذا كانت منة الإنسان على الإنسان مفسدة للصدقة والبر ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُ أَصْدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]. فكيف بالإنسان الذي يُمْنُ بإسلامه على الله؟

عشرون: الشكر لله بالاعتراف له سبحانه بالفضل والنعمة ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تُقدِّموا قولكم على قول الله ورسوله، وهذه لها صور كثيرة، منها: الاستعجال بإبداء الرأي قبل معرفة حكم الله، ومنها: الإفتاء بغير علم

ولا بينة، ومنها: من يُقدّم قانون البشر وعاداتهم وتقاليدهم على شريعة الله، وهذه الصور ليس حكمها في الإسلام سواء، وإن كانت كلّها داخلّة في أصل النهي.

﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: لا ترفعوا أصواتكم بحضرته فوق المستوى المعتاد من صوته ﷺ حينما يتكلّم معكم، أمّا في وقت كلامه فيجب الإصغاء ولا تجوز مقاطعته.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ هذا أدب آخر يخص طريقة مخاطبته ﷺ؛ إذ لا يجوز أن تكون كمُخاطبة بعض الناس لبعض، بل يجب تعظيمه في الخطاب، كأن يُقال: يا نبيّ الله، يا رسول الله، ولا يُقال: يا محمد، وأن يكون الخطاب لنا متواضعًا لا شدّة فيه ولا غلظة.

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ مخافة أن تحبط أعمالكم إذا لم تكفّوا عن ذلك، أمّا من قصد الإساءة إليه ﷺ فعمله مُحبط قطعًا.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ يعني: اختبر الله قلوبهم ونظر فيها فوجدها تقية نقية، بمعنى أن غصّ الصوت بحضرته ﷺ أدبًا معه، وإجلالًا له هو دليل التقوى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ حيث كان بعض الأعراب يأتي إلى رسول الله ﷺ فلا ينتظره حتى يخرج إليه، بل يُناديه بصوت عالٍ من خلف حُجرات نسائه، وقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ كأنه يعزّو هذا الفعل إلى قلة التعقل والتفقه، وليس إلى قلة الدين؛ إذ هؤلاء لم تُتح لهم فرصة التربية الكافية، وهو تنبيه إلى أهميّة تعليمهم وتوجيههم، والله أعلم.

﴿يَنَادِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: تثبّثوا وتأكدوا قبل أن تحكموا على الناس، وتقعروا فيهم عن غير بينة، والحكم هذا لا يخصّ الفاسق -وهو الخارج عن طاعة الله-، بل يدخل فيه غيره.

والضابط في هذا تحقق التبيين كالبحث في عدالة الراوي، وإذا كان الراوي ينقل الخبر عن غيره فعدالته لا تكفي، بل لا بُدَّ من التأكد من عدالة مَنْ نقل عنه، وهكذا، والراوي المجهول الذي لا يُعرف له فسقٌ داخل في الحكم أيضًا.

وإنما نصَّت الآية على الفاسق؛ تنبيهًا على أن الأصل في الأخبار المؤذية للصف المسلم إنما ينقلها ويُشيعها الفسقة والكذبة، فإذا نقل المسلم خبرًا من هذا النوع، فليس هذا دليلًا على فسقه، بل قد يكون بسبب غفلته أو ثقته بمن ينقل عنه، والله أعلم.

﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَاهِلِهِمْ﴾ أي: خوفًا من أن تُعاقبوا قومًا لا يستحقون العقوبة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ هذا تنبيهٌ وتذكيرٌ للمؤمنين أن الذي بينهم هو رسول الله ﷺ، فلا ينبغي أن يتعاملوا معه كما يتعاملون مع غيره من البشر، وهذا تمهيدٌ لما بعده، وهو أنه ﷺ لن يفعل كل ما ترغبونه، أو تطلبونه منه، أو تنقلونه إليه، فلو أخذ بكل ذلك لأصابكم العنت، وهو المشقة والضرر والإثم.

﴿اللَّهُ حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بمعنى أن النبي ﷺ حينما لا يستجيب لرغباتكم وطلباتكم؛ فما ذاك إلا لأن الله اختار لكم الأفضل والأحسن، وهو الإيمان بالله، والتسليم لحكمه وشريعته.

﴿وَرَكَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ هذه ثلاثة مستويات:

- الكفر: وهو ضد الإيمان، وهو معروف.
- والفسوق: الخروج عن طاعة الله حتى يكون شأنًا لازمًا، ووصفًا غالبًا، وهذا دون الكفر.

- والعِصْيَان: ارتكاب المعصية وإن لم تكن غالبية ولا دائمة، وهذه دون الفسق.
- وهذا الترتيب يتأكد باجتماع هذه الكلمات، أمّا إذا افترقت فيصح إطلاق الفسق مثلاً على الكفر، وكذا إطلاق المعصية على الكفر وعلى الفسق، بل قد ورد إطلاق الكفر على بعض

المعاصي، وكل ذلك لأغراضٍ يقتضيها المقام، وإنما تُفهم مدلولاتها من خلال السياق، والله أعلم.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ والطائفة هنا معناها: الجماعة المتناصرة فيما بينها؛ كالقبيلة والقرية ومن تجمعهم مصلحة مشتركة، وافترض القتال بين المؤمنين وارِدٌ دون أن يسلبهم وصف الإيمان، وعلى هذا كان موقف أهل السنة والجماعة في الفتنة التي حصلت بين الصحابة رضي الله عنهم.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ هذا الخطاب مُوجَّهٌ لبقية المسلمين ممن لم يشترك في القتال.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ برفض الصلح، أو بنكته، أو بعدوان ظاهر.

﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نَفِيلٍ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: قاتلوا الفئة المعتدية بعد استنفاد وسائل الصلح حتى ترجع إلى الحق، والخطاب هنا للمؤمنين الذين لهم شوكة وإمام مُطاع، وإلا قد يتحوّل الأمر إلى فتنة عامة.

﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ حتى تخمد الفتنة فلا تثور مرة أخرى.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مهما حصل بينهم؛ إذ رابطة الإيمان أقوى من كل شيء، ويقدر ما يعظمُ الإيمانُ في النفوس تعظمُ حُرُمات المؤمنين فيما بينهم.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ تأكيدٌ لقيمة الإصلاح، وتنبيهٌ إلى لين الخطاب والرحمة بين المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا فَسَاءٌ مِّنْ فِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُونَ

خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا التفصيلُ في النهي عن احتقار المسلم لأخيه المسلم - رجلاً كان أو امرأة - دليلٌ على خطورة هذا النوع من الآثام؛ فالسخرية التي تعني: الاستهزاء والازدراء والاحتقار لا تكون إلا في قلبٍ تشوبه شائبة الكِبَر والعُجب بالنفس؛ ولذلك قرَن القرآن النهي عن السخرية بالتنبيه إلى ميزان الخيرية، فكم من مُعجبٍ بنفسه، وغيره خيرٌ منه، وكم

من مُتَكَبِّرٍ يرى الناس دونه، وفيهم مَنْ هم أعلى شأنًا منه.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لا يَعبِ بعضكم بعضًا، ولا يلمِزه بها يُحَقِّره وَيُشِينُهُ، وأنزَلَ المُقَابِلَ منزلة النفس؛ تنبيهًا إلى مكانته التي يُريدها الله أن تكون في قلب أخيه؛ ولأنَّ الذي يَعبِبُ الآخرين فَإِنَّ العَيبَ يرجع عليه.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تُنادُوا إخوانكم إِلَّا بِأَسْمَائِهِم وألقابهم المُحِبَّة، أمَّا الألقاب المُشْعِرة بالإهانة والشتيمة، فهذا منهيٌّ عنه بإطلاق.

﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بمعنى أن الذي يسخرُ من الآخرين ويلمِزهم وينبزههم بالألقاب المشينة هو الذي يستحقُّ اسم الفُسُوق، وبئس هذا الاسم بديلاً عن اسم الإيمان، وفي هذا ترهيبٌ ووعيدٌ كافٍ لمن كان له قلب.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالذي يُصِرُّ على هذه الآثام المتقدِّمة من السخرية واللمز والتنابز، استحقَّ أن يكون في ميزان الله ظالمًا؛ فجمع بذلك بين الفسق والظلم، والعياذ بالله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِنَّمَا﴾ ترغيبٌ عامٌ بحسن الظنِّ بالمؤمنين؛ إذ هو نقيض سوء الظنِّ، والتحذير من غالب الظنِّ الذي يَقَع بين الناس، وهو الظنُّ الذي لا تشفعُ له قرينة، ولا يستندُ إلى دليل.

أما الظنُّ المقترن بالشبهة واللوث كما في أصحاب السوابق والمجرمين ومَنْ عُرِف عنهم العدوان وأكل أموال الناس بالباطل، فهؤلاء مُسْتَشْتَوْنَ؛ لأنَّ الاحْتِيَاظَ منهم واجب، وجعلهم في دائرة الشكِّ من الحزم والعزم، إِلَّا أَنَّهُ لا يجزم بحالهم لمجرد ذلك، بل لا بُدَّ من التحقيق المُنْصِف العادل.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ لا تتبعوا عورات الناس؛ لأنَّ هذا التَّبِعُ إِنَّمَا يدفعه سوءُ ظنٍّ مُسَبِّقٍ، وهذا لا ينطبق على حالات الحروب واحتِمالات العدوان؛ فالتجسس على هؤلاء وما يمكن أن

يُحْطِّطُوا لَهُ أَمْرٌ مُشْرُوعٌ؛ لحماية المجتمع ووقايته، لكن لا يترك هذا لأحاد الناس، والله أعلم.
﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ وَهُوَ غَائِبٌ، فَإِنْ كَانَ مَا قُلْتَهُ فِيهِ كَذِبًا، جَمَعْتَ الْكَذِبَ إِلَى الْغَيْبَةِ فَكَانَا كَبِيرَتَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَائِبًا كَانَ ذَلِكَ مِنَ السَّخَرِيَّةِ وَاللَّمَزِ وَالنَّبَزِ، وَكُلُّهَا أَفْعَالٌ مُحَرَّمَةٌ تُؤَدِّي إِلَى الْفَسْقِ وَالظُّلْمِ.

﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ هذا تشبيهٌ قُصِدَ بِهِ التَّنْفِيرُ الشَّدِيدُ مِنَ الْغَيْبَةِ؛ إِذْ هِيَ كَمَنْ يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا، بِجَامِعِ أَنَّ الْمَيْتَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ وَكَذَلِكَ الْغَائِبُ، وَالتَّشْبِيهُ عَلَى صِيغَةِ السُّؤَالِ لِاسْتِنطَاقِ السَّامِعِ وَتَنْبِيهِهِ إِلَى بُشَاعَةِ هَذَا الْفِعْلِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ فِعْلٌ تَشْمِئُزُّ مِنْهُ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ.

﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ بَيَانٌ لِلأَصْلِ الْبَشَرِيِّ الْوَاحِدِ، وَالَّذِي تَتَسَاوَى فِيهِ جَمِيعُ الْأَقْوَامِ وَالْأَجْنَاسِ وَالْأَلْوَانِ، وَهَذِهِ قَاعِدَةُ الْمُسَاوَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْمَقْصُودُ بِالذِّكْرِ هُوَ: آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِالْأُنْثَى: حَوَّاءُ، فَتَكُونُ الْبَشَرِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ عَائِلَةٍ وَاحِدَةٍ.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ مَقْصِدٌ مِنْ مَقَاصِدِ الْخَلْقِ، يَعْرِفُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَسْتَفِيدُ بَعْضُهُمْ مِنْ خُبْرَةِ بَعْضٍ، وَيَتَعَاوَنُونَ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمَشْرُوكَةِ، وَقَالَ: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ تَعْرِيفًا بِمَنْ بَدَّلَهَا بِغَيْرِهَا مِنَ الَّذِينَ يَتَلَامَزُونَ وَيَتَنَابَزُونَ وَيَسْخَرُونَ مِنْ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ هَذَا هُوَ مِيزَانُ التَّفَاضُلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالتَّقْوَى هِيَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَخَيْرُ النَّاسِ أَقْرَبُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَأَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ الْأَعْرَابُ هُمْ: أَهْلُ الْبَادِيَةِ الْبَعِيدُونَ عَنْ مُجْتَمَعَاتِ التَّحَضُّرِ وَالتَّعَلُّمِ، وَوَصَفَهُمْ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْتِقَاصِ مِنْهُمْ - حَاشَا لِلَّهِ -، بَلْ لِبَيَانِ حَالِهِمْ وَمَا يَصْلُحُ لَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ كَانُوا يَأْتُونَ الْمَدِينَةَ، فَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ بِمَجْرَدِ نُطْقِهِمْ بِالشَّهَادَةِ أَصْبَحُوا كَأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا﴾ أَي: نَحْنُ مِثْلُكُمْ، وَلَا مِيزَةَ لَكُمْ عَلَيْنَا.

﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ العلاقة بين مفهومَي (الإيمان) و(الإسلام) علاقة مُتداخِلَة ومُتَشَعِّبَة، وقد يُطَلَق هذا مكان هذا، وهذا مكان هذا، وقد يُطَلَقان على معنى واحد، لكنهما باجتماعهما في عبارة واحدة لا بُدَّ أنهما يَحْمِلَان معنيين مُتخِلِفَيْن، في التسلسل المنطقي يكون الإيمان أولاً؛ لأنَّه تصديقٌ قلبيٌّ، ثم يعقبُه الانقياد والاستسلام للدين ظاهراً وباطناً، ويبدأ هذا الانقياد بإعلان الشهادتين، ثم بإقامة الصلاة، وهكذا.

وعلى هذا فالمسلم الحق لا يمكن إلا أن يكون مؤمناً؛ إذ الإيمان أساس الإسلام، وفي مثل حالة الأعراب هذه كأنَّ الأمر معكوس؛ فقد أثبتَّ لهم الإسلام، ونفى عنهم الإيمان، وهذا محمول على أوجه:

منها: أنَّ الإسلام الثابت لهم هو الانقياد الظاهر كإسلام المنافقين، فهو إسلامٌ مقبولٌ عند البشر بحكم الظاهر؛ لأنَّ البشر لا يعلمون الغيب، وليس مقبولاً عند الله، وهذا الوجه مُستبعدٌ هنا؛ لأنَّ القرآن أشارَ إلى قُرْبٍ تحقُّقهم من الإيمان؛ حيث استعمل في النفي كلمة (لَمَّا) والتي تفيد قُرْب حصول ما نفته.

ومنها: أنَّ معنى الإيمان هنا أدقُّ من معنى التصديق المجرَّد، بل هو الرسوخ والوعي والقدرة على الالتزام بمقتضيات التصديق، وهذا المعنى واردٌ في القرآن في أكثر من موضع، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

فَوَجَلُ القلوب معنى مضافٌ على مجرَّد التصديق، وإدخاله في مسمَّى الإيمان هو الذي جعل الإيمان قابلاً للزيادة والنقصان، ولذلك كانت تِمَّة الآية: ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وهذا مُخْتَلِفٌ عن معنى الإيمان الوارد في حديث جبريل: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ...»^(١)، فهذا لا يقبلُ الزيادة ولا النقصان، وهذا هو المقصود بقول أبي حنيفة المعروف أنَّ: (الإيمان لا يزيد ولا ينقص).

وقد وردَ في القرآن نفسه ما يُعَضِّدُ هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلَاحِ ﴿٣٠﴾ حيث جعل العمل الصالح تابِعًا للإيمان معطوفًا عليه، وليس جزءًا من ماهيَّته.

والخلاصة: أنَّ للإيمان أكثر من إطلاق، والراجع أنَّ ما نفاه القرآن عن الأعراب إنما هو الإيمان بمفهومه الكامل الشامل، المتضمَّن للأعمال القلبيَّة والبدنيَّة، وهذا يزيد وينقص، ويتفاوت فيه الناس؛ ولذلك عادَ القرآن في نهاية السورة لِيُثَبِّتَ لهم الإيمانَ بمعناه الأول - وهو التصديق - فقال: ﴿بَلِ اللَّهِ يُمْنٌ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم يكتَمِل دخول الإيمان في قلوبكم بعدُ.

﴿لَا يَلْبِسْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئًا.

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ إنكارٌ على هؤلاء الأعراب الذين يقولون في معنى الدين والإيمان أقوالًا لا تستند إلى علم، والمقصود من السؤال: تعلِّمُهم أنَّ الله هو الذي يُبَيِّنُ الدينَ، ويحكمُ على الناس، فانتظروا ولا تتسرَّعوا، وهنا تذكيرٌ بصدر الصورة: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ كأنهم مُتَفَضِّلُونَ عليك بإسلامهم.

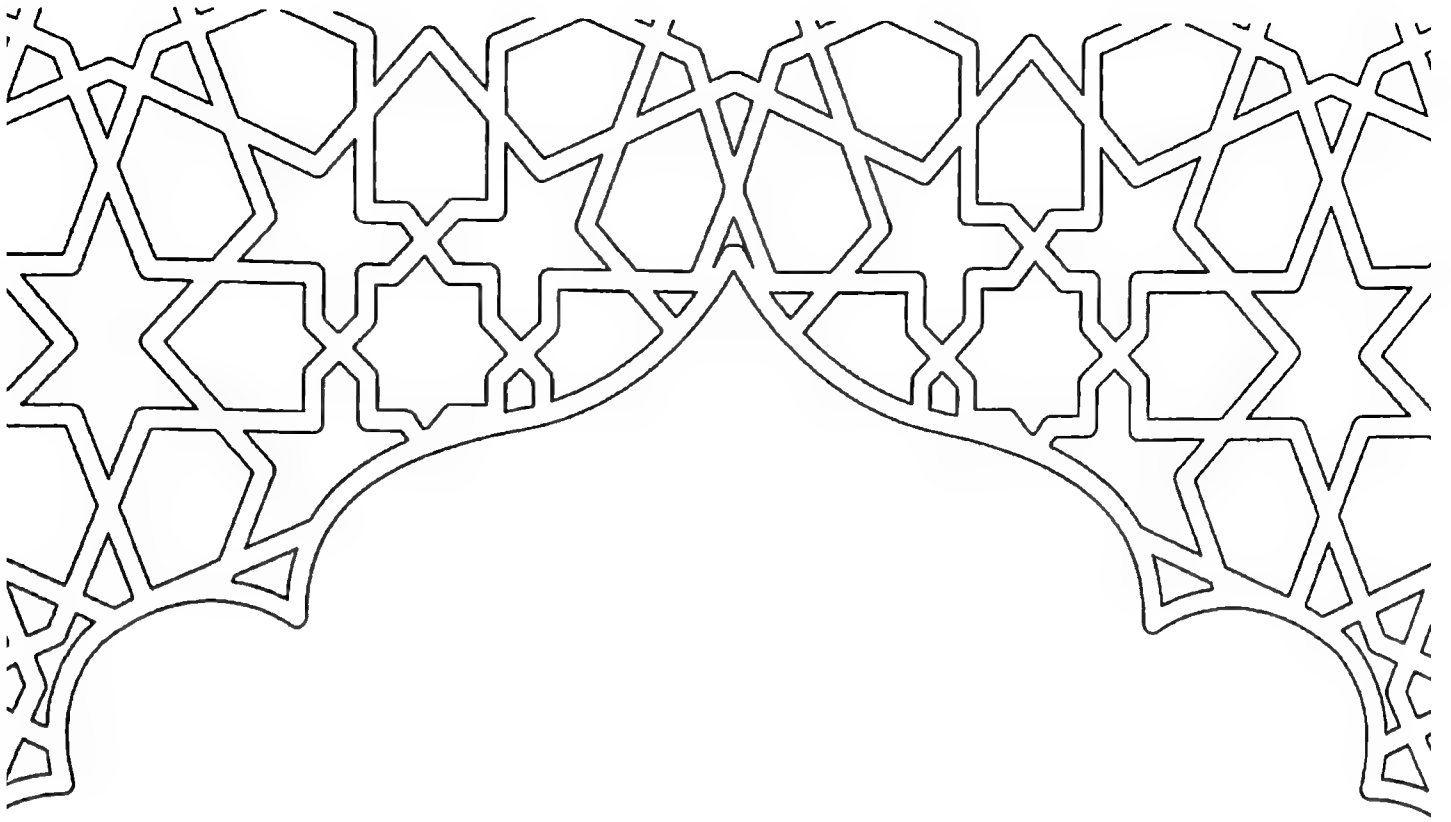
﴿قُلْ لَا تَعْمَلُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ فالله هو المتفضَّل عليكم، وهو المستحقُّ للشكر والمِنَّة.

(١) حديث جبريل الشهير وردَ بعدة صيغ، وهو متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٢٧/١) / دار ابن كثير، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م، تح د. مصطفى البغا)، وصحيح مسلم (١/٣٠) / دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين)، وانفردَ مسلمٌ بروايته عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعًا، ينظر: صحيح مسلم (٢٩/١).

(٢) تكرر هذا النصُّ الكريم في عددٍ من السور القرآنيَّة: سورة الشعراء / ٢٢٧، وسورة ص / ٢٤، وسورة الانشقاق / ٢٥، وسورة التين / ٦، وسورة العصر / ٣.

وهنا ملحوظة دقيقة، وهي: أن القرآن الذي نفى عن هؤلاء الأعراب الإيمان: ﴿قُلْ لَمْ
تُؤْمِنُوا﴾ أثبتته هنا: ﴿هَدَّكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ والأقرب في هذا: أن القرآن عاد واستعمل الإيمان
بمعنى التصديق، بتأكيد أن الإيمان يُطلق على أكثر من معنى، ولكل معنى حكمه، والله
أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ختم القرآن هذه السورة بهذه
الآية؛ لينبّه أن القيم الواردة في هذه السورة لا تُؤتي ثمارها إلا بوجود رقابة ذاتية، وقوة
داخلية للتطبيق، مُستندة إلى استشعار علم الله وإحاطته الكاملة بكل حركاتنا وسكناتنا.



سُورَةُ قَائِلَاتٍ

المجلس الخامس والثلاثون بعد المائتين: بل كذبوا بالحق لما جاءهم

المجلس السادس والثلاثون بعد المائتين: وجاءت سكرة الموت بالحق

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ إِنَّ الْمَعِيبَ﴾ ١ ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ٢ ﴿أَوَ ذَا مِثْنًا وَكُنَّا زُرَابًا ذَلِكُمْ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ٣ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ ٤ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ﴾ ٥ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ٦ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ٧ ﴿تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ٨ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ ٩ ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ ١٠ ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ١١ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ١٢ ﴿وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ ١٣ ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ ١٤ ﴿أَفَعِيبَانِ بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ١٥ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمْ مَا تَوْسَّوْسُ بِهِ فَفَسَدَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ١٦ ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ١٧ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ﴾ ١٨ ﴿

بل كذبوا بالحق لما جاءهم

سورة ق سورة مكية تتناول قضية الإيمان ومعركته الطويلة لإنقاذ البشرية من متهاتات الشرك والوثنية، والتصورات الجاهلية.

تبدأ السورة بتشخيص موقف المشركين من الدعوة الجديدة وتساؤلاتهم حول الرسول والرسالة، وعقيدة البعث والجزاء، ثم تأخذ بهم في رحاب هذا الكون لتجيّبهم بما يروونه ويلمسونه من واقع حياتهم، ثم تطوف بهم في صفحات التاريخ لعلهم يقفون على بعض دروسه ومواعظه، ثم تدخل في عمق نفوسهم لتَهْزَأَها من داخلها علّها تفيق من هذه الغفلة: أولاً: استهلّت السورة بقسمٍ عظيم يُقصد به بيان عظمة هذا القرآن، والتنبيه إلى خطورة الكلام الآتي بعد هذا القسم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ إِنَّ الْمَعِيبَ﴾.

ثانياً: نقل القرآن تعجّب المشركين من أمرين اثنين: أن يبعث الله إليهم رسولاً منهم، وأن يُبلّغهم هذا الرسول بما ينتظرهم بعد موتهم من بعث وحساب وجزاء ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ

مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ دَأًى مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ثم يتحوّل هذا التعجّب إلى تكذيبٍ صريحٍ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ثم يُبيّن القرآن حالهم بعد هذا التكذيب: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ﴾.

ثالثاً: ردّ القرآن تعجّبهم بتأكيد علم الله تعالى الشامل، فهو يعلم ما يذهب في الأرض من أجسادهم، وليس هناك شيءٌ منها يغيب عن علم الله ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ بمعنى أن هذا الذي تفتقدونه وتتعجّبون من إعادته هو عند الله ليس بمفقود، فالتعجّب وارد بالنسبة لعلمكم أنتم، أمّا بالنسبة لعلم الله وقدرته المطلقة فليس بوارد.

ثم أكّد القرآن هذا المعنى: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾، وفي هذا جوابٌ أيضاً لتعجّبهم من بعثه ﷺ؛ إذ كلّ هذا إنّما يجري على علم الله وتقديره ﷻ.

رابعاً: بعد تأكيد علمه ﷻ الشامل، جاء ليؤكد قدرته تعالى الشاملة، والتي يرى المشركون وغيرهم آثارها في هذا الكون ونظامه المحكم الدقيق ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَيْجٍ ﴿٧﴾ بَصِيرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

خامساً: لفّت القرآن أنظار هؤلاء المشركين المكذّبين بالبعث إلى ظاهرة متكرّرة في حياتهم، تقرّب لهم بشكلٍ حسّي ملموس إعادة الحياة بعد الموت ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ لإعادة الشجرة الكبيرة من بذرة صغيرة مدفونة في التراب يقرّب صورة إعادة الحياة للإنسان بعد أن تُدفن خلاياه في التراب أيضاً.

سادساً: ذكر القرآن هؤلاء المشركين بما أصاب أسلافهم المشركين من الأمم السابقة؛ لعالمهم يتفكّرون ويتعظّون ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوسُفَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

سابعاً: عاد القرآن ليناقضهم في تكذيبهم بالبعث، محتجاً عليهم بدليل العقل بعد أن احتجَّ عليهم آنفاً بدليل الحسّ ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ وهذا سؤال يصعق هذه العقول ويصدمها بالحقيقة الكبرى؛ فالله الذي خلق الإنسان الأول لا من شيء، كيف يُعجزه أن يُعيد خلقه من شيء؟

وهذا التعجُّب من تعجُّبهم هو الذي صاغه القرآن بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بمعنى أنه كيف يلتبس عليهم الخلق الجديد، وهم موجودون بالخلق الأول. ثامناً: بعد الدليل الحسِّي والدليل العقلي، دخل القرآن في أعماق نفوسهم ليحذِّرهم من وساوسهم التي تدفعهم لهذا التكذيب؛ فالإنسان المُجادِل ليس شرطاً أن يكون مُقتنعاً بما يقول، فالحسد مثلاً كافٍ لتكوين حالة من العناد والخصومة لا ينفع معها حوار، ولا يرُدُّها دليل.

من هنا جاءت هذه الآيات لتحذِّر هؤلاء مما يمكن أن يكون الدوافع النفسية الخفية لهذا الإنكار والتكذيب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْش بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ ١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فالله سبحانه يعلم الوسواس الداخلية، ويعلم المُجادلات والمُباحكات اللفظية، وكل ذلك في كتاب محفوظ.

دقائق التفسير

﴿قَ﴾ من الحروف المُقطَّعة، وقد تقدَّم الكلام فيها وبيان الراجح من الأقوال في سورة البقرة.

﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ يُقسَّمُ الله تعالى بكتابه المجيد، والمجيد من المجد، وهو: الشرف الكامل.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ﴾ والعَجَبُ: إنكارٌ لشيءٍ غير مألوفٍ في العادة، وهؤلاء المشركون عَجِبُوا من أن يُرسل الله إليهم رسولاً منهم، كأَنَّهُم يُريدون مَلَكًا من السماء، وعَجِبُوا أيضًا مما يُنذِرهم به، وهو البعث والحساب بعد البعث.

﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: رجوعهم إلى الحياة بعد موتهم بعيدٌ عن تصوّر عقولهم.
﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: نعلم ما يَنْقُصُ منهم بسبب الموت، ثم يُدفن فتأكله الأرض، فكانت الأرض كأنها هي التي تنقصُ منهم، أي: تأخذ منهم.
﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أمرٌ مضطربٌ.

﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ إشارةٌ إلى قيمتين مُتكاملتين من قِيم الإسلام: الإِتقان، والجمال.
﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ليس فيها من شقوق، بمعنى أنها مُحكمة البناء ومُتقنة.
﴿وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا﴾ بَسَطْنَاهَا لتكون صالحةً للسُّكنى والزراعة والسير ونحو ذلك، والبَسَطُ هذا لا يُنافي كرويتها؛ لأنَّ بَسَطَهَا بقدر حاجة الناس، وهذا ظاهرٌ، أمّا الشكل الكلي للأرض فهو أكبر من أن يُحيط به نظرُ الإنسان المُجرّد.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وجعلنا فيها جبالاً شاهقات، وقد شَبَّه وجود الجبال على الأرض بالأشياء التي تُلقى من فوق من حيث تنأثرها؛ حيث يراها الناظر بلا نسقٍ، بخلاف ما لو قال مثلاً: بنيناها.

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَبْهِجٍ﴾ أي: من كلِّ صنفٍ مُبهجٍ، أي: يُدخل البهجة في نفس الناظر، وهنا إشارةٌ إلى قيمة الابتهاج، وانشراح الصدر، وحسن المنظر.

﴿تَبَصُّرَةً وَذِكْرَى﴾ بمعنى أن هذه الآيات الماثلة في هذا الكون من شأنها أن تُبَصِّرَ الناس بالحقائق والمعارف، وتُذكِّرهم بها فتجعلها حاضرةً أمامهم.

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي: لكلِّ عبدٍ باحثٍ عن الحقِّ وعائدٍ إليه.

﴿مَاءٌ مُبَارَكٌ﴾ هو ماء المطر، وسَمَّاهُ مباركاً؛ لما يحمله من خيرٍ ونعمة.

﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ نَبَّهَ إِلَى نَوْعَيْنِ مِنَ الزَّرْعِ: الْأَشْجَارَ وَمَا فِيهَا مِنْ ظِلَالٍ وَثَمَرٍ، وَالْحَبَّ الَّذِي يُحْصَدُ؛ كَالْبُرِّ، وَالشَّعِيرِ، وَالْأُرْزِ.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أَي: عَالِيَاتٍ مُرْتَفَعَاتٍ، وَخَصَّ النَّخْلَ بِالذِّكْرِ؛ تَنْبِيْهًا لِفَضْلِهَا عَلَى بَاقِي الشَّجَرِ.

﴿لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ وَالطَّلْعُ: أَوَّلُ ظَهْوَرِ الْعَذْوِقِ مِنْ أَكْثَامِهَا، وَالنَّضِيدُ أَي: مَنْضُودٌ بَعْضُهُ مَعَ بَعْضٍ.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ أَي: أَحْيَيْنَا بِهَاءِ الْمَطَرِ أَرْضًا كَانَتْ قَاحِلَةً لَيْسَ فِيهَا زَرْعٌ وَلَا ثَمَرٌ.

﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ تَشْبِيْهُ خُرُوجِ النَّاسِ يَوْمَ الْبَعْثِ بِإِعَادَةِ الْحَيَاةِ لِلأَرْضِ بَعْدَ الْمَطَرِ.

﴿وَأَصْحَابُ الرِّسِّ﴾ قَوْمٌ مِنَ الْأَقْوَامِ الْكَافِرَةِ وَالْمَكْذِبَةِ بِدَعْوَةِ الرِّسْلِ، وَلَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السَّنَةِ الصَّحِيْحَةِ مَا يُبَيِّنُ حَالَهُمْ، فَالْأَوَّلَى أَخَذَ الْعِبْرَةَ الْعَامَّةَ دُونَ الْجَزْمِ بِهَوِيَّتِهِمْ، وَمَعْنَى الرِّسِّ فِي اللُّغَةِ: الْبُئْرُ الْمَطْوِيَّةُ بِالْحِجَارَةِ.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ ؑ، وَأَصْلُ الْأَيْكَةِ الشَّجَرَةُ.

﴿فَحَقَّ وَعِيدٌ﴾ أَي: اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ الَّذِي تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِهِ.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ اسْتَفْهَامٌ بِمَعْنَى اللُّومِ وَالتَّقْرِيعِ، أَي: أَعَجَزْنَا عَنْ خَلْقِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بَلْ اضْطَرَبَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ وَاخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ أَمْرُ الْخَلْقِ الثَّانِي، وَلَوْ فَكَّرُوا فِي وَجُودِهِمْ وَكَيْفِ خَلْقِهِمْ اللَّهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ لَزَالَ عَنْهُمْ خَلَطُهُمْ وَاضْطَرَابُهُمْ. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُرْسَوْنَ بِهِ نَفْسُهُ﴾ فَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ؛ يَعْلَمُ أَقْوَالَهُمُ الْمُعْلَنَةَ، وَوَسَاوِسَهُمُ الْخَفِيَّةَ الَّتِي يُعَادِثُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا.

﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِّنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وَالْوَرِيدُ هُوَ: الشَّرِيَانُ الْغَلِيظُ الْمُمْتَدُّ مَعَ الرِّقْبَةِ، وَقَدْ شَبَّهَهُ بِالْحَبْلِ لِغَلِيظِهِ، وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا الْإِخْبَارِ أَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَقْدَرُ عَلَيْنَا مِنْهَا.

﴿إِذْ يَلْقَى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ وهما الملكان الموكَّلان بكلِّ إنسانٍ، فيتلقَّيان عنه أعماله وأقواله
ويُدَوِّنَانها.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ والرقيبُ: الذي يُراقِبُ، والعَتِيدُ: المُتَهَيِّئُ، وهما
صِفَتان للملكين، تُشْعِرَان بدقَّة الحفظ والتدوين فلا يفوتها شيءٌ.

سُورَةُ قَامَا

من الآية

١٩٥ - ٤٥٠

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝١٢ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝١٣ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝١٤ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ۝١٥ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَقَارِعِينَ ۝١٦ تَتَخَرَّعُونَ يُعْرَبُ ۝١٧ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝١٨ ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝١٩ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝٢٠ مَا يُبْدِلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢١ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝٢٢ وَزُفِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ ۝٢٣ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٢٤ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٢٥ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝٢٦ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٢٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْصٍ ۝٢٨ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٢٩ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝٣٠ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣١ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الْفُجُورِ ۝٣٢ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٣٣ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٣٤ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝٣٥ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۝٣٦ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٣٧ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۝٣٨﴾

وجاءت سكرة الموت بالحق

في الشطر الثاني من هذه السورة الكريمة يعرض القرآن حال هذا الإنسان وهو يتهيأ للرحيل عن هذه الحياة، ويمشي معه في سكراته حتى يُعرض أمام مصيره المحتوم؛ فإمّا ناج بصدقه وإيمانه وحسن عمله، وإمّا هالك بكذبه على نفسه، وكفره بربه، وسوء خلقه وعمله. أولاً: أخبر القرآن عن حتمية الموت وسكراته، رغم كراهة الإنسان له، ومحاولته نسيانه أو التهرب منه ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

ثانياً: أكد القرآن حتمية البعث أيضاً ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ثم يؤكد

هذه الحقيقة الكبيرة في خواتيم السورة ﴿وَأَسْتَعِمْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

ثالثًا: ينقل القرآن مشهدًا من مشاهد ذلك اليوم العصيب؛ حيث يُلقى في النار كل كفار عنيد، وهناك ترتفع خصومتهم فيما بينهم، ويشهد الشهود عليهم، وتستشيط جهنم غيظًا بهم، وتطلب المزيد منهم، وكأنها كائن حي وقد أخذ به الغضب كل مأخذ على هؤلاء المكذبين المتجربين على رب العالمين ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخَصِمُونِ لَدَيَّْ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

رابعًا: ثم ينقل مشهدًا آخر تتجلى فيه رحمة الله بعباده الصالحين وما أعد لهم من كرامة ونعيم دائم مُقيم ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.

خامسًا: يدعو القرآن أولئك المشركين إلى النظر في أسلافهم الأسبقين، وكيف كانت عاقبتهم بعد تكذيبهم للنبيين ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

سادسًا: ثم يدعوهم للنظر في آثار قدرة الله الشاهدة والمحسوسة في هذا الكون ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

سابعًا: ثم يُوجِّه القرآن خطابه إلى نبيِّنا الكريم ﷺ يُوصيه بالصبر، واللجوء إلى الله وحده بالذكر والتسبيح والصلاة ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

ثامناً: يختم القرآن هذه السورة ببيان أن محمداً ﷺ ليس جبّاراً في الأرض، ولا يُمكنه أن يتحكّم بقلوب الناس، وإنما مهمّته حمل هذا القرآن وتلاوته على الناس؛ فمن آمن فلنفسه، ومن ضلّ فعليها ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ بداية الموت، وسُمّيت سكرة؛ لما يصحبها من ذهولٍ شديد، وانشغالٍ عن الواقع، فكأنه السكر الذي يذهب بالعقل.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بموعدها الحق، فلا يتخلف الموت عن أحد.

﴿وَحَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ كلُّ نفسٍ من المتحدّث عنهم - وهم الكافرون -؛ بدلالة الآتي:

﴿مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان؛ أحدهما يسوقها إلى محشرها ويكون وراءها بحيث يراها فلا تفلت عنه، وثانيهما يشهد عليها بما كسبت، ويحتمل أن يكون هذان وصفان للملك واحدٍ فهو يسوقها وهو يشهد عليها.

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: حادٌّ نافذٌ لا يحجبه شيء.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْدٌ﴾ أي: قال الملك الشاهد عليه: هذا ما هو مكتوبٌ عندي عنه مُعدٌّ ومُحضّرٌ.

﴿أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الخطاب للسائق والشهيد على الاحتمال الأوّل أنّهما ملكان، أمّا على الاحتمال الثاني فيكون الخطاب للواحد بصيغة المثني جرّياً على عادة العرب، كما قال امرؤ القيس: (قَفَا نَبْكَ)، والله أعلم.

﴿مُرِيبٌ﴾ شاكٌ في الله وفي كتابه ولقائه.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ هذا قرينه من الإنس أو الجنّ، وهو صاحبه في النار، يتبرأ منه ومن إضلاله لما كانا قرينين في الدنيا.

﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي: لا ينفعكم خصامكم بعد أن جاءكم الرسل وأنذروكم هذا اليوم فكذبتموهم.

﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ القول هنا سُنَّةُ الله في الثواب والعقاب.

﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ تأكيد لعقيدة العدل الإلهي التي لا تتخلف.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ سؤال يُقصد به توبيخ مَنْ بداخلها.

﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ كأنها تتشوف وتشتاق لأهلها من شدة غيظها وغضبها، وهذا قد يكون تشبيهاً لها بحال الكائن الحي الذي يغضب ويغتاظ، وقد يكون على الحقيقة؛ فأحوال الآخرة لا تقاس على الدنيا، ولا يبعد أن يكون هذا جواب خزنتها، والله أعلم.

﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قُرِبَتْ لهم.

﴿أَوَابٍ﴾ كثير التوبة والإنابة إلى الله.

﴿حَفِيطٍ﴾ حافظٌ لحدود الله.

﴿مُنِيبٍ﴾ مُقْبِلٌ على الطاعة.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: فوق ما يشاؤون، وكرمُ الله ليس له حدٌّ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ من أُمَّةٍ وقوم.

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: تحكّموا فيها وفي طُرُقها.

﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ هل كان لهم من مهرب.

﴿أَلَنَى السَّمْعَ﴾ أصغى لسمع الحق.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضرُ القلب يعي ما يسمع.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي ليست من أيامنا؛ لأنَّ

يومنا هو حصيلة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكل كوكب يومه، فكيف

باليوم الذي كان قبل خلق السماوات والأرض؟ فذلك لا يعلمه إلا الله، والمقصود بالإخبار عن تلك الأيام إنما هو التقدير على مراحل، كما هي سُنَّةُ الخلق كله، حتى الجنين في بطن أمه، والبذرة في بطن التربة.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ إعياء وتعب، فالله مُنَزَّهٌ عن ذلك، وفي هذا ردٌّ على قول اليهود: إِنَّ اللَّهَ اسْتَرَاخَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي: سَبِّحِ اللَّهَ وَاحِدَهُ أَوَّلَ النَّهَارِ اسْتِعْدَادًا لِلْعَمَلِ، وَنَهَايَتَهُ اسْتِغْفَارًا عَنِ الزَّلَلِ.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾ في الليل نافلة مطلقة، وخلف كل صلاة ليلية أو نهاريّة، فهذه أربعة أوقات يُستحب فيها التسبيح والتحميد: أَوَّلُ النَّهَارِ، وَآخِرُهُ، وَأَنَاءُ اللَّيْلِ، وَعَقِبَ الصَّلَوَاتِ.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (واستمع) أي: أصغِ لما سنقولُه لك، وفيه تنبيهٌ على خطورة القول الآتي: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ تفسيره ما بعده: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ فالنداء هو: الصيحة

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ يوم البعث.

﴿يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ ليخرجوا منها، وذلك يوم البعث، ويوم الخروج.

﴿سِرَاعًا﴾ جمعٌ سريع.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بِمُسْلَطٍ عَلَيْهِمْ بِقُوتِكَ وَجَبْرُوتِكَ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ إِلَّا التَّبْلِيغُ وَالْبَيَانُ.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ذكّر المؤمنين، وهذا دليلٌ أَنَّ الدَّعْوَةَ لَا تُخَصُّ الْكَافِرِينَ؛ فَالْمُؤْمِنُونَ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّذْكِيرِ أَيْضًا.

تم الجزء الثالث،

ويليه الجزء الرابع

﴿ وأوله سورة الذاريات ﴾